رواية وسقطت حكمت

في ورشة نجارة في العام 1967 كان الراديو المغربي في مدينة طنجة يصدح بإذاعة القرآن الكريم بصوت الشيخ محمد رفعت المصري صاحب الصوت الملائكي.

واسفل الراديو الموضوع على ذلك الرف كأن هناك رجل في الخمسين من عمره غزى الشيب رأسه وقد أمسك بقطعة الصنفرة الخشنة وأخذ في تسوية جميع جوانب الرف الذى يصنعه لتكوين مكتبة صغيرة وإلى جانبه ابنه الأكبر في الرابعة والعشرون من عمره وقد اقبلت ابنته الصغرى ذات التاسعة عشر ربيعًا منذ قليل تحمل اطباق الغداء وقد أغلق ذلك الرجل ابواب الورشة وشرع في الأكل مع ابنائه وأُنس حياته بعد وفاة زوجته منذ عامين غابرين.

ولكن تعلقت الملعقة قبل ان تصل إلى فمه في الهواء وهو يستمع الى ذلك الخبر في نشرة أخبار الظهيرة وقد تجمعت الدموع في عينيه وهو يستمع الى صوت المذيع المُجيد للغه العربيه ينقل ذلك الخبر "أعلن الجنرال فرانكو حاكم إسبانيا حرية الأديان عام 1967، وأعلنت أكثر من 600 عائلة إسبانية عودتها للإسلام عقب تنصيرها بالقوة بعد سقوط الأندلس".

تنبهت حواس ابنائه عاشقي تُراب الاندلس وابتسموا بسعادة وفرح عكسه وقد خلع نظارته الطبية يمسح دموعه قائلاً بصوت متقطع ومتحشرج: يا الله! لا... تعرفون... كيف دفع جدى الأكبر يحيى وجدتي حكمت... ارواحهم ثمنًا لرؤية ذلك اليوم؟!

نظر له ابنه باهتمام وترك قطعة الخبز من يده قائلاً: كيف يا ابتى؟

استند على ركبتيه وهو يقف ثم اتجه إلى ذلك الرف وامسك بالصندوق من جانب الراديو ثم عاد إلى الطاولة الصغيرة واخرج مفتاح قفل الصندوق واخرج منه دفتر قديم قائلاً: سأحكى لكم قصة جدكم وجدتكم يحيى وحكمت لتعرفوا كم عانيا للفوز ببعضهم وحاربوا الدولة والقوانين حتى ينعموا بالحب والسكينة ثم فتح الكتاب وبدا يقرا أول اسطر في المقدمة التي خطتها حكمت بيديها.

في عام 1820 وفى اوروبا التي كانت في حاله من اضطراب العنيف والشديد جراء الحملات البريطانية والفرنسية الاستعمارية التي أخذت تطوف العالم شرقًا وغرباً شمالاً وجنوبًا في صدد تحقيق هدفها الأزلي وهو هدف جميع ملوك الارض منذ خلق الجن وأدم الى نهاية الزمان وقيام الساعة يوم الوقت المعلوم الا وهو امتلاك الارض ومن عليها وقد نسي جميع ملوك الارض السابقين ان الله يرث الارض وما عليها وجميعنا سواسيه امام الله العزيز الحميد والعلى الكبير وفى يومًا لا ينفع فيه ملا ولا حكمًا ولا ولدًا سيندم كل من فرط في لحظة كانت اولى منه بالعبادة والتقرب الى الله زُلفى.

وأنا لا اعد نفسى عليكم وصاية لكن كأخت لكم فقط ناصه وأشدّ مما تعرفه في حياتها هو مرارة الندم ، فصدقًا ولله الصدق ان الفرصة واحده ولا تتكرر والفرحة لحظه والندم عمر .

وعلى كلاً فليس هذا سياق قصتنا الحزينة اليوم بل هناك قصه اخرى واقولها قبل البدا في تلك المغامرة الصغيرة بين ثنايا الاحرف القليلة إن كنت من عشاق الترف والفرح فاذهب ولا تجعل قصه صغيره تنكد عليك هناء عيشتك الطيبة فتلك المرة انا لن احكى قصة البطل والبطلة الذائبين في بحورًا من العشق ولا البطل الكاره للبطلة وفى نهاية المطاف ستأسره ببراءتها بل قصتي اليوم جريئة ومختلفة اكسر بها ركاكة وملل الجو المحيط بين بطل وبطله اختلافهما وتباعدهما أبعد ما يكون بين السماء السابعة والارض السُفلى ودعوني لا اطول الحديث الذى لا طائل منه علكم فصتنا اليوم في بلاد القوت الغربين سابقًا والمسلمين سابقًا والكاثوليك المسيحين حاليًا قصتنا في شبه الجزيرة الإيبيرية وبلاد الوندال قصتنا في بلد ذات اسمين ، فشرقًا تُسمى الاندلس الجنة المفقودة وغربًا تسمى اسبانيا ولنعود للتاريخ المذكور اعلاه في اسبانيا التي سقطت في يد نابليون بونابرت عبر حملاته الاستعمارية والذى اتخذ قرار غير مجرى تاريخ اسبانيا حيث امر بإلغاء محاكم التفتيش التي كانت تعاقب كل من تشك في مذهبه الكاثوليكي سواء كان يهوديًا او مسيحيًا بروتستانتي او أرثوذوكس او أريسي او مسلمً !

وتسومهم سوء العذاب ولم يجد هؤلاء المساكين حلاً من تلك المصيبة سوى اعتناق المذهب المسيحي الكاثوليكي علنيًا وأي مذهب اخر سريًا فلُقبوا بالمورسكين ، او يفرون عبر البحر تجاه الدولة العثمانية او شمال افريقيا من المغرب والجزائر ومصر في مراكب الدولة العثمانية او قراصنة البحر الشُجعان امثال الاخوان بربروسا ويوسف سبارو وغيرهم من الابطال.

والان اظن من ثبت الى الان على اتم الاستعداد في ان يقفز الى سفينتي التي تطوف العالم في بحور الشبكة العنكبوتية ويشحذ سيفه ويسن رمحه للدخول في غمار تلك المغامرة . هيا بنا!

كانت تلك المقدمه لقصة فتاه ذات حظًا عسر . اوقعها نُبلها وشجعاتها فى اسوء كوبيسها الذى حاربت فى معركة قويه لاجتنابه ولكن الامر نافذ لا محاله وهى جوليانا او " حكمت" كما سماها ابويها فحكمت من المروسكين المسلمين فى عائله من اربع افراد وقد رحل والدهم الحداد عن الارض الى قبره منذ خمس سنوات مُخلفًا خلفه حكمت ذات الثانية والعشرون عامًا من عمرها و" اخيلا "او "طارق" صاحب الثالثة عشر سنه وزوجته "اليزبيث "او" خديجه "فى الخامسه والخمسين من عمرها . وكانت تلك العائله البائسه تسكن فى احد احياء مدريد متوسطة الحال تذهب الى الكنيسه كجوليانا واليزبيث واخيلا وفى البيت خديجه وحكمت فقط لا طارق هنا قبل ان يتم الرابعة عشر ويعلم بحقيقة دينة وعائلته ويتمكنون من المهاجرة الى شمال افريقيا ويمارسون شعائرهم الدينيه بكل حرية .

فهذا هو القانون الذى سنته الملك ايزبلا الاولى ملكة قشطاله انه لا يهاجر اى طفل من الاندلس او اسبانيا ما دون الرابعة عشر من الذكور والاثنى عشر من الإناث ومن يقدم على ذلك تتبنى الكنيسه هذا الطفل و فى المقابل تُصادر الدوله جميع ممتلكات تلك العائله ان استطاعت المهاجره و لم تقع فريسه تعيسه فى يد محاكم التفتيش .

والان لقد تطاولت فى الكلام ونسيت ان اخبركم بشكل حكمت . حسنًا هى طويله وتميل للبدانه قليلاً جدًا وعينيها بنيه فاتحه تتناغم مع ضوء الشمس وتعطيكم لون عسلى مميز و بشرتها برونزيه بسمار عربى اصيل او امازيغى المهم انه يصرخ بوراثتها من اجدادها الاصلين وشعرها داكن كقطعه من سماء الليل غير مسترسل ولا مجعد ، اما طارق فهو طويل بعض الشئ بعينين زرقاء وشعر مموج بعض الشيء ويميل للبشره الفاتحه وقد كان نسخه من خديجه لا يختلفان فى اى شئ سوى ان خديجه قصيره بعض الشيء .

وكان العمل فى الحياكة هو سر الشهره فى احياء مدريد المتوسطة فاليزبيث _خديجه _ افضل من يجيد الحياكه فى مدريد وعن تجربة من نُبلاء المدينه بالاضافه الى رعى بعض الاغنام القلائل التى تدر عليهم بعض الحليب والاصواف وحكمت ايضًا قابله وقد ورثت مهنتها عن جدها لابيها .ولكن مهلاً مهلاً ما هذه الضجه القادمه من المطبخ ؟! اوه! ليس ثانيةً يا اخيلا! الوغد الصغير يسرق الحلوى التى اعدتها للتو حكمت .

! وها هي الان تركد خلفه الى حجرة المعيشة صارخه بضيق قائله : اخيلا ايها السارق تعال الى هنا

. وقف اخيلا خلف احد كراسى الطاوله الصغيره وحكمت خلف اخر وقد تكلم باستعطاف : جوليانا ارجوكى قطعه صغيره لن تنهى الطبق

ضربت على احد قمم الكراسي قائله : ولكننا اتفقنا سنأكلها فى المساء عندما تعود من الكنيسة ... ولتعلم هذا من نصيبك ليست زائده عن الحاجة اتفقنا .

.ضيق عينيه و نظر اليها فى ضيق وغيظ قائلاً : لا اعلم كيف اشكر كرم اخلاقك هذا ... بحق الرب من سيتزوج منكى ايتها البخيلة

. احمرت وجنتيها غضبًا وهم بالجرى خلفه قائله فى غضب : ايها الوغد الصغير ساقتلك

هرب طارق _ اخيلا _ من امامها وهى من ورائه حتى اختبئ خلف خديجه _ اليزابيث _ التى خرجت من توها من سرداب البيت بيدها بعض ثمرات البطاطس ووقفت امام حكمت _ جوليانا _ وردعتها عن موقفها قائله فى هدوء : اخيكى الصغير لم يقصد ذلك.

. ثم التفتت الى طارق قائله : هيا يا اخيلا اعتذر من اختك الكبيره

وتخبره ان يعتذر! وأكثر ما يكره ان يعتذر وهو ذو الشان والكبرياء لا يعتذر . وما ان وقف امام حكمت مطاطا الراس احمر العينين من الغضب وقد ابتسمت حكمت فى نصر وسرور وها هو الان على شفا حفرة من الاعتذار لكن انقلب النصر الى هزيمه والسرور الى ضيق عندما جاء اصدقاء اخيلا يطرقون الباب وينادون على اسمه ويهتفون بانه قد تاخر على الكنيسه وستبدا الدروس من غيرهم .

نظر طارق الى حكمت فى شماته ثم فر الى غرفته يبدل ملابسه ويحضر قراطيسه و اقلامه وصليبه ومن خلفه خديجه التى اسود وجهها و هبطت بعض الدموع من عينيها من دون ارادتها مثل كل مره يذهب فيها الى الكنيسه من دون المسجد وقد حذرتها حكمت من هذا الامر من دون فائده حتى لا يشك الصغير فى امرهم و لكن لا حياة لمن تُنادى و بالفعل هذا ما يحدث كل مره و ياتى طارق و يسالها " لماذا تبكى امى دائمًا و انا ذاهب الى الكنيسه؟ " و يكون الجواب الاحمق و الحجه غير المقنعه "هى فقط تشتاق اليك" فى البدايه كان يقتنع ولكن عندما كبر بعض الشىء باتت تلك الحجج غير مقنعه ودائمًا ما يساوره الشك فى هذا البكاء غير المبرر.

أمالت حكمت راسها ونظرت الى خديجه بنظره ذات مغزى معناها اسكتى امى ثم التقطت ايشارب صغير لفتها حول شعرها و كانت تلك من عادات النساء الاوروبيات فى القرون الوسطى قبل ثورة سجمن فرويد الجنسية بعد مئة عام .

فتحت الباب تستقبل ذلك الفيف من اصدقاء اخيلا وقد صاحوا فى نفس واحد ما ان ابتسمت لهم حكمت قائلين : مرحبًا انسه جوليانا كيف حالك ؟ ثم صاح فتى صغير يُدعى هكتور قائلاً بلهفه : اشتم رائحة الحلوى انسه جوليانا هل لى بقطعه .

ابتسمت حكمت و رحبت بهم وادخلتهم الى البيت قائله فى ود : بالطبع سيد هكتور والجميع سياكل منها .

صفق الاطفال بحماس وألقوا التحيه على خديجه التى بدورها ابتسمت وبادلتهم التحيه وقد خرج طارق حتى صاح فيه احد اصدقائه ويُدعى مارك قائلاً : يا رجل هيا سنتاخر .

ارتدى اخيلا حقيبته وأخذ قطعه من طبق الحلوى الذى فرقت منه حكمت عليهم ثم رحل معهم خارج البيت وهى تتابعه بالتلويح والأدعية بالعوده سالمًا ثم اغلقت الباب.

وما ان اغلقت الباب حتى انفجرت خديجه فى بكاء مرير وأجهشت بقوة وهى تخفى وجهها بين كفيها وقد رق قلب حكمت و تمزقت نياطه و هى تشعر بمثل تلك النار والحُرقه التى تنهش فى قلبها وهم مكبلون الايدى مكممون الافواه مغمضون الاعين مسلوبة حريتهم محرومه حقيقتهم من الظهور و العلانيه محرومون من العيش مثل اى شخص فى العالم يمارس شعائره الدينيه بكل حريه ويعيش حر من دون قيود حتى ولو كانت من ذهب .

جلست حكمت على رُكبتيها امامها و امسكت كفيها وابعدتهم عن وجهها و نظرت الى عينيها قائله فى هدوء وعقلانيه : امى بحق الله لا تبكى انا اشعر باضعاف ما تشعرين به لكن البكاء لن يفيد لن يغير من الامر الواقع شيءً ... .

مسحت خديجه عينيها الحمراوتين قائله بقهر : وكيف لا ابكى ابنى و ليس ملكى حتى يتم العاشره وحتى وإن تم هل سيقبل بما سيسمعه من حقيقه ... انظرى لحالنا ... نخفى المصحف فى جُدران البيت ... نصلى فى سرداب المنزل وفى الخفاء ... لا يمكننا الوضوء الا مره واحده حتى لا نسرف فى استعمال الماء ... لا نصوم رمضان بحريه وإنما خلسه ... لا نحتفل بالعيد ... لا نرتدى حجاب كامل ... لا

نقف تجاه القبله ... وأنتِ لا يمكنك اخبار احد بآنكي تُجيدين الكتابه و القرائه إلا واتُهمتى بالهرطقة وفى جميع الاحوال نحن ميتون ... اخبرينى كيف لا ابكى .

لثمت حكمت يديها قائله وقد تحجرت الدموع فى عينيها : حسبك يا امى ... والله ان الله محدث فرجًا ... ان الله لن يضيعًا لست انا من ساخبرك بذلك !!... ... لا تبكى ارجوكى ... ولا نفعل الشيء الوحدي المسموح به ... نذهب لشراء الخيط و للعمل .

وفى احد الكنائس بالعاصمه مدريد دخل الدوق حنا واخيه الاكبر بلايو الى الكنيسة للحاق بالصلاة قبل ان تبدا وكان الامر طبيعي بالنسبة ل "بلايو" اما حنا فليست من عاداته التردد على الكنيسة فيكفيه انه جندي من جنود الكنيسة ومن رؤساء الشرطي وأحد اهم اعمدة حفظ السلام فى مدريد وقد على شانه بالأخص بعد جهوده فى صد الجنود الفرنسيين وتخفيف سطوتهم عن مدريد.

ولكن هذا ليس مهم الان المهم الان هو أن جوليانا قادمه اليوم الى الكنيسة ولا احد يعلم كيف يخفق قلبه عندما فقط يشم انفع عطرها غير الفواح ولكن فى انفه رادار يلتقطه ولو على بعد الف الف فرسخ ، وما بلكم ان التقطت عينيه صورة فتوغرافية لوجهها الفريد من نوعه وجهها الخمري المشرب بحمرة الخجل الدائمة وعينيها الواسعة تلك وبالرغم من بساطة ملابسه التى تنتمى لطبقه الفلاحين الا انها اجمل فلاحة فى عينيه .

وقد تعرف عليها منذ قرابة العام عندما كانت فى قصره وكانت والدته تشترى منها بعض الثياب و المفروشات للأرضية و منذ تلك اللحظه لم ولن تخرج من راسه ابدًا _بالمناسبه هذه ليست المره الاولى التى تعرف فيها على حكمت خمنوا أنتم لأن الحقيقة الى الآن غير كامله _وكلما سنحت له الفرصه راقبها من دون ان تراه أو ذهب الى الكنيسة بحجة الصلاه وهو بالأصل يذهب لاختلاس بعض النظرات اليها.

وها هو الان دخل الكنيسة وعليه ردائه الاحمر من الفرو الفاخر وسيفه المزين غمده بالجواهر والذهب ورائحه عطره الفواح ومن خلفه بلايو الذى فاق حنا فى زيه ومشيته وخيلاء اخيه، وكيف لا وبلايو لا يرقى لان يلبس شئ اقل من من هم حوله حتى لو كان اخيه هو وحده يجب ان يكون أعلى من الجميع.

وأول ما نظر اليه حنا هو جوليانا التى ما أن ألتقت أعينهم حتى أخفضت رأسها فى خجل و قد أرتفع شاربه ولحيته ليدل على أنه أبتسم من دون اراده ولم تغادر زرقاوتيه جلستها حتى بعد ان بداءة الصلوات لا يزال يراها ولحظه العسر امحته خديجه التى نظرت له بنظره ناريه وبدلت جلستها بعيداً مع حكمت حتى تُخفيها عن عينيه وها هى الان تحرمه من متعته فى الدنيا وتقف حائل بينهم ولكن لا يعلم هذا الحنا أن هناك حائل اكبر وأعظم من مجرد خديجه !

ويا ليت أعين خديجه فقط من كانت تراقبهم بل هناك زوجين من الاعين الغائرة بين عظام وثنايا جلد الوجه لأمره تُدعى كاترينا تعمل بالخياطه والحياكة هى الأخرى و لكن اقل شهره ومهاره من خديجه وقد كانت تكن لها العداء والغيره هى وابنائها و تنتظر اللحظه المناسبه التى ستنهى فيها مملكتها الصغيرها و تكسر انفها الشامخ وتنزع محبتها من بين قلوب العامه سواها !!

انتهت الصلوات وانتهت معها نظرات المُختلس حنا وقد ذهبت حكمت وخديجه الى احد دكاكين بيع الخيوط ومستلزمات الحياكة والتطريز ومن خلفهم اخيلا وبعض اصدقائه الذين يسكنون بجانبه وقرروا اللعب معه فى الطريق حتى الوصول الى منزلهم ومن خلف كل هؤلاء حنا وقد تخلف عنه بلايو وجلس فى الكنيسه قليلاً .

وقفت خديجه تنتقى الوان الخيوط وتُفاصل فى اسعارها مع البائع و من خلفها حكمت قد وقفت على عتبة الباب ووضعت يديها فقى جيب فستانها الاسبانى الابيض ذو الكشكشه من عند الصدر وواسع من الاسفل وخلط ما بين اللون الاحمر و الزرق وأخذت فى العبث بحصى الارض بطرف حذائها ومن خلفها اخيلا وزملائه والان انضم اليها حنا الذى وقف امامها ومن دون اراده نظرت له بعينيها التى لمعت مع ضوء الشمس الذى وبللت شفتيها قائله فى توتور بعض الشئ : خير دوق حنا ؟

آه من حنا تلك التى تعتبر اطرب واشجى ما سمعه وكان اسمه صار عسلاً صافيًا يأكله بأذنه وقلبه .

حك حنا لحينه الكثيفة تلك بيده اليمنى قائلاً : اسف على ازعاجك لكن امى قد اخذت منكم قبل عام سجاده وكنزه شتويه وأنتِ ترين الجو متقلب وقد اقبل الشتاء فتحتاج الى بعض الملابس وأخبرتني ان اخبركم بها ... وعرس ايفا على الأبواب فتحتاج إلى تفصيل الفستان وبعض الأغراض.

حاولت ان لا تظهر الشك فى أفعاله وقد كانت تلك اسخف حجه سمعتها حتى يراها إلى الآن وانه بقدرة ومنزلته وعظمته يعطها ورقه كان من الممكن ان تخبرها بها اى خادمه من القصر لكن هزت راسها بنعم قائله فى هدوء : انا تحت امر السنيورة مارلين ماذا تحتاج؟

أشار لها بأصبعه بمعنى لحظة ثم عبث فى جيب ردائه ثم اخرج ورقه صغيره قائلاً وهو يمد يده بها : قد كتبت ما تحتاك هنا دعى اخيلا يقراها وإذا سمحتى ستمر عليكم العربه بعد اسبوع وتقلكم الى منزلنا .

التقطت الورقه من بين اصابعه قائله وقد احمرت حتى اذنيها : لا داعى لهذا يمكننا المجيئ من دون عربه .

امسك يدها متعمدًا قائلاً فى اصرار : ارجوكى انا مصر و كما تعلمين البيت فى اقاصى المدينه.

ثم سحبت يدها بسرعه و قد ازداد خجلها بشده وهزت راسها بنعم ولم تلقى حتى التحية عليه بل فرت الى داخل الدكان هاربه من نظراته الى امها التى اخذت فى محاسبة التاجر وما ان رائت ابنتها ونظرت الى حنا حتى فهمت انه وراء حالة الخجل تلك .

وبمنتهى التبجح حياها ثم اتجه الى عربته التى تجرها الخيول . ومن داخل خديجه كانت تتوعد الى هذا حنا بالوف تهديد و وعيد لانه تجرا و اقترب من صغيرتها ولكن ما تعلمه المسكينه ان لا يوجد ايًا من تهديداتها تلك ستتحقق على ارض الواقع .

حول مائده صغيره فى المساء جلست الأسرة الصغيرة حول المائدة وقد شرعت فى تناول الطعام بعد يوم حافل ملئ بالأعمال الكثيرة وقد جمعت حكمت كم ليس بالقليل من الاعمال التى ستسلمها خلال الاسبوع المقبل وكان اشد ما يُقلقها هو الذهاب الى عرين الاسد وجحر الافعى وهو بيت الدوق حنا ابن احد اكبر رؤساء محاكم التفتيش سابقًا وهى التى تخفى ما يودى بحياتها وحياة من تحب ستذهب اليهم خلال الاسبوع المقبل وعقلها يصور افكار بشعه للغاية . ماذا ان انكشف امرهم ؟! ماذا ان اعترفت امها ؟! ماذا سيحل بطارق و بهم ؟ ماذا سيكون الحكم عليهم ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ولكن بمقص من فولاذ قطع اخيلا افكارها وسكب عليها دلو من ماء بارد عندما تسال بخبث قائلاً وعينيه تلمع بالمكر : جوليانا هل ستتزوجين من الدوق حنا ؟

شهقت بفزع وأخذت فى السُعال بشده وقد انحشر الطعام فى حلقها واضف على هذا شعورها بالخجل والغضب يلم بها من كل جانب وقد اشفقت عليها خديجه وأخذت فى اعطائها الماء والضرب بخفه على ظهرها وألتفتت الى طارق قائله فى غضب وقد احمر وجهها لاذنها : اخيلا تادب هل جُننت مالنا ومال حنا هذا ... اقسم ان تحدثت فى هذا الامر سأضربك وستكون تلك اول مره اضربك فيها .

!ضرب طارق على الطاولة فى ضيق ووقف قائلاً :وماذا قُلت انه .... !!!!!

لم يكن اخيلا فقط من صرخ بل الجميع صرخ من صوت اطلاق النار من البنادق العسكرية و قد كانت البنادق آن ذاك من احدث الأسلحة في هذا الزمان والأوان .

هبت كلاً من خديجه وحكمت فى اطفاء الشموع وشد الستائر على النوافذ و دخلات خديجه ودخل طارق معها الى السرداب اما جوليانا اخذت فى استراق النظر من خلف الستار وقد كان كما توقعت اشتباك بين الجنود الفرنسيين و الاسبانيين اودى بسقوط قتليين من الطرفين وحدوث كر وفر فى الشارع من قبل المدنين .

زفرت حكمت فى ضيق وجلست على الطاوله مره اخرى ثم تسللت يدها الى ورقه الصقتها بقوه فى الطاوله من اسفل وسحبتها فى هدوء وقد كانتتقويم لحساب ايام السنه وما تبقى حتى ينفذوا من هذا الجحيم ويذهب هذا الكبوس ولكن يا حكمت هل حقاً ستهربين وتنجين من !!!هذا الجحيم المستعر ؟

ثم اخفت الورقه سريعًا فى داخل ملابسها عندما دُق باب البيت من قبل مجهول من ما جعل من وجهها شاحب بشده وقد بردت اطرافها وأرتعشت وتفصد جبينها عرقًا وخرج من السرداب كلاً من خديجه وطارق على اثر تلك الطرقات وحالهم لا يقل رعبًا عنها. فضلت .الصمت حتى يمل الطارق ولكن لا فائدة

وقفت وأقتربت من الباب بخطوات مضربه ودنت باذنها من الباب حتى تسمع صوت الطارق وأخيرًا زفرة انفاسه براحه وهدأت بعض . الشيء عندما افصح الطارق عن هويته قائلاً: سيده اليزبيث هذا انا العم جورج ومعى زوجتى الينور وجورجيوس

همست باسمه من بين شفتيها المرتعشه بامل كالذى تمسك بدرع من حديد وفولاذ يحميه من ضربات السيوف ووابل الالم. ولما لا تامل الخير وجورج هو شيخهم محمد وزوجته فاطمه وابنه اسلم ذى الخمسة عشر عامًا هم اولياء امورهم ومن يشرف على عباداتهم وهروبهم . و تنظيم شؤونهم فى هذه البلاد الموحشه

دارت شعرها بالوشاح الاسود ثم فتحت الباب وأدخلتهم سريعًا قائله بقلق: عم جورج خاله الينور هل انتم بخير؟

هز جورج راسه الاشيب بنعم وخلع نعليه ومن خلفه زوجته التى تحدثت بهدوء قائله: بخير ابنتى الحمد لله نحن كنا عائدون الى البيت !لكن استوقفنا هذا الطلق النارى ... فاوجسنا خيفة عليكم . هل انتم بخير ؟

هزت راسها بنعم وادخلتهم غرفة المعيشه ومن خلفها اخيلا واليزبيث التى جلست على الكرسى المقابل للاريكه وقد رحبت بهم ثم اشارت الى حكمت واخيلا ومن بعدهم " جورجيوس" أو اسلم ابن العم جورج قائله : اذهبا مع جوليانا واحضروا بعض الكعك والشاى هيا انطلقوا .

فهمت حكمت ان خديجه تريد التحدث مع جورج على انفراد ومع زوجته ثم اتجهت الى المطبخ مع اسلم وطارق وقد شرع طارق فى اللعب مع الم بالسيوف الخشبيه وقد ارتدوا قبعات من الورق وأخذوا فى التصارع ومن خلفهم حكمت التى كانت تنظر الى براد الشاى الذى بدا فى الغليان بشرود تام ولم يلتقى جفنيها لثوانى وهى تعود بذاكرتها الى الوراء لعام مضى وتتذكر تلك الليله التى احدثت ضجه فى حياتها هى بغنى عنها .

الفصل الثانى

قبل ستة اشهر من الان فى العام 1820 وفى صباح أحد ايام الشتاء القارص فى الفردوس المفقودة عادت الاسرة الصغيرة من أحد .اسواق مدريد المزدحمة بالإسبان ولفيف من الجنود الفرنسين بعد ان اشترى كلاً منهم ما يحتاجه ويحتاج البيت

وقد كانت حكمت تلاعب طارق آن ذاك وهو يحمل بعض الحقائب وحكمت بيدها سله من القش متوسطة الحجم وضعت بها بعض الاعشاب والعطارة الخاصة بالوصفات الطبية التى تصنعها وتقتات على ما تدُرها عليها وعلى أسرتها من اموال .

وإلى جانبهم خديجه التي ضيقت جفونها في تشكيك بصحة بصرها حول هوية الواقف امام باب بيتها ، ولكن لا بصرها سليم بعد ان صاح طارق وهو يشير الى باب البيت قائلاً بحماس : أمي هذا اثانيوس .

هزت راسها بنعم وقد دُهشت بشدة وأخذت فى تبادل الانظار مع حكمت في دهشه وحيرة من الأمر وتلك أول مره يأتي فيها ابن اخيها اثانيوس -" عثمان" -الى بيتها من اقصى الجنوب من غرناطة الى قلب اسبانيا مدريد مع العلم أن اثانيوس ليس بالغلام أو الصبى بل شاب في الثلاثين من عمره ولديه ثلاثة اطفال لكن الطريق بعيدة ووعرة في ظروف الاحتلال تلك .

وقد فضلت خديجه الاخذ به الى داخل البيت أفضل وهى تشعر أن الجميع يحملق في هذا الغريب عليهم وقد دخلوا جميعًا و افرغوا ما بيدهم وهى نظره واحده في عيونهم الدهشة والريبة !

ولكن اثانيوس ليس على ما يرام قد يكون اجهاد السفر ولكن وجهه مسود وتظهر عليه أثار العصبية نتيجة ضيق ما في صدره . وعلى العكس تمامًا من شخصيته المرحة المعتادة فقد اقبل على عمته و صافحها بهدوء و كذلك حكمت و طارق .

.وما ان فرغ حتى نظرت له اليزبيث فى شك قائله : ما الامر هل الجميع بخير هل ابوك بخير؟ لا تثر ريبتي

. طأطأ اثانيوس راسه وهزها بنفى قائلاً بأسف : لا عمتى ... ابى بخير ... لكن جدى فى السماء

!لطمت خديجه _اليزبيث _ صدرها بعنف وصرخت بقوة قائله فى نواح عالٍ مقهور : ابى ...ابى مات ... منذ متى ... وكيف؟

ثم جلست على اقرب كرسي وأخذت فى البكاء بقهر و حرقه وهى على كلمة واحده : ابى ... لقد كنت اريد رايته ... لما لم ينتظر ... !لما رحل وتركني ... ابى؟

وقد نظر اثانيوس لها بشفقه ولحكمت _جوليانا _ و طارق _ اخيلا_ فى خجل من هذا الجو السلبى الذى نشرة فى البيت ولكن الموت حقًا مكروة ولا بد منه حتى ولو طال الزمن سيأتي سيأتي لا محال .

جلست حكمت على ركبتيها وأخذت راس خديجه الى صدرها وأخذت فى ترويح عنها وكفكفت دموعها و بطت على ظهرها فى مواساه هادئه حتى لا تمرض من الانفعال والحزن وقد أقبل عثمان وبيده كوب من عصير الليمون وبه عشبة العُصفر ليُزيل عنها التوتر والهلع . ومن خلفهم طارق الذى اغلق النوافذ وشد الستائر بأمر من حكمت حتى لا ياتى احد الجيران اليهم وهى فى تلك الحالة لبائسه

وبشق الانفس وصعوبة بالغه قبلت أن ترتشف العصير وعلى مدار اكثر من ساعة وهى تشعر بان كل رشفه كالعلقم المرير فى حلقها وما أن انتهت حتى تحدثت حكمت بهدوء قائله وهى تمسك بكفيها وما تزال على ركبتيها امامها وعلى شفتيها ابتسامه مشجعه : أمى أمر . من الرب ونفذ ليس بيدنا شئ الان أهدئى واسمعى ما يريد اثانيوس قوله

ثم اتجهت الى كرسى بجوارها وقد هزت خديجه راسها التى يعصف بها الدوار بصعوبه ورفعت عينيها ذات الجفان المتثاقله ونظرت الى اثانيوس الذى تحدث بهدوء قائلاً : ليلة امس غادر جدى الى السماء ولم يدفن بعد... برغبه منه أن يدفن فى وجودك ووجود ابى و عمى الفريد ... وما ان تنتهى مراسم الجنازه ... جدى وكل لابى امر تقسيم اراضيه وميراثه بعد وفاته بأسبوع فوجودك مهم فى غرناطه . الامر لن ياخذ سوى اسبوعين على الاقل ... وستاتين معى وقد اجرت لكى ركوبًا تنتظر فى أى وقت

قلبت الامر فى راسها ولكنها لا تأمن على ترك طارق الصغير وحده مع حكمت اسبوعين وفى نفس الوقت اعملها تحتاج الى ان تُسلم فى معادها وظروف الحرب تلك تجعلها لا تأمن على سفر حكمت فى هذه الاجواء ولكن ماذا تفعل الان وكل الامور تتعقد وتتشابك ؟ مسحت علة جبهتها براحة يدها قائله فى تعب : انا أوكل ابيك والفريد عنى ألا يمكننى قضاء العزاء والعودة لمدريد لا يمكنني ترك اخيلا هنا وحده ولا يمكنني استحطاب حكمت والجنود تملئ حدود المدن . وهناك بعد الاعمال التى ستُسلم غدًا... هل تفهمنى ؟

. هز اثانيوس راسه بنعم واستطرد قائلاً : الحق كله معكى لكن هذه وصية جدى ولن تنفذ من دونك الامر متوقف كله عليكى

زفرت خديجه فى ضيق وأغمضت عينيها بإرهاق وأخذت حكمت تلاعب اصابعها فى توتر وهى تحاول إيجاد حل ولكن عجزت عن . التفكير فى حل مرضى لجميع الاطراف وقد اثقلت وجنتها اليمنى على راحت يدها اليمنى فى ياس من ايجاد حل

ولكن خرج شعاع نور وأمل من اصغرهم عندما تحدث طارق بحماس قائلاً : اذهب مع امى واثانيوس وجوليانا تظل فى المنزل وتعمل .

ابتسم اثانيوس و صفق بحماس قائلاً : لما لم نفكر فى ذلك ... نذهب الى غرناطه وجوليانا تظل هنا تسلم الاعمال عنكى وتبقى فى مأمن هنا وإن احتاجت شئ بيت العم جورج موجود، لا يبعد كثيرًا عنها والجيران هنا كلهم يعرفونكم ولن تكون ازمه، ما رايكم؟

.أمالت حكمت راسها ونظرت الى خديجه قائله : ليس لدى اى مشكله فى هذا ... ما رايك يا امي

الآن أمك ليس لديها حل اخر ولا مجال للرفض ستوافق بالتأكيد و هى ترى تلك النظره المتأملة و الراجية من الجميع تحثها على الموافقه مرغمه وهزت راسها على مضد قائله : فقط اسبوعين لا اكثر .

زفر الجميع براحه وهدوء وأمسك عثمان براس طارق تحت ابطه وبدأ باللعب فى شعره قائلاً بمرح : انقذتنا يا عبقري .

عند شروق الشمس الذهبيه على سماء شبه الجزيرة الايبيريا استيقظت ذات الشخصيه المزدوجه فى وقتها كالعادة و اخذت فى حك شعرها الكثيف بنعاس غالب وهى تنظر حولها الى الغرفه والنافذة بنعاس وما كادت تنظر للستائر التى تتراقص بفعل الهواء حتى هرب النعاس وأفاقت وتوسعت حدقتيها وهى تتذكر كم الاعمال التى يجب ان تقوم بها اليوم نيابة عن أمها.

وقد هبت من سريرها على عجله من امرها وقد خرجت ترتب الاعمال كما اخبرتها امها وفهمتها وبدأت فى إعداد البيت لاستقبال الضيوف والمشترين وأخذت فى تغير ماء الغنم ووضع الطعام ومن ثم العمل على تلك الوصفات الطبيه المطلوبه منها ومن ثم اذ فجاةً بدأ الوافدون بالقدوم ولم ينفك أحد يستلم اغراضه حتى يسال عن خديجه تحكى نفس القصه لقرابة عشرة نساء وتجاوب على اسئلتهم المتشابهه وتقبل العزاء والدعاء للمتوفى بالراحة والمغفرة والرحمة ولها بالزوج الصالح وتضايف الجميع ومن تريد تعديل على ملابسها تحفظ تلك التعديلات ومنهم من لم تحضر وعليها أستقبالهن فى اليوم التالى فى نهايه اليوم عند غروب الشمس تذكرت انها لم تعد لنفسها طعام وقد تهاوت على الكرسى تنظر الى هذا الفراغ من حولها وكادت ان تبكى لا تعلم هل بسبب لتعب أم أنها اشتاقت إلى أمها وأخيها، أم لأنها قدرت مدى تعب أمها و أثرها على حياتها، أم لأن هذا اليوم المُتعب سيتكرر غدًا.

" بحق لا تعلم وكل ما قالته بعد ان استردت وعيها من تلك الدوامه " أريد أمى .

آهً على مدريد و مجدها الفاني!

وقد كانت "مجريط " كما سماها مسلموا الأندلس والعرب وهى مجرى الماء او مجرى الجليد اذا نظرت اليها ترى مجد امة ذهب وتناثر كتناثر الرماد فى ريحًا يوم لم تقم فيه صلاة الفجر فى بلاد الأندلس ... يومًا يتباكى عليه الشعراء والفنانون والمسلمون فى كل يوم ومن كل حدبًا وصوبًا فها هو أحمد شوقي ينعى الفردوس المفقود قائلاً: يا ارض اندلس الخضراء حينا اضعناكى فى زمن شقاوتنا .

و لسان الدين بن الخطيب العلامة و الفقية ينعى فقدانه لأندلسه ويناجى ربه السميع بكل المًا وحرقه قائلاً : فاعيدوا عهد انسًا قد مضى تعتقوا عبدكم من كربه .

وكيف لا وهناك اعينًا تسير فى الليل ترقب كل شئ فى المدين على فرسًا تتفتل فى احياء الجميله مدريد وها هى مرت من جانب كاتدرائية المُدينه وقد كان مسجد المُدينه ، وحديقة الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط بانى مجريط ولو انهم أخذوني على فرسًا معهم لكحلت عيني بنظرة الى جمال بلاد ايبيريا !

وقد كسر على تلك اللحظة من الشجن التى أصابتنى وأصابت جدران المدينه الفاقدة لمجدها الغابر صوت همس فى هدوء " الزى العسكري لائق بك يا حنا ... اصبحت دوق بحق يا حافظ الامن ... لا ينقصك سوى العروس كما تقول امى " تفوه بتلك الكلمات بلايو اخو حنا الاكبر و قد كانا فى نزهه على خيولهم يتجولون فى احياء مدريد المتطرفه والبعيدة عن الاعين بعض الشئ ومن خلفهم حارس واحد للحمايه فقد كان هذا ترحيب صغير بحنا الذى عاد من الشمال بعد أن قضى على العصيان وأستتب الامن على يديه هناك ونال مرتبه عاليه من الملك والدولة و الكنيسة أيضًا ولله الحق قد أستحق هذا بجداره لما يقدمه من أعمال باسله .

لكن هذا الباسل مرهق بحق ويقلقه توغل الفرنس فى مدريد وفرد سطوتهم عليها .

ابتسم حنا فى هدوء قائلاً : شكرًا ... كم اتمنى ان اراك فى صفوف الجنود معنا ... ومع عروسك قبلى .

امال بلايو راسه ورفع يده باستسلام قائلاً : انا رجل سياسه لا حرب يكفينى هذا لا طاقة لى بالحرب ... الحرب خدعة سيئة للغايه ... ويكفينى ما اناله من الزواج وهمه ما احمل واطيق .

ضحك حنا فى سخريه ووكز رأس فرسه بخيله قائلاً : لو سمعك احد الجنود او بابا الكنيسه سنرى راسك يحلق غدًا فى سماء مدريد .

نظر له بلايو شرزًا قائلاً فى مرح خشن : راسك قبل راسى يا وغد ... هيا ارينى قوة خيلك .

ثم فر من امام حنا هاربًا بخيله ومن خلفه حنا الذى يلاحقه بسرعه وتارة يسبقه بلايو وتاره هو وضحكاتهم تتعالى بمرح وصخب وسعادة حتى وصلا الى نقطة ما وقد كان الفائز بلايو وقد ضاق منه حنا الذى صاح فى حنق : انت تغش ... لقد كنت اسبقك بكثير .

ابتسم بلايو فى غلظة و كبر وشماته ثم نظر اليه بفخر قائلاً : انها السياسة ... تركت لك وقتًا حتى يتعب فرسك و يُنهك وما ان تعرق وتعب حتى صب فرسى كل قوته يا رجل الحرب .

وضع حنا يده على صدرة قائلاً بفخر : اذًا قصر الجواد لا الفارس .

فى مساء احد الايام فى مريد وقد اشتد الليل وثقلت الجفان بالنعاس وبات الجميع فى هدوء وامتلأت السرائر بأهلها بمن شق عليهم عمل النهار وجد الظهيره و برد الليل الا جفنى حكمت فقد كانا على وسعهم ولم يغمرهم النوم للحظه وهى فى سرداب البيت تؤدى صلوات اليوم مجمعه خشيه من ان يراها احد و تلقى حدفها . وما ان انتهت حتى نظرت الى اعلى و كانها فى عالم اخر فسيح و ترفع يديها الى السماء تناجى الله بالخلاص والحرية التى تتمناها وتحلم فقط بها وبأن يعجل الله بفرجه عليها وعلى اسرتها وأن يأتى اليوم الذين سيهربون فيه من بين فكى محاكم التفتيش وأغلال الخوف و اصفاد المكر المحيط بهم من كل مكان .

مسحت دموعها ما ان فرغت من دعائها وعدلت حجابه بحيث يشابه غطاء الشعر المشابه لنساء اسبانيا وخرجت من السرداب وهى متوجهه الى مضجعها حتى استوقفها طرق على الباب الخلفى المواجه للحظيره الصغيرة وقد كان طرق بشع لا يُصف من شدته وبالتاكيد لا نحتاج لاستنتاج قد دب الرعب فى اوصالها و مازاد الطين بله ان الطارق اخذ فى استعطافها قائلاً بهلع : ارجوكم معى مصاب سيموت . افتحوا الباب

لطمت حكمت على وجنتيها وأخذت تدور حول نفسها فى توتر والطرق يشتد وكان الذى يطرق مُتيقن من ان احدًا ما فى البيت وما جعلها تحسم امرها الصراخ الذى بدأ فى التعالى عندما صاح الطارق بهلع قائلاً : ارجوكم اخى سيموت ارجوكم انقذوه ولكم ما تريدون . فقط انقذوه

زفرت بهدوء وقوة ثم حزمت امرها وفتحت الباب ويااليتها لم تفتحه ، اذا برجلين احدهم فى الثلاثين من عمره وهو المصاب والأخر فى الخمسين من عمره وقد بدا الشيب يخط راسه وكانا يحملان فوق رؤسهما شعر كثيف بنى اللون و لحيه مثلها والمصاب يبدو أصغر سنًا من حامله وقد كان الاول يرتدى زي عسكرى ومن رتبه عاليه والأخر يرتدى ملابس فخمه من ملابس النبلاء ولكن ملوثه بالدماء وكذلك وجوههم مخبضه بالدماء والكدمات البنفسجية وبالتأكيد كانا فى حرب و ما تراه الان اقل الخسائر وفى خصر الحامل سيف فى غمدة مرصع باحجار كريمه .

افسحت الطريق وقد ساعدته على حمل المصاب الى أقرب غرفه وهى غرفة اخيلا ومددوه على السرير.

هرولت تحضر شموع تملا بها الغرفه المظلمه حتى ترى الجرح وقد بدأت فى تحسس الجرح الواقع فى بطنه ولم يكن عميقًا لكنه فقد الكثير من الدماء وكان غائبًا عن الوعى .

ألتفتت الى هذا الواقف قائله فى هلع : من انتم وماذا حدث ؟ انا لا أريد أى مشاكل .

. امسك بيدها باستعطاف قائلاً برجاء : ارجوكى انقذيه وساخبرك بكل شئ فقط انقذى اخى

سحبت يدها من يده وهرولت الى المطبخ تسخن قدر من الماء وعقمت سكين فى الماء الساخن وأخذت القهوه الجافه المطحونه وذهبت الى غرفتها تحضر قطن نظيف ثم عادت الى الغرفه وأزاحت من طريقه هذا الرجل الذى يجلس على ركبته امام المصاب قائله فى نفاذ . صبر : ابتعد هيا ... وأحضر الماء الساخن ووابور النارو‌السكين بسرعه هيا

أمتثل الى امرها بالفعل وهرول يحضر ما امرت به وقد كانت توقف النزيف بالبن الجاف وتمسح الدماء حتى يتبين حجم الجرح وهو يقف بتوتر فى الزاويه يكاد يبكى مثل الاطفال خوفًا على اخيه وهو يتابعها والوقت ينقضى حتى قامت بكى الجرح بالنار حتى التحم جرحه اخيرًا وأخذت فى لفلفة الجرح وتضميده وما أن انتهت حتى زفرت بهدوء ثم باشرت العمل على ندبات وجروح وجهه حتى .داوتها

ثم همت بالخروج من الغرفه الصغيره بارجل مرتعشه متثاقله وقد تلوثت ثيابها بالدماء وجلست على أقرب كرسى بتثاقل وارهاق وهى لاول مره توضع فى مثل تلك التجربه التى اثبتت فيها انها ذات جسارة هى لم تتخيلها ، ولكن الوقت ليس للفخر أو الجساره بل وقت . الاستفسار والفهم

رفعت راسها ونظرت الى هذا الرجل الذى جلس على اقرب كرسى هو الاخر وقد سالته فى حزم وسائم : من انتم ؟

مسح الرجل وجهه بكفه فى محاوله بأسه للصمود و الهدوء قائلاً : نحن من... من جنود الكنيسة

الفصل الثالث

رمشت حكمت بأهدابها الكثيفة عدت مرات و قد شعرت ببروده تسرى فى قدميها وقد هربت الدماء من عروقها ولوهله شعرت انها .أُصيبت بداء السكرى بسبب هذا الجفاف فى حلقها وكأنها لم تشرب الماء منذ عام وحالة الدوار التى عصفت برأسها بشده

. ولا اريد أن أخبركم كم هى شخصيه متوتره إذا سقطت فى أى مأذق انتهى الامر بالنسبه لها وكأنها نهاية العالم

لكن الآن لا يجب ان تثير الشكوك أو تلفت نظر هذا الجندى حولها يجب أن تتصرف بهدوء وثبات كما اخبرتها امها منذ ان كانت فى . الثانية عشر الحذر الحذر والثبات الثبات

. بللت شفتيها البيضاء تلك قائله فى صوت جاهدت حتى يخرج منها : أكمل من فضلك

مسح هذا الرجل جبهته ابرهاق قائلاً : انا بلايو احد مستشارين الدوله واخى حنا صاحب الشرطه فى مدريد ... وأبى كان أحد كبار جنود الكنيسه ... منذ قليل كنا نسير فى اطراف المدينه بالقرب من هنا واشتبكنا مع بعض الفرنسين وطرقنا على باب امرأه طاعنه فى السن . هى من دلتنا عليكى انكى القابلة جوليانا ومن ستساعدينا

. ثم تابع بنبرة استعطاف ورجاء قائلا: ارجوكى اهتمى به ولكى ما تريدين وأى مبلغ ... فقط دعيه يتعافى كرامة للعذراء

. هزت راسها نافيه قائله : لا أريد مال ... ولا تقلق عليه سيكون بخير قد يفيق غدًا، ولكن ماذا عن الفرنسين؟ بالتأكيد يبحثون عنكم

بالنسبه للفرنسين لا مشكله فكل يوم تحدث مناوشات بيننا وبينهم ...اهم شئ ان لا يعرف احد انه فى بيتك ... وأجعليه بعيدًا عن الانظار " ." ثم وقف وأرتدى سيفه الذى كان ملقى على الارض قائلاً وقد حزم أمره على المغادرة : انا سأغادر وغدًا سآتي للاطمئنان عليه

هرولت حكمت ناحيته واغلقت الباب المطل على الحظيره بسرعه وقفت امامه من ما ادهشه ذلك حتى باشرت بالحديث قائله فى ضيق : انتظر هنا ... لا يمكنك المجيئ الى البيت متى شئت ... نحن فى حى شعبى ماذا سيقول الناس عذباء يتردد الرجال على بيتها؟! وكما ترى . أهلى ليسوا هنا

ضيق عينيه و رفع حاجبه قائلاً وهو يحاول أن يفسر ما ترمى اليه : وما العمل ؟ اتركه دون الاطمئنان عليه ؟

. هزت راسها بالنفي قائله : لم اقصد ذلك ... ابعث بزوجته اختكم أو امكم أي أمرأه تأمنها على المجيئ الى هنا

. هز راسه بإرهاق قائلاً : سأنظر فى ذلك ... وداعًا

ولكنها عاودت الكره واغلقت الباب مره أخرى وهو يهم بفتحه حتى صاح فى نفاذ صبر وتعب الم بجسده وعقله وأضاق بأخلاقه قائلاً وحدقتيه تكاد ان تخرج من عينه : ماذا الان ؟

صاحت هى الاخرى بعناد قائله : كل شيئًا واغسل و جههك ثم ارحل كما تشاء ... انا لن ارعاك انت الاخر سيدى . ثم اشارت الى اخر . الرواق قائله بنفس العناد وغيظ طفيف : المرحاض فى نهاية الرواق

. ثم اتجهت الى المطبخ قائله وهى تبتعد عنه حتى توارت خلف جدران المطبخ: خمس دقائق وأرحل

. وقد دفعته مرغمًا على الابتسام فى هدوء وهو يرى امامه كتله من المشاعر المتناقضة والمتخبطة على ارض الواق صوب عينيه

خلع سيفه و اتجه الى المرحاض غسل و جهه من اثر العرق والدماء و الاتربه حتى ظهرت لحيته خاليه من الدماء ولكن ظهرت معها الكدمات الزرقاء والبنفسجيه.

ولكن ما يثير الريبه ويلفت النظر هو وجود صابون واهتمام غير مسبوق بوجود الماء ونظافة المكان التى لا يعهدها احد الا فى بيوت المسلمين أو النبلاء لا بيوت العامه مثل هذا البيت ، ولكن الصلبان وتماثيل مريم المجدالية و السيد المسيح والشموع تنفى تلك الشكوك تمامًا وقد اتجه الى المحراب الصغير وأشعل شمعه ووضعها اما الصليب ومن فوقه صوره لمريم المقدسة تحمل يسوع عليهما السلام وأخذ يرتل الادعيه وينذر النذور بالتقرب للرب اكثر وفعل الخير حتى يعود له اخيه سليمًا معافه.

ثم عاد بعض الخطوات إلى الرواق مره اخره وقد سار إلى غرفة اخيه المضاءة بالشموع وقد نسى تمامًا حالة الشك التى ناوشته وأقترب من السرير وجلس القرفصاء على ركبته امامه وقد ترقرقت الدموع فى عينيه وتحجرت وهى ابيه مترفعه عن النزول من عينيه البنيه ثم امسك بكف اخيه وقبله وتأمل وجهه النائم الملوث بالكدمات والجروح وقد تمنى لو كان هو لا اخيه وتمنى لو لم يسبقه بالخيل فنافسه مرة اخرى ويقع ذلك الاشتباك مع الفرنسيون . همس فى الم قائلاً : سامحنى يا اخى ... انا المخطأ ... يا ليتنا سرنا من طريق اخر ... يا ليتنى لم اتسابق معك ولم يرانا احد أو يشعر بنا احد ... اسف يا عزيزى ... فقط افق و أقتص منى كما تريد ... فقط أفق !

انهى كلامه وهو يزفر بياس ويطبق جفنيه على بعضهم البعض بالم للا مثيل له ليس بسبب ندباته وجروحه بل بسبب ألم ضميره الذى يحمله مسئوليه ما يؤل اليه الامر الان وعلى الرغم من ان "جوليانا "_حكمت_ قد بدت له ودودة ولطيفة و لا قلق او خوف منها لكن طبيعة الاحياء الشعبيه واختلاط الجيران ببعضهم البعض قد يعرض اخيه للخطر بالاخص من اعين الجواسيس للفرنسين _ الذين يمقطون جنود الكنيسه بشده بالاخص بعد اصدار نابليون المستولى على البلاد باغلاق تلك المحاكم ومعاقبة الجنود ومن يخالف هذا الاصدار والفرمان ولكن اضطراب البلاد وجميع بلدان العالم سواء الديون التى تفاقمت على آل عثمان فى اسطنبول وخروج مصر عن سيطرتها تحت تصرف الاسره العلويه أو البلاد الجديده " الولايات المتحده الامريكيه " التى تاندى بالحريه من الاحتلال الانجليزى وسطوة الفرنسيون والاسبان أو تدهور الاوضاع فى شبه الجزيره الهنديه من ما دفع الجميع للإهمال أو لعل موت نابليون هو ما ادى لاهمال هذا الامر لا ندرى _ .

فتح بلايو جفنيه بتثاقل ووضع يد أخاه بجانبه على السرير بحذر و لطف ثم التفتت ينظر الى حكمت التى حاولت تهدئته بلطف وهى ترى مشاعر الحب التى يكنها لاخيه والتى دفعتها لتقديس تلك المشاعر وأحترامها فتحدث بهدوء قائله وعلى ثغرها ابتسامه صغيره : سيد بلايو ... لا تأسوا على نفسك فتيأس ... سيكون بخير بمشيئة الرب ... وأنا سأبذل قصارة جهدي فى أن يتعافى ويقف على قدميه لا تقلق .

بلل شفتيه ووقف من جليته وابتسم فى جهد كبير قائلاً بامل ولطف : شكرًا لكى ... وليباركك الرب ... انتى لا تعلمين ماذا يعنى حنا بالنسبة لى؟ هو ابنى ليس اخى فقط .

امسكت بمصباح الجاز الذى كانت وضعته على صندوق الملابس وحملته وأشارت الى خارج الغرفه قائله : لا تقلق ... تفضل الطعام جاهز .

وسار معها فى خطوات هادئه الى أن وصل الى طاوله صغيره حولها اربعة كراسى مطليه باللون البنى وقد وضعت صينية به بعض ارغفة الخبز وبيض مسلوق وجبن وكوب حليب وقد شرع بلايو فى الاكل بشراهه ونهم وسرعه وقد نظرت له حكمت وابتسمت فى هدوء وفضلت الجلوس فى مكان اخر حتى لا تُشعره بالاحراج وأخذت فى العبث بطرف ثوبها النظيف الذى بدلته ونقعت الاخر فى ماء مغلى حتى يتنزع منه الدماء بسهوله وقد شردت قليلاً وابتسمت لا راديًا بسخريه وهى التى حاولت وجاهدت أن لا تختلط بأى أحد وأن تتجنب أن تثير الشكوك لتجد مستشار وجندى فى بيتها وفى موقف لا تحسد عليه ولكن لعل الله اراد بها خيرًا وهى فى جهالةً عن ذلك !

فى صباح اليوم فى الغرفة الصغيرة تململ حنا بضيق وألم كبير يعصف بخاصرته ورأسه لا حد له أيقظه من نومه وشعور قوى بالعطش وقد شعر أن حلقه تشقق من شدة الظما وكأنه يسير فى رمضاء الصيف فى صحراء الربع الخالى لا فى نهاية شهر يناير ذو الطقس القارس بالبرودة وفى أوروبا وفى منتصف اسبانيا!

وقد فتح عينيه الزرقاء تلك بصعوبه بالغه وتألم بشدة من ضوء شمس النهار المنبعث من النافذة الزجاجية العارية من الستائر المرفوعه على الماسورة الخاصه بها .

ورفع كف يدارى به مقلتيه ولكن استوقفته ذاكرته التى بدأت فى التدفق والانفجار وهو يتذكر انه بعد ان خسر السباق مع بلايو قرر ان يتسابق مره اخرى ولسوء حظهم استوقفهم كمين من الفرنسيين الذين اعتقدوا من ركدهم هذا انهم ينون على قتال وباشروهم بالقتال حتى اصيب بطعنه فى بطنه و ما لبث ان فقد وعيه وهذا دفعه لكى يدقق نظره فى معالم الغرفه الغريبه تلك المطليه باللون الازرق الزهري وصغيرة الحجم قليلة الاثاث وقد التفت براسه إذ بصندوق ملابس وفتاه حنطية البشرة فى العقد الثالث من عمرها متكومه على كرسى من الخشب ترتدى زى نوم باللون الابيض وتتلحف بغطاء من الصوف الاسود وتربط شعرها بمنديل ابيض .

أوجس خيفه بان يكون بلايو قد اصابه مكروه وأن احدهم أنقذه دونه وحاول الاعتدال فى جلسته والوقوف لكن حال الألم الذى اشتد عليه دون ذلك وتاوه بقوة وأرجع راسه على الوسادة بألم شديد من ما دفع حكمت الى الاستيقاظ من النوم فى قلق وهلع وقد قفظت من على كرسيها تقترب من حنا وتساعده على العودة لوضعه الطبيعى قائله وهى تزفر براحة : الشكر للرب على عودتك سالمًا ... ماذا تريد؟

اشار بألم إلى شفتيه وهو يضمها على هيئة كوب قائلاً بنبرة صوت مبحوحة : ماء ارجوكى .

هزت راسها بالايجاب وأسرعت الى المطبخ وعادت بعد دقيقه تحمل كوب من الفخار ودورق من الفخار ايضًا وقد سكبت به الماء ورفعت راسه بيدها وباليد الاخرى شرعت فى سقيه الماء حتى أنتهى من الكوب لكنه اشار باصبعه بمعنى مره اخرى حتى شرب مرة ثانيه وثالثه حتى ارتوى.

وما ان انتهى حتى وضعت عدة وسائد اسفل راسه حتى يتثنى له ان يرفع راسه بحذر وهو يتحدث معها وقد احضرت الكرسى الذى كانت تنام عليه وجلست بجانب السرير وباشرت بسؤاله قائله : هل انت بخير ؟ بماذا تشعر ؟

تحسنت نبرة صوته بعض الشئ قائلاً : ألم شديد... اين بلايو ؟ وماذا حدث ؟ ومن انتِ ؟

طمئنته قائله بهدوء : السيد بلايو بخير وهو من جاء بك الى هنا كنت فاقدًا للوعى وفقدت دماء كثيره لكن الشكر للرب أنت الآن افضل ... أما أنا القابلة والعشابة جوليانا ... السيد بلايو اودعك تحت رعايتى حتى تتعافى من مرضك ... واخبرنى انه سيرسل من يطمئن عليك اليوم .

بلل شفتيه ونظر لها قائلاً بامتنان : شكرًا لكى ... لكن الألم شديد ساعدينى ارجوكى .

هدئته قائله : لا عليك ساعد افطار وكوب من ورق الصفصاف وسيزول الالم .

هز راسه بامتنان و همت بالمغادره لكنى قبل ان ترحل اوقفها قائلاً بارهاق : اين سيفى وساعتى وملابسى ؟

اتجهت الى صندوق الملابس وأخرجت منه السيف والساعة وملابسه المخضبة بالدماء قائله : ها هم لكن سارسل ملابسك مع من سياتى للاطمئنان عليك ... لا يمكن ابقائها هنا رائحتها نفاذة ولو غُسلت ونُشرت سيعلم الجميع بانك فى بيتى سيدى .

أراح راسه على الوساده بعد ان شكرها وأنصرفت وقد حمد ربه وشكره بأن كتب له عمر جديد وقد نفذ من الموت بصعوبه ولو به صحه لقبل يد حكمت ليشكرها على هذا المعروف الذى لن ينساه مهما حيا ، ولكن ما يثير قلقه هو والدته ان كان بلايو بخير فبالتاكيد اخبرها وبالتالى قد تصيبها نوبة ربو أو إغماء من ما يعرض صحتها لضرر كبير هى فى غنى عنه ولكن كل الامور ستتضح فقط عند وصول هذا الغريب الذى سياتى للاطمئنان عليه .

ومن دون أن يشعر سقطت عينيه فى محيط عميق من النوم بسبب الانهاك ولم يشعر بنفسه إلا عندما ايقظته حكمت بهدوء وهى تهز كتفه حتى يستيقظ ولم يأخذ فى يدها الكثير من الوقت حتى فتح عينه بسرعه.

وقد اعتذرت منه فى خجل متعلله بان عليه ان ياكل لانه فقد الكثير من الدماء ، ثم وضعت وساده عند سور السرير واحتضنته وهى ترفعه من أسفل ذراعه ليجلس نصف جلسه تمكنه من تناول طعامه ، اما حنا فيال نعمتى والنعيم.

فبالرغم من ألمه المشتد إلا أن رائحة الياسمين المنبعثه من حكمت قد داعبت انفه ولاعبت عقله من ما جعله ينظر اليها باعين شبه مغلقه يتفرس معالم وجهها والتى لا يعلم لماذا شعر انه راى هذا الوجه المستدير الحنطى المشرب بحمره طفيفه غزت وجنتيها بلا رحمه وتلك العينين البنيه وذلك الانف المستقيم والثغر الصغير الوردى ولجأوا له بكل مقدس سيقسم انه رأى هذا الوجه من قبل من دون تردد . لكن اين ومتى وكيف لا يتذكر ... هل كان عالم الاحلام ؟ ولكن لا يمكن ان يكون حلم يدفعه الى الشك والتدقيق بتلك الطريقه

ولكنه أثر ان يبعد انظاره المتفحصه التى لم ترحمها وقد لاحظ ارتباكه من تلك الانظار وقد حول التركيز فى تناول الطعام وشرب كوب من ورق الصفصاف المغلى ولكنه لم يأكل الكثير بسبب شعورة بالارهاق وعدم القدرة على المواصله وما ان ترك طعامه حتى نظرت له فى قلق قائله : هل انت بخير لم تاكل كثيرًا.

. هز راسه نافيًا وهو يحاول ابعاد صينية الطعام عن فخذه قائلاً : انا بخير لكنى شبعت

اقتربت منه بكرسيها و امسكت لقمة خبز مغمسه بالجبن قربتها الى فمه قائله فى ود : ان كنت متعبًا قل ولا تقلق ... تفضل.

التقت اللقمه من بين اصابعها وقد تبعتها اخرى و اخرى وعينيه لا تنفك تتفحص وجهها ولعنت نفسها الف مره على اقترابها منه بتلك الطريقه وقد أخذت نظرة خاطفه الى وجهه الابيض المحمر ولحيته البنية وشعره البنى وقد كان يشبه بلايو بشدة لكن الفرق أن القسوة والصلابة تغزو وجه حنا بشدة على عكس ملامح بلايو اللطيفه المريحه ولعل الحرب تكسب صاحبه الصلابة والقسوة !

ابتلع حنا ما فى فمها ثم سالها فى هدوء قائلاً : كم عمرك ؟

تكلمت بهدوء وعينيها اسيرة صينية الطعام وتلك اللقمة التى بين اصابعها قائله : اثنين وعشرون ... ثم مدت يدها الى فمه باخر لقمه قائله :وأنت ؟

. ابتلع ما فى يدها قائلاً : خمسه وثلاثون

همهمت بهدوء وهمت بالرحيل وهى تحمل الصينية بين يديها لكن استوقفها دق قوى وأشد قوة عن الأمس على الباب وقد شعرت بالتوتر الشديد والهلع والفزع من الذى سيخلع الباب بطرقه القوى وأخذت فى تبادل الانظار مع حنا الذى توجس خيفة هو الأخر وبالأخص ان الوقت لا يزال مبكرًا وقد يستيقظ الجيران و تحدث ضجه وجلبه .

ولكنه شجع حكمت قائلاً وهو ينظر لها بتشجيع : لا تقلقي قد يكون بلايو انا معك هيا .

وضعت الصينية على صندوق الملابس وأغلقت باب الغرفة واتجهت الى الباب المطل على الحديقة الصغيرة وقد تفاجأت بمرأة انيقة الزى حسنة المظهر تدفعها بقوة وتقتحم المنزل قائله فى ضيق وقلق : اين حنا ؟!!!

فى مكان اخر بعيد عن هنا وفى أخر معاقل ابوعبد الرحمن الصغير وعائشة الحرة فى غرناطه وما ادراك ما غرناطه تل الغرباء وعروس الاندلس!

فهناك إذا رميت ببصرك سترى قصر الحمراء وذكريات خلدها التاريخ وبكى عليها العشاق بدلًا من الدموع دماء وحى البائزين "البائسين " الذى ليس بالقريب ولا بالبعيد عن البائسين خديجه واخويها الفريد " صفوان " _الذى يصغرها بثلاث سنوات _واندراوس " أحمد "_ الذى يكبرها بست سنوات _ هو والد اثانيوس . ولم يكن لقب البائسين من فراغ إذ أن مشاعر الحزن التى المت بهم ونهشت فى قلوبهم مثل الأسود المفترسه الجائعه التى لا يخيفها التعذيب أو التهديد .

لقد شيعوا أباهم منذ ايامًا قلائل انقدت الى مثواه الأخير وقد كان كل ما يأمل به أن يموت فى المغرب ويدفن هناك فى تلك البلد التى لا طالما عشقها وعشق اهلها وتاريخها ومُدنها وهوائها وترابها ورباطها وطنجه وسبته وطارق بن زياد ويوسف بن تشفين والمرابطون والموحدون وعقبة بن نافع وطريف بن مالك كل ما يروى قلبه الظمأ ويدفن بين مقابر المسلمين من من فروا من اجداده من الاندلس ولكن الله اختار ما هو غير ذلك وكانت مشيئته هى التى احبطت عدة محاولاته فى شبابه بالهروب بالفشل ولن أتطرق اليها الان حتى لا نمل فالحي ابقى من الميت!

وكما كنت اقول الحي ابقى من الميت قد اجتمعت خديجه وصفوان و زوجته وابنته الكبرى وعثمان _اثانيوس_ فى غرفة صغيرة ينتظرون قدوم احمد وقد تركوا الصغار فى حديقة المنزل الخلفيه ومن بينهم طارق وقد صعدت زوجة احمد لتوقظه حتى يتحدث مع اخوته فى شان الميراث حتى اذا جاء موعد التقسيم الذى حدده اباهم لن يكون هناك خلاف و تعود خديجه الى مدريد وقد كانت فى تلك اللحظات تشعر بغريزتها و طنتها بأن ابنتها ليست على ما يرام وأخذ عقلها يصور بعد الافلام والقصص البشعه التى لا حد لشرها وبربريتها.

ولو بيدها لهرولت ولو على الاقدام حتى تطمئن على وحيدتها ولكن الصبر الصبر وستنحل العقد بالصبر . ولكن صبر الجالسين لم يستمر طويلاً حتى صعدت زوجة احمد تحثه على العجله وذهبت الى غرفتهما واذ بها تصرخ بأعلى صوتها طلبًا للنجدة !!!

الفصل الرابع

قبل ان نبدأ فى سرد و تفصيل ما حدث مع اعزتنا خديجه وابنتها سنذهب الى مكان اخر جديد بعض الشيء عنا بغيض جدًا علينا الا وهو بيت العجوز الشمطاء كترينا التي بحق لا اعلم كيف هي على قيد الحياة و قد جاوز عمرها الخامسة و السبعين و بها صحه ليست بي و انا ابنة العشرين من عمرى المزدهر _اقصد الغريب_ . انظروا كيف ترتدى تلك العباءة السوداء و تحمل بكلتا يديها حقائب من الخضراوات المتنوعة و قد فاقت العشرة كيلو جرامات و فوق كل هذا تحمل فوق راسها قدر عملاق من الماء قد اشترته من السقا المار في الطريق اثناء عودتها من السوق و انا يا عباد عظامي تفرقع و تقرقع اثناء الصلاة ، بحق إن الله إذا اعطى اعطى من دون حساب !

والاهم الان ليس ما تحمله او ما تمتاز به من صحة عشر شباب من جيلنا البائس الان بل الاهم هو ما تفعله ! والويل لها تلك الشمطاء و قد مرت من احد الشوارع الخاليه و التى نادرًا ما يمر منها احد بسبب ان سكان تلك المناطق قد اتخذوا منها حدائق لبيوتهم او حظائر صغيره او كليهما معًا .

وقد مرت من جانب بيت عدوتها اليزبيث ولفت نظرعينيها الغائرتين فى عظام وجهها عربة بفرسين و قد زُينت العربة بفخامة وروعه وفوق ذلك لجام الفرسين المزين بالذهب وسقفها المصنوع من قماش بنفسجى اللون وهذا اللون وهذا السائق الذى يبدوا للمكفوف انه ليس مجرد سائق عربة خيل عادى من الذين يتجولون فى شوارع مدريد كل صباح و قد شكت لوهله ان ابنة اليزبيث جائها خاطب من اعيان المدينه دونًا عن ابنتها التى تفوق جوليانا سنًا و قد تزوجت لكن من نجار و ليس كما تمنت ان توقع لها احد اعيان البلاد و قد تملكه الغيظ فقط من مجرد ان طرقت تلك الفكرة ابواب عقلها الصدئة من عدم فتحها منذ ان ولدت.

اقتربت من سائس العربة المرتدى لزى باللون الاسود ثم وقفت امامة قائلة فى فضول جم : معذرةًا يا بنى لكن عندى سؤال من الذى يزور بيت اليزبيث هل هو من الاعيان ام انها ارتكبت خطيئة .

نظر لها السائس بامتعاض ثم عاود النظر امامه و لم يتخلى عن هذا الامتعاض و تحدث ببرود قائلاً : ليس من شائنك يا جدة عودى الى منزلك .

رمقته بضيق و قد رفعت طرف شفتها العليا كدليل على حنقها من هذا الذى تعالى عليها و قد جرت حقائبها معها ومن خلفهم كرامتها وفضولها الذين تبعثرا الى اشلاء امامها واتجهت الى منزلها الذى لا يبعد الكثير عن بيت اليزابيث وقد فتح لها ابنها الاصغر فيكتور_ و قد كان عائدًا من الكنيسة حيث انه يشغل منصب شماس بالإضافة الى عملة كبائع البان ومشتقاتها _ واخذ منها حقائبها .

و ما ان دخلت و ارتاحت عظامها حتى اشارت الى فكتور بالاقتراب و الجلوس جانبها و قد امتثل الى امرها حتى مالت عليه قائله فى مكر : لم ترى ما رأيت ... عربه فخمه للغاية تقف امام منزل اليزبيث تنتظر احدًا ما و عندما سالت السائس رفض اخباري .

هز فيكتور كتفيه بلا مبالاة قائلاً : و ما شأني من هذا و ذاك .

امسكت بيده قائله فى استمالة لعطفه : بنى ... باركك الرب ما رايك ان تسال السائس و تريح قلبي كرامةً للعذراء .

قبل يدها الممسكة بيده قائلاً فى هدوء : كرامةً انتى للعذراء دعي القوم و شانهم ... ثم وقف واتجه الى غرفته قائلاً : ايقظينى رجاءًا يا امى عند الظهيرة .

و ما ان اختفى و توارى خلف الجدران حتى نفخت اوداجها بغيظ قائله : ويلى لا احد يستمع لى اليوم ويعيرني اهتمامه ... حسنًا انا سأعرف بنفسي و عندها سيقبل الجميع يدى ليعرف ما حدث .

و لله الحق انتى لا تُطاقى يا جده !

ارتدت حكمت عدت خطوات الى الوراء جراء اندفاع تلك الفتاة الأرستقراطية الى الداخل بعشوائية عكس هيئتها مطلقًا _ قد كانت ترتدى فستان من القطيفة الاسود وعلى احد كتفيها فرع من اوراق الشجر من الفضة الخالصة و ترتدى قبعه سوداء وانسدل منها قماش دانتيل شبة شفاف ليحجب عن عينيها اشعة الشمس و قد كانت فى العشرون من عمرها _.

و كادت ان تشتبك معها لولا دخول بلايو السريع الذى اوقف اندفاع تلك الفتاة وتهورها قائلاً بتحذير وحزم : ايفا على مهلك يا ابنتي قليل من الادب .

نكست راسها فى شعور بالخجل عارم الم بأطرافها وعقلها و هي لا تعلم كيف تصرفت بهذه الحماقة لكن دائمًا ما يخونها اندفاعها و تنسى أداب و تعاليم القصور التى حجرت اهلها لتعلمها فى قصر الملك و ها هى تعاود النسيان مره اخرى ولكن انتم لا تعرفون ماذا يعنى حنا بالنسبة لابنة اخيه ايفا ليست علاقة عم و ابنة اخ بل صداقه واخوه والسبب فى ذلك بالطبع تقارب عمرهما بعض الشيء الذى ازال فجوة المقام و الحجاب .

ثم التفت الى حكمت _التى انحسرت عند باب البيت و اقفلته بعد مرور امراه عجوز لا تقل عن بلايو و ايفا تلك ارستقراطية وأناقة _ قائلاً و حرج : اسف انسة جوليانا ... ايفا ابنتي تحب المزاح بعض الشيء . هزت راسها بتفهم ثم اشار بلايو الى تلك العجوز الانيقة قائلاً . : هذه امى الدوقة مارلين

نظرت الى تلك مرلين و قد كانت خائرة العزم ضعيفة القوى و عينيها الزرقاء متورمة ومتوهجة بالاحمرار بشدة من كثرة البكاء وقد !اطفى الحزن شحوب بارز على وجهها المليء بخطوط الزمن . و باشرتها بالم و شوق قائله برجاء : هل حنا بخير اين هو ارجوكى؟

اشفقت عليها وهدأت من روعها و صحبتها الى الغرفة قائله : لا تقلقي سيدتي هو بخير و افاق منذ قليل وتناول افطاره ... لكن رجاءًا . لا تُطيلوا عليه بالحديث حتى لا يتعب اكثر

التفت حنا ينظر الى باب الغرفة الذى يُفتح بإرهاق وفضول حتى تصورت له والدته واخيه وايفا ومن خلفهم حكمت التى انسحبت من . الغرفة بهدوء لتعد القهوة و تترك لهم مساحة للحديث على راحتهم

فتح حنا ذراعيه على وسعهما يستقبل والدته الباكية بالأحضان و الاشواق و اللهفات والدعاء وشكرت الرب على وجوده سليم معافى و .على ظهر الارض و يتنفس من نفس الهواء

دمعت عينيها بتلقائيه و اخذت تقبل رأسه قائله في قلق و لهفه: حفظك الرب و رعاك يا بنى لقد خلعت قلبى عليك... اياك و تكرار ما !فعلت؟

.ابتسم بارهاق وامسك كفها و لثم انامل يدها التى تمسكت بكفه بقوة قائلاً: لا تقلقي لن اتركك واذهب لأى مكان

ربطت على ظهره بحنان وجلست على الكرسى المجاور مباشرةً لسريره و لم تفلت يده للحظه وبتلك الوسيلة تحقق مرامها في كونه بخير و الى جانبها _واهًا! لو تعلمون مدى معزة و حب مارلين لحنا بالأخص، وقد كان الابن الاصغر بعد بلايو وثلاث فتيات في المنتصف قد قدى نحبهن في سن صغير للغاية بسبب وباء الطاعون الذى كان يناوش أوروبا كل فتره بسبب سوء النظافة والاهتمام الطبي _.آن ذاك، و لهذا فإن حنا بالنسبة الي امه ككوب الماء بالبارد بعد نهار شديد القيظ

اقتربت ايفا من حنا بمرح و قفزت فوقه و احتضنته بقوة قائله في مزاح ثقيل لا يفهمه احد سواهما الاثنان فقط: حنا لما لم تمت بعد... .متى سأرث غرفتك وخيلك يا هذا

تأوه حنا بالم من تلك المتعجرفة الصغيرة التى ورثت العنف و القوة ابًا عن جد و لما لا ومنذ ان نشأت و لم يتركها حنا للحظه وقد كانوا اكثر من عم وابنت اخ بل اصدقاء والعامل الرئيسي في هذا هو تقاربهم في السن الذى ساعد على إزالة الكلفة بينهم.

قرص اذنها قائلاً بمرح: نجوم السماء أقرب لكى لن تمسى غرفتي ولو بعد موتى.

ابتعدت عنه و قد احمرت اذنها وأمسكت بها بيدها وبالأخرى وضعتها على خصرها قائله في زهو وثقة عالية: سترى انى سأخذ الغرفة رغم انفك.

داعب حاجبيه باستفزاز و برود اثار حنق ايفا و فى نفس الوقت ضحكت رغمًا عنها ثم اتخذت مقعدًا على طرف السرير الى جانب قد حنا ثم اقترب بلايو الذى احتضنه وصافحه ثم جلس على كرسي اخر قائلاً في هدوء: كيف تشعر الان؟

"انا بخير لكن كيف جانا هنا؟"

عندما أُصبت لم اعلم ماذا افعل وضعتك على ظهر الخيل وركبت و سرت بك حتى وجدت بيتًا لعجوز طلبت منها النجدة و دلتني على بيت جوليانا واسعفتك والحق الحق اقول كانت ماهره. "

بلل حنا شفتيه و اخفض صوته ثم أشار الى بلايو بالاقتراب قائلاً في خفوت لا يسمعه سوى هم الأربعة: هل تظن انها موضع امانه... أي لن تخبر احدًا على وجودي هنا.

هز بلايو رأسه نافيًا قائلاً: لا تقلق من هذا ان كانت خائفة فمنا و لن تجرأ على أخبار احد... اطمأنّ.

قاطع حبل حديثهم مقص طرق حكمت على الباب بهدوء تستاذن بالدخول وبين يديها صينية عليها فناجين من القهوة والمخبوزات الخفيفة وضعتها على طاوله صغيرة في زاوية الغرفة ثم حملتها اليهم و وضعتها بينهم وقد امسك بلايو بكوب القهوة ومن بعده ايفا ومارلين التى ارتشفت منه القليل ثم نظرت الى جوليانا قائله في ود: شكرًا لكي يا جوليانا على ما فعلتيه لأجل ابنى فليحفظك الرب وليطيل من عمري حتى ارد لكى الجميل.

ابتسمت حكمت بهدوء قائله: لا شكر على واجب سيدتي وليبارك الرب بعمرك بعد اذنكم... ثم همت بالانصراف لتتركهم وحدهم ولكن استوقفها بلايو قائلاً و هو بقف ويهم بالخروج من الغرفة معها: انتظرى جوليانا اريد ان اتحدث معك.

خطيا عدة خطوات خارج الغرفة و قد نظرت له حكمت في قلق و خوف دب في جميع انحاء جسدها الصغير المقابل لبلايو الضخم هذا.

وقف بلايو مقابلها وقد رسم ابتسامه صغيرة على شفتيه قائلاً في هدوء: اولاً شكرا على معروفك معنا ولاهتمامك بحنا ثانيًا أريد منكى ان تحضري ملابس حنا حتى اخذها معي و ان تخفى سيفه باي طريقة و فى أي مكان... ثالثًا ثم أشار الى عدة حقائب على الطاولة قائلاً: هذا ثياب حنا واغراضه تكفية مدة المكوث هنا واخر شيء... اخرج من بين الحقائب سره من العملات المعدنية المتداولة آن ذاك العصر قائلاً: ان احتاج حنا أي شئ اشتريه له اتفقنا؟

هزت راسها بالموافقة وهي تُمسك النقود قائلة في اذعان: تحت امرك سيد بلايو.

في المساء و فى تل الغرباء غرناطة وتحديدًا فى غرفة خديجه وطارق. قد حل النوم على اغلب من في البيت و قد استقر طارق في احضان خديجه بهدوء و النعاس ميلاد عينيه عكس خديجه التى فر خير النوم من لجام عينيها و اخذت انظر الى اللا شيء اما عقلها مليء بالأشياء وبالأخص بهذا اليوم الحافل بعد ان مرض احمد اخاها و اصيب بنوبة قلبية اجبرته على عدم مغادرة الفراش وبالتالي لا ميراث سيوزع ولا الى مدريد سترجع ولا حكمت سُترى.

لعل الله اراد بهما خيراً وهى ترى الشر في تأخيرهم هذا و لكن لم يكن وقته أبدًا وبالأخص ان عقلها كله مع حكمت و تخشى عليها من الخطر المحيط بها و من حولها سواء من كاترينا الواشية الى جنود الكنيسة او من اللصوص او من الفرنسين و لا بيدها شيء سوى ان تستودعها الله الذى لا تضع ودائعه.

قبلت راس طارق الذى اندس في عناقها اكثر وقد استقبلته بهدوء و حنان واخذت في مداعبة شعره حتى غط كلاهما في نوم عميق وقد نام القمر!

رائحة الياسمين هل هى تفوح فى كل مكان ؟ ام ان عقله يصور له ذلك ؟ ام ان تلك الرائحة اقسمت ان لا تترك انفه و لا تغادر عقله ؟ و كيف له ان يشتم تلك الرائحة العطرة والخلابة وصاحبة العطر ليست هنا وقد تركته وحيدًا هائمًا بين اربعة جدران يعيد حساباته ويفكر ويقرر؟!

يفكر فى الفرنسيين و وضع حد لتوغلهم و تمددهم الذى زاد عن الحد و وصل اقصاه و قد بلغ السيل الزُبىَ! فجراتهم عليه و على بلايو وبالأخص انهما يرتديان الزى الرسمي ولم يكن ذلك رادعًا ولا مانعًا لهم فبالتأكيد هيبة الدولة والكنيسة تنحسر وتتلاشى ببطء نهايته الموت و لكن في قرار نفسه الموت لهم لا لدولته و لا لمكانته.

زفر انفاسه بقوة و ضيق و اخذ يحرك قدميه بسام الممدودة امامه على المضجع و مغطاه بالبطانية الثقيلة وقد سأم مكوثه في الغرفة طوال اليوم لا يخرج الا لدار الخلاء ثم يعود لسرير و جوليانا لا تتركه و شانه بل تقف على رأسه حتى يرتاح وحتى يأكل وحتى ينام و يشرب و اقصى عقاب له انها منعت عنه الخمر و منذ ان كان في مقتبل عمره اتخذ من الخمر رفيقًا و مسليًا له في كل اوقاته لكن الان لا خمر، و هو لم يمتثل لأمرها تمامًا الا بعد ان ادرك ان الخمر سيقلل من فرصة تعافيه بسرعه من ما اجبره على الموافقة بعد حربًا ضروس بينهما انتهت بانتصار ساحق لجوليانا.

التفت الى الباب عندما طرقت عليه حكمت و أذن لها بالدخول و وقفت قائله في هدوء و عينيها البنيه تلك تأسر أرضية الغرفة: سيد حنا ما رأيك في تناول الغداء في حجرة الطعام؟

اعتدال في جلسته وحاول الوقوف قائلاً في راحه: نعم ارجوكى.

. اقتربت منه حكمت وأمسكت يده اليمنى و قد استعرت برودة جسده القوية جراد برودة الغرفة

ساعدته على الوقوف والمشي وقد امسك جرحه بيده اليسرى بالم و لكن لا يهم أى الم الان المهم انه سيهرب من زنزانته الأبدية تلك. ولكن هناك شئ اخر يُنسيه الألم انتم تعرفونه خمنوه بمفردكم!

ابعدت الكرسي وساعدته على الجلوس على الطاولة و اتجهت هى الى الكرسي المقابل له و قد شرع كلاهما في تناول طعامه، لكن لأول مره يلفت هذا البيت و نظامه نظره و قد كان اقرب الى بيوت النبلاء لا العامة من حيث التنظيم والاثاث المتوسط والمحراب الصغير والمدفئة والطاولة الصغيرة المحاطة بأربعة كراسي و يتناول عليها غدائهم الان و الملاعق الخشبية و الرائحة العطرة و طريقة اكل جوليانا المنمقة والهادئة وملابسها بالرغم من ان نوع الاقمشة متوسط الجودة إلا ان طريقة التفصيل البسطة البعيدة عن التكلف اعطتها طابع العلو في المكانة والشأن، والسؤال الذي يصفع عقله ولا يريح باله هو من أين لها هذا وأين عائلتها؟! بالرغم من مكوثه لعدة أيام هنا إلا وانه كان يُجاهد في عدم السؤال لكن الان يكفى قد بلغ السيل الزُبىَ و لينفض عقله واسئلته.

تناول قطعة من الدجاج ثم نظر لها قائلاً في ريبه و نبرة رجل محقق و مكر رجل حرب: تسمحين لى، و لكن اين عائلتك؟

تركت الملعقة الخشبية وابتلعت ما فى فمها من طعام و نظرت له بهذا البندق في عينيها قائله في هدوء: امى واخى الصغير فى غرناطه... قد رحل جدى منذ اسبوع وهم هناك لأخذ العزاء.

ضيق عينيه قائلاً في ريبه: ووالدك؟

ابى متوفى منذ أربع سنوات و قد كان حدادًا ماهرًا يصنع الأسلحة للساده و النبلاء وقد اختلط بحياة القصور والنبلاء لذلك تجد طبع " البيت و طباعنا مختلفة عن اهل الحى قليلاً.

همهم بهدوء ثم بدأ في شرب الماء على مهل و قد اقتنع ببعض كلامها وللأسف هذا طبعه لا يعطى ثقته و لبه لاحدًا بسهوله.

ثم تابع جلسة التحقيق المبطنة تلك في صورة سمر برئ و تابع بتساؤل: منذ متى وانتِ تعملين في هذا المجال؟

بدأت تشعر بالضيق بعض الشيء من كم الأسئلة هذا ولكن مجبرًا اخاك لا بطل.

من جدى لأبى... كان عشابًا وكنت منذ صغرى اتعلم منه فوائد كل عُشبه والوصفات الطبية حتى وصلت للخامسة عشر وبدأت في " العمل معه وهكذا حتى وفاته وحتى الان".

"اعذرينى لكن لدى سؤالين، هل عندكى اصدقاء وماذا كنتي تفعلين ليلة الامس في الحجرة تلك في نهاية الرواق؟"

ابتسمت حكمت بتكلف وابتلعت طعامها بصعوبة محاوله ان تدارى خوفها و توترها و قلقها من ان يكون قد راها ليلة امس و هى تُصلى في المخزن، لكن استعاذت بالله من الشيطان الرجيم و توكلت على الله قائله بهدوء و عينيه في اتجاه اليمين حتى تشعره بصدق كلامها: بلا لى صديقه واحده هى فلوريندا لكنها تزوجت منذ عام و تعيش مع زوجها في جيان و لم اراها الا في عيد الميلاد عندما كانت تزور والديها، اما الامس كنت جائعه واردت سلق البطاطا لكنها نفذت وكنت ابعث عن جوال اخر.

هز رأسه و تابع ما تبقى من طعامه في صمت حتى انتهى و لملمت حكمت الاطباق و ساعدته على غسل يده بسطل الماء والابريق العملاق وقد أعجب كثيراً برائحة الصابون العطرة تلك و هم بسؤالها عن مصدرة لكن استوقف كلاهما طرق قوى على الباب الرئيسي للبيت و صوت طفل يصرخ بقوه " خاله جوليانا افتحي بسرعه انا هكتور ".

قفز كليهما من مكانه و قد ادخلت حنا الى الغرفه سريعًا و اغلقت الباب بالمفتاح و وضعته في جيبها ثم سحبت نفسًا عميقًا حتى تهدء ثم اتجهت للباب و فتحت و اذ بهكتور و ممسك بيد اخته الصغيرة ماريا و قد كان يبدو عليها الإعياء الشديد و عدم القدرة على الوقوف.

ادخلتهم قائله في قلق: ما الامر انتم بخير؟

.صاح هكتور في خوف قائلاً: لا ماريا متعبه و تسعل منذ الامس و امى اخبرتنى ان ناتى اليكي

ابتسمت حكمت بهدوء و مرح حتى لا تقلقهم ثم رفعت ماريا ذات الأربع سنوات على طاوله قائله: مه! اهدء يا بطل مجرد سعال يهز .أركان الرجال... ثم التفتت الى ماريا قائله: افتحي فمك يا ملكه ماريا

اخذت حكمت في فحص الفتاه و مداعبتها من ان لاخر متناسيه تماماً وجود حنا الذى اخذ في استراق السمع لما يحدث في الخارج و كان . يبتسم على ضحكها و مزاحها مع الصغار بتلقائيه غير ملاحظًا لذلك تمام

انتهت من فحصها السريع ثم نظرت الى هكتور قائله و هى تثبت الكلام برأسه: اسمع جيدًا مجرد برد الشتاء فقط تشرب أوراق جوافة مغليه من دون سكر وينسون وتضع قدميها في ماء بارد وخل قصب حتى تنخفض الحرارة اتفقنا؟

هز هيكتور رأسه بنعم ثم امسك بيد ماريا بعد ان انزلتها جوليانا من علي الطاولة ثم نظر لها قائلاً في فضول: أين اخيلا لم ياتى للعب الأمس؟

.اعطت هيكتور بعض الحلوى و لماريا ثم نظرت له قائله: اخيلا و امى في غرناطه سيعودون الاسبوع القادم

.ثم فتحت الباب لهم قائله و هى تودعهم: كن حذرًا وامسك بيد اختك جيدًا

لوح لها بيده و هو يسير خارج البيت وقد وقفت تراقبه حتى دخل الى منزله الذى يبعد عنها بقليل ثم همت بإغلاق الباب بعد ان دخلت !البيت لكن استوقفتها قدم العجوز كاترينا التى منعتها من إغلاق الباب

الفصل الخامس

نظرت إلى قدمها المغطاة بخط أسود اللون وعليه رقعة بنية قديمة وجورب أسود، ثم عاودت النظر إليها، وقد فتحت الباب قليلاً من دون أن تدخلها، وقد أزاحت الأخرى قدمها العظمية شديدة النحافة تلك، ووقفت قُبيل حكمت والباب و، لكن عينيها لم تنظر إلى حكمة أو للباب حتى، بل إلى ما ظهر من البيت من خلف جسد حكمت والباب، وأخذت تتفحص وتتمحص البيت وما تراه لعلها تجد أي شيء يسد باب .الفضول، ويشبع جوع وحش الإثارة عندها

ولكن حكمة كانت لها بالمرصاد حيث خرجت لها خارج البيت، وغلقت الباب، ثم وقفت قُبيلها قائلة في هدوء: أجل خاله كاترينا ما الأمر؟

نظرت إليه متصنعة الحزن والعتاب قائلة، وهي تمط شفتيها البنية: ما الأمر ألن تدعيني أدخل يا سمراء؟

قلبت حكمت عينيها في محاولة للتمسك بأخلاقها وهدوئها قائله: أخبرتك ألف مرة أنا لست سمراء أنا حنطية هناك فرق... وعذرًا منكي، لكن البيت غير مرتب... تفضلي أسمعك.

رفعت كتفيها قائلة بابتسامة سمجة أبرزت ذلك الكسر في أحد أنياب فكها العلوي: أبداً جات كي اسأل عن إليزبيث لم أرها منذ زمن... قد تكون غاضبة مني.

ابتسمت حكمت باصفرار، ولم تصل الابتسامة إلى أذنيها قائلة: ولما ستغضبك منكي... جدي قد توفي واضطرت للسفر مع أخيها إلى غرناطة لإقامة العزاء ومراسم الدفن... وسيعودون قريبًا.

هزت كاترينا رأسها، ثم تصنعت الحزن قائلة، وهي تربت على كتف حكمت: لم أكن أعلم يا سمراء... تعازي الحارة لكي... أن احتجت أي شيء بيتي في وجه بيتك لا تخجلي مني.

هزت حكمت رأسها، وعلى شفتيها نفس ذات الابتسامة الصفراء قائلة: بالطبع خالتي لا خجل بيننا ثم أنا لست سمراء أخبرتك أكثر من مرة.

ثم أولتها ظهرها لتنهي هذا الحوار قائلة: عن إذنك لدي عمل كثير.

" ثم همت كاترينا بالخروج من سور البيت الصغير الخشبي، وقد دخلت حكمت البيت، لكنها استدارت بهلع، وقد اصفر وجهها لدرجة أن طعنتها بسيف لن تنزف بسبب هروب الدم من جسدها عندما صاحت كاترينا قائله بغرض استفزازها: العربة التي بالطبع، فليرعاكى الرب كانت أم البيت رائعة يا سمراء.

التفتت ببطء تنظر إلى كاترينا و، لكن قد رحلت من أمام البيت، واتجهت إلى بيتها. فكرت في أن تنادي عليها، وأن تشرح لها الأمر أو أن تخترع أي حجة أو كذبه تبعد أي شيء تفكر فيه عنها، وأن تبعدها عن دائرة الشُبهات، لكن ذرة عقل بها أوقفتها من الإقدام على تلك الحماقة التي، وإن كانت هناك أي شكوك حولها ستثبتها بحديثها، وقد آثرت أن تتصنع عدم السماع، وتغلق عليها باب بيتها أفضل من إثارة الضجة والشوشرة.

دخلت إلى البيت، وأغلقت الباب، وقد استندت إلى الباب بظهرها، وأخذت تقلب عينيها يمينًا ويسارا، وقد اتسعت حدقتاها بقوة تزامنًا مع ارتفاع وانخفاض صدرها بقوة مع وتيرة أنفاسها العالية جراء هذا الضغط الذي تعرضت له منذ قليل.

زفرت الهواء بقوة لمرة أخيرة، ثم تذكّرت وجود حنا في الغرفة الذي بالتأكيد قلق هو الآخر.

اتجهت إلى غرفته، وفتحتها بالمفتاح، ثم طرقت حتى سمح لها بالدخول.

كان جالسًا على السرير ينتظر قدومها بفارغ الصبر وما إن دخلت حتى وقف على قدمه قائلاً في لهفة وقلق: ماذا حدث معك؟ ما الأمر؟

طمأنته بهدوء وهي ما تزال واقفة عند باب الغرفة قائلة وعيناها لم تترك أرضية الغرفة: لا تقلق لم يحدث شيء الأول كانت ابنة جارتي مريضة داويتها وانتهى الأمر لكن... لكن جارتي كاترينا تلك أثارت قلقي.

قطب جبينه، والتحم حاجباه قائلاً: ماذا حدث؟ تكلمي يا جوليانا.

حركت يداها في الهواء تزامنًا مع كتفيها الذين رفعتهما بهدوء قائلة: قالت لي العربة التي كانت تقف أمام المنزل رائعة.

نظر إليها في قلق قائلاً، وقد ضيق عينيه: وماذا فعلتي؟

"لم أناقشها... رحلت إلى بيتها، وفضلت أن أتجاهل ما تتفوه به حتى لا أكد الأمر، أو أثير الشك"

.زفر حنا أنفاسه بهدوء قائلاً براحة، وقد انبسطت معالم وجهه: الشكر للرب خيراً ما فعلتي

هزت رأسها بهدوء، ثم بللت شفتيها قائلة، وقد رفعت كفها أمام وجهه، وضمت إصبع المشيرة على الإبهام: هل انتظرتني لحظة؟

.هز رأسه بالإيجاب، وأشار إليها بيده قائلاً: تفضلي

ذهبت من أمامه ناحية غرفتها، ثم جلس هو على السرير وهو ممسك بجرحه بألم طفيف زال فور جلوسه، وقد عادت مجددا وبين يديها بطانية من الصوف الأبيض، وقد مدت يدها تعطيها إلى حنا الذي رفع أحد حاجبيه بدهشة كانت إجابتها عندما قالت ووجنتاها تشتعلان خجلاً: آه. الجو بارد في هذه الغرفة... وقد فكرت لعل هذه البطانية تدفئك قليلاً قد صنعتها بنفسي... هذا صوف ماعز خالص من غزل .أمي

.ابتسم بود حتى بانت نواجذه قائلاً بمرح، وهو يمسك به: شكرا لكي يا سمراء

من دون إرادة منها، فلتت منها ضحكة صغيرة أبرزت غمازتيها، وبياض أسنانها وهو ينعتها بلقب تلك الشمطاء، لكن بمرح أعطاها حساً فكاهياً أخرجها من دوامة قلقها، وخجلها، لكنه ما لبث أن زاد خجلها عن السابق عندما تأمل تلك الضحكة الرنانة الشجية، وسمعها كلحن .القيثار العذب، حتى تحدث بهدوء ونظرات ناعسة قائلاً: لديكي ابتسامة رائعة يا سمراء لا تخفيها أبدا

هنا ستصمت قليلاً، وتختار أن تهز رأسها بتوتر، وتفر هاربة إلى منجم الأسرار غرفتها الصغيرة غافلة عن هذا العاشق الجديد في .مدرسة الحب، وقد بدأ يختبر أو دروسها منذ أن دخل هذا البيت الصغير

رفع البطانية إلى شفتيه، وقد قبلها بهدوء، ثم استنشق منها الهواء، وزفره ببطء وهدوء قائلاً بهمس لا يسمعه أحد: عن قريب ستصبحين .الدوقة السمراء يا سمراء

!!يا لك من مسكين يا حنا، ويا لك من تعيسة يا حكمت

في الليل المظلم على أرض مدريد والأعين نائمة في سبات عميق كانت هناك عينان نائمة في راحة وأمان تنعم بالدفء والاهتمام، لكن لم تدم تلك الراحة، ولم يدم هذا الدفيء، فقد استيقظت تلك العينان الزرقاء المزينة بالأهداب البنية التابعة لحنا الذي استيقظ من نومه بسبب .طرق مستمر على باب غرفته الصغيرة في بيت الدفيء هذا

اعتدال في جلسته على السرير، وهو يمسح عينيه يزيل منها أثر النعاس والنوم، ثم سمح للطارق بالدخول، ولم يكن سوى حكمة التي .كانت ترتدي فستاناً للنوم بسيطاً باللون الأبيض، وقد كان بأكمام كاملة وبغطاء للشعر مثيل للون الفستان

تلاعبت بأصابعها، ثم نظرت إليه قائلة في تردد وخجل: أريد أن أتحدث معك هل ممكن؟

.أفسح لها مكاناً على الفراش الصغير، حتى تجلس جانبه، ثم ربط على المكان قائلاً: تفضلي بالطبع

فاجأته بقبولها الجلوس إلى جواره، وقد اعتاد جلوسها في غرفتها منذ أن وصل إلى بيتها، ولا تقترب منه حتى في أثناء الطعام بات يأكل .وحده والدواء يأخذه وحده، وكان وجودها أصبح مهمشًا في بيتها

جلست إلى جواره، ثم نظرت إلى عينيه ليصطدم بتلك العينين البنية الفاتحة الساحرة، وصفي الأهداب الكثيفة هذين الآن فجرا في داخله شلالًا عنيفًا للغاية من الأحاسيس وكأنها اختصرت أنوثة وجمال نساء الأرض في عينيها فقط... وكأن الرب أبدع في خلق عينيها لخسارة !!دون عن جمال السماء والأرض بتلك العينين فقط

.همست بنبرة صوت مكسورة وحزينة: أنا خائفة... أحميني أرجوك... لا ملجأ ولا عائذ من دون الرب سواك

أمسك كفيها الصغيرين بين كفيه الضخمين_ الذين امتازا بالقساوة والقوة_ قائلاً في قلق: ما الأمر؟ ما الذي يخيفك أخبريني ولا تقلقلي؟

لمعت عيناها بدموع متحجرة أبت النزول والرضوخ أنا أن عينها اليمنى دون اليسرى قد خانت العهد، ونزلت دموعها الساخنة بقوة من دون سابق إنذار لتمتد أنامله الخشنة تمسح دمعتها من فوق وجنتها الحنطية المشربة بالحمرة، وقد أراحت وجنتها على دفئ باطن كف يده من ما استحثه على الكلام قائلاً في رجاء: لا تخفيني عليك أخبريني ماذا يحدث معك؟

فاجأته برمي نفسها في أحضانه بقوة، وقد بدأت في الإجهاش بالبكاء بقوة، وهي تتمسك بقميصه بقوة أكبر تستمد منه الأمان والدفء الذي هرب منها منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، وانقلبت حياتها من حياة بسيطة إلى حياة يغزونها الرعب والخوف من أن يكتشف أحد دينها الأصلي، وتتعرض للتعنيف أو الموت وهو أبسط حقيقة في أن تختار من تعبد وأي دين تتبعه، لكن لما تلوم نفسها، ولا تلوم !ملوك الطوائف الذين أضاعوا الأندلس في زمن شقوتهم وتشتتهم؟

تكلمت من بين شهقاتها، وقد دفنت رأسها في صدره العريض قائلة: أنا... أنا خائفة... خائفة من كل شيء... كل شيء حولي ضدي... أنا .أحتاج إلى الأمان... و.... ولا أجده

ثم رفعت وجهها الباكي الغارق في العبر الساخنة، ونظرت إلى عينيه قائلة بكل معاني الألم والضيق: هل يمكن أن تكون أماني... هل !!يمكن أن تحميني من خوفي... تمسح عن قلبي حزني وألمي... هل يمكن أن تكون حنونًا على وعلى قلبي... هل يمكن؟

ومع آخر كلمة قالتها كانت قد أثارت فيه مشاعر القلق والأمل. الحب والخوف... الأبوة والحنان... لا يصدق أن جوليانا تطلب منه هو !فقط دونًا عن رجال الأرض جميعًا تضع به الثقة والأمل... وكأنه يملك الأرض ومن فيها وما عليها الآن ولا سلطان مثله الآن

جذب رأسها إلى صدره بقوة، وزاد حدة عناقه، وكان هذا العناق أول درجات الأمن والحنان والأمل، وإمضاء صك الحماية الأبدي الذي .فرضه على نفسه ويال نعمته والنعم بأن يكون مسؤولًا عنها وعن حياتها التي منذ الآن باتت جزء كبير من حياته

أراح رأسه على رأسها، وأخذ يمسح بيده على ظهرها بحنان وهدوء قائلاً: أقسم بكل ما هو مقدس أن أكون لك كل ما تريدين وأكثر وما .دمت حيًا، وبي الروح لن أتخلى عنكِ أبداً

رفعت وجهها، ونظرت إليه قليلاً بهدوء وغموض لم يستطع تفسيره، وقد ظلت متعلقة به بنفس الحدة والقوة من دون كلل أو ملل، حتى .دبت به الرعب من صمتها هذا الذي انتهى بنظرها إلى نافذة الغرفة الصغيرة قائلة في غموض: لكن هؤلاء لن يتركونا وشأننا

قطب جبينه بشدة، وازدادت قسوة ملامحه وهو ينظر إلى النافذة وإذ به يرى أشباحاً سوداء تقف على النافذة تمسك بطبول عالية، وتقرعها بقوة عالية، وترقص بطريقة مخيفة، وأنظارها ناحية الغرفة. التفت إلى جوليانا في هلع، لكن أحضانه كانت فارغة من ما دفعه للقفز بسرعة من سريره غير عابئ بجرحه، وأخذ يطوف حول نفسه يبحث عنها حتى ارتفع صوت الأشباح، وصارت تضحك بقوة وهستيرية مرعبة ورنانة والقرع يزيد وما إن نظر إليهم حتى وجد جوليانا بينهم مكبلة الأيدي تنظر إليه بصمت، واستسلام مخزي، ولا تتحرك وما إن ركد ناحية النافذة حتى اختفت جوليانا والأشباح، وتكسروا إلى شظايا زجاج، وطاروا وتناثروا في الهواء تزامنًا مع تلك الرياح العالية التي هبت بقوة، وأخذت في نثرهم في الأجواء وآخر ما فعله أن صرخ باسمها عاليًا من بلا جدوى لينتفض من نومه على .صوت طرق عال على باب غرفته وأصوات إطلاق أعيرة نارية وصراخ وعويل في أرجاء الحي من حوله

فتح الباب إذ بحكم تقف أمامه وبيدها مصباح جاز، وقد أمسكت يده بسرعة، وهي تسير ناحية رواق آخره باب قائلة في خفوت وهلع: جنود الكنيسة يبحثون عن فرنسي قتل جندي إسباني، ويختبأ في أحد البيوت هيا ادخل إلى المخزن ستجد بابين أسفل السجادة افتح الذي على اليسار، وأغلقه من الداخل، واختبأ بين أجولة البطاطس والبصل هيا بسرعة، ولا تصدر صوتًا وأنا سأغلق الباب من الخارج... ثم .دفعته وهي تعطيه المفتاح والمصباح و، لكنه أبى أن يذهب قائلاً بهمس وعصبية: أنا لن أتركك وأذهب لأي مكان

دفعته بقوة إلى داخل المخزن قائلة بعصبية أكبر وقلق: اسمع الكلام إن وجدك أحد ستكون فضيحة، ولن تستطيع إثبات أنك إسباني هيا أنا .سأتولى أمري

دفعته بقوة، وغلقت الباب من خلفه بالمفتاح، ثم ألقت به في سلة القمامة، وأغلقت الحقيبة السوداء التي بها القمامة وهنا قد حان دور .منزلها من التفتيش والبحث والعبث عندما علت الطرقات القوية على باب البيت

أمسكت بمصباح جاز آخر، وهرولت إلى الباب، ثم أخذت نفساً عالياً، ثم أطلقته بقوة حتى تهدأ ثم فتحت الباب، وكان الباب سداً منيع تكسر وانفجر الماء، وانهمر من خلفه. وفي لمح البصر قد تعبئ البيت بالجنود، وبدأ للعبث، ثم وقفت أمام كبيرهم قائلة: ماذا يحدث... لا أحد معي بالمنزل... كيف تجرأ على اقتحام بيتي في هذا الوقت المتأخر من الليل.

دفعة كبيرهم، وقد تخطاها ووقف في منتصف المنزل ينظر حوله إلى أبواب ومداخل ومخارج البيت والغرف والجنود المنتشرين في كل زاوية ودهليز في البيت لا ينفكون عن قلب المنزل رأسا على عقب.

كانت جوليانا تقف خلف هذا الجندي تمسك بمصباح الجاز متجهمة الملامح مسودة الوجه تراقب كل هذا بصمت غاضب وخائف في الوقت ذاته، غضبًا على حرمة منزلها المنتهكة وخوفًا على حنا، ومن الفضيحة والعار الذي سيلازمانها طوال عمرها إذا لم يجبرها السكان على مغادرة الحي إذا انكشف أمرها والأمر والنهي لو اكتشفوا مكان المصحف الشريف، أو كتب الحديث النبوي أو التاريخ الأندلسي، أو تلك الأوراق التي خطتها بيديها باللغة العربية الفصحى وما سيجر عليها ما هو أبشع من الفضيحة ومغادرة السكن. لكن ليس هذا ولا ذاك ما يجول بذهنها، بل ما يحدث الآن أن تلك الدماء المسلمة الحرة الأبية اندفعت وتدفقت بقوة في شرايينها و اورداتها، وأبت ما يحدث الآن. إذ كان الجنود يفتشون غرفتها، وقد تقدم أحدهم من خزانة ملابسها، واقترب من ملابسها الخاصة هنا وضعت مصباح الجاز على الطاولة بعشوائية، وقد كان يتبعها كبيرهم بعينيه وخطوات بطيئة، حتى وصل إلى باب الغرفة عندما دخلت غرفتها، واقتربت من الجندي بسرعة الطلق الناري، وقد وقفت أمامه قائلة، وهي تحاول التخلي عن تلك الحدة: إذا سمحت هذا الدرج به ملابسي الخاصة لا يمكنك تفتيشه.

أمسكها من ذراعها هذا للجندي، وأزاحها من مكانها أمامه، وقد هم بالتفتيش قائلاً بقسوة: أوامر البابا والكنيسة لا تناقش.

أمسكت جوليانا يده التي تمسك مقبض الدرج قائلة في عناد: لكن حرمات الرب أهم من أوامر البابا والكنيسة، وأنت تتعدى على حرمات الرب... أخبرت سيداتكم هذه ملابسي الخاصة.

لم تتلق جواب سوى صفعة قوية هبطت على وجنته اليمنى بقوة كبيرة اصمت أذن الواقفين، وأسقطت حكمت أرضا تزامنًا مع تلك الدماء التي تدفقت وانبثقت بقوة من شفتيها لتلطخ فستان النوم الأبيض والأرض من حولها، وعلى عكس ما هو متوقع أن تبكي أو تظل أرضا، أو تشعر بالرعب، بل وقفت على قدميها والدماء تسيل من جانب فمها غير مهتمة لما حدث منذ لحظة وجيزة، وأخذت تنظر إلى هذا الجندي والشرر الحر يتطاير من عينيها، وكان نيران العالم تجمعت في عينيها فقط لتعطي هذا الجندي نظرة نارية، وقد قطبت جبينها، واتسعت حدقتاها المكحلة لتتناغم مع سواد عينيها والضوء الأحمر الخافت في الغرفة وكم أرعبته تلك النظرة، ولو أن الكاميرا كانت في هذا الزمن لصورها، وعلقها كأكثر صورة مرعبة لهذا العام، لكن تلك البطلة الجزائرية الحرة التي جاءت بعد حكمت بقرن استحقت هذا اللقب عن جدارة بشهادة العسكري الفرنسي الذي صورها والآخر الذي أعدمها.

وقد تركت حدة نظراتها عندما جذبها جندي آخر من ذراعها بقوة إلى باب المخزن، وقد أشار إليها قائلاً بأمر حازم: افتحي الباب.

رفعت رأسها بشموخ قائله بتحد: اكسره المفتاح ضائع منذ سنوات.

رجع هذا الجندي عدة خطوات للخلف، ثم أشهر سلاحه الناري إلى القفل، ثم أطلق رصاصتين حتى انحل قبل الباب، وفتحه ودخله وهنا، رغم الشموخ والتحدي، إلا أن الدماء قد هربت من وجهها، وشحب وشعرت بجفاف حلقها بشدة عندما وقف كبيرهم فوق السجادة التي من تحتها بابي السرداب، ومن تحت أحدهم حنا الذي الآن بين يدي الله يستمع إلى دبيب تلك الخطوات فوقه والرجل والأيدي التي تعبث ببعض الأغراض من فوقه، ولو أزاح أحدهم السجادة لوجده، وإنه لمن المدركين.

أخذت حكمة تردد في سرها قائلة "وجعلنا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون"... إن الله معنا... أن الله معنا... أن الله معنا.

وقد أخذ الجنود بالعبث في أجولة البطاطس والبصل وبعض الخيوط القديمة والحطب وسيوف قديمة متكسرة قد أكلها الصدأ وأرجوحة خشبية على شكل حصان للأطفال وبعض المفروشات القديمة التي أكلتها الفاران وحشرة القماش.

وقد انتهى العبث أخيرا، وتنفست حكمت بحرية عندما صاح أحد الجنود قائلاً بعد أن وقف أمام كبيرهم يلقي عليه التحية العسكرية: لم نجد شيئاً سيدي.

"انسحبوا إلى البيت التالي وافتحوا عيونكم جيدًا"

ألقى الجندي التحية العسكرية، وقد بدأوا بالمغادرة في نظام عسكري محدد ككتائب صغيرة ومقسمة إلا كبيرهم ظل يتبادل نظرات صامتة مع حكمة لا معنى لها سوى أن تلك الفتاة لن تجر على نفسها سوى الخراب.

هم هذا الرجل بالمغادرة، لكن شعر بأن تحت قدمه شيئاً يميل ويهبط كلما داسه.

!!نظر إلى قدمه واليها قائلاً بهدوء ماكر وخبيث: ما الذي تحت قدمي؟

الفصل السادس

هم هذا الرجل بالمغادرة، لكن شعر بأن تحت قدمه شيئاً يميل ويهبط كلما داسه.

!!نظر إلى قدمه واليها قائلاً بهدوء ماكر وخبيث: ما الذي تحت قدمي؟

رفعت كتفيها قائلة بكل هدوء وبرود_وهي تشبك كفيها ببعض حتى لا ينفضح ارتعاش يديها_: مجرد بلاط مكسور.

نظر إليها بشك، وكان اضطراب جسدها واضحاً، لكن ظلمة الغرفة القاتمة أعمت بصره عن إدراكها بجلاء و، لكن حدسه الأمني يخبره !أنه أكبر من مجرد بلاط مكسور

انثنى بجسده للأسفل، واتكأ على ركبته يسرى وأنزل اليمنى على الأرض، وأخذ في تحسس السجادة وما تحتها من بروز لم يكن غريبًا؛ إذ إن جميع الأرضية في هذه الغرفة غير ممهدة، ومنها ما ليس له ساتر من رمال الأرض من بلاط أو رخام أو خشب.

ولكنه أراد بطريقة ماكرة من رحم الخبث أراد أن يبث بها الرعب لعلها تقع بلسانها، وينفرط عقد رباط جأشها، وتنطق بأي شيء يدلهم على هذا الفرنسي.

لكن حكمة ليست كغالبية نساء إسبانيا، بل فتاة منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها وهي تتعلم فنون الحذر والتخفي وتحسس الأمن، ومتى تتكلم؟ ومتى تسكت، ومتى تقلق؟ ومتى ترتاح، ومع من تتحدث ومن ستصادق وتُحدث أخبارها، فقط كل هذا حتى لا يشك أحد في إسلامها بمقدار حبة من خردل، أو يشعر بأي شك تجاهها، ويأتي هذا بكل بساطة يختبر قوة هدوئها وبرودة أعصابها، كانت كاترينا !!فعلتها وهي تحوم حولها مثل كلب الحراسة أعزكم الله

استند كبيرهم على ركبته اليسرى والأرض، ثم وقف بقامته المتوسطة، وعدل من وضع مقيتة العسكرية وهم بالخروج، ومن خلفه حكمت حتى وقف قبل باب البيت بقليل، والتفت ينظر إليها قائلاً بهدوء: إن علمت أي شيء لا تتكاسلي وأخبرينا حتى نتمكن من القبض على الخائن، ونعيد شرف الكنيسة وهيبة الجنود... أم أنك تكرهين الكنيسة؟

تساءلت باستنكار لسؤاله قائلة: وهل يكره أحدًا بيت الرب؟!... ولا تقلق سيدي أنا تحت أمرك... لينصركم الرب ولتحل عليكم رحماته، ولتكن أم النور نوركم.

خرج هذا الرجل، وأغلقت الباب من خلفه، ثم استندت إلى الباب بيديها التي تمسك بالمقبض والأخرى تنبسط على الباب، وقد أحنت رأسها للأسفل، وأخذت أخيرا في التنفس بقوة وراحة، وقد شغلت عدة مرات بقوة حتى هدأت ثم رفعت رأسها، ومن دون سابق إنذار بسقت على الأرض_ أعزكم الله _ وقد تمنت لو أن الوضع يسمح لها، وبسقت على وجه هذا الجندي الذي ضربها.

ولكنها أكثر العارفين إن فعلتها الحمقاء تلك لن تجعله يضربها، بل سيرسلها إلى الفردوس الأعلى هي، وأحبتها إن شاء الله، كم أنكى !حمقاء، وانا اكره الحماقة

تنفست حكمت لآخر مرة، ثم ابتعدت عن الباب، وأمسكت بمصباح الجاز من على الطاولة الصغيرة، واتجهت إلى منتصف حجرة المعيشة المطلة على جميع غرف البيت والمطبخ، وقد كان الوضع أقل ما يُقل عنه كارثي، وكل شيء في غير موضعه، وكل شيء عُبِث به حتى محراب الصلاة الشموع فيه قد تكسرت ومال تمثال مريم المقدسة على الحائط بزاوية حادة، ووقع الصليب على الأرض.

سحبت نفساً عميقاً، وشمرت عن ساعديها، واستعانة بالله وبدأت في تنظيف البيت ومع كل قطعة كانت تضعها مكانها تقول "حسبنا الله ونعم الوكيل!" وما أثار حنقها وضيقها أن الملابس قد انكبت أرضا بحق الله من سيختبئ في الخزانة الضيقة الصغيرة تلك؟

والآن أنتم تسألون عن حنا، وأنا أقول لا تقلقوا، لكن حكمت قد فضلت وأثرت أن تترك حنا في الأسفل، وهي تستشعر الخطر المحيط بها وصراخ جيرانها يصم الآذان، ومن الأفضل أن يظل في الأسفل ما دام الخطر حولهم، لكن لا مشكلة في طمأنته بهدوء حتى لا يجزع.

اتجهت إلى المخزن الذي بأسفله السرداب، وجلست على ركبتيها، وأخذت في الطرق مرتين ثم مرتين، ثم مرة كما اتفقوا ثم تحدثت بنبرة منخفضة يسمعها هو فقط قائلة: لا تصدر صوتًا إن كنت تسمعني... لقد رحلوا من البيت، لكن الحي معبأ بهم أبقى هنا حتى يرحلوا من الحي وساخرجك... هناك ما في الجرة الفخارية، وإن جعل هناك خضار مجففاً فقط ضعه في الماء دقائق وكل.

في مكان آخر بعيد ينعم ببعض الأمان والهدوء على الأخص في غرناطة لن أنكر أن الوضع في غرناطة أقل قلقًا وتوترًا من مدريد بكثير من حيث الفرنسين فأعدادهم قليلة نوعًا ما، ومن حيث الكنيسة فهي أفضل من مدريد من حيث القوة والرعب. من حيث الجو أدفأ، ومن حيث الحياة فأفضل وبالأخص إن طارق وخديجة ينعمون الآن بقسط من الهدوء والأمن لا مثيل لها، وقد تعرف طارق على أبناء اثانيوس وأبناء خاله الصغار وكون صداقة، وتعود العمل في النجارة، وقد أصبح اثانيوس يأخذه إلى ورشة النجارة معه كل صباح ليمضي وقته، ويتعلم أشياء جديدة، وقد تمنى لو بقي خاله الكبير مريضًا حتى يمكث وقتاً أطول في غرناطة.

أما خديجة، فبالرغم من مقومات الحياة الرائعة حولها من حيث إخوتها وسعادة طارق وزوجات إخوتها يتناقشون معها والأطفال الصغار يتعلمون منها الحياكة، وتصلى في جماعة بين إخوتها وزوجاتهم، وتقرأ القرآن في أمان وهناك من يلبي طلباتها دون الحاجة إلى تعب، لكن قلبها في مدريد هناك مع جوليانا، ولم يهدأ قلبها أبداً، بل يصرخ بقلق كل يوم، وباتت تختنق بالخوف كلما فكرت فيها، وتصورت تلك السنريوهات البشعة وما قد يحدث لها إن وقعت في قبضة المحاكم وهل ستراها مجددا أم لا؟!

لتنهي صراخ قلبها وقلقها وهي تنظر إلى السماء تناجى ربنا قائلة في قلق: حفظك الله ونجاكى منهم يا قلب أمك.

والآن سنذهب لأول مرة إلى أسفل الأرض سويًا حيث حنا الذي حاله الآن أقرب إلى حال جرذ هارب من قط شوارع ينتظر منه خطأ ليصبح وجبة العشاء اليوم _ وأنا أعني ما أقوله ليس لأن حنا وسيم سأرفع من شأنه في التشبيه... فكم سامة من التشبيهات الوسيمة! _.

كان كل شيء فوقه يسمعه ويصم أذنه حتى تلك الصفعة كانت أكثر ما سمعه وصدى لها صوت في أذنه وقلبه وعقله بقوة، وقبل كل شيء من تلقت الصفعة الآن جوليانا ليست أي امرأة أخرى.

كان يتمنى لو بيده أن خرج لهم، وصفع وسخ الكوز هذا ولقنه درسًا، لكن غريزة البقاء كبلته، واستسلم لها استسلامًا مغزى وبشدة، وتعلل بأنه سيعوضها بزيادة أجرها الذي ستحصل عليه منه فوراً تعافيه، ولكن هذا الماء العكر الذي تعلل به لم، ولن يطفأ تلك النار التي اشتعلت بين ثنايا ضميره الذي استيقظ بعضه توا.

حالة حق من استسلام مخزي.

ولكنه حاول أن يُرح ضميره باستماعه لصوتها، وطمأنته بأنها بخير، وعلى ما يُرام، لكنه يعلم أنها ليست على ما يُرام!

اشتد فكه للأمام، واستند برأسه على الحائط خلفه، وأغمض عينيه بضيق وسأم من كونه قد يمكث للصباح هنا وحده، وإن أبغض شيء على قلب حنا الوحدة، فهي من اسوء المشاعر التي تراوده أن يبقى وحيدًا بلا أنيس أو صديق أو رفيق ينسيه ألمه، ويشاركه ليلة وسمره!

!التفت ينظر إلى هذا السرداب، وقد وقف يتفحصه وبيده مصباح الجاز، ولم يكن سرداب وحسب، بل عالم آخر تحت الأرض

بدايةً من الحوائط المدهونة بلون أبيض، وقد بدي الدهان قديماً ومتشقق، لكن هناك أشياء نظيفة وجديدة، وتلك المقاعد الأربعة المنزوية وسرير صغير وجرار فخارية مليئة بالماء، ودلوي جاز كبار والكثير من الكبريت ووابور جاز وهناك في هذا الچوال الذي فتحه بضع البنادق والذخيرة والسيوف، وفي أجولة أخرى خضراوات مجففهو بعض الأعشاب وچوال فيه بعض الملابس البيضاء القطنية الرجالية والنسائية وبعض الخيوط والإبر، وفي ناحية أخرى على طاولة في زاوية السرداب بعض الأواني الفخارية والنحاسية ومصابيح الجاز، .وفي سطل أسفل الطاولة يوجد صابون وبعض أدوات التنظيف، وكأنه الآن في بيت آخر أسفل البيت و

!!ليس هذا المهم فالاحتياط واجب، لكن ليس بتلك الطريقة

والأهم من هذا لو كان هذا فقط في السرداب الأيسر ماذا يوجد في الأيمن وما حاجة فتاة وعائلة صغيرة لكل تلك المؤن، وهذا المنزل !!الآخر أسفل منزلها؟

حك فروة رأسه في دهشة، وتفكير وكأنه عاد إلى العصور القديمة، وإلى أيام الحرب ليجد كل هذا، لكن شيئاً واحداً مفقود في هذا البيت !الصغير، تماثيل مريم العذراء والصُلبان وصورة يسوع والعذراء. أين العبادة من كل هذا؟ ولما اللون الأبيض في الملابس؟

الآن لا يشعر فقط بالدهشة والحيرة، بل بالغباء أيضا لعجزه عن إيجاد تفسير منطقيّ لما رآه اليوم، وكل يوم تزيد تلك الفتاة من دهشته !وحيرته

أفاق من تفكيره على صوت طرقات حكمت الخمس المتباعدة، وقد همست له بأن يفتح الباب من عنده، وقد امتثل لأمرها، ومدت له يدها يتمسك بها في أثناء صعوده، وقد وضع المصباح على أرض المخزن في الأعلى، ثم بدأ هو في الصعود، لكن جزاً على أسنانه بألم، وقد .جرحت ذراعه جراء قطعة حديد حادة بارزة من الباب لم يلاحظها كلاهما

ساعدته على الصعود وأخيرا أصبح يتنفس هواء طبيعياً من دون رائحة الأتربة في الأسفل، وقد اعتذرت منه حكمت قائلة: أنا آسفة حقاً لم ألحظ الحديد... اعذرني... هل تؤلمك؟

.وضع يده عليها، وأمسكها وهو ينكس رأسه، ويهزه قائلاً من بين أسنانه: بشدة

أمسكت يده وهي تساعده على الوقوف متجهة به إلى حجرة المعيشة، وأجلسته على أحد الكراسي، ثم رقدت ناحية غرفتها تحضر منها خيوط طبية وقطن نظيف وزجاجة عطر، ثم رقدت إلى المطبخ تحضر طبقاً غويط وبراد الشاي به ما ساخن، ثم جلست جانبه قائله: أرنى .ذراعك

خلع ثوبه بحرص ليكشف عن صدره العريض وبعض الندبات والكدمات البنفسجية وخصره الملفوف بالشاش الأبيض مغطيًا جرحه .السابق

وعلى أضواء مصباح الجاز أخذت ذات الوجنات الوردية المشتعلة تتفحص ذراعه، وقد كان جرحًا غائرًا بعض الشيء جراء اختراق .قطعة الحديد ذراعه بعمق وخروجها مجددا

.أمسكت بالعطر، ووضعت منه على القطن، وبدأت بتطهير جرحه قائلة: ستؤلمك قليلاً فقط أرخى ذراعك

استجاب لها، وأخذ في الجز على أسنانه بألم كلما لمست جرحه، وقد حاولت أن تخفف قوتها بقدر المستطاع، حتى انتهت من تضميده .جيدًا، ثم نظفت المكان حولها، وأحضرت له ثوباً آخر، وساعدته على ارتدائه

همت بالرحيل لولا أنه أمسك بيدها اليمنى قبل أن ترحل_ قد كان طوال الوقت يحاول أن يفتح باب الحديث معها، لكن دموعها المتحجّرة في عينيها تلك كانت تمنع من أي محاولة أو أقدام، وقد كانت بين اللحظة والأخرى تتشنهج متعللة بأن الجو بارد وأنفها يتحسس البرودة، ولكنه آثر الصمت حتى لا يحرجها، لكن تلك الدمعة التي سقطت على ظهر يده أوقفت بروده، وأنفته عند حدها، وقد نهر نفسه بعض .الشيء_، ولما الكبر معها، وقد فعلت اليوم ما فعلت ولولا تلك الفتاة لكان رأسه معلقًا الآن على أبواب مدريد

لما الدموع؟! ما فعلتيه اليوم يجعلني فخورًا بكى ومدينًا لكي طوال عمري... لولا شجاعتك لكان رأسي الآن متدحرج عند قدميك." ثم " .تجرأت يده، وزحفت ناحية وجنتها تحاول محو دموعها المنهمرة بقوة نهراً عند منبعه

ولكن قبل أن تصل يده إلى مرامه ومبتغاه قد هربت من أمامه بقوة ناحية غرفتها، وأغلقت الباب بقوة، وجلست خلفه على الأرض متكورة على نفسها تخفي رأسها بين ركبتيها ومرفقيها، وقد بدأ يعلو نحيبها وبكائها مثل الطفل الذي كُسرت لعبته، أو مُنع من اللعب مع أصدقائه، لكن الوضع مختلف الآن تلك الدموع ليست عادية أو حتى من الألم أو الحزن فقط، بل دموع حرقه، حرقة على كرامتها التي أُمتهنت وعزتها، وكم الخزي الذي ألم بها اليوم من كل جانب، وكانت شهقاتها تعلو بقوة وكأنها دعاء أيوب في مرضه "ربي إني مسني الضر" !و، لكن اللسان عاجز الآن عن أبسط الحقوق الدعاء

تبكي كرامتها... تبكي إسلامها... تبكي المها... تبكي عجزها... تبكي ضعفها... تبكي شوقًا لوالدتها التي لو كانت هنا الآن لمسحة عنها دمعتها، وخففت عنها ورحمة فؤاد العصفور هذا من كل هذا الألم والضعف. أكان عليها أن تُلد في وطن مسروق، وأن يكتب عليها الهروب والتخفي من العالم دائماً... على ماذا تبكي وقلبها يصرخ عوضا عن لسانها يا لله أنقذنا من ما نحن فيه... ابعث لي السلام ابعث !لي السكينة... ابعث لي الأمن... يا سلام يا رحمن يا رحيم يا لطيف الطفى بي وارحمني من ما أنا فيه... وأندلسية

وعلى الناحية الأخرى كان حنا يضع رأسه بين كفيه يصم أذنه بيديه عن صوت بكائها، لكن لا رادع ولا مانع لصوت بكائها الذي أيقظ بقايا متناثرة ومتهشمه من ضميره الذي لأول مرة منذ أن كان في صباه يرق لباكي وباس مثل جوليانا، وقد كان قبل لحظات يُسكن .ضميره الميت متعللاً بأن الأمر سهل وستنسى، لكنه أدرك الآن أن الأمر ليس سهلاً أبدا، ولو كان محلها لما رضي بالإهانة ولو بعد حين

وقف من مكانه متثاقلًا يكسوه الهم، ويغمره حتى عنقه، ثم اتجه إلى باب غرفتها، وجلس أرضا هو الآخر، واستند برأسه وظهره على الباب مقابلها، ثم تحدث بهدوء قائلاً: قد أكون متكبراً لا تعنيني أمور غيري وفظ الطباع والقلب وأحب نفسي، ولا أستطيع التحدث مع .الفتيات والنساء، ولا تظني أن ابنة بلايو فتاة، بل غوغائية صبيان الأزقة والحارات، لكن أريد أن أتحدث معكي

قضم شفته العليا، ونظر إلى السقف الأبيض الذي به شق خفيف بطوله، وقد شعر أنها بدأت تهدأ وتستجيب له، ثم استطرد القول قائلاً: أنا لم أر في حياتي امرأة مثلك... كل حياتي بين الجيش والمحاكم والنبلاء والسادة وما إدراكي من هم نساء السادة؟ مجموعة من الحمقاوات يرفضن العمل في بيوتهن خشية تلوث أظافرهن أو تشقق أيديهم... يرتدين أفخم الثياب والمجوهرات، ويصففن شعرهن على أحدث صيحة، ولكن عقلاً نادرًا إن وجد... عمل لا عمل طوال الوقت نفسها فقط... عباده لا يعرفن الكنيسة إلا كل أحد، وفي الإكليل والقداس... أطفال لا يعرفن عن تربيتهم شيئاً... نظرة لا يملكن نظره في أي شيء بالنسبة لهم العمال والفلاحين والتجار عبيد حتى ولو كانوا أحرارا أو موالي لهم، ولا أنكر أنني لا أنظر إلى الناس مثلهم، بل أراهم سبباً في الوباء والبلاء وأكثر من كونهم أغبياء، بل نعم الرب كثيرة عليهم... لكن أنت غيرتي وجهة نظري تلك... أفعالك... أقوالك... عملك من دون سأم أو تعب... رعايتك لي... عفتك... تدينك... ذكائك... كل هذا غير وجهة نظري عن العالم والناس بات عقلي ينفتح قليلاً ليدرك ما حوله... جوليانا أنتي فريدة من نوعك... هذا الغبي الذي تجرأ عليك لا يعرف قدرك... أنت تستحقين أن تكوني سيدة من النبلاء أفضل من مئات الحمقاوات... أنت أنقذت حياتي مرتين... لا يمكن أن يكون هناك من يشبهك... أزهى بنفسك و تفاخرى... دموعك تلك لا تهبط إلا على عزيز... أنت هبة وهدية للجميع... أنا لا أتخيل هذا العالم من دونك، أو من دون أعشابك أو أدويتك أو العطور التي تصنعينها... أو من دون خجل... أو من دون ابتسامتك الرائعة... أو عيني المها... أو بشرتك الحنطية... لا بد أن تزهى بنفسك، وتزهو بكى أمك، ويزهو بكى اخيكى وحيك... قد لا نرى بعضاً مجددا... لكن أريد منك أن تبتهجى... اهدئي فالعمر أمامك طويل، وستقابلين الكثير من نوعية ذلك المنحط هل ستبكين وتظهرين ضعفك .بسهولة أم ستكونين قوية... قلبك كقلب العصفور لا يصلح لزمننا هذا... اتفقنا لن تبكي مجددا؟... بالمناسبة أنت لستي سمراء لا تقلقي

ومن خلفه كانت حكمة تستمع لكلماته في سعادة غامرة وكبيرة، فاضت وغطت حزنها، وطمثته وبكل سهولة بكلمات رقيقة وطيبة مسحت دمعتها، وربطت على قلبها في نعومة وحنان، وقد ابتسمت ومسحت دموعها، وتذكرت والدها الراحل الذي طالما مدحها ومنحها الثقة بنفسها طوال عهدها به حتى وهي ما تزال صغيرة كانت تتلقى منه كلمات العزم والتشجيع والقوة التي انقطعت عنها منذ أن كان رحل والدها، ورحل معه الأمان والتشجيع والأمل، والآن حنا يذكرها بكل ذلك ببساطة وهدوء، يعطيها الأمل والحنان، ويغسل قلبها من الحزن .بكلمات سلسة، لكن مفعولها أقوى على قلبها من سحر بابل العظيم

.تلاعبت في هذا الخيط المتدلي من فستان نومها قائلة في خجل وقوتها مبحوح من أثر البكاء: شكرا سيدي... أرحت قلبي... باركك الرب

على الناحية الأخرى ابتسم حنا بهدوء وكأنه يرى ابتسامتها الصغيرة ووجنتيها المتوردة خجلاً أمامه الآن، ونظر إلى الباب، ثم عاود النظر إلى السقف قائلاً بهدوء: العفو... ثم تابع قائلاً ببعض المرح حتى يكسر هذا الحزن قائلاً: سأخبرك بشيء لم أخبر به أحدا من قبل... أنا أخاف من الغربيين... ليس خوفاً بالمعنى الحرفي، بل هي نذير شؤم بالنسبة لي... تخيلي ريشه أسود وعينيه سوداء ومنقاره أسود وقدمه وأظافره أيضا... عندما أراه في الصباح يصبح يومي سئ وعصبياً للغاية لدرجة أنني وضعت فزاعة في غرفتي، ولكن عندما علمت أمي رمتها وأعطتني درساً في القدر والحظ ولكني لم أقتنع... وأنت ماذا يخيفك؟

بللت شفتها، وابتسمت قائلة في هدوء: أخاف من الظلام... رغم عمري هذا، إلا أنني أخاف الظلام، ولا أنم إلا والشموع المضاءة جانبي لذلك يهرب أخيلا أخي من النوم في غرفتي هو وأمي في الصيف؛ لأن هواءها بارد عن باقي المنزل... لكن ستقول شيئاً آخر أنا أحب اللون البنفسجي والأبيض، بالرغم من أني لم أر اللون البنفسجي في حياتي إلا مرة واحدة، ولا أملك حتى منديل باللون البنفسجي لكني أحبه بشدة... وأنت ما لونك المفضل؟

أخبرتك قلبك قلب عصفور صغير... أما لوني المفضل هو البني والأخضر." ثم تابع قائلاً بهدوء ومرح: سأحكي لي موقف حدث منذ " زمن... كنت في السابعة عشر من عمري كنت في الحديقة الخاصة بالمنزل أتدرب على الخيل، ووقعت من فوقه؛ لأن السرج مفتوح، وأخذت أعنف السائس على ما فعل وضربته بشدة لألتفت ورأى أرى فتاة بعمر أربع سنوات تبكي بشدة، وهي تشاهد ما يحدث وتنتحب بقوة حتى أقبلت إحدى الخادمات تحملها وتحاول إسكاتها، ومن بلا جدوى، حتى اقتربت منهم، وزاد بكاؤها وأخذت تخفي وجهها في صدر الخادمة، وقد شاهدتني وخافت منى، ولا أريد أن أخبرك ماذا فعل بي أبي عندما دخلت الخادمة بالفتاة إلى القصر، وقد كان أبوها حداداً، وصنع لأبي عدة بنادق، واحضر ابنته يومها، وحكت ما رأته... زفر أنفاسه وهو يضحك بسخرية قائلاً: أبي ضربني وحبسني في غرفتي، ومنعني من الخيل والسيف لشهر لا تعلم الأدب، وقاطعني أخي بلايو وزوجته أيضا وأمي أعطتني درساً في الأخلاق لن أنساه... .والسبب طفلة صغيرة... والآن بالتأكيد أصبحت كبيراً أو أم على الأقل

تجاهلت حكمت تلك القصة وكأنها لم تسمعه ثم تساءلت في خبث من خلف قائلة: وهل رأيتها بعد ذلك؟

".مرات عديدة كانت تأتي مع أبيها إلى القصر، ولكن أصبحنا رفاقاً بعدها لم أقتلها"

تابعت بلوم قائلة: منذ متى لم ترها؟

آمال حنا رأسه، وأخذ يفكر بهدوء، ثم أجاب بتفكير: أربعة عشر عامًا منذ أن كان عمرها ثماني سنوات، ثم هاجرت كنا نعيش في غرناطة، ونحن انتقلنا لمدريد منذ أربع سنوات فقط... لم السؤال؟

.قامت حكمت من على الأرض، ووقفت قائلة وهي تفتح الباب بحزم: قف لو سمحت سأفتح الباب

امتثل لأمرها ووقف، وقد قطب جبينه بشدة، ودهشة حتى وقفت أمامه، ونظرت إلى عينيه لأول مرة منذ مجيئه قائلة بهدوء: كانت تلك .الفتاة ترتدي فستاناً أزرق، وعقدت شعرها على هيئة أذني قطة... ووالدها يدعى أندرو أغسطس... ولديها شامة حمراء أسفل أذنها

هز رأسه بنعم، ولا يزال في حالة من الغباء وعدم الفهم والغباء مجددا، حتى صاحت قائلة في حنق من غبائه: أنها أنا جوليان ابنة أندرو أغسطس الحداد، ثم أخرج من ثوب نومها صليب من الفضة عليه جسد المسيح -عليه السلام- قائلة: هذا الصليب كان هديتك عندما رأيتك ...آخر مرة... أتذكر عندما أعطيتك دميتي الخشبية هدية مقابل الصليب... كيف لم تعرفني ومنذ الدقيقة الاولى قد عرفتك

الفصل السابع

بسم الله الرحمن الرحيم وبسم رب العرش العظيم وصاحب الاسم الأعظم والتسعة والتسعين ورب الملكوت والسماوات والأراضين " "السبع، نبدأ بشرع الله والقرآن وسنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين

في غرفة صغيرة حول طاولة أصغر، وعلى ثلاثة مقاعد متقاربة نطق بتلك الكلمات العامرة بذكر الحق القدوس السيد أحمد الأخ الأكبر لإليزابيث، وقد تماثل بفضل الله للشفاء، وانتهت نكبته على خير، ولكن جرح فقدانه لأبيه ما يزال قائماً_سبحان الله مهما كبر الإنسان يظل _ طفلاً يحتاج إلى والديه، ولو بلغ المئة، وتلك هي فطرة الله في الأرض فنحن مهما كانت خبرتنا وعلاقتنا نظل صغاراً بجانب أبوينا.

نظر السيد أحمد إلى إخوته، ثم أمسك بلفافة الورق تلك التي كانت على الطاولة، ثم أبعد الخيط البني الذي يربطها ثم أخذ يتفحص الأوراق حتى يعطي لكل منهم حقه ويتفرق الخلق.

ثم نظر إليهم قائلاً بهدوء: أبي قبل وفاته قسم الإرث بشرع الله وبالعدل بيننا، وقد كتب بهذا، وسجله في دواوين الدولة ولكلاً منا الحق في تصرفه.

ثم أمسك بورقة، وقلم للأعمال ريشه، وبدأ يخط بعض الكلمات الإسبانية قائلاً وعينيه معلقة في الورقة: أنا سأمنح أختي خديجة بإرادتي الكاملة عشرة قراريط من إرثي... وبعد الغد سنذهب إلى الكاتب ليوثق ما دونته.

ليست في ذلك صفوان، ويخط هو الآخر ورقة يتنازل هو الآخر عن عشرة قراريط من قطعة الأرض التي ورثها عن أبيه التي هي فدانان للذكرين وفدان لخديجة، ثم وضع كلاهما الأوراق أمامها لترفع حاجبيها في عجب ودهشة، وتبعد الأوراق قائلة بهدر: هل جننتم؟: هذا حقكم مالي، ومال كل تلك المساحة من الأرض أنا كنت سأبيعها وأعود لمدريد... هذا حقكم كما شرعه الله أتريدون أن تجعلوه أغلالا في عنقي يوم القيامة.

أمسك أحمد بيد خديجة قائلاً، وعلى شفته ابتسامة حب أخويه: ومن قال إننا نحملك أثم... نحن نريد مكوثك معنا في غرناطة لا داعي لتلك الغربة... تعالى أنتي والأولاد إلى هنا واستقروا هنا وأعملوا هنا.

ابتسمت بدورها قائلة: سلمت يا أخي، لكن صدقني أتمنى العيش معكم، وأن أشعر بهذا الدفء والأمان الذي أشعر به هنا طوال عمري، لكن لا يمكن... أنا لن أعيش خمسة وأربعين عامًا أخرى لن أكون اسماً، وسمعه في عملي مجددا كما الحال في مدريد... وذكرياتي وقبر زوجي في مدريد كيف أترك زوجي، وأعيش بعيدًا عنه، أخبرتك... أنا كل ما أريده أن أبيع قطعة الأرض، وأعود إلى ابنتي لا أكثر ولا أقل، ولعل الله يحدث أمرا نصبح في لحظة أحرارا لا نخشى على ديننا وأموالنا وأبنائنا شيئًا كما نحن الآن.

اقترب حنا منها، ثم امسك بالصليب المنسدل على صدرها، وأخذ يتحسس النقش بهدوء وأنفاس جوليانا الثائرة تندفع في وجهه المنحنى ناحية الصليب، وقد اهتز شعره المتساقط على جبينه من حدة أنفاسها، ثم رفع عينيه ينظر إليها وهو على حالته تلك لم يتحرك وارتفعت زاوية شفتيه بابتسامة ساخرة، ثم دنى بوجهه منها أكثر، وهمس بسخرية قائلاً: ومن قال إني لم أعرفك؟ عندما أفقت كنتي ترتدين ذلك الصليب وغير هذا عمرك وأسمك، هل تعتقدين أنني غبي مثلا؟! أنا فقط كنت أختبر صبرك.

قطبت جبينها بشدة، والتحم حاجبيها بقوة، واحمر وجهها من الغيظ، وزمت شفتيها بغضب، وها هي الآن تُظهر مدى سذاجتها وبراءتها أمامه، إذ ظنت أنها تستطيع أن تتلون وتتخفى على حنا بجلاله وخبرته الكبيرة في الحياة.

!!ولكن إن كان علم من هي فلا ننسى أنها تخفى ما هو أكبر وأعظم من كونها جوليانا

همت بالرجوع إلى غرفتها، وتهرب من أمامه، وتنفلت من عينيه الساخرة وعلامات الغيظ والإحراج تكسو وجهها، ولكنه أمسكها من صليبها المتدلي من عنقها قبل هروبها قائلاً بسخرية: مهما كبرتي ما يزال عقلك صغيراً وبرئ يصور لكي ما لا تسميه... ثم دنى من وجهها أكثر، واقترب منها أكثر، وقد تراجعت إلى الوراء حتى اصطدم ظهرها بالجدار، وقبضت على ثوبها بشدة تستمد منه القوة وهي الآن بين حائط وحائط بشرى يفوق حجمها وطولها وعرضها، ومن نظر إليه من خلفه لظن أنه يتكلم مع نفسه وفوق هذا الخجل الشديد الذي عصف بها، ومنع الكلام من الخروج من حلقها، ولا ننسى هذا النوع من الرعب قد تسلل إلى عينيها بقوة من هذا المأزق الغبي الذي وضعت نفسها فيه، ولا أريد أن أخبركم أن أنف حنا الآن تشتم هذا الرعب بسهولة ومهارة.

ولكن الرعب ازداد عندما شعرت بأنفاسه الساخنة تضرب وجهها مثل السنة ألهب قائلاً بسخرية مغلفة بالتحذير والوعيد أنا لا أحد يعبث معي أبداً.

أتفهمين ذلك يا سكرة؟

أخفضت عينيها أرضا، وهزت رأسها بنعم قائلة بهدوء لا يدري كيف أظهرته بتلك البراعة: نعم سيد حنا لن أعبث مع حضرتك أبداً... عن إذنك أريد النوم.

أفلت القلادة، وابتعد عدة خطوات إلى الوراء وعينيه لا تنفك تنظر إلى وجهها الغاضب الحنطي الصغير هذا بغموض، ولكن ما أن دخلت غرفتها، وأغلقت الباب حتى فتحت الباب مجددا، وقد سمعت طرقًا قويًا على الباب الخلفي، وقد شعرت أنه قد يكون بلايو أو أحد أفراد عائلة حنا وبالطبع قد زُف الخبر على ضرب الدفوف بما حدث في حيها منذ زمن ليس ببعيد.

أشارت إليه في صمت أن يدخل إلى غرفته وما أن دخل وأغلق الباب حتى ذهبت إلى الباب، وفتحته وبالفعل صدق ظنها، وقد كان بلا هو وحده.

دخل البيت بسرعة البرق، وقد أغلقت خلفه حكمت الباب، وجرت خلفه لتواكب سرعته، لكنه سبقها مقتحمًا غرفة حنا وهي من خلفه بلا أدنى ذوق أو أدب لترفع كتفيها باستسلام، ولا مبالاة وتذهب للمطبخ مجبرة على إعداد الضيافة لذلك البلايو _ولكن بيني وبينكم، ولا تخبروا أحدًا بما سأقول، بلايو لا يحب حكمت ولا يرتح لها وكما يقال لولا الحاجة والعوز ما لجأ إليها، أو طلب منها شيئًا، وهو يؤمن بالإيمان كله أنه مهما فعلت فهي ليست أقل من مجرد امرأة من العمال، وفقط حظها أنها ولدت من طبقة الأحرار لا العبيد_.

هرول بايو إلى حنا مسرع وبالدور قد وقف حنا يستقبل أخاه بالأحضان والأشواق الحارة، ثم ابتعد عنه قائلاً في قلق وهو يتفحصه: هل صحيح ما سمعت؟ هل أنت بخير؟

ربت حنا على ذراع بلايو بهدوء، وأجلسه على السرير قائلاً: أهدي أنا بخير... صحيح ما سمعت، لكن لا تقلق.

سائلة في توجس قائلاً: أخبرني تفاصيل أكثر... كيف لم يمسك بك أحد؟!

"جوليانا خبرتنا في سرداب بيتها؛ ولهذا لم يعثر على أحد... أتعلم لم أكن أعتقد أنها ستتحلى بتلك الشجاعة، وتساعدني"

رفع بلايو كتفيه بعدم اهتمام، وابتسم بسخرية واضحة قائلاً: وهل كنت تعتقد غير ذلك... أي أحد في مكانها كان سيفعل ذلك ليرفع سعر أجرة.

نظر إليه حنا نظرة باردة خالية من أي تعابير أو مشاعر، وقد فهم بايو أن أخذ الآن. أما يفكر أو يستنكر ما قد قيل الآن ولو كان يفكر، فهذا شيء جيد جداً. أما لو كان يستنكر فهو يقحم نفسه في أكبر خطأ قد يحصل في تاريخ عائلته أن يقع في حب راعية غنم، ويتلوث نسل العائلة، وتختلط دماؤهم بدماء الرعاة والفلاحين!

أخرجهم من دوامة التفكير التي أصابت كليهما صوت أزيز الباب ليعلن عن دخول حكمت تحمل بين يديها صينية كبيرة به إفطار لهما، وقد وضعتها على أحد الكراسي بالغرفة، وقربتها أمامهم ثم قالت بهدوء، وهي تهم بالخروج: بالهناء والشفاء عن إذنكما.

وما أن اقتربت من الباب حتى ناداها بلايو الذي كان يتكئ على ركبته بيده، وقد نظر إليها نظرة شمول، وتفحص مشوبة بالاستحقار والازدراء قد تابعها حنا بشك، واهتمام وحكمت بتوجس وقلق. لينهي بلايو جلسة الظنون تلك عندما تحدث بمنتهى الغرور والتكبر قائلاً: لم لا تنحنين عندما تقفين أمامنا؟ حتى عندما جاءت السنيورة مارلين والسنيورة إيفا لم تنحني، ليست أول مرة تفعلينها.

ارتبكت بعض الشيء، وصدرت منها حرارة تدل على مدى الإحراج والضيق الذي تتعرض له الآن، ولكن هذا الإحراج ليس عادياً، بل إحراج مشوب بالازدراء والتقليل لتتجمع الدموع في عينيها، وتأسر الأرض بعينها غير ملاحظة لحنا الذي نظر إلى أخيه مُتفاجأً بما فعل الآن، ثم نظر إلى جوليانا التي يراها الآن في حالة من التشتت والإحراج، وأراد أن يتدخل ويوقف تلك المهزلة، لكن سبقته جوليانا التي نظفت حلقها، وأخرجت صوتًا جاهدت في جعله طبيعيًا قائله وعينيها أسيرة الأرض: آسفة سيد بلايو خطأ لن يتكرر.

ثم انحنت بركبتيها واعتدلت قائله: عن إذنكما.

ثم خرجت من الغرفة أو لنقول هربت أو فرت من الغرفة إلى الحمام تغسل وجهها من بين شهقاتها المكتومة، حتى تداري تلك الدموع الحمقاء التي لا تزورها إلا في مواقف لا تحتاج إليها مُطلقًا، بل تحتاج إلى ذكائها وحكمتها التي تكن معها طوال الوقت، وتفر منها في موقف مثل هذا الموقف السخيف من شخص سخيف مثل باليو.

وعلى الناحية الأخرى كان حنا ينظر إلى أخيه بضيق وسأم من أفعاله تلك، وكيف أحرج الفتاة أمامه، ولم يشفع لها عند بلا هو ما تفعله من أجله وكأن هذا واجب عليها، وليس فضلاً منها عليهم.

سأله في ضيق تخلل بين نبرة صوته قائلاً: لقد أحرجتها.

أمسك بلايو بشريحة جزراً كانت في أحد الأطباق، وتناولها قائلاً بلا مبالاة: هل الحق سيئ لتلك الدرجة؟

ثم التفت إليه قائلاً باهتمام: المهم أنا كنت أريد أن أخبرك بشيء... البابا يريد التحدث معك حاولت إثناءه عن ذلك، لكن هدد بأنه سيقصيك عن منصبك، فأجبرت على أن أخبره بأنك خارج البلاد، وستعود فور انتهاء إجازتك.

قطب جبينه بقلق قائلاً: ألم يخبرك بما يريد؟

هز بلايد رأسه بالنفي قائلاً: حاولت معرفة الأمر، لكنه رفض الإفصاح. ثم تابع بتكهن قائلاً: لعله يريدك في نقل، أو ترقية هذا ما يجول في بالي الآن.

نظر إليه حنا بأمل قائلاً: أتمنى أن تكون ترقية... سامة الشرطة وتدريباتها ومسؤوليتها.

نظر إليه بلايو بتلاعب قائلاً: لا تأمل فالبابا لم يكن سعيدًا، وهو يطلبك لعله يريدك بسبب حادث الأمس.

نظر إليه حنا في ريبة، وقد ضيق عينيه قائلاً بوسائل: متى قُتل الجندي وكيف؟

نطق بلايو بتفكير، وهو يتذكر التفاصيل قائلاً: في الصباح أمام محكمة مدريد كان يركب عربة تجرها الخيول أطلق الرصاص على الحرس قتل واحد وأصاب اثنين.

ثم وقف بلايو قائلاً، وهو يهم بالخروج: أتمنى أن يستجيب لي الرب، وتخرج من تلك المصيبة سالمًا. ثم ربت على كتفه قائلاً: سأذهب... أتمم شفاءك سريعًا.

ربت حنا على كفه قائلاً بأمل: بمشيئة الرب... اعتني بنفسك وبأمي، وأبلغها سلامي.

"ليكن ذلك... وداعًا"

وعلى الناحية الأخرى كانت جوليانا قد خرجت توا من دار الخلاء وقطرات الماء تهبط من وجهها ويديها، وقد فضلت ترك الماء على وجهها، حتى لا تظهر تلك الدموع التي ما تزال منهمرة. فمهما كان هي لن تظهر أن كلمات بلايو هذا قد أثرت فيها، أو أزعجتها على العكس تمامًا هو مجرد ذرة غبار حكت أنفها عطست وارتاحت منها.

وتزامنًا مع خروجها قد خرج بايو من غرفة حنا وما أن رأته حتى انحنت بركبتيها احترامًا له، ثم اتجهت إلى الباب، وانحنت مجددا حتى خرج وما إن خرج حتى أغلقت الباب، واستندت إليه بظهرها، ونظرت إلى السقف العالي، وقد هبطت تلك الدموع المترقرقة في عينيها، وشعرت أن هذا البيت الكبير الواسع أصبح أضيق من القبر وأكثر ظلمة من ليلة خسوف بأسه. شعرت أنها تريد أن تهرب من هذا البيت، ومن تلك الدنيا إلى دنيا هادئة أخرى تمسح عنه الحزن والألم وما تلقته من إهانة اليوم يكفي للغاية.

هرولت إلى غرفتها، وأخرجت ملابسها من خزانتها الصغيرة، وبدأت تبدّل ملابسها عازمة على الخروج من البيت، حتى تهدأ قليلاً غير مهتمة لما قد يحدث في غيابها، أو من قد يأتي أو حتى بأمر حنا الماكث في غرفته وسحقًا لأي أحد الآن الأهم هي نفسها الضائقة ذرعًا.

في الجوار كان حنا مضجعًا على سريره يضع رأسه على يده المنثنية أسفل رقبته ويده على صدره الصلب وعيناه معلقة بالسقف، وكل ما يجول في عقله الآن هو مستقبله المهدد بالفناء والاندثار بسبب بعض الأغذية والحمية من الطرفين؛ بسببهم قد يذهب منصبه، ويطير في الهواء مثل الرماد وكأن شيئًا لم يكن ويجلس إلى جوار والدته في البيت يندب حظه العثر الذي جعل بعض الحمقى الذين عينهم بنفسه يُطيحون به كالقمامة.

زفر أنفاسه بضيق، وتسللت يده إلى الصليب الذهبي الذي في عنقه، ثم رفعه يقبله ثم نظر إليه قائلاً في رجاء: اشملنا برحماتك وأنجني من ما أنا فيه يا رب... اغفر لي وأنهى الأمر، وسأصلي لك وأذكرك ما حيت، لكن احمني بحقك وبحق العذراء... آمين.

ثم تركه وأخذ يرسم الصليب على جسده قائلاً: بسم الآب والابن والروح القدس.

ولكن ما كاد ينهي صلواته حتى شعر بباب البيت يُغلق وبضجة في الخارج جعلته يقف منتصبًا، واتجه إلى الشرفة إذا به يرى حكمة تقف مع شاب ما، وحولها القليل من الغنم، وقد رحلوا سويًا إلى حيث لا يعلم!

في مكان جديد سنذهب لأول مرة إليه سويًا، ولن تكون آخر مرة إن شاء الله. في قصر بلايو وعائلته، وقد كان قصرًا أندلسيا تحول كما تحولت سائر الحضارة الإسلامية الأندلسية بالقوة والرعب إلى شيء كاثوليكي تابع للكنيسة والإسبان، وبالرغم من الدهانات والصلبان ومحاريب الصلاة المسيحية، وتغير الطراز الواضح والتعديل في الشكل والبناء، إلا أن الدهان قد تمرد وجهه، وتشقق ليكشف عن آيات القرآن الكريم والزخرفة الإسلامية والنوافذ قد صرخ تصميمها قائلة: أنا أندلسية مسلمة!

ولكن أنا لست هنا الآن لأبكي الأطلال أو أنحو الزمن الخالي فعن قريب سنبكي كلنا لا تقلقوا! أنا هنا لأن بلاير هنا. ففي غرفة مكتبه كان يجلس على كرسيه الخشبي الذي نُقش الصليب في فراغه في ظهره، ومسنده ومقعده من القطيفة الحمراء القانية، ومن خلفه النوافذ المفتوحة الباعثة لنور الشمس القوى وأمامه الطاولة التي عليها صليب معدني وجهه بعض لفائف الأوراق ومحبرة وقلم وكتاب ما وبين يديه سهم صليبي وعيناه تنظر إلى الفراغ في شرود مخيف وهدوء مربك، وقد أفرط اليوم في التفكير والتفكُر، حتى ظن أنه سينفجر عقله بقوة من كثرة التفكير. مرر يده على السهم بهدوء، وأراح رأسه على ظهر الكرسي، وبدأ يجمع الخيوط مع بعضها.

جوليانا تلك أفعالها مريبة. ترتدي الأبيض في الغالب، تسرف في استخدام الماء، تهتم بالنظافة بشدة، تستخدم الصابون، تغطي شعرها دائمًا وليست بالراهبة، قلة عدد الصلبان في بيتها، أليست كل تلك أدلة ضدّها، وعلى الأقل تثير الشك والريبة في ما هيتها وأكثر ما يخشاه أن تكون من المسلمين وأخيه الآن بيد مسلمة حمقاء قد تتلاعب بعقله، وتجعله يتخلى عن درب المسيح.

أو تكون من اليهود، ولكن اليهود أبخل من الإسراف والترف الذي فيه جوليانا، ولا يفضلون الأبيض مثلها.

لا يجول في عقله سوى بعض الشكوك والظنون التي يحتاج إلى تأكيدها ليلقي بها في النار حتى يتخلص من الخونة أمثالها، لكن أكثر ما يقلقه أن يتعلق بها حنا، أو يحبها أو يتجرأ ويطلب أن يتزوجها والنساء بارعات في اكتساب قلوب الرجال بسهولة.

انتفض من مكانه في ضيق وغضب من كثرة التفكير وصعوبة الأمر، ثم هدر بقوة، وصرخ وهو يكسر هذا السهم بغضب قائلاً: أكاد أفقد عقلي!!

وعلى أثر صراخه هذا دخلت ابنته إيفا إلى مكتبه، وقد كسى القلق وجهها، واندفعت إليه تسأله في قلق عندما اقتربت منه تقف إلى جانبه قائلة: هل أنت بخير يا أبي؟!

رسم ابتسامة مصطنعة وخبيثة على شفتيه بعد أن خطرت له فكرة ماكرة للغاية مثله، والتفت إليها بعد أن كان يوليها ظهره، وأحاط كتفيها قائلاً: أنا بخير يا قلب أبيك، لكن هل تسدين لي خدمة؟

نظرت إليه باهتمام قائلة في فضول: بالطبع يا أبي ما الأمر؟

!!داعب وجنتها قائلاً بمكر: فقط زيارة صغيرة إلى عمك

الفصل الثامن

كانت تريد الفرار والهرب من البيت، ولم تجد مكاناً أفضل

من النهر، وأن تأخذ أغنامها القليلة، وترعى في الخضرة، وتُرح عقلها وعينيها من غم ما حدث ولا شيء مريح بعد كلام الله سوى الطبيعة التي تفنن البديع في صُنعها، وقد أحسن كل شيء صنعًا.

ولكن في طريقها تفاجأت بمرور جارها الشماس فيكتور من جانبها، وقد كانت من عادته أن يستيقظ باكرًا حتى يخلو مع نفسه لكي يدرس الإنجيل جيداً حتى يستطع التأهب والاستعداد لما هو مُقدم على من تحقيق حلمه في أن يصبح قسًا في الكنيسة وأي منصب أرفع من ذلك سوى أن يتنازل عن الدنيا وما فيها من متع وحياة ليحظى بمكانة الراهب، ويحظى بأفضل مكانه عند الرب والدولة.

ولكن فيكتور لم يكن سعيدًا، بل في وجهه علامات الحزن والضيق والغيظ، وهذا أمر طبيعي إذا كانت والدتك كاترينا الشمطاء، فلن تستطيع النوم أو إراحة أذنك من كثرة الوشاية والكلام ولا عقلك من كثرة المشاحنات التي تفاعلها والقيل والقال ولا جسدك ووقتك من كثرة الإلحاح على الزواج.

وكانت تلك المرة المشاحنة على الزواج لما لا يتزوج وترى أحفاد ابنها الصغير؟ لما لا يتزوج من اختارتها له، وانتقتها عيناها المجهرية_ التي ترى الفضيحة من على مسافة ألف فرسخ_؟ لم لا يكف عن أمر الكنيسة، ويلتفت إلى عمله، ويكفيه عزله واغتراب عنها؟ ولكن من كان له حلم عليه السعي ورائه، ولو اضطر إلى نحت الجبل قبل الصخر وبالأخص لو كان ذا عزيمة مثل هيكتور.

نظر فيكتور إلى جوليانا التي كانت تسير ناظرة إلى اللاشيء على عكس عادتها في الخروج كانت تهتم بمظهرها أكثر من ذلك، وتخرج متأخراً عن وقت الشروق بمدة، وليست من عاداتها أن تخرج حزينة بتلك الطريقة والقليل من الغضب يكسو وجهها.

وقد أمسكت عصاها وهي تعش عن الغنم لكي لا يحيدوا عن القطيع _وبالأخص الحملين الصغيرين الذين لأول مرة يخرجون للرعي وكأنها فسحة بالنسبة لهم_ وأقبل عليها فيكتور الذي كان يحمل أسفل إبطه بعض القراطيس والأقلام وكتاب ما، وقد استوقفها قائلاً، وعلى إشفتيه ابتسامة ودودة: صباح الخير... أليس الرعي باكرًا اليوم؟

نظرت إليه بهدوء وفتور لترد قائلة وصوتها يملؤه الحزن والضيق: صباح الخير... لم أستطع النوم منذ ما حدث الأمس، فقلت في قرارة نفسي أن أخرج من البيت لعل الهواء النقي يرحني قليلاً.

سار إلى جانبها، وهز رأسه بالموافقة قائلاً، وهو ينظر إليها: معك حق لقد كانت ليلة عصيبة، لكن الشكر للرب مرت على خير... وكما تعلمين أمي لم تترك الأمر يمر بسلام أخذت في الشجار معهم عندما كسروا باب المخزن وبعض الأواني.

لم تنظر إليه، واهتمت بأغنامها قائلة في هدوء أقرب ما يكون للبرود_ وقد استشعر الحرج من قولها هذا _: لقد تحطّم اليوم ليس البيت وحده.

تسائل في حرجٍ قائلاً: هل مسيري معك يزعجك؟

هزت رأسها نافية قائله، وقد جاهدت في أن ترسم ابتسامة مصطنعة على شفتيها: لا بالطبع لا تقل هذا يا أخي... أن فقط قد ضاق صدري لهذا لا تجدني متحمسة للحديث كعادتي... سامحني على وقاحتي.

قطب جبينه قائلاً باهتمام: لم هذا الضيق؟

ابتسمت بسخرية قائلة: فقط ضُربت ليلة أمس عندما عارضت تفتيش ملابسي الخاصة... ثم تابعت بحزن، وقد تحشرج صوتها بالبكاء الذي تحاول كبحه قائلة بألم: لو أن أبا حياً لما تجرأ أحدًا على فعل هذا... لم يضربني أبي طوال حياته ولا حتى أمي، ويمر بي العمر، ويأتي هذا ويضربني... تلك الصفعة لم تؤلم وجهي كما ألمت قلبي... لقد جعلتني أُدرك كم أنا ضئيلة ولا قيمة لي في الحياة... لو كنت أنت أحد التجار أو النبلاء أو السادة لما حدث هذا... ولو القليل من الحظ ولدت حرة ليست بأمه أو مواله لأحد.

كان فيكتور يستمع إليها بهدوء، وقد أخرجت ما في صدرها، وأستشعر الألم واليأس الفج الواضح من حديثها المهموم، وقد تفهم كلماتها تلك، وشعر بها فما حدث معها حدث معهم، لكن فاق الحد معها وهو يدرك أن قلبه المرأة أرق وأكثر استشعارا للألم وللأحراج عن الرجل الذي يتحمل وينسى وأضف إلى ذلك أن القلب الذي بجانبه قلب عصفور ليس لامرأة عادية، بل لجوليانا الحساسة رقيقة القلب والمشاعر.

رمى ببصره، ونظر إلى الأمام قبل أن يجيبها ثم عدل موضع قراطيسه وأقلامه، ونقلها إلى يده الأخرى، وقد أقبلوا على حافة النهر، ومن حولهم بعض الخضرة والمزروعات التي تصلح للتنزه والرعي، ثم أشار إليها قائلاً بهدوء: تعالي نتكلم عن حافة النهر هناك هيا.

انصاعت لأمره بهدوء، وشرعت في نقل الغنم وسياقتهم إلى موضع معين بعصاها قريب من مكان جلوسهم، ثم جلسوا عن منطقة خضراء، وقد وضعت عملها بينهم لتخلق مسافة فاصلة، ثم نظرت إليه عندما بدأ بالكلام قائلاً بهدوء وبشاشة: انظري... أنت لست كما تقولين على العكس... أنت ملكه بيننا من يمرض أو يقع في مشكلة أنت أول من يحلها... من صفعك هذا ينفذ أوامر الكنيسة ليس بيده شيء... قلبك رقيق ولم يتحمل الأمر أعلم، وأعلم أن العم أندرو كان يحترمكِ ويقدركِ كثيرًا أعلم، لكن أصابع يدك ليست كبعضها البعض... لو فكر كل من تأذي بتلك الطريقة، وأحتقر نفسه لما عاش أحدًا، وما عمل أحدًا، ولا خرج أحدًا من بيته... والعذراء مثلاً كانت ستقول أنا يتيمة، وأحمل طفلاً معجزة، ولن يصدقني أحدًا وسأقتل و... كانت ستيأس وتنتحر أو تهرب، لكنها استعانت بالرب... والحواريون أكثرهم كانوا من البسطاء كانوا لو فكروا مثلك لما وقفوا إلى جانب المسيح... خلاصة قولي... هذه الصفعة لو نظرتي إليها من منظور آخر لأكتشفتي كم أنك قوية، وقد أزعجني هذا الرجل ليتجرأ عليكِ لو أنكِ نكرة كما تقولين لما التفت لكي وتركك تتفوهين بأي كلمات، وأنهى عمله، لكنكِ صنعتي تشوش في عقله... إياك واليأس يا جوليانا صدقيني أملى قلبك بالإيمان خيراً لكي من اليأس والاحتقار الذي يظلم القلب ويفسده... وتذكري أن الرب يكتب كل أعملنا، وفي النهاية جزاؤنا الملكوت إن أخرجنا اليأس من قلوبنا.

كانت تنظر إليه باهتمام، وتحاول أن توازن بين حزنها وكلامه، بين غضبها وهدوء كلماته، بين حكمة العقل وضيق القلب، وبالرغم من أن كلامه صحيح، إلا أن المواقف السيئة تترُك في الإنسان أثرًا لا يزول ولا يذهب إلا بتحقيق العدل ودوران عجلة الزمن وكُرة الحياة ليعود الحق للمجروح، ويتلقى الجارح عقابه.

وحكمت هذا مبدأها في الحياة لا يرتح لها بال إلا إذا رجع إليها حقها تلك الشعارات والكلمات لا تجدي معها شيئًا.

أمالت رأسها، ونظرت إليه قائلة، وهي تتلاعب بطرف ثوبها: كلامك صحيح يا أخي، لكن الحياة ليست عادلة والرب عادل وأنا لن أرتاح إلا إذا عاد حقي... أنا سيئة للغاية لا أنسى أبدًا الصغيرة قبل الكبيرة، وهذا الموقف لن أنساه أبدًا حتى يرجع إلى حقي.

نكس فيكتور رأسه، وهزها بياس، وابتسم ثم نظر إليها قائلاً: رأسك صعب للغاية... أنت لستِ سيئة، لكن صعبة كالجمال لا تنسين من قهرك.

نظرت إلى الأمام، وقد لمعت عينيها مع لمعان ضوء الشمس لتعطي لوناً ذهبياً قائله، وعلى شفتيها ابتسامة حنين إلى الماضي: أبي كان يقول لي هذا عندما كنت أتشاجر مع أحد أبناء الحي وارفضّ الصلح.

ولما كنتِ ترفضين الصلح يا تُرى؟ "كان هذا السؤال من طرف ثالث كاترينا الشمطاء _التي كانت تنظر إلى ولدها من خلف النافذة " تتابعه حتى وجدته يقف مع ابنة إليزابيث "خديجة" وأخذ في السير معها، وقد شعرت بنوع من النصر أن جوليانا التي قد رفضت ابنها عندما طلبت يدها للزواج الآن قد يكون هذا الحديث ملين لقلبها وعقلها لعلها تراجع أفعالها، وتقبل ابنها الذي ليس بالبخس أبدًا حتى ترفضه كما فعلت منذ بضع سنوات قلائل؛ لكن طموحاتها تلك باتت تتلاشى خطوة خطوة عندما أخذت في قرارة نفسها أن تتعقبهم وتعلم ما يدور معهم ولأن بالطبع ابنها سيرفض، أو على الأقل سيتجنب الحديث عن يومه، ومن قابل وماذا فعل كعادته، وأضف إلى البؤس أن حديثهما كان بعيداً عن كلام المشاعر والاستمالة والود، بل حديث كله بؤس وهم، لكن فكرت في أنه على الأقل باب الحديث مفتوح، وقد يتحول من مرور الوقت إلى باب مشاعر_.

ولكن فيكتور الآن كان يندب حظه العثر؛ لأن من دون الناس كانت كاترينا والدته، وقد تجرأت على مراقبته وتتبعه، وقد ترجم باقي الأحداث، وفهم رأس أمه النتن وما تفكر فيه، قبض فيكتور على لحيته البنية، ثم تركها ووقف مع جوليانا التي وقفت هي الأخرى، ثم نظر إلى أمه قائلاً بهدوء جاهد جهاد النفس للتمسك به: الآنسة جوليانا خرجت للرعي، وخرجت معها؛ لأن طريقنا واحد كنت ذاهباً لضفة النهر وهي أيضا.

أمسكت جوليانا عصاها، وهمت بالانصراف من أمامها قبل أن تتكلم معها في شيء وبالأخص أنه لا طاقة لها في الجدال أو تبرير شيء لم تفعله أو تفكر فيه لاحقا ما، وقد فهمت هي أيضًا مغزى نظراتها من عينيها الغائرتين، ثم مرت من جانبها بعد أن ألقت تحية الصباح، ولم تهتم في أن ترد عليها، ثم بدأت في سياقة الأغنام أمامها وما أن توارت عن الأنظار حتى تساءلت كاترينا قائلة في خبث: ماذا حدث معكم؟ هل تحدثتم في شيء؟ هل تشعر بأن رأسها بدأ يلين؟ أقصد ما رأيك في أن تفاتحها المرة القادمة في الارتباط بها.

لفلف فيكتور الأوراق والقراطيس في قبضته بغضب، ونظر إلى السماء، وقلب عينيه في تعب وضيق، وقد حاول قدر المستطاع أن يهدئ من روعه، ثم نظر إليها قائلاً في ضيق قوى أقرب للغضب: ماذا تريدين ألم نتحدث قبل قليل في هذا الأمر؟ ثم لماذا التتبع أنا لست طفلاً ولا شاباً طائشاً؟ وأضيفي على هذا جوليانا أختي لا أرها سوى أختي... أنا تزوجت الكنيسة والكتاب المقدس هو ابني. ولآخر مرة يا أمي تتجسسى على... أنا سئمت من هذا الأسلوب، وتلك الطريقة متى ستتوقفى كرامة للعذراء... بحق الرب ألا يكفي هذا؟! هل تلك حياة؟! أنا لا أستطيع التنفس... لقد سئمت!

قطبت كاترينا جبينها، وقد اتخذت أسرع وسيلة لاكتساب العطف واستجداء الرحمة قائله، وقد باشرت البكاء: أنت لست ابني الذي تعبت في تربيته... أنت لا تراعي سني... لقد قاربت الموت، وأريد الاطمئنان على مستقبلك ورؤية أبنائك هل هذا جزائي؟!

زفر فيكتور بقوة، ثم اقترب من أمه، وقبل رأسها ثم أمسك يدها قائلاً، وقد استطاعت أن تستميله لها مجددا: بارك الرب في عمرك يا أمي أنا فقط أحتاج في تلك الفترة أن أركز في شيء واحد فقط أن أصبح قسًا، وبعدها سأتزوج وسترين أحفادك قريبًا، لكن أرجوك لا تضغطي على... اتفقنا أمي؟

مسحت كاترينا أنفها بطف الشال الأسود حول كتفها، وهزت رأسها باستسلام قائلة: اتفقنا يا بني... أرجعني للبيت.

عادت حكمت إلى البيت، وأدخلت الغنم إلى الحظيرة، وذهبت إلى غرفتها تبدل ملابسها بعد أن أحكمت غلق الباب، ثم جلست على السرير بإرهاق، وتشعر بنعاس شديد يداهمها؛ لأنها لم تنم منذ الأمس، وألقت جسدها على السرير لتتسطح بتعب، ثم أخذت تعبث في شعرها المموج بهدوء وشرود، وقد ارتاحت قليلاً من حديث فيكتور، لكن والدته الشمطاء تلك فقط يكفي أن تراها من دون أن تتحدث لينقلب يومها رأسا على عقب، ويلحق بها سوء الحظ والبؤس طوال اليوم، آه كم هي امرأة غليظة وبغيضة تشعر أنها ستُفرقع من غيظها منها، ولكن صنعت لها معروفًا، وأنستها أمر ذلك الجيفة الذي صفعها والجيفة الأخر بلايو الذي كلما نظرت إليه ترى في عينيه نظرة احتقار واضحة واليوم فقط.

أظهر سواد قلبه ونيته في حديثه معها اليوم، وقد تأكدت من شكوكها، وظهر أخيرًا هذا الوجه المختبئ أسفل قناع اللطف.

اعتدلت في جلستها، واستقامت وهي تُملس على معدتها بجوع، وقد بدأت تُصدر أصوات قرقرة عالية تستغيث طلبًا للطعام.

زفرت بضيق، ووقفت بتعب، وأخذت توارى شعرها أمام المرآة، ثم خرجت من الغرفة متجهة للمطبخ، لكن استوقفتها صينية الطعام التي لم يمسسها حنا، ووضعها على الطاولة كما هي اقتربت منها، ونظرت إليها بتفكير وشرود، وقد خشيت أن يكون قد أصابه مكروه ما، أو اشتد عليه التعب، ولكن جانباً آخر أخذ يطمئنها أنه بخير، ولعله نائم أو شبع، لكن قلبها غير مرتاح، وبدأت تستشعر الخطر.

طرقت باب غرفته عدة مرات، ولم تجد رداً لتحزم أمرها، وتدخل وما توقعته قد كان، إذ كانت حرارته مرتفعة وجبينه يتفصد عرقًا، وقد التهب جرح ذراعه.

فرت حكمت وأحضرت أدواتها الطبية، ووضعتها على صندوق الملابس، ثم ربطت على كتفه وهي توقظه من نومه حتى فتح عينيه بألم، وقد أمسكت بيده تجلسه على السرير نصف جلسة، وقد تحسست وجهه قائلة بتوتر: اسمعني جيدًا... ساعدني... أنت متعب للغاية،

وأن استسلمت هكذا أنت من سيتحمل العواقب هيا تماسك. ثم وضعت في فمه قطعة قماش، حتى يعض عليها عند ألمه، ونزعت عنه قميصه، ووضعت قماشة مبللة بماء بارد، وخل قصب السكر على جبينه لتمتص الحرارة.

وبالرغم من حالة الوعي واللاوعي التي بها، إلا أنه كان يحاول عدم النوم والاستسلام للتعب، وقد كان يزخر بكل قوته كلما اقتربت من جرح ذراعه، ويقبض على الفراش حتى ابيضت مفاصل يده، وأخذ ينتفض بقوة وهي، بالرغم من توترها، إلا أنها أظهرت التماسك، وأخذت في تهدئته، وبث القوة والهدوء من كلماتها القليلة، حتى انتهت وانتهى هو أخيرا من هذا العذاب، ثم نظفت المكان من حوله، وغسلت يديها وعادت إليه وهو على حالته تلك يستند إلى ظهر السرير، ويميل برأسه للوراء، وقد احمر وجهه بشدة من الألم والإرهاق وعينيه معلقة في الفراغ، وقد أشفقت على حاله كثيرًا ورق قلبها له، وشعرت كأن ألمه فيها، وليس فيه ثم اقتربت منه، وجلست على السرير، وأخذت تمرر له الملعقة المحملة بالعسل الأبيض، وقد نظر إليها بإرهاق، ولم يتكلم واستقبل ما تعطيه بهدوء، وألبسته ملابس نظيفة، وعقدت شعره في رابطة شعر، ورفعته فوق عنقه حتى يرتاح في نومه، وساعدته على الاستلقاء والنوم مجددا، وقد همت بالخروج، لكن استوقفها عندما أمسك بيدها بوهن قائلاً: شكرا لكي... صلى وادعى لي أنت طاهرة وأنا مليء بالخطايا والذنوب... الرب لا يحبني.

جلست إلى جانبه مجددا ويدها أسيرة يده قائلة بهدوء: لما لا يحبك وهو من خلقك... الرب يحب من يخطئ ويتوب... ليعفوا عنك ويشفيك... ستكون الأمور كلهم بخير فقط لا تقلق... كلما ضاقت الأمور، فاعلم أن نهاية الأزمة قد اقتربت.

حرر يدها، ووضع يده على عينه بالم قائلاً: أتمنى ذلك.

دثرته جيدًا، واتجهت إلى باب الغرفة، لكن استدارت بدهشة رافعة حاجبيها عندما نظر إليها بعينيه الناعسة تلك قائلاً بإجهاد: من ذلك الشاب الذي ذهبت معه؟ إني رأيتكما سويًا من النافذة.

فلتت منها ضحكة وهي غير مستوعبة لما يتفوه به ذلك الحنا، وقد كان يراقبها ويراقب من معها.

اتكأت على مقبض الباب بذراعها قائلة بدهشة: لا أدري ماذا ستستفيد أن عرفت، لكن على العموم هذا جارى حضرة الشماس فيكتور قد التقينا الصدفة، لا يذهب رأسك لبعيد.

أغمض عينيه قائلاً بنبرة باردة: أنا فقط أطمئن عليك يا سكرة.

في اليوم التالي استيقظ حنا من نومه، وقد تقلب في سريره بألم يكاد يفتك بذراعه بقوة وصداع قوي وكأن طبول الحرب ونواقيس الخطر أصبح لها أفواه تصرخ في رأسه بقوة وحلقه الجاف وأذنه التي تؤلمه وكأن بها إبراً تنغص عليه عيشته تزامنًا مع حلقة الجاف.

مسح وجهه بإرهاق، وخلل أصابعه داخل شعره، لكن توقف وتوقفت أصابعه بدهشة، وبدأ يفق من نومه ببطء ودهشة، وهو يتحسس رباط شعره وهو طوال عمره لم يربط شعره بشيء، وقد كان يتركه متحررًا حول وجهه.

اعتدل في جلسته، وأنزل قدميه من على السرير لينظر إلى قميصه المتغير، وطبق الكمادات على صندوق الملابس، وكيس القطن والمطهر والشاش الأبيض ليدرك أن هذا التغير بسبب جوليانا، وقد بدأ يتذكر ما فعلته معه ليلة أمس، وحماقته في الحديث معها، لكن شعر بأن شيئاً ما سينفجر بداخله إن لم يسألها.

وقف على قدميه، وحاول المشي إلى الخارج، لكن الدوار داهمه ليقف في منتصف الغرفة ممسكًا برأسه بألم، وقد دخلت حكمت الغرفة بعد أن طرقت الباب، ولكن هرولت إليه بقلق، وأمسكت يديه وحاولت أن تجبره على الاستلقاء قائلة: ماذا دهاك؟ أنت ما تزال متعباً ارتح قليلاً... هيا عد للنوم.

أوقفها، وقد أمسك ذراعها، ونظر إليها، وعلى شفتيه ابتسامة متعبة قائلاً بهدوء: اهدئي أنا بخير فقط أريد الخروج من الغرفة سامة منها. ثم تابع بتكهن قائلاً: أشم رائحة فطيرة تفاح.

هزت رأسها بنعم، وتابعت قائلة بتوتر وتردد من فعلتها الغبية تلك: لا... أقصد نعم... أعني... أنت تحبها وخمنت إذا أكلت منها سترتاح قليلاً...

ذراعها، وأخذوا في السير ببطء إلى طاولة الطعام قائلاً وهناك ابتسامة صغيرة على شفتيه: إذا أنت تتذكرين ما كان؟fتأبط

ابتسمت هي الأخرى بدورها، وسحبت كرسياً له، وساعدته على الجلوس بهدوء، دون أن يتأذى ذراعه، وسكبت له الطعام في طبقه قائلة: أتذكر... لم أكن أحب التفاح إطلاقًا إلا عندما تذوقتها في القصر عندكم، وقد أخبرتني السنيورة مارلين أنك من يصنعها بنفسك.

ثم جلست على الكرسي المقابل له، وبدأت في سكب الطعام لنفسها قائلة بمرح: أنهى طبقك ولتتذوق فطيرتي، ولنرى أيهم أفضل اتفقنا؟

وضع الملعقة جانبًا، ونظر إليها نظرة غامضة قائلاً بهدوء: وتتذكرين أني أحب سمك السلمون أيضا؟

تعلقت ملعقتها لثواني في الهواء، ثم أرجعتها إلى الطبق، وتخلت عن تلك الابتسامة قائلة في هدوء: أحيانًا هناك ذكريات وأشخاص لا نستطيع نسيانها ونسيانهم لا تدري لماذا، لكن تأتي الإجابة في موعدها وها هو موعدها.

اقترب قليلاً من الطاولة، ونظر إلى صُلب عينيها قائلاً بنبرة غريبة لأول مرة تسمعها منه: أتقصدين أنك لم تنسيني طوال الأربعة عشر عاماً الماضية؟

توترت بعض الشيء، وأنزلت يداها أسفل الطاولة، وهي تتلاعب بأصابعها في توتر قائله وعينيها تنظر إلى زاوية الغرفة: لقد كنت جزءًا كبيرًا من طفولتي، وكونت لدى ذكريات كثيرة لا يمكن نسيانها لهذا أنا أتذكر بعض الأحداث، لكن هناك فرقاً عن الماضي أنا الآن لم أعد جوليانا الطفلة التي كانت تتعلق برقبتك أنا قد اختلفت عن السابق، سواء كان شكلي وعقلي، وتفكيري ونظرتي إلى الحياة والناس وخوفي من المستقبل وطباعا ومن أنا، أنا العاملة جوليانا لا أكثر ولا أقل، وأنت أيضا لم تعد السيد حنا الصغير الذي يضيع وقته، ويلهو مع طفله، لقد ازدادت قيمتك، وعلى شأنك ومكانتك وطباعك كلانا اختلف عن الماضي، ولم يبق سوى القليل من الذكريات، وتلك الذكريات هي الشيء الجميل في الحاضر. ثم عاودت الابتسام مجددا قائلة في حرج، وقد نظرت إليه مجددا، وقد ازدادت نظراته غموضًا: لقد أطلت الكلام هيا تفضل الطعام قبل أن يبرد.

ثم عاودت تناول الطعام حتى تهرب من عينيه المصوبة عليها طوال الوقت، وقد أطلقت بضع اللقيمات القليلة وكأنها جبل لا يتحرك من حلقه بسبب تلك الكلمات التي يتمنى أن يبوح بها الآن، وينزل هذا الحمل من على صدره، ويشعر لأول مرة بهذا الشعور ولأول مرة تكون الكلمات عبئاً ثقيلاً على كاهله لتلك الدرجة أم أن المشاعر الصادقة دائماً ثقيلة هكذا؟

ابتلع ما في جوفه قائلاً وعيناه مع صحنه، وقد لفت أنظارها إليه: عندما انتقلنا إلى مدريد كنت في الثالثة والعشرين لم نستقر وكنت ما زلت أتدرب في صفوف الجيش كمجرد جندي أحضرت لي أمي عروس كانت في السادسة عشر قبل أن أرفض كان أبا رافضاً لهذا الأمر، ثم تابع بسخرية قائلاً، وهو ينظر إلى عينيها: تخيلي طفله في زمرة الأطفال، وبعدها أحضرت لي ابنة صديقتها، وقد خُطِب بالفعل، ولكن تركنا بعضنا؛ لأن كلانا لم يكن يتوافق مع الآخر.

ثم تابع حتى يصل إلى مبتغاه من الحديث، وبعدها كنت في السابعة والعشرين تعرفت على فتاة من إنجلترا جاءت مع والديها للدراسة هنا والاستقرار كان هناك مشاعر بيننا لنقل أننا أحببنا بعضاً، واتفقنا على الزواج، ورضيت العائلتان لكن قبل الزفاف تركنا بعضنا لإصرارها على العيش في إنجلترا، وترك إسبانيا، وكنت في بداية حياتي المهنية وأبي كان رافضاً وأمي وكذلك أخي بلايو، وقد فكرت مليًا في الأمر وجدت أنني لم أحبها يومًا، بل كان مجرد إعجاب هي أرستقراطية جميلة متعلمة لما لا أتزوجها، لكن كلما كبرت وتقدم بي العمر أدركت أن هناك دائماً فرق بين ما تراه العين وما يراه القلب.

ابتسمت بهدوء، وتركت طبقها على جنب بعد أن انتهت من طعامها قائله، وقد فتح لها الطريق للحديث الطويل: تذكرني بنفسي كنت في الخامسة عشر، وكنت في غرناطة آزور خالي لنجد زوجة خالياً أحضرت لي شاباً في الثامنة والعشرين عندها رفضت أمي قبل أبي بسبب صغر سني والفارق العمري، وعندما كنت في التاسعة عشر تقدمت لي جارتنا كاترينا لطلب يدي لابنها فيكتور، لكن كلانا رفض هو يريد أن يصبح قسًا في الكنيسة ومهتماً بدراسته وأنا كنت أهتم بالبيت والعمل على الأخص بعد وفاة أبي لن يكن هناك شيء أمامي سوى أخي، وأمي فقط كل شيء.

رفع حاجبيه قائلاً بدهشة: وهل فقد أهل مدريد عقلهم ليتركوا هذا الجمال وحده؟ ثم تابع بجدية قائلاً وكأنه يناقش أمر نهاية العالم مع أحدًا ما قائلاً: صدقيني يا جوليانا الحياة من دونك شيء لم يكتمل بعد، ولو عرفتك قبل عامين من الآن لكان الوضع مختلفاً... أنتِ غير .الأخريات... وحتى لو في عيني فقط أنا لا أرى الآن امرأة غيرك وكأنك سحرتي عيني... أنتِ جميلة ولا يمكنني أن لا يُعجب بكِ أحدًا

لن أقول إن الدماء قد اجتاحت وجهها، بل سأقول فرت من وجهها، وقد ابيضت شفتاها، واتسعت حدقتاها، ولم تتلاق جفونها لثواني من هول ما تسمعه من غزل صريح لا حياء فيه، ولا تستُر ولا تدري كيف ابتلعت ما في جوفها لتنظر إليه ببهوت قائلة وهي على الوضع !نفسه: أنت تهزي

قطب جبينه، ورفع كتفيه قائلاً بعملية وواقعيّة: على العكس تمامًا أنا أقول الحقيقة... هل هناك من هي أجمل منكِ؟

لم تُرد أن تُكثر من حديث لا فائدة ولا جدوى منه لتقف وهي تهرب بالمعنى الحرفي للكلمة إلى غرفتها لتنهي تلك التُراهات الآن، لكنه كان أسرع منه ليمسك ذراعها، ويقف منتصبًا وكأن ليس به ألم لتتخذ رد فعل صادم عندما لكمته بحدة خفيفة في جرح بطنه ليقفز من .مكانه ممسكًا بموضع جرحه بألم وترك يديها

أما هي، فقد قفزت دماء الغضب والخجل إلى وجهها دُفعةً واحدة، وجزت على أسنانها قائلة بقوة وشموخ: من أنت؟ وماذا تحسب نفسك فاعلًا؟! لقد تجرأت أكثر مما ينبغي وتخطيت حدك إن كنت السيد حنا صاحب الشرطة والسلام في مدريد فأنا جوليان... أتفهم أنا جوليانا بنت أندرو أغسطس القابلة وأنت الآن لست سوى مريض في نظري وأنا طبيبتك وأنت هنا تتعافى؛ وبالتالي تذهب إلى بيتك... وإياك ولمسي بأي صفة أو مُسمى أيا كان... وإلا أقسم أن أنتزع كبدك بأسناني، ولا اكترث لعاقبة الأمر... ثم هدأت وبصوت عال هز أرجاء !البيت _وهي تنظر إلى وجهه الذي يشع غضبًا حاول كتمه قبل أن يقتلع عينيها _قائلة: هل تفهم؟

.....

الفصل التاسع

في تل الغرباء، وفي المساء كانت خديجة في غرفتها هي، وطارق الذي كان يجلس على كرسيه في زاوية الغرفة ممسكًا بمركب خشبية قد صنعها له اثانيوس خصيصًا من أجله بعد أن علم بسفرهم الذي بات على الأبواب وما هي إلا أياما قلائل، ويعود الطير مع أمه إلى .عشهم الصغير في مدريد للعودة إلى عصفور في ورطة ينتظر أمه لتنقذ جناحه المكسور

لكن طارق لا يريد أن يعود أبدًا يريد أن يبقى في غرناطة مع أبناء خلانه ورفاقه الجدد هنا، وقد ألف المكان والناس، وأحب تلك الروح الطيبة التي تغمر الجميع في البيت، وكان الكل يلعب في فريق واحد قد تجد بعض المشاحنات والغيرة، لكن أن مس أحدهم الضُر يتكاتف الجميع، وينسون تلك المشاحنات، ويصبحون على قلب رجل واحد من أجل اجتياز تلك المحنة، وأضف إلى ذلك أنه لم يشعر بهذا الدفيء إلا بين أسرته وهنا لا مكان لتلك المشاعر في مدريد بين أصدقائه الذين كلما تقدم بهم العمر باتت تظهر بينهم نزعه من الأنانية والغيرة والفتور الذي لم يشعر به بين أقربائه هنا، وبالطبع لم يترك وسيلة إقناع إلا واستعان بها، وفعلها سواء أن توسل إليها، أو ساق خلانه على أمه امتنع من اللعب في الشارع، أو أطاع أوامرها، أو رتب الغرفة، ولكن للأسف كالعادة بات محاولات بالفشل الذريع، وقد استعان بآخر حل هو الامتناع من الطعام وقد عزم على حبس نفسه في الغرفة، لكن هذا أيضا لم يجد نفعًا، ولم تقتنع خديجة بشيء وهي أكثر منه عنادًا .وتمسكًا برأيها، بالرغم من محاولات الجميع، إلا أنها استعانت بالله، وعزمت على إكمال حياتها في مدريد إلى جانب ابنها وابنتها

وبين حل الفينة والأخرى كانت تختلس الأنظار تجاهه، بينما تحيك بعض الجوارب ببكرة صوف وإبرة تطريز عملاقة، وقد رق قلبها له، وشعرت بالأسف تجاهه بسبب الحزن الحقيقي الذي ملئ وجهه وهو يشرد في تلك اللعبة بين يديه، حتى تركت ما بين يديها، وأمرته بالمجيئ، وقد أزعن في تلبية الأمر، وجلس على السرير جوارها مطأطأً رأسه، حتى احتضنته وضمته إلى صدرها قائلة بهدوء ومسايسه: أنا أعلم أنك حزين؛ لأنك لن ترى أصدقائي هنا إلا بعد مدة طويلة أو قصيرة الرب وحده يعلمها، لكن حياتنا كلها في مدريد قبر .أبيك، وأختك وعملي و عملاختك ودراستك في الكنيسة، كل هذا في مدريد لا غرناطة

رفع رأسه من على صدرها، ونظر إليها بعيني القطة، وتموجت جبهته قائلاً باعتراض: لما لا تأتي جوليانا إلى هنا، وأذهب إلى كنيسة .هنا وينتهي الأمر

هزت رأسها نافية قائلة بهدوء وحزم: أخيرا في تلك الدنيا ليس كل ما نريده ونتمناه ندركه، يجب علينا التضحية لأجل الأهم، ألا تريد أن تصبح نجار وتهوى الصيد؟

هز المعترض رأسه لتستأنف هي قائلة: مدريد مليئة بالأنهار عكس غرناطة تستطيع الصيد كيفما شئت وهناك ستعمل في النجارة، لكن لا حياة لنا في غرناطة يا صغيري. اتفقنا يا أخيلا؟

هز رأسه منكسًا إياها، ووافق على مضد مضطر وهو يرى كل الطرق والسُبل قد سُدت في وجهه ولا أمل في حديث لا طائل منه سوى الرفض.

ابتسمت خديجة بهدوء، ولثمت رأسه وضمته إلى صدرها مجددا قائلة: هذا هو ولدى العاقل... وأنا أعدك أنه كلما سمحت الفرصة سنأتي إلى هنا من جديد.

ثم بدأت في تسطيحه على السرير وتغطيته وإطفاء الشموع من حولهم، وتندس إلى جانبه في الفراش، حتى غط كلاهما في نوم عميق.

في مكان جديد آخر سنذهب إليه في منتصف الليل قارس البرودة سويًا، فاستعدوا وارتدوا المعاطف، وأمسكوا بالشموع وهيا بنا إلى أسفل الأرض، وليس سرداب جوليانا، بل سرداب محكمة التفتيش الخاصة بمدريد.

وقد كانت كاترينا العجوز تسير إلى هناك صوب مكتب الضابط المسؤول _ وهو أعلى رتبة من بعد البابا في المحكمة _إلى جانب جندي قد استقبلها من على الباب، ولم تكن المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة على العموم، وقد اعتادت بالتردد على المحكمة كلما وجدت شيئاً ذا أهمية لتوشى به إلى المحكمة، وتاخد مكافأة من بعض العملات الذهبية إذا كانت المعلومة ذات أهمية، وإن لم تكن، فقد تُعلق على العجلة الدوارة مثل ذلك الذي قد عُلق رأسًا على عقب، وارتفعت قدميه لفوق، وقد احمر وجهه من شدة الاختناق، وسالت الدماء من سائر أنحاء وجهه وصدره العاري وفمه مكمم بقطعة قماش لتقلل من صدى أناته المتألمة، وفي زاوية الغرفة كان آخر معلقاً من يديه التي تشققت مفاصلها من التعلق الطويل لتنزف هي الأخرى، وقد فقد وعيه من شدة الإعياء والألم، وناهيك عن عتمة الغرفة والظلام الأشدّ سوادًا من العمى ولا منفذ للضوء سوى بعض الشموع على مكتب الضابط المسؤول هي التي أزالت عما كترينا _ وللعلم فقط قد كانا هذين الاثنان هم الفرنسيون الذين لفقا الكمين قبل بضعة أيام، وقُبِض عليهم واستجوابهم حتى اعترفا بالجريمة، ولا يزالون يبحثون عن المخطط للكمين_، ولكن هذا ليس مهمًا الآن.

وقفت كترينا التي لم تبالي بالأناة المتألمة حولها، وآلات التعذيب حولها، وكان قلبها قد انتزع ولا يمكنني أن أقول حجر؛ لأن الحجر قد يخرج منه سر الحياة وهو الماء. أما قلبها لن يخرج منه سوى سحر أسود سفلي بشع لا يمت للرحمة والمشاعر الطبيعية بصلة!

رفع ذلك الضابط رأسه قائلاً، وقد علم سبب مجيئها من قبل أن تتكلم: إن كان شيء تافهاً كالأسبوع الماضي ستُشرفين الزنزانة بجانبك.

توترت بعض الشيء، وهزت رأسها نافية قائلة بسرعة: لا يا سيدي أقسم أنه أمر مهم، في الحي الذي بعد كنيسة المدينة بشارعين هناك عائلة من رجل وفتاة وصبيين من المسلمين يعمل الأب في النجارة والفتاة في عمر السابعة عشر والصبيين تقوم في عمر الخامسة عشر يعملون في النجارة هم أيضا وأمهم ماتت من عامين.

أمسك ذلك الضابط سره من العملات الذهبية قد أخرجها من درج المكتب، ومد يده في أنفي وغرور لا يوصف وكأنه ملك الكون.

ولا حاجة إلى الوصاية، فقد سال لعاب كاترينا فورا، ولمعت عيناها بجشع، وطمع كأنها كلب مسعور وجد عظمه سيتسلى بها وبالفعل هي كذلك، مدت يدها تأخذ السرة، لكن ذلك الضابط أبعد يده، ونظر إليها في غرور وتهديد ونوع من الزل قائلاً: أقسم بالرب إن كانت معلومات كالمرة السابقة لن أتهاون أبدًا قد أنذرتك.

ثم مد يده بالسرة مجددا، حتى أمسكتها أخيرا، وأخذت في رفعها في الهواء عدة مرات والإمساك بها قائلة: لا تقلق سيدي الأمر صحيح مئة بالمئة.

في صباح اليوم التالي في عش النمور لن أنكر أن كلا النمرين قد ناما، لكن نومهما لم يكن كافياً، فكلا النمرين قد أصابهما الأرق وداء التفكير الذي ليس له دواء ومرض المشاعر الجديدة التي بدأت تُداهم قلوبهم وكلاً منهما بطريقة مُنافية للأخرى وإحساس غريب وآخر مُقلق لكليهما.

فسأبدأ بجوليانا التي كانت في حالة من المصارحة وجلد الذات التي لا بد منها وبالأخص، وهي تشعر ببعض الانجذاب والود تُجاه حنا، وهذا الأمر غير مقبول تمامًا بأي شكل من الأشكال.

ولنقُل سويًا أنه إعجاب مجرد إعجاب لا أكثر، لكن هل هذا الإعجاب صحيح؟!

استندت بجبهتها على النافذة، وأخذت تنظر إلى الشارع الجانبي من النافذة المطلة عليه، وقد أخذت ترتب أفكارها، وتبحث عن الصواب في كومة من المشاعر المحرمة والأحاسيس التي لا مكان لها سوى سلة المُهملات، أولاً وقبل أي شيء، وكل شيء اختلاف دينهم والذي هو محرم في الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم، وأضف على ذلك أنها ليست مسلمة عادية، بل مورسكية أندلسية وهو مسيحي إسباني، ومن كبار رجال الدولة والشرطة، وإن علم بإسلامها شيء ستلقى الأدبي في الفردوس الأعلى بإذن الله ولا نقاش في الأمر.

ثانيًا: أخوه الجلف المتكبر ملك الغرور والتبجح بايو الذي لا لوم على حنا فيه ولا ذنب؛ لأن أخاه مجرد جلف متبجح بارد عديم الذوق، وقد تذكرت عندما كان حنا يموت كم توسل لها بلايو، وتذلل حتى تنقذه وما إن انقضى طلبه بدأ يعاملها كسائر سادت مدريد الذين لا يعرفون أحدًا أعلى منهم ولا أهم منهم غيرهم، وهذا هو الطبيعي والحقيقي على أرض الواقع.

ثالثًا أمها، أمها هي الأخرى لن تقبل هذا الأمر والوضع مثلها تماماً، وقد تمزقها إربا صغيرة، وتضعها في حقائب وتطعمها للكلاب.

رابعًا: والأهم هل حنا يبادلها نفس الوضع المُسمى بالإعجاب؟

هل يشعر بشيء حقًا تُجاهها؟

هل ينظر إليها نظرة مختلفة عمن هم من طبقتها أم يراها تلك الفتاة الصغيرة؟

وقد كذبت كل حديثه وغزله ليلة أمس متعللة بأنه مجرد اختبار منه ليرى هل ستستجيب له أم لا وهل ستميل بالحديث المعسول، وتقع في شباكه كالذبابة في شباك العنكبوت والنهاية لا تحتاج إلى شرح بالتأكيد_والآن جمهور حنا سيقول لا حنا لم يُفكر أبداً هكذا، بل هذا حب صادق والبعض سيقول إن حكمت فقط قد صنعت من حبة الرمل قبة زجاجيّة الآن، لكن أنا أقول إن غاية حنا من حديثه كما فكرت حكمت، ولكن مشوباً بالإعجاب هو الآخر_.

زفرت حكمت بهدوء، وتمسكت بهذا الشال الثقيل بلون الزبيب المُلتف حول كتفيها، وأرجعت خصلة متمردة من سواد الليل الكامن في شعرها خلف أذنها، لكن تعلقت يداها في الهواء لثواني، وقد اتسعت حدقتاها وهي ترى بلايو ومرلين وإيفا ينزلون من العربة أمام بيتها، وقد طحنت أسنانها البيضاء بضيق من فور رؤية وجه بايو الذي كانت تفكر به منذ ثواني، وقد فكرت لما لم تفكر بالهرب لكانت خارج إسبانيا الآن وهذا أفضل لها!

قبل قليل في غرفة حنا كان مضجعاً على جانبه الأيسر عاقدًا شعره برباط شعر كما فعلت حكمت_ وقد أعجبته تلك الفكرة، وقد شعر بأن معالم وجهه قد ظهرت من خلف شعره الكثيف والطويل _ وينظر إلى ساعته الذهبية، وقد كان يفتح ويغلق غطاءها بشرود وتفكير وآخر شيء يشعر به الآن هو تلك الساعة التي بين يديها، وقد انصب تفكيره في صاحبه رائحة الياسمين والورد المتفتح في وجنتيها والغموض في عينيها ومنذ ما حدث بالأمس، ولم يتحدث معها، وقد اقتصر الصمت بعد أن حصل على إجابته المنتظرة وكما توقع قلبه جوليانا فتاة نقية لا تستسلم لهوى النفس وحديث الشباب الذي يوقع في الشباك ونهايته خراباً.

وعلى قدر سعادته بكونها طاهرة، إلا أن تلك المشاعر التي يُسميها حنا حب نعم كما قرأتم حباً، وأكررها للمرة الثالثة حب قد أرقت مضجعه، وسلبت لُبه في دوامة من التفكير وهو هل ما يشعر به طبيعي تجاه فتاة مثل جوليانا في سنها بالأخص وقد كان يُلاعبها وهي صغيرة، لكن الآن لفتت نظره، وصارت شابة تخطف العقول وتأسر القلوب؟

وهل عائلته سترضى بهذا الحب، وستبارك أسرته التي يحلم بتكوينها معها؟ وبالأخص أن جوليانا من العامة وخارج العائلة، فمنذ أن وطئت عائلته إسبانيا منذ سقوط الأندلس، وقد أقسموا على الزواج من داخل العائلة فقط!

وهل ستقبل جوليانا بهذا الحب، وستقبل أن تشاركه تلك المشاعر والحياة القادمة؟

زفر بقوة، ورمى ساعته على صندوق الملابس، واعتدل في جلسته، ونكس رأسه في حيرة وتفكير، وقد أقبل على أمر، واقتحم عالماً سيفتح عليه أبواب من النار والحروب، ولن يكون طريقه سهلاً كسائر قصص الأطفال التي تروى في الأزقة والطرقات من قبل الراوي الذي يقتات على سرد قصة الأميرة المسكينة والأمير الشجاع الذي تحدى الشر وغلبه ليظفر بعروسه، لا فجوليانا بالنسبة له بئر عميق من الغموض عليه أن ينزل إلى قاعه، ويكتشف أسراره ويخرج تلك الجوهرة من الروح المرحة المدفونة أسفل طين الغموض، وحجر الصمت ورمال الخوف التي دائماً ما يراها في عينيها البنية تلك التي تكفي أن تنظر إليه فقط لتجعله كالخاتم في إصبعها. لكن الخاتم تكسر هدوءه وتفكيره الآن، وهو يستمع إلى تلك الضجة في الخارج، وقد كانت أمه وأخوه وابنة أخيه وبالتأكيد قد أخبرهم باليو، بالرغم من توصيته بعدم إخبارها.

خرج من غرفته ليجد جوليانا تلقت المعاطف الخاصة بهم، وتنحني ثم تذهب لتُعلقها، وتنعطف إلى المطبخ، ولكن تركيزه قد سُرق وهو يعانق والدته التي انهمرت دموعها بفرحة غامرة، وقد رأته يقف مجددا على قدميه، واسترد صحته المسلوبة مجددا وأي شيء أجمل وأعظم عند الأم من أن ترى أبناءها في أحسن حال وخير صحةً وعافيةً!

امسك حنا كفيها ولثم كلاهما بهدوء؛ ومن ثم رأسها، ومسح دموعها بأصابعه قائلاً بهدوء ليبث لها الاطمئنان والسكينة: اهدئي يا أمي... أنا بخير الآن صدقيني وعن قريب سأرجع إلى البيت مجددا فقط اهدئي. ثم تابع بعتاب قائلاً: لما أرهقت نفسك أنا عائد بعد يومين للبيت.

نهرته بهدوء قائلة: ليس من شأنك أنا أتى في أي وقت يا ولد... ثم تريدني أن أعلم ما حدث في الحي، وأتركك أصمت وأحمد الرب أنك مريض وإلا كنت أدبتك.

فلتت من حنا ضحكة هادئة، وأعاد والدته التي تصل إلى أسفل صدره إلى أحضانه مجددا، ونظر إلى بلايو قائلاً في تسائل ونوع من اليقين: أنت من أخبرتهم؟

بمنتهى الهدوء والبساطة هز بلايو رأسه بالموافقة ليقلب حنا عينيه بملل، ثم عانق إيفا التي قفزت بمرح، وابتعدت عن أحضانه لتقول بسرعة، وهي ترفع يدها اليمنى المُزين بنصرها بخاتم الخطوبة قائله ببهجة: عمي أبي وافق على خطبتي من تيتوس والفرح خلال العام أنا سعيدة للغاية. _وأنتم لا تعرفون قصة حب تيتوس وإيفا التي مر عليها عام كامل من رفض بلايو لذلك الفتى الذي كان في منتصف عقده الثاني بحجج واهية سواء عمله أو دخله أو مظهره وغيره، بالرغم من أنه من عائلة أحد النبلاء أيضا، ولكنه اضطر مرغمًا على الرضوخ وتسليم فلذة كبده إلى تيتوس هذا_.

ضيق عينيه قائلاً بعتاب: من دوني؟

هزت رأسها نافية بسرعة قائلة، وهي تستدرج حماقتها: لا الأمر ليس هكذا لم نحتفل من دونك فقط مجرد اتفاق، ثم ارتفعت إلى مستوى أذنه، وقد مال هو الآخر إلى مستوى شفتيها لتهمس بصوت منخفض قائله وكأنها تُسرب أخبار الحرب: أبي لا يزال غير موافق وأمي أقنعته بصعوبة لذلك هو عابس.

غمز لها بعينه اليمنى، وهز رأسه بتفهم ليصافح بلايو الذي استوقفه وابتعد عن عناقه قائلاً في دهشة وضيق، وقد صوب نظره تُجاه شعره: منذ متى وأنت تعقد شعرك برباط شعر؟!

رفع كتفيه بلا مبالاة وهدوء، وقد عدُل عن مصافحته قائلاً بهدوء أقرب للبرود المسبب للجلطة الدموية: تغير. ما رأيك؟

آمال بلايد رأسه قائلاً ببرود هو الآخر، وقد رمى بكلامه شيء وحده حنا قد فهمه: أتمنى أن يكون تغير فقط.

تجاهل حنا نبرته التي تحمل بين طياتها حديثاً لا يتمنى أن ينفتح الآن، وفي هذا المكان وهو غير مستعد الآن أن يبرر لبلايو تغيره هذا الذي علم أن جوليانا هي السبب الرئيسي به.

جلسوا جميعهم في الصالون، وقد أقبلت حكمة وبين يديها صينية الضيافة قد فرقت على الجميع ما فيها من شاي وبعض الحلوى، وهي تستقبل الشكر من الجميع، وتتحاشى عيني حنا وهو الآخر كذلك، ولكن شعرت برجفة سرت في جسدها جعلها تُريق بعض الشاي في صحن، وقد شعرت بأن برودة قوية عصفت بجسدها عندما تحدث بلايو إلى حنا قائلاً بمكر: صحيح لقد قُبِض على اثنين من المتورطين في كمين محكمة مدريد، واعترفوا بما حدث وعن زملائهم، وقُبِض على البقية اليوم، ثم تابع وهو ينظر إلى جوليانا بنظرة ذات مغزى لم تغفل عن حنا عندما أكمل بلايو وعيناه في عيني جوليانا بتحد: وألقوا القبض على عائلة مسلمة تدعى النصرانية في ضواحي المدينة.

ثم أمسك بفنجان الشاي، وقد اهتزت مقلتاها بهلع فقط من مجرد التفكير والسماع ونظرات الشك والتحدي التي يغمرها بها بلايو من رأسها لأغمس قدمها لينظر إلى ارتجاف يديها ثم إلى وجهها مجددا قائلاً بمكر: هل أنتِ بخير يا جوليانا؟

رمشت أخيرًا بعد طول انتظار، وتلاقت أهدابها التي افترقت لمدة بتوتر وكأنها غابت عن العالم للحظة، وعادت مجددًا لتهز رأسها بنعم قائلة ببهوت: فقط داهمني الدوار.

ارتشف قليلاً من الشاي قائلاً، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة لا يراها غيرها: سلامتك، ما الأمر؟

أنقذ حنا جوليانا من هذا المأزق، وبالرغم من أنه لا يفهم ماذا بها، إلا أنه شعر بأن بلايو يتفنن الآن في مضايقتها واللعب على أعصاب المسكينة، ثم تحدث بهدوء قائلاً: فقط ليلة أمس ارتفعت حرارتي وجوليانا ظلت جانبي تداوينا لذا لم تنم جيدًا.

رفع بلايو حاجبيه، وقوس شفتيه وهز رأسه بتفهم قائلاً: لم أكن أعلم.

لتكمل مارلين الحديث قائلة بود: شكرا لكي يا جوليانا لولا أن وضعك الرب في طريق ابني لكان في خطر الآن صدقيني لا أعلم كيف أرد جميلك هذا ليحفظك الرب.

ابتسمت جوليانا ببهوت قائله، وقد تبدل صوتها إلى آخر بارد ومرهق خالي من الحياة: العفو منك سيدتي لقد قمت بواجبي ليحفظك الرب. ثم انحنت واستأذنت لتذهب إلى غرفتها، لكن قاطعت طريقها إيفا التي قفزت بحماس واجتازت حنا، ومرت من فوق قدمه قائله: انتظري سآتي معك.

رفع حنا أحد حاجبيه، ونظر إلى بلايو الذي لم يبد أي ردة فعلاً، وجلس ببرود تام، وهو يتابع فنجان الشاي بين يديه ويا كل تلك الكعكة الصغيرة، ولم تكن تلك عادة بايو أن يترك ابنته الوحيدة تصول وتجول وتمرح مع أي كان فما بالكم بجوليانا التي لا تسنح له الفرصة حتى يجد غضبها، ويُشعل غيظها وبما أن الأمر كذلك فبالتأكيد تلك تعليمات بلايو وله يدًا عُليا وسفلى في ذلك، ولكن لينتظر ويعرف ما نهاية تلك الزيارة التي بدأت تبدو له غير بريئة كما تظهر بالمرة ولها أهداف أخرى عاجلاً أم آجلا سيعرفها.

وقد رحلت إيفا مع حكمت ودخلوا إلى الغرفة حتى غابوا عن الأنظار، وظلت مارلين تتجاذب أطراف الحديث بين حنا وبلايو لمدة ما، حتى وقف بلايو بحرج قائلاً، وهو يرفع ستار الرواق الطويل: عذرًا أحتاج إلى الدخول لدار الخلاء، ولكن لم يشك أحدًا في غير هذا حتى حنا سلم عقله له تلك المرة، ولكن بلايو قصد غرفة جوليانا، ووقف خلفها يتنصت على حديثهم!

قبل قليل اتجهت جوليانا مع إيفا إلى غرفتها في نهاية الرواق الطويل_ وقد انبهرت إيفا بحجم البيت للكبير وسعته مقارنة ببيوت العامة في هذا الحي _وقد أدخلتها أولا ثم هي من بعدها، وقد جلست على سرير جوليانا المتوسط المغطى بأغطية وردية ولحاف من الصوف الأبيض وبطانية بيضاء أيضا، وقد جلست جوليانا على كرسي في زاوية الغرفة، لكن إيفا أشارت إليها بالاقتراب قائله بود حقيقي _وقد نسيت ما قاله والدها عندما أمرها بأن توقع جوليانا في الكلام، وتحصل على أي معلومة، حتى لو كانت صغيرة، وتضرب بكلامه عرض الحائط لتظهر شخصية لطيفة بعض الشيء في زي مخملي مثلها كمثل حبة السكر الحلوة البيضاء في كوب القهوة المرة الداكنة-: تعالى لما تجلسين بعيدًا لم أتى للجلوس مع نفسي.

هزت جوليانا رأسها، واقتربت منها بكرسيها لتشير إيفا إلى السرير قائلة بمرح: يا امرأة انظري للفراغ الذي تمرح فيه الأشباح هيا اجلسي إلى جانبي.

امتثلت حكمة للأمر، وجلست بهدوء، وقد بدأت تهدأ قليلاً بسبب مرح إيفا وحديثها الذي يجذبها خطوة خطوة من تفكيرها ورعبها قبل قليل، وقد أيقنت حجم خطر وجود حنا ليس في البيت فقط، بل في حياتها كلها وتلميح باليو. أما نبع من مصدرين الأول أنه فقط مجرد تلميح وشك ليضغط عليها حتى ينهار ثباتها أمامه والآخر، والذي تدعوان الله أن لا يكون حقيقيا هو أنه علم شيئًا عن حقيقة دينها، وإن كان صحيحاً، فلنودع كلنا حكمت الآن، لكن الأخير تقوم به إيفا الآن التي تذكرت أنها جات حتى توقع حكمت في الحديث، وتحصل على !أي معلومة تفيد بلايو ليطمئن قلبه أولاً وليتأكد أن حنا لن يفكر بها مُطلقًا

خرجت حكمت من دوامة التفكير والقلق تلك على تلويح إيفا أمام وجهها بيدها قائلة وكأنها توقظها من نومها: يا فتاة هل نمتى انظري لي !أنا أُحدثك

.هزت حكمت رأسها وكأنها تستيقظ من النوم، واعتدلت أكثر في جلستها، واعتذرت قائلة بحرج: اعذريني سنيورة فقط شردت قليلاً

.هزت إيفا رأسها قائلة بتفهم: لا عليك. ثم تابعت وهي تنظر إلى غرفتها قائلة بنوع من الانبهار والدهشة: بيتك كبير حقًا ليبارك الرب فيه

طقطقة حكمت أصابع يديها قائلة بهدوء: هذا بيت جدي ورثه أبى عنه، وقد كان وحيدًا لذلك أخذ البيت، وفي الأصل جدي كان يعمل شابا، .وفي العلاج بالأعشاب، وكانت تدُر عليه دخلاً جيداً، وقد بني هذا البيت بنفسه

هزت إيفا رأسها ببطء، وقد بدأت تفهم ما تقول قائلة: لهذا السبب البيت كبير، وأنتِ أصبحت قابله... وماذا عن أبيكِ وأمكِ اقصد لم أر .أحدًا معك هنا من قبل

أجابت بهدوء قائلة_رغم أن قلبها يُنذرها بأن تلك الأسئلة ليست بتلك البراعة التي تظهر بها، بل أكيد تختبئ أسفلها بثوب دنس مليء بالمكائد والمكر _: أمي من غرناطة، وأبى من مدريد تزوجوا في غرناطة وانجبونى هناك، ثم عدنا لمدريد للعيش مع جدي حتى توفى، ومنه بعده أبي بثلاثة أعوام وعندي أخ أصغر مني بكثير والآن هم في غرناطة؛ لأن جدي لأمي قد أعطاكِ عمره، ورحل وهم هناك "يستقبلون مراسم العزاء.

!قطبت إيفا جبينها، وقد ضاقت عيناها البنية تلك قائله بتسأل: ولما لستِ هناك؟

.ابتسمت حكمت بتكلف قائله: نصيبي هكذا سيدتي حتى أقابلك وأُقابل السيد حنا والسنيورة مارلين والسيد بلاو

ابتسمت إيفا هي الأخرى قائلة بمرح: لا بد أن حظك رائع لتقابلي أحدا مثلي. ثم التفتت تنظر إلى التسريحة الصغيرة والمرأة، وقد وقفت واتجهت إليها تنظر إلى ما عليها من زجاجات عطور وكحل، وأحمر شفاه وزيوت خاصة بالشعر، وأمسكت باحدا زجاجات العطر، ووضعت منها على ظهر يدها بحذر، واستنشقت علي مهلاً، وقد صُدمت تمامًا من جمال رائحة العطر القوية، والتفتت تنظر إليها، وقد .توسعت حدقتيها، ورفعت حاجبيها ولوهلة ظنت أنهما التحموا مع شعرها قائلة بدهشة: من أين أتى بهذا العطر رائحته رائعة وقوية

.وقفت حكمت واقتربت منها قائلة بابتسامة صافية: هذا من ذوقك فقط، أنا من أصنعه تفضلينه إن أردت

أغلقت الزجاجة، ووضعتها في مكانها، وأشارت إلى زيوت الشعر قائلة بشك: أنتِ غير معقولة، لا تقولي أنكِ تصنعينها أيضا؟

هزت رأسها بنعم، ولا تزال تلك الابتسامة الصافية والفخورة تعتلي شفتيها، وقد شعرت بعلو قيمتها وقدرها وكأنها ملكة الأرض فقط؛ بسبب اندهاش إيفا _وكذلك هو حال قلوب العصافير في تلك الدنيا تتفاعل مشاعرها بكل صدق وشفافية مع المواقف، ففي أتفه المواقف بالنسبة لبعض البشر تجد قلوب العصافير تبكي أو تضحك أو تساعد أو تهتم بالغير، ولا يفهم أحد مشاعرهم إطلاقا إلا القلة القليلة من البشر فقلوب العصافير يراها الناس غريبة الأطوار فقط تبكي لموت عصفوره، وتنجرح لمجرد كلمة، وتبتسم بكلمة ثناء أو شكر صغيرة، وهي تترك محتاجًا إلا وساعدته ولا عائذًا لجاء إليها إلا وأنقذته والبعض يُطلق عليهم الحساسون أو الطيبون وبعض الحمقى يطلقون .عليهم البكائون أو الحمقى والبعض السيئ يتفنن في استنزاف تلك الروح النادرة وذبحها بالبطيء_

أخذت إيفا تفتح زجاجات العطور، وتختبر روائحها الذكية، وقد أعجبت بالبعض، وأحبت البعض وعطست بسبب حساسية من البعض، وأمسكت بزيت الشعر تجربة، وقد أحبت هذا المظهر الذي اكتسبه شعرها من لمعان قوي، وكانت تتصرف بحرية غريبة وكأنها في

بيتها، ولو رآها أحدًا لأعتقد أنها أحدًا جاراتها وصديقاتها من الحواري والأزقة لا سيدة من كبار طبقات المجتمع، وكان تصرفها ينم على شيئين. أما وقاحة للعبث بأغراض غيرها، وإما عفوية تنم على تجرد القلب والروح من زينة التكلف.

انتهت من العبث بالزجاجات، ثم التفتت إليها إيفا قائلة بتساؤل: هل يمكنك أن تصنعي لي عطراً من الورد والعود، وسأرسل لكي من يأخذه؟

وهزت حكمت رأسها بتلقائية وترحيب قائلة: بالطبع سيدتي تحت أمرك في أي وقت كان.

ابتسمت إيفا بالميت، ووضعت يدها في خصرها قائلة بإعجاب: يا ليتني كنت مكان عمي، وحظيت بمثل ذلك النعيم.

كادت جوليانا أن تهم بالكلام، لكن أفزعها وأفزع إيفا دخول بلايو الغرفة مقتحمًا إياها من دون خجل أو أستاذين قائلاً بمكر وعينيه تنصب على حكمة دون ابنته _وقد مل من حماقة وتفاهة أسئلة ابنته التي أثبتت له بأنها أفشل جاسوسة على وجه الأرض، ولو بيده وكان الأمر جدياً لا صدر أمر بإعدامها رميًا بالأحذية لفشلها الذريع في مهمة النساء الأولى تحسس الأخبار_: وما ذلك النعيم الذي يعيش فيه حنا.

الفصل العاشر

التفتت حكمت وإيفا في وقت واحد للنظر إلى بلايو الذي اقتحم الغرفة بدون إنذار أو أستاذين أو خجل.

وكان يقف بهيبته وطول قامته وشعره الأشيب واضعًا يده في جيبه وكلتاهما تنظر، ولكن إذا قلنا أن الاتفاق كان واحدًا فالأنظار لم تكن واحدة أبدًا، وقد اختلفت باختلاف المشاعر والتفكير.

فإذا نظرنا إلى إيفا سنجد أنها نظرات قلق وخوف مشوب بالرعب من دخول بلايو المفاجئ، ومن توتر المكان والهواء حولها و.

نضيف أيضًا قلقاً من تلك النظرة النارية التي أحرقتها؛ لأنها أغبى من ما تصور ولم تستطع سحب أي كلام مهم، واهتمت بهذا العطر، وهذا الزيت وأحمر الشفاه بمنتهى الحماقة والبلادة، ولو أرسل طفلاً بحفاض لأوقع جوليانا في الكلام، ولن أقول إن جوليانا ذكية في هذا الموقف، بل إيفا مجوفة الرأس وغبية.

وأما عن جوليانا، فكانت أنظارها حادة وقوية تُجاه بلايو الذي لا تقل نظراته حده عنها، ونُضف أيضًا الخبث والمكر والدهاء النابع من مقلتيه التي تحتاج إلى التمزق، ودائماً منذ أن كانت طفلة تأتي إلى بيته مع أبيها تسأل نفسها لما في عينيه نظرة الازدراء والاحتقار ليس لها أو لوالدها فقط، بل لأي شخص أقل منه ولو بدرجةً واحدة، وكأن البشر جميعًا خُلقوا من طينة وهو من لؤلؤ أو ذهب، وكان ما يثير حيرتها عندما تسأل نفسها لما والد بلايو لا يعاملها بنفس الطريقة وكذلك حنا، ولم تجد إجابة تروي عطش فضولها، وتُشبع جشعه حيرتها.

وإن سألت والدها كان يكتفى بأنه لا يعرف وليس مهمًا أن يعرف، ولكن الآن فقط ستعرف ولن تدعه يخرج من تلك الغرفة إلا وستحصل على إجابة محددة.

كسرت هذا الصمت، وتلك الشحنات العشوائية المتضاربة صوت بلايو قائلاً، وهو يعيد سؤاله وعينيه تنظر إلى حكمة بعبث: لم تجيبي ما هذا النعيم الذي يعيش فيه حنا؟ لعلي آتي وأعيش هنا أيضًا.

قاطعته إيفا قائلة باندفاع به القليل من التوتر: أنا كنت أُجرب بعض العطور و....

قاطعها بدون اهتمام، وأشار برأسه للباب قائلاً بأمر قاطع: إيفا للخارج لو سمحتي هيا.

امتثلت لأمره، ونكست رأسها ومرت من جانب جوليانا، وألقت نظرة أخيرة عليها وكأنها اعتذار أو وداع لا تدري لتخرج وتترك النار والقار بحوار بعضهما البعض.

وما أن خرجت حتى تسأل بلايو الذي نظر إليها مُتفحصًا ومتمحصًا قائلاً بهدوء يلاعب الأعصاب: أراكي تُكثرين من اللون الأبيض في لباسك، ألا تعلمين أن الملك سن قانون يُجرم ارتداء اللباس الأبيض بكثرة؟

أمات برأسها وعيناها بها صلابة وقوة لم تحد عنه وعن تفكيره قائلة بهدوء: بلا أعلم لكن هذا مجرد وشاح وغير هذا أحب اللون الأبيض، ولم يُسن قانونًا يُجرم حب ارتداء الأبيض.

زم شفتيه، وهز رأسه مُدعيًا الاقتناع، ثم تابع قائلاً، وقد قطب جبينه قليلاً: والصابون؟

عقدت يديها التي بدأت ترتجف قليلاً خلف ظهرها حتى لا تفضح قلقها قائلة بهدوء: أبي كان يعمل في بيوت النبلاء، واختلط بهم، ومنهم أخذنا عادة استخدام الصابون.

ثم تابعت عاقده حاجبيه، ونظرت إليه من أسفل جفنيها المُسدلين جُزئيًا قائلة: مع كامل احترامي لك، لكن لا أظنك جات لتسألني عن لون ثوبي والصابون فبالتأكيد شخص في منزلة وقيمة السيد بلايو لم يأت لأسئلة كتلك!

ارتفعت زاوية شفتيه بابتسامة جانبية ساخرة ومتكلفة، وأخذ يدور حولها ببطء قائلاً: أنتِ فتاة ذكية يا جوليانا، وسأتكلم معكي بصراحة... أخي أصبح متغيراً عن ذي قبل منذ مجيئه إلى هنا، وهذا التغير لا يعجبني، ولا أحد معه سواكِ، فقلت لعل جوليانا تعرف سبب التغير.

كان يقف أمامها بعد أن توقف عن الدوران حولها لتهز جوليانا كتفيها، وتمط شفتيها قائلة بلا مبالاة: وأنا ما شأني أنا مجرد مُعالجة لا أكثر ولا أقل اسأل أخاك.

استدار حولها مجددًا حتى وقف خلفها، واقترب من ظهرها وأذنها، وقطب جبينه قائلاً بعتاب متكلف وكأن كلماته كفحيح الضبع القذر: جوليانا!!! لقد كنت أقول إنك ذكية، لما تتخذين من جلد الحرباء لونًا في التخفي الآن؟! أنتِ امرأة جميلة ولا أنكر هذا، ولا يمكن لأحد أن لا يعجب بكى وأخا شاب في عز عنفوانه، فقلت لعلك تعرفين سبب التغير.

ثم أخفض صوته أكثر قائلاً بشيء ما أقرب للهمس: أو تكونين أنتِ سبب التغير من يدري.

هنا ويكفي لم يعد لديها ذرة صبر واحدة وليحدث ما يحدث، وإن قطع رأسها أهون عليها من ذل وقذارة ما تسمعه، وقد التفتت تنظر إليه قائلة بغضب متناسية من هو وأي شيء: أنت مختل ومجنون بالتأكيد ولا تفسير للتفاهة والحماقة التي تخرج من فِيك غير ذلك... كيف تُفكر بشيء كهذا السيد حنا عمره ضعف عمري وأنا امرأة حرة... الحرة لا تزني... الحرة لا تدعس على أعرافها وشرفها... إن كُنت تشك في أخيك هذا شيئاً ثانياً، لكن لا تلوث شرفي بوحل قذرتك.

زم بلايو شفتيه بغضب من نعته بالمجنون والمختل، وأضْف أيضًا ارتفاع صوتها، وقد تخلى عن شخصية السياسي المحنك الصبور، وأظهر شخصية غاضبة وشرسة لا تظهر إلا نادرًا ومع القلائل الذين يستنزفون صبره، وأصف لذلك لا يرتاح لهم جوليانا.

قبض على تلابيب ملابسها، وجذبها بقوة ناحيته، ونظر بعينين اسودت وزادت قتامة وبشاعة لم تر في مثل شرها وغضبها بالوجود أبدًا.

ثم صاح في وجهها بقوة قائلاً: أقسم بالرب يا حرة أنكِ ستدفعين ثمن إهانتك وألاعيبك تلك غاليًا... وإن أصبح ما يدور برأسي صحيحًا صدقيني قتلك سيكون آخر شيء أفعله بكِ... فلا تحاولين التخفي كثيرًا فسرك بات مكشوفًا لي، وأقسم إن كان الأمر صحيحاً سأجعلك عبرة لأمثالك الذين لا يستحقون أن يتنفسوا الهواء الذي نتنفسه.

كانت تنظر إليه برعب وغضب، ولكن كفة الرعب غلبة الغضب؛ بسبب تلميحاته وايحائاته بكشف سرها الأعظم باتت واضحة، وكان يتلفظ بها من دون تكتم أو تخابث، بل بكل صراحة مخيفة تدفعها للجنون، لكن هناك ذرة عقل بقية لها أنذرتها بأن تُكذب تهديده وتخيلاته وتبرء منها، وتذكرت فقط أن الشيطان يُخوف أولياءه. أما أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

لذا ابتسمت بسخرية من وراء خوفها، وهمست بمنتهى الهدوء ونظرات الاستحقار جلية في مقلتيها قائلة: لم أكذب عندما قُلت أنك مختل ومجنون، وكل ما تفكر به دربًا من خيالك الضيق ولتذهب أنت وتهديدك للجحيم.

تقلصت عضلة صغيرة بجانب فك بلايو لتدل على أنه يطحن أسنانه، وقد شعرت بتصلب، وارتعاش بوجنته كدليل على أنا يحاول قمع غضبه، ويمنع ظهور غضبه وإثبات أن كلمات تلك الفتاة قد أثرت فيه، أو أثارت غضبه، واستفزته وهو له مذهب أن الرجل سريع الاستفزاز لا يستحق لقب رجل، بل هو صبي يُجارى الكبار، لكن جوليانا الآن تخطت حدود العقل والصبر، فما كان منه سوى أن يخرج عن ثباته، ويصفعها بقوة شعرت بأن أذنها قد صُمت وأسنانها قد سقطت من موضعها، ولن أنسى الدماء التي انسابت بقوة من فمها على الأرض وهي كذلك وقد نزل إلى مستواها، وهم بضربها مجددا، لكن حنا_ الذي قبل قليل وجد إيفا تحث جدتها على ركوب العربة بتوتر وارتباك متعللة بأنها أوامر أبيها، وقد ركبت حتى، دون أن تودعه، وقد شعر ببعض الريبة من الأمر وبالأخص تأخر باليو، وظنه أنه في دار الخلاء ليقترب من المرحاض، لكن توقف في منتصف الرواق، وهو يستمع إلى تلك المُشادة الكلامية بينه وبين جوليانا التي وصل في نهايتها عند نعت جوليانا لبلايو بالمجنون، وأنه مجرد خيال، وقد صُعق وصُمت أُذنه عند سماعه لصراخ حكمت، وتلك الصفعة _قد اقتحم الغرفة، وتدخل بينهم وهو يدفع بلايو في صدره بقوة يبعده عنها قائلاً بحدة: بلايو يكفي هذا الجنون... أبتعد عنها... هل جننت؟!!

ثم هبط إلى مستوى حكمت وأمسكها من يدها وبيده الأخرى أحاط ظهرها حتى يستطيع مساعدتها على الوقوف قائلاً بأسف وقلق: أنا آسف، حقًا أنتِ بخير؟

وقفت معه، ومسحت دمعة خانت عهد الكرامة والقوة والثبات، وهبطت منهمرة بقوة، وقد تلتها أخرى وأخرى، وكان بعينيها فيضًا من شلال منهمر، وهزت رأسها بنعم صامتة، وقد اكتفت من الحديث الآن ليلتفت حنا ناظرًا إلى بلايو، وحكمت ما تزال بين يديه قائلاً، وهو يتمسك بكل سُبل الهدوء والتأدب في معالة أخيه الأكبر: بلايا أذهب أرجوك الآن وأنا غدًا سأعود إلى المنزل لا عمل لي هنا بعد اليوم، يكفي ما حدث اليوم.

هنا لن أقول إن بلايو صُدم أو دُهش، وأنه لا يصدق ما يُبصر، لكن سأقول إن بلايو قد تأكد من شكوكه، وبات كل شيء مكشوفًا الآن، وأوضح من قرص الشمس في نهار أيام أغسطس، حنا يُحب جوليانا حقًا والدليل قلقه عليها وسكينتها بين ذراعيه وهدوئها وكأنها وجدت ملاذًا آمنا وحصنًا قويًا.

وقد اكتفى بما رأى واستوفى من هذا العرض المخزي والشائن_ وقد لعن نفسه على إجرائه هذا السباق، ولعن حظه الذي أوقعهم في طريق فتاة مثل جوليانا ولعن كمين الفرنسيين فردًا ولعن غباء حنا وقلبه الأخرق الذي أوقعه في حب فتاة مثل جوليانا لا تليق بمستواه ولا بمكانته ولا بعائلته، وأضف على ذلك الشك القوي في حقيقة مسيحيتها التي يحاول أن يصدقها، لكن حدسه يكذبها _ ليمر من جانبهما، ويرحل خارج البيت، ويذهب إلى العربة أمام البيت، ويركب إلى جوار ابنته وأمه متجاهلاً أي سؤال أو طلب تفسير أو توضيح لسبب تلك الدماء على كفه وحالة التجهم والتشدد في خطوط وجهه التعبيرية.

ولنعود إلى الداخل مجددا حيث حنا وحكمت، وقد خرجت حكمت من دار الخلاء بعد أن غسلت وجهها وبالخارج حنا الذي ينتظرها مستندًا على الجدار، وكل ما يشعر به الآن هو الضيق والغضب لما قام به بلايو اليوم، وقد كان بين نارين نار الغضب، ولو غضب ستحرق النار أخاه الأكبر ونار الحب التي اشتعلت في سائر قلبه، وقد لعن هذا الموقف الغبي الذي وضع فيه بين أغلى اثنين على قلبه، وبالرغم من أنه تصرف بحكمة، إلا أن جوليانا تستحق أكثر من هذا.

اعتدال حنا في وقفته بعد أن كان يستند إلى الجدار بكتفه، ونظر إلى جوليانا عندما خرجت من المرحاض مخفضة رأسها تحاول أن تداري تلك الدموع، واقترب منها قائلاً في هدوء: أفضل الآن؟

هزت رأسها نافية بشدة، ونظرت إلى عينيه بضيق وألم ونار تكوى قلبها بقوة قائلة تزامنًا مع دموعها: لا لست أفضل إطلاقا، ولن أكون أبداً إلا عندما تحين ساعتي ويأتي أجلي.

ثم تحركت من أمامه صوب غرفتها، وقد حاولت إغلاق الباب ليمنعها ويدخل خلفها قائلاً، وهو يمسك يده قبل أن تجلس على السرير وتهم بالنوم: جوليانا أخبريني ما حدث صدقيني أنا لم أكُن أعلم أن كل هذا سيحدث.

التفتت تنظر إليه بشراسة وغضب ودموعها لا تكُف عن الهبوط، وقد انتزعت يدها بغضب وقوة قائلة: سأخبرك... أخاك المحترم يتهمني بأن هناك علاقة قذرة بيننا... أنا جوليانا التي تحفظ أوامر الرب وتعاليمه يتهمني أخوك في شرفي، ثم ازداد نحيبها قائلة من بين شهقاتها:

أنا قد أخبرتك... من قبل.... لا قيمة لي بينكم... أنا لا شيء... ولا أحد بينكم... لقد ضربني لأني... لأني دافعت عن نفسي... هل... هل هذا جزائي... لقد راعيتك واهتممت بك.... هل هذا جزائي... لما تنظرون إلينا دائماً بدونه ورخص واستحقار... ما ذنبي أني ولدت فقيرة... لما ظهرت بحياتي لما... ارحل أرجوك. ارحل ثم وضعت يدها على قلبها، وجلست أرضا مستندة إلى الحائط وهي لا تكف عن البكاء تحت أنظاره المُتألمة لألمها قائلة بنواح أكبر: ارحل أرجوك... منذ أن رأيتك وأنا لا أجني سوى الألم... أنا لا شيء... لا شيء... لم يتجرأ أبي علي ويضربني... ليضربني كل من هب ودب... ارحل يا حنا وجودك يؤلم قلبي... ارحل.

لتنهي كلامًا قد خرج من صميم قلبها وأعماق روحها المتمزقة بنوبة بكاء مريرة انخرطت بها، وقد أظهرت جانبها الضعيف والمكسور لأول مرة واحدا غير عائلتها، وقد تكورت على نفسها تخفي وجهها بين ساقيها وذراعيها كل هذا وحنا يُشاهد ولا يقدر على الحديث، وكل ما يشعر به الآن هو شيء مؤلم للغاية يعتصر قلبه، وغضب عارم يسحق عقله، وعيناه تلك قد تلألأت بالدموع لبكائها وتألم لبكائها، وغضب لبكائها، لم يتخيل أبدًا أن الحبيب يشطرُ ويُشارك كل ما يشعر به الحبيب الآخر لم يتخيل أن المعاملة من طبقة فقيرة وفتاة تصغره بثلاثة عشر عاماً كانت تلهو معه، وتتعلق برقبته ستؤثر فيه، وسيقع قلبه في حبها.

مسح عينيه بهدوء، ثم جلس أمامها على ركبته، وتجرأت يده، ورفع وجهها مجبرًا أيها لتنظر إلى عينيه، وينظر هو لوجهه لتزيد معاناته من حالتها المأسوية، سواء كان من وجهها المكتنز بالاحمرار والاختناق من كثرة البكاء، أو من تلك الدموع التي يجب ألا تزور عينيها أبدًا.

تسلل كفه ماسحًا دموعها بأصابعه، ثم أحاط وجنتها اليسرى بكفه الأيمن، وكل دمه تهبط من عينيها تتلقفها أصابعه، وتمسحها فورا ويده الأخرى تمسك كفها الأيمن، وقد زاد على كل هذا حرارة وجنتيها جراء خجلها وعينيها التي انخفضت بتلقائية وشهقاتها التي بدأت تقل تدريجيًا عندما تحدث بهدوء قائلاً: إن لم تكوني ملكه لأحد، فيكفي أن تكوني ملكه في عيني... ويكفي أني أراكي أعف نساء الأرض... دموعك تلك تمزق حنا من الداخل، وتكوي قلبه ببطء... أنتِ شيء جميل لا يفهمه أحد... أنتِ مراهقتي وصبايا وشبابي... عليك أن تكوني قوية وصلبة الحياة مليئة بألف بلايو وألف جندي مثل ليلة التفتيش... سأرحل، لكن لن أعدك أني لن أعود.... سأعود ولكن حنا آخر لأجد جوليانا أخرى... حياتي كلها ترتبط بحياتك، وإن وقف في وجهي ألف باليو.

بللت شفتيها، ونظرت إليه قائلة برجاء: أرجوك لا تُصعب الأمور على، حياتنا ليست واحدة بيننا ألف حائط وألف سد لن تصمد.

رفع كفها الأيمن ولثمه، وقد أطال الوقت، وهو يسرق أنفاسه التي يشعر بأنها هواء الجنة يسرقه للحظات، ثم نظر إليها مجددا قبل أن يقف ويذهب قائلاً وعيناه تشع عزماً وإصراراً: سأعود وسأهدم السدود، وأحطم الجدران لأجل عينيك فأنت لا تعرفين من أنتِ بالنسبة لي.

في الصباح الباكر استيقظ حنا أو لنقل بمعنى أصح قام من سريره، ولم يطرق النوم باب عينيه المزينة بالأهداب البنية، ولو للحظة قبل بضع ساعات، وكل ما يشغل تفكيره هو غباوة القوى وضعفه وعدم قدرته على استرجاع حق كرامتها التي شعر بإهانتها وصمته ودموع الأمس كانت كماء النار يكوى قلبه ببطئ وهنا فقط تأكد من حبه لجوليانا الذي بالعشرة حدث وتأكد أن لا حياة إلا مع جوليانا، وكل ما حدث وسيحدث سيصلحه وسيقاتل في مواطن كثيرة ليظفر بالحلوة التي وضعها الرب في طريقه مجددا، وقد فتح له الباب ليبدأ طريقه ومشواره مجددا، ومن جديد ويخطه كما خطط لسنوات وأيام وليالي.

ولكن جوليانا الآن ليست تلك الطفلة الصغيرة التي لطالما دللها وحملها ولعب معها، بل أنثى ناضجة جميلة تصرخ بالأنوثة، وقد كبرت واختلفت عن تلك الطفلة الصغيرة المفعمة بالحياة التي كانت توزع الابتسامات على الكل من دون حساب، وكم كانت مرحة ولطيفة الآن باتت صامتة قوية الهمة رابطة الجأش أنثى في ثوب رجل، لكن ما تزال تحتفظ من طفولتها بخجلها وبراءة وجهها وطيبة قلبها وأكبر دليل تلك الدموع التي انهمرت فور حدوث مشكلة الأمس تدل على أن قلب العصفور يختبئ من الصقر الجارح في صورة ذئب قوي.

وضع حنا يديه في خصره، وفرد ظهره وزفر أنفاسه بقوة، وأرجع رأسه للوراء، وهو ينظر إلى السقف للحظة قبل أن يهم بالخروج من الغرفة وبالأخص أن هذا الألم في ذراعه أقوى وأشدّ فتكًا من الذي بخاصرته، لكن يريد الخروج يُريد أن يراها الآن وبأي طريقة وثمن!

خرج ممسكًا بذراعه بألم، ولكن البيت على عكس عهده منذ مجيئه خالي منها، ومن نشاطها الصباحي المعتاد لسيت في حجرة المعيشة ولا حجرة الطعام ولا في الحظيرة، ولا يصدر منها صوت من المطبخ.

زفر أنفاسه بسأم، وضيق ثم اتجه إلى المطبخ حتى يشرب وأخذ في الشرب من هذا الكوب الفخار، وبينما الكوب معلقاً على فمه تعلقت عيناه بمنظر آخر صدمة وبشدة!!

!وتعلق الكوب في الهواء والعينين في الغرفة

ما هذا الذي يراه الآن؟ هل حقًا تلك جوليانا الصغيرة التي كانت تعقد شعرها على هيئة أذني قطة، وتحمل بين يديها عرائس صغيرة؟ هل حقًا تلك جوليانا الصغيرة التي كانت تتسلق قدميه وظهره حتى تقف على كتفه، وترى البحر من فوق؟ أم تلك جوليانا الصغيرة التي كانت تتعلق بيده فور رؤيتها له، حتى يلعب معها، ويؤرجحها في الهواء؟

لكن الإجابة لا! بالطبع لا ومن يقول غير ذلك فهو أعمى. وكيف تكون صغيرة وما تراه عيناه يُكذب ذاكراته؟

وقد ظهرت له من خلف الباب المتواري تنام بهدوء وسلام ناثرة خصلات شعرها الأسود على الوسادة حولها، وترتدي منامة وردية .طويلة بأكمام طويلة، لكن المنامة من دون ذلك الوشاح الذي ترتديه دائماً تظهر جوليانا الأنثى الجديدة أمام عينيه

ابتلع الماء، ووضع الكوب بإهمال على الطاولة، ثم أخذ يقترب من الباب غير محكم الإغلاق ببطء، حتى وقف قُبيل الباب، ورفع يده حتى يفتح الغرفة، ولكن تعلقت يده في الهواء هو بين صراع إما أن يستمع لهوى نفسه وشيطانه، ويدخل ليختلس نظرة صغيرة عن قرب، .أو يغلق الباب، ويحفظ حرمة الرب، ويتبع تعاليمه، وينتصر على نفسه

وظل معلقًا في هذا الصراع، حتى زفر أنفاسه بقوة، وأمسك المقبض، وقد دخل إلى الغرفة لتنتصر نفسه الأمارة بالسوء، ويقترب أكثر .من سريرها

وقف أمام سريرها، وقد ألقى نظرة عن قرب لها كم كانت تغط في نوم عميق وكأنها تهرب من هذا العالم بالنوم، وبالرغم من عمق .نومها كان وجهها مجهداً ومتعباً وقد كانت تان ببعض الألم

تجرأت يده، وأبعدت شعرها عن وجنتها اليسرى، وانسابت أصابعه على وجهها وكأنها تتذوق نعومة بشرتها، لكن النعومة كانت بارداً حتى نزل إلى رقبتها، وكانت باردة هي الأخرى، ثم التفت إلى النافذة إذ بها مفتوحة على مصرعيها والستائر تتطاير بسبب الريح الباردة العالية، وقد فسر له هذا برودة جسدها، أغلق النافذة ورفع الغطاء من على الأرض، ثم دثرها جيدًا، وقد صاح عقله بقوة "يكفي الآن، لقد "!أخذت نظرة أرجع

.لكن نفسه أبت العودة، وقد جلس إلى جانبها وكأنه مسلوب الإرادة خائر القوة خرع العزم أمام ما تراه عيناه الآن

داعب خصلات شعرها بهدوء، وخلل أصابعه بينهم، ثم حررها وأخذ يعيد الكرة وكأنه يمشطها وكانت رائحة الياسمين المنبعثة من .شعرها أسرت قلبه، وسرقت بقايا عقله

ترك أسر شعرها، وزحفت يده إلى وجنتها يداعبها بهدوء ونعومة، وقد ابتسم بهدوء، وهو يتذكر عندما كانت في السادسة من عمرها عندما قرصتها نحلة في وجنتها اليسرى، وكانت تبكي بقوة، وتشكو له بأنها صارت قبيحة، ومن في عمرها يرفضون اللعب معها، وصارت محط سخرية وعندها أخذها في جولة على حصانه، وأخذ يُريها أماكن جديداً حتى توقفت عن البكاء، وخفف عنها ببعض كلمات .الثقة والتحفيز

همس بصوت منخفض، وهو يميل عليها يستنشق عطرها الخفي قائلاً: أصبحتِ امرأة تأسر القلوب يا جوليانا... لا توقعيني في شباكك .أرجوكى... فلا يمكنني أن لا أُعجب بكِ

ثم مال على وجنتها يلثمها بخفة وهو لا يعرف كيف ساقته نفسه من مجرد نظرة إلى قبله! ثم ابتعد عنها ما أن أدرك غباء وحماقة ما .يفعله

استيقظت جوليانا من نومها، واعتدلت في جلستها وهي تحك شعرها، وتمسح وجهها لعلها تفيق من نومها، وقد كانت تشعر بالإرهاق والتصاق في جفنيها المتورمين من شدة البكاء ليلة أمس، وقد أنبت نفسها على ما تفوهت به من حماقة من وراء قلبها لحنا الذي لا لوم عليه ولا ذنب؛ لأن أخاه مجرد جلف متبجح بارد عديم الذوق وحظها التعيس دونًا عن رجال العالم أحبته هو... نعم أحبته كانت تكذب على نفسها وقلبها متعللة بأنه مجرد إعجاب لا أكثر، لكن هل الإعجاب يصنع كل هذا الألم؟ وهل الإعجاب يصنع كل هذا الحزن، وهذا الصدق في المشاعر بالتأكيد لا! وبالعقل والقلب هل ما قاله حنا ليلة الأمس أليس حباً فقط ينقصه كلمة الحب، أليست تلك الوعود، وهذا القسم دليل الحب، لكن لسانه انعقد ولم ينطق بكلمة الحب. آهً منك يا حنا! لما جاءت في هذا الوقت، ولما هي دونًا عن النساء كلهم وقعت بحبك، ووقعت أنت بحبها، ولكن على الأقل حكمة تعلم أن نهاية هذا الحب الظلام والفراق لا وجود له، لكن حنا المسكين لا يدري أن هذا الحب لن يذُر الصدمات والألم والعذاب إلا عليه هو!

لكن لو أننا بحثنا وفكرنا لن نجد مخطئاً سوى حكمة، وقد ألقت اللوم على نفسها فقط لأنها أدخلته منزلها، وسمحت لنفسها بأن تحبه، وأن تجعله جزءاً من حياتها المعقدة المليئة بالتفاصيل والعقد التي لا حل لها ولا نهاية إلا فرجًا من الله وبطل صابر، وصادق مع الله كصلاح الدين ينهي مأساة المسلمين في إسبانيا والبرتغال، ولكن لو أن هناك صلاح الدين فعلاً لما كانت ستسقط الأندلس، ولما ستندثر الحضارة العظيمة من بلاد الأندلس؟! إنها فقط أماني ودربًا من دروب الخيال تتعلق بها في واقع مرير لا حل له ولا فرج إلا بيد الله.

اتجهت حكمت إلى المرحاض حتى تغسل وجهها، وتستعد ليوم آخر لا تدري مثل سابقيه أم مليء بالمفاجآت التي سئمت منها، ومن اقترابها الدائم من حياتها وتلويحها فوق الأُفق لتخرج متجهة إلى غرفة حنا تطرق الباب بهدوء، لكن لا إجابة إعادة الطرق، لكن لا إجابة أيضًا، نظفه حلقها وزفرت أنفاسها بهدوء متحلية بالهدوء والقوة، وفتحت الباب، لكنه غير موجود ولا أثر له في البيت اتجهت إلى صندوق الملابس وفتحته، لكن لا شيء به، جلست على السرير، ونظرت إلى الفراغ، وأغمضت عينيها ببطء تزامنًا مع أنفاسها التي خرجت ببطء وراحة وهدوء، وقد زال الكابوس، ورحل الهم وحل الأمن، الآن فقط سترتاح وستنام في اطمئنان وسلام من دون خوف أو قلق، ولن ترى بلايت مجددا، وستنسى تلك الفترة وكأنها لم تكن وملعب ذلك الحب حيًا من دون رحمة ولا شفقة لترحم نفسها وعائلتها من حرب وعذاب لن يتحمله أحد ولا ذنب واحدا فيه.

في أثناء منتصف اليوم كان حنا ممددًا جسده عاري الصدر ألاح من رباط الشاش على ذراعه وبطنه فاردًا ذراعيه وساقيه مثل الطفل الرضيع الذي ينعم بنومة هادئة بعد جلسة طعام مشبعة، وكان على سريره الكبير المغطى بأغطية بنفسجيّة من الحرير وبأعمدة بُنية طويلة تحمل مظلة بنفسجيّة، وقد كان ينظر إلى ذلك السقف بهدوء وشرود وتفكير وحمد ربه أنه لم يلاق أحدًا سوى أمه التي كعادتها استقبلته بالفرح والدعاء والنذور بعودته سالمًا، ولكنه غير سعيد.

يشعر منذ أن ترك بيتها، وعاد إلى بيته بشيء من النقصان والفراغ الموحش والسئ في قلبه وعقله وكأن حياته كانت ناقصة وبها فراغ لم يعرفه إلا عندما ملئت هي ذلك الفراغ بكل شيء جميل وبديع في هذا العالم كان يريد أن يودعها يصنع أثراً لا مثيل له، لكن لما الوداع، وقد عزم ودعي وقرر أنه سيرى هذا الوجه الذي أنار حياته مرة أخرى، ويخلق ألف لقاء ولقاء حتى تستقر في عشه الكبير، ولم يحمل معه من أثرها سوى ذكريات لا تعوض ومنديل أبيض مُطرز من الزوايه بورود حمراء صغيرة، وقد وجد هذا المنديل على الطاولة، واتخذه من دون إذن منها خليلاً له لعله يجذب الحبيب مجددا.

لم تكن له طاقة حتى بالنزول للأسفل وتناول الطعام، بل ترك كل شيء لوقته كما ترك قلبه ولقائه الثاني بها إلى وقته وبمعنى أصح وأدق لم تكن له طاقة بلقاء بلايو وجداله وهو لا يُطيق النظر في وجهه بعد ما صدر منه وعجزه المخزي عن التدخل والدفاع عنها، أو حتى منع تلك المهزلة.

أفاق من شروده، واعتدل في جلسته، وجلس على السرير عندما سمح للطارق على باب غرفته بالدخول ليجد بلايو يدخل الغرفة وما إن رآه حتى امتعضت ملامحه، واسود وجهه بضيق، وكمد وتناول رباط شعره يجمعه إلى الوراء في عقدة مُقتصدًا إثارة غضبه ووجومه، وقد أنزل عينيه ينظر إلى أي شيء إلا هو.

حتى جلس بلايو أمامه على طرف السرير، وقد تغاضى عن ما فهمه من ربط شعره، وتغاضى عن تجاهله له، وربت على فخذه بيده قائلاً بود: أنرت منزلك يا أخي.

.هز حنا رأسه، ونظر إلى النافذة، وقد اشتد فكه، وضيق عينيه قائلاً بضيق: أشكرك

حك بلايو لحيته بهدوء قائلاً، وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة مُتكلفة: لما لا تنظر في وجهي، هل صدر مني ما يغضبك؟

التفت له رافعًا أحد حاجبيه، وقد نظر إليه بزاوية من أسفل جفنيه، ولم يُجبه ثم التفت إلى الخزانة الصغيرة بجانب سريره، وأخرج من أحد الأدراج كيس نقود جلدي، وفتحه يسكب ما فيه على السرير أمام عيني بايو الذي لا يفهم ماذا يحدث الآن حتى أفرغ الكيس، وألقاه بإهمال على السرير؛ ومن ثم أمسك بالعملات الذهبية، ثم ألقاهم بهدوء من يده على السرير مجددا مصدرة صوت خشخشة قائلاً وعيناه .في عيني بلايو بتحد وسخرية: نقود أجرت جوليانا الطماعة، ردتها إلينا في حقيبة ثيابي، يا أخي، يا سياسي، يا مُحنك

اتكأ بايو على السرير بذراعه اليمنى، ورفع فخذه الأيمن على السرير، حتى أصبح في مواجهة حنا قائلاً عاقدًا حاجبيه: ماذا تقصد؟

اشتد ضيق حنا، وتحدث قائلاً بنفاذ صبر وكأنه ينزل حمل من الحجارة من على كتفيه ببضع الكلمات القليلة: قصدي تعرفه يا بلايو، أنا أحب جوليانا ولم، ولن أتردد في أن أُصرح بكلامي هذا سواء أمامك أو حتى أمام العالم وفخور بحبي لامرأة مثل جوليانا فلا تحاول أن .تتدخّل في حياتي ودعني أعيش كما أحب

اتسعت عينا بلايو بشدة، وقد أصابته صاعقة الدهشة وهول الصدمة من ما يسمعه من أخيه وكأنه مُراهق أو أحدًا آخر غير حنا الذي يعرفه مثل ما يعرف كف يده جيدًا، ليتحدث قائلاً وكأنه يحاول إيقاظه من أوهامه، ولو بيده لصفعه الآن، حتى يفق من أوهامه تلك: حنا هل تعي ما تقوله وتسمع أُذنك ما يخرج من فيك، تلك الفتاة الفارق بينك وبينها كالفارق بين السماء والأرض، أنظر إلى الطبقة أباها كان يعمل عند أبينا، ولا تخبرني من أين عرفت؛ لأن لي طرقي، أنظر إلى فارق السن بينكم، أنظر التربية والطباع، أنظر إلى الدين أنا أحيانًا .أشك في مسيحية تلك الفتاة

هنا ويكفي العبث بالحديث واللعب بالكلمات، وقد صبر طوال تلك الثواني ليتحدث حنا بنفاذ قائلاً: إن صدقتك في ما سبق فمستحيل أن أصدقك في الأخيرة، أنا عشت معها، ورأيتها وعينتها جيدًا، وتركت السماع عنها، إنها لا تُفارق محراب الصلاة والصليب لا يفارقها ولا .تتفوه إلا بتعاليم وكلمات اليسوع، صدقني إن كُرهك لها يعميك عن الحقيقة

هز بلايد رأسه على مضد قائلاً بضيق قبل أن يهم بالوقوف: بل إن حبك لها يعميك عن الحقيقة، ولكن إن أخبرتني بميزة وحيدة في تلك .الفتاة سأتركك وشأنك الآن

نفخ حنا صدره قائلاً بثقة وحب وعقله كله إيمان بما ينطق لسانه: في بيت جوليانا عرفت أهمية الجار، في بيت جوليانا عرفت أهمية الوقت، عرفت الرحمة والتراحم، عرفت الصبر، عرفت الجمال، عرفت الحب، عرفت الحنان، عرفت قيمة العمل، عرفت قيمة الحياة، .عرفت سحر الدعاء، يكفي أني عرفت قيمة جوليانا

وقف بلايو، واتجه إلى باب الغرفة حتى يخرج تاركًا حنا خلفه لم يعقب على كلمة وتعابير وجهه المصدومة و المزهولة تكفى كأكبر، وأوضح إجابة لحن، وقد استقبلها حنا بالرضا والسعادة بأنه سيكف عن مجادلته، وألقى بجسده على السرير حتى ينام واضعًا وسادة .صغيرة على وجهه، حتى يحجب ضوء الشمس عن عينيه

أما عن بلايو، فقد اكتفى بما سمعي الآن، وأدرك أن أخاه وصل إلى حالة ميؤوس منها، ولكن الذي لا يفهمه كيف وقف في حب وهوى تلك الفتاة في تلك المدة القصيرة، وإن كان صادقًا في حبه حقًا هل أخبر جوليانا بمشاعره تلك وإن أخبرها؟ هل تُبادله الشعور نفسه؟ وإن .كان لا، فقد حُل الأمر من تلقاء نفسه

وإن كان نعم فهو أمام مشكلة حلها معروف أن يبعد قدر المستطاع بينهما، ويفرقهما ويوسع المسافة بينهما لعلها تُبعد القلوب، وتنسيها ما .كان

!وأما إن لم تكن قد أعطته الجواب فهو أمام مشكلة لا يعرف حلها وأبعادها والأمر كذلك بالفعل

مرت ثلاثة أيام معلنة عن انقضاء أسبوعين، ولكن لن نذهب إلى خديجة الآن، بل نحن عند حنا، ولكن في مكانٍ جديدٍ في مقر عمله وبالتحديد في مكتبه حيث كان يجلس على كرسيه المطعم خشبه بالذهب وجسده من القطيفة الحمراء، ومن خلفه على الحائط صورة بعرض الحائط للملك فرناندوا بزي الحرب والملكة إزابيلا الأولى وعند أقدامهم خوذة الحرب الإسلامية التابعة ل"أبي عبد الله الصغير أو الزغبي" التي أُمتهنت منه بعد أن سقطت الأندلس، ووقع في الأسر قبل تسليم الأندلس_ ولا تزال تلك الصورة وما نُحت مشابهاً لها معلم من معالم إسبانيا الذي يتفاخر به الصليبيون، ويعلقونه إلى الآن في المكاتب والقصور والمتاحف، وأضف إلى ذلك الحفل الذي يُقام كل عام في يوم الثاني من يناير احتفالاً بسقوط الأندلس، وتجرى فيه مشاهد الذلة والخزي والعار من تسليم مفاتيح غرناطة، ورأيت المسلمين والأسى الأسى كله على ما ضاع وفات من أندلسنا _ وعلى مكتبه الكبير قبعته العسكرية وصليب صغير من الذهب وبعض الملفات فوق بعضها البعض، وقد كان منكبًا على أحد تلك الملفات يُحاول التركيز فيه، رغم أنه لا تمُر عليه لحظة إلا ويراوده شبه جوليان، ويلوح في مخيلته، سواء كانت ابتسامتها أو بكاؤها أو تحديها أو صمتها أو خجلها كل شيء محفوظ ومحفور في رأسه ومصقول كالفولاذ الذي لا يصدأ ولا ينكسر وغير ذلك هذا المنديل الذي لم يُفارق يده منذ أن عاد إلى بيته حتى الآن، وبالرغم من أنه في مقر عمله، إلا أنه لا يزال ملفوفًا حول يده يستنشق عبيرها وعطرها وذكرياته معها منه، ويقوى وصال حبه به، ولو رأى أحدًا صاحب الشرطة في تلك الحالة لما صدق وكذب ما تراه عينه، وهذا هو العشق يا أخي يجعل الحليم حيران والملك غفير.

ولكن قطع وشتت تركيز حنا وما كان يفعله دخول صديقيه ديغو وإدواردو، ولكن إدواردو دخل بصخبه، ومرحه المعتاد على عكس ديغو الذي يمتاز بالهدوء والرزانة والبساطة ليخالف صديقيه في طباعهما.

اقترب إدواردو_ حليق اللحية أسود الشعر القصير وصاحب عينين بُنية قاتمة، وأقنى الأنف عريض الكتفين متوسط الطول، وذو رتبة أقل من حنا، وفي عمر الثلاثين _ من حنا، وفتح ذراعيه قائلاً بمرح وصخب: ها قد عاد السيد حنا من إنجلترا، وترك فتيات إنجلترا من ورائه يبكين لفراقه.

ضحك حنا، واحتضن صديقه، وشد على عناقه حتى يؤلمه قائلاً بمرح قاسى: أفضل من طائش مُتسكعًا مثلك... اشتقت إليك أيها الثور.

ضرب إدواردو على ظهر حنا بقوة قائلاً بمرح: وأنا كذلك سيدي... عودًا حميد.

ثم ابتعد عنه، وجلس على أحد الكراسي بجوار كرسي حنا الذي يترأس الطاولة ليلتفت حنا إلى ديغو_ طويل القامة ومتناسق الجسد أشقر الشعر ذو شارب مُهذب وعينين بنية فاتحة للغاية أقرب للون العسلي، وفي الثالثة والثلاثين من عمره، وفي نفس رتبه إدواردو _حتى يُصافحه، وقد احتضنه بود حقيقي قائلاً: اشتقت إليك كثيرًا يا سيدي.

ربت حنا على ظهره بهدوء، ثم ابتعد ممسكًا بكتفيه، وعلى شفتيه ابتسامة ودودة قائلاً: وأنا كثيرًا يا أخي... ثم ربت على كتفه قائلاً، وهو يُشير برأسه للكرسي: أجلس لدينا أعمالاً كثيرة هذا الأسبوع.

جلس ديغو على الكرسي المقابل لوجه إدواردو قائلاً وهي مزح: على رسلك يا أخي، فلم أنم الليل بسبب بكاء ابنة أخيك.

ليقاطعه إدواردو قائلاً بصدر منفوخ وضيق: وأنا أيضًا لم أنم طوال الليل الأمس.

التفت حنا ينظر إليه رافعًا أحد حاجبيه قائلاً بمكر: وما سبب سهرك أنت أيضًا؟

وضع إدواردو ساقاً فوق الأخرى، واتكأ على الطاولة بذراعه قائلاً بضيق: ابن أخت زوجتي المتبجح أكل السمكة التي كنت سآكلها على العشاء، واضطررت لشراء سمك آخر للأكل، ولم أجد سوق السمك مفتوحاً مساء الأمس، فغضبت وتركت البيت، ونمت عند أبي في بيته... تلك هي نهاية الزواج يا أخي تنام عند أبيك.

ضحك الرجلان بصخب، وربت حنا على كتف إدواردو قائلاً والابتسامة الصادقة الصافية لا تفارق وجهه، وقد عادت أيام الفرح والصبا: اشتقت إليك يا ثور.

ثم تابع بوسائل وفضول قائلاً: ولكن من أخبركم أني كنت في إنجلترا؟

نظف ديغو حلقه قائلاً بهدوء: من السيد بلايو عندما طلبك البابا بسبب كمين محكمة مدريد، فأخبرنا أنك خارج البلاد، لكن أخبرني، ماذا فعلت مع البابا؟

مسح حنا أذنه بأصابعه، ثم أخذ يشرح الأمر، وهو يلوح بأصابعه فالهواء بيده اليمنى المُزينة بالمنديل قائلاً: لا تقلق عندما قُبِض على المتسببين في الحادث هدأت ثورته... المهم الآن نحن نحتاج وجوهاً جديدة في العمل... ثم أشار إلى إدواردو.

قائلاً بعملية: إدواردو أريد منك عملاً قائمة تحصر جميع شوارع وأحياء مدريد، وكل شارع كم يحتاج من الجنود لمراقبته وحمايته، ثم التفت حنا إلى ديغو قائلاً: وأنت كذلك يا ديغو أريد منك أن تقوم بعمل حركة تنقلات بين جنود، وستشرف على التدريب الخاص بهم، اتفقنا؟

وقف كلاهما قائلين بعملية و

.قد هم كلاهما بتنفيذ تلك المهم الشاقة التي تقع على عاتقهما: اتفقنا

في صباح أحد الأيام، وعلى طاولة الطعام، وقد شاء الله أن يمر من الوقت والعمر ما شاء الله أن ينقضي، وقد انقضى من العمر شهر جاف وبارد وقاسى على بعض القلوب هنا من دون ود و لاوصال، ويااليت القمر يرسل كل ليلة سلام الأحبة وشوق العشاق.

كان شمل الأسرة الصغيرة قد التأم وعادت الحياة والأمور لطبيعتها، أو لنقول ذلك مجازًا مجاراتًا للواقع الحي الآن، فمنذ أن جات خديجة، وحكمت في حالة من الصمت والسكون ليست كعادتها تتحدث وتتناقش معها، وتتشاجر مع طارق، وتتناقش معه، لكن الآن حكمة أخرى جديدة تمامًا، حتى عندما كانت تحزن أو تتخذ من الصمت أنيسًا والعزلة رفيقًا والدعاء جليسًا، لكن صمتها طال كثيرًا.

وحتى الطفل طارق قد لاحظ أن أخته ليست في أفضل حالتها، بل حزينة للغاية، ولكن الأم كدار المخابرات لا تأخذ بالظاهر، بل تتفحص وتبحث في أصل الأمور لتحل القضية وما بالنا بابنتها الوحيدة والكبرى وما ترى في عينيها من حزن عميق وخيبة أمل والكمد الكبير، وكل شكوكها تذهب إلى تلك المدة التي قضتها بعيدًا عنها وهي على أتم اليقين بأن هناك سراً قوياً وعظيماً تخفيه عليها، وكيف لا يكون هناك سر، وهي تتذكر عند وصولهم إلى البيت أنها استقبلتهم بالحلوى والطعام الشهي، لكن بصمت وعندما دخل طارق غرفته للنوم قد اندست داخل أحضان خديجة، وانفجرت في بكاء مريرة تقص عليها ليلة التفتيش فقط ولا شيء سواها فقط تلك الليلة فلا وجود لحنا ولا لغيره كما عزمت وعكفت على إخراجه من حياتها وقلبها وعقلها، ولكن لن تستطيع إخراجه من ثنايا روحها وهي أعلم الناس بذلك؟

أنهى الجميع طعامه، وتشاركوا في تنظيف المائدة من حولهم، ودخل طارق غرفته لتبديل ملابسه، وإحضار حصانه الخشبي وسيفه الخشبي للعب مع أصدقائه، وقد جلست حكمت وخديجة كلتاهما في حجرة الجلوس وبين يدي خديجة كرة الصوف، وأبر التطريز وشرعت في الحياكة والنسج لتنهي بعض الأعمال التي وصلتها، وإلى جوارها حكمت التي جلست ورفعت ساقيها من على الأرض محتضنة إياهم، وأراحت رأسها على ظهر الكرسي تاركة شعرها حراً ناظرة إلى اللا شيء، وتفكر في كل شيء، ولن أتطاول وأُطيل السرد والبيان فالجميع الآن يعرف ما تفكر به حكمة.

.أخرجها من شرودها صوت طارق الذي وقف قائلاً بتأدب: أمي سأذهب للعب ولن أتأخر

.هزت خديجة رأسها قائلة وعينيها ويديها لم تفارق عملها: حسنًا لكن أمام المنزل، ولا تتأخر ساعة واحدة فقط

هز طارق رأسه، وقبل وجنت خديجة لتبتسم حكمت ببهوت وبلا حياة، لكن قبل أن يخرج طارق، وتعود حكمت للامبالاة مجددا كان هناك طرق قوي على الباب ارتدت لأجلهن غطاء الشعر، وشرع طارق في فتح الباب، ومن خلفه خديجة، وحكمت التان شعرن بقلق وبالأخص عندما كان الطارق يرتدي زياً عسكرياً، لكن من رتبة صغيرة، لكن صُعقت حكمت ودُهشت خديجة عندما تحدث ذلك الرجل قائلاً: من منكم السيدة جوليانا.

نظرت حكمت إلى خديجة التي نظرت إليها بوسائل، وتكون إجابتها بسيطة، فقط رفعت كتفها، وزمت شفتيها للأمام بمعنى لا أعلم، ثم أشارت على نفسها قائلة: أنا جوليان.

عدل ذلك الشاب حزام سلاحه الناري على كتفه الأيمن قائلاً بأمر وحزم: السيدة مرلان من قصر السيد بلايو مريضه، وقد أُرسلت بأمر من السيد بلايو والسيد حنا في طلبك لكي تُداويها.

الفصل الثانى عشر

شرع طارق في فتح الباب، ومن خلفه خديجة، وحكمت التان شعرن بقلق وبالأخص عندما كان الطارق يرتدي زياً عسكرياً، لكن من رتبة صغيرة، لكن صُعقت حكمت ودُهشت خديجة عندما تحدث ذلك الرجل قائلاً: من منكم السيدة جوليانا.

نظرت حكمت إلى خديجة التي نظرت إليها بوسائل، ورفعت كتفها وزمت شفتيها للأمام بمعنى لا أعلم ثم أشارت على نفسها قائلة: أنا جوليانا.

عدل ذلك الشاب حزام سلاحه الناري على كتفه الأيمن قائلاً بأمر وحزم: السيدة مرلين من قصر السيد بلايو مريضه، وقد أُرسلت بأمر من السيد بلايو والسيد حنا في طلبك لكي تُداويها.

نظرت حكمت إلى خديجة بتوتر جلي وواضح، وقد صارت نظراتها عن خديجة التي تحرقها بنظرات الفضول الآن متجهة إلى ذلك العسكري الصغير الذي بالفراسة لم يبلغ الخامسة والعشرون قائلة بوسائل: ألا يمكنها المجيء إلى هنا، و سارعها وأهتم بأمرها؟ أنا لا أذهب إلى المنازل للعلاج.

أمال حليق اللحية الواقف أمامها رأسه، ورفع كتفيه باستسلام قائلاً: إنها مصابة بالدمامل في قدمها، ولا يمكنها المشي.

عضت حكمت على شفتها العلوية بأسنانها وهي تُقلب الأمر في رأسها بتفكير، وأخذت تنظر إلى طارق الذي كتفاه بين يديها وظهره مقابلها، وينظر إليها بفضول، ومن ناحية أخرى خديجة التي تنظر إليها بنظرات الأمومة الفتاكة والشاملة المتفحصة، حتى تختبر ابنتها وردة فعلها، وقد رجحت أن حكمة ستقبل بالذهاب، وتكسر ما تعاهدت منذ زمن سمحت لها بالعمل وهو عدم الذهاب لأي بيت كان حتى ولو بيت خلانها بغرض العلاج مخافة الطمع بها بأي شكل كان أو أن يعترضها أي فرد كان سواء من جنود الكنيسة أو الفرنسيين أو بعض اللصوص أو أن يُكشف سرهم الأعظم والوشاة لا يوصون بشيء في مدريد فقط إن شممت أنوفهم رائحة المسلمين، فغدًا سنجدهم في حفلة حرق جماعي بقيادة وحضور الملك!

وبالفعل فكرت وقررت وعزمت أمرها لتسأل ذلك الشاب قائلة بتوجس: هل البيت بعيد عن هنا؟

"لا مسيرة نصف ساعة بالعربة والعربة في انتظارك بالخارج"

.هزت حكمت رأسها بالقبول والموافقة قائلة على مضد: انتظرني سأبدل ملابسي

ثم أغلقت الباب، واتجهت إلى غرفتها حتى تبدل ملابسها، ومن خلفها خديجة حكمت كانت أسرع، وأغلقت الباب بالمفتاح لتقف خديجة تحاورها وتناقشها قائلة بحدة، وهي تطرق على الباب بضيق: أنتِ يا حمقاء، من تلك مارلين ومن حنا؟ ومن بلايا هذا؟

نزعت حكمت فستانها، وألقته على السرير متجهة إلى خزانتها الصغيرة تبحث عن فستان آخر للخروج، وقد وجدت واحد باللون البني وقميصه أبيض وعليه مشد جلدي بني اللون، ثم بدأت ترتدي ملابسها قائلة بصوت عال نسبيًا، حتى تسمعها خديجة، وهي تقف أمام المرأة: عندما كنتم في مدريد كانت حفيدة السيدة مارلين مريضه، ودلها على أحد الناس، وقد مكثت يومين في البيت حتى برأت وعادت .إلى بيتها

وضعت خديجة يديها في خصرها قائلة بضيق وشك في مصداقية تلك القصة، وقد أخبرتها غريزة الأمومة وإنذار الكذب بأن تلك القصة مفبركة ومخلقة الآن وكيف لناس من شكل الحارس والعربة ينتمون إلى الثراء الفاحش بأن يأتوا لأحد أحياء مدريد المتوسطة لطلب العلاج من ابنتها وترك المستشفى الخاصة بالنُبلاء، ولكن فضلت أن تُجاريها حتى تصل إلى نهاية الطريق: ولماذا لم تخبريني؟

.صاحت حكمت من خلف الباب، وهي تعقد شعرها أمام المرأة، وتضع غطاء الشعر قائلة: نسيت يا أمي، ليلة التفتيش أنستني الأمر

ثم فتحت باب الغرفة أخيرًا، وهي تمسك حقيبتها التي بها أدواتها الطبية، وأمسكت يد خديجة تُقبلها قائلة بمرح: ابتسمي يا إليزابيث، .وسأُحضر لكي حلوى التفاح وأنا عائدة

صاحت خديجة بحدة، وضيق قائله وعينيها تُطلق شرارة غضب: جوليانا! سنتكلم عند عودتك لن يمر الأمر بسهولة، ثم تابعت قائلة بحزم، وهي تقف مقابلها وهي عاقدة ذراعيها: أخبريني الآن كم ستمكثين هناك؟

اتجهت حكمت إلى المطبخ الكبير، ومن خلفها خديجة التي اتكأت بكتفها على باب المطبخ، وهي تراقب ابنتها التي بدأت تعبث في الجزء المخصص بالأعشاب، حتى وجدت أوراق البلوط وبعض الأعشاب الأخرى والعسل الأبيض الجبلي وعسل الحنطة والزعتر قائلة، وهي ترتب تلك العلب في حقيبتها: على حسب يا أمي، هل الدمامل كثيرة؟ هل فُتحت وحدها أم لا؟ وهل نوع الدمامل حميد أم خبيث؟ وهل .حالتها الصحية جيدة أم لا؟ كل هذا سيأخذ وقتاً طويلاً يا أمي

ثم حملت حقيبتها الجلدية الكبيرة، ووقفت أمام خديجة قائلة برجاء وهي تُمازحها: أمي الجميلة أدعى لي أن يمر الأمر على خير، لأنه لو .صار شيء للمرأة رأسي سيُعلق غدًا على مداخل مدريد

على الرغم من ضيقها وحزنها وحالة الوجوم التي تلبستها من مدارات ابنتها لأمر كهذا بغاية الأهمية، إلا أنها عندما ذكرت الشر الذي قد تتعرض له حتى رقت الأمومة، وربتت على كتف ابنتها قائلة بضيق: حماك الله لا تقولي هذا، خذي أخيلا معك لا تذهبي وحدك.

ابتسمت حكمت بود، وقبلت رأس خديجة، ثم مدت يدها إلى طارق الذي قفز مثل النمر بسرعة وفرح، وقد هرول إلى العربة التي تنتظر ببهجة وهو ينظر إليها بدهشة، وكانت تلك أول مرة يركب بها عربة فخمة كتلك، وتظهر عليها علامات الثراء وأول علامة هي الجمة وزينة الخيل من الذهب والمقاعد الناعمة من القطيفة الحمراء المطرزة بخيوط من الفضة واتساعها الكبير من الداخل، وتلك الأبواب الخشبية التي أغلقت عليهم، وأخذ طارق ينظر إلى الطريق من خلف تلك النوافذ الخشبية المتشابكة والمتداخلة خطوطها الخشبية الصغيرة مكونة ما يشبه السلك العازل في عصرنا الحالي _لكن خشبياً لطيفاً يخفف حرارة الصيف، ويرفع الحرارة في الشتاء _ إلى الطرق الخضراء والمزارعة والشباب الأقوياء والفتيات اليافعات الذين يركبون الخيل والبعض يتدرب الفروسية بجميع أنواعها، وقد كان يُشير أخيرا إلى كل هذه الأشكال الجديدة والعالم الآخر المختلف عن رتم الحياة التقليدية التي يعيشون في كنفها منذ ولادتهم.

وأكثر ما أدهشه هو ذلك الشاب الذي كان يُحارب بالفأس ببراعة، وقد صاح قائلاً لحكمة وعينيه لم تحد عن الطريق: انظري جوليانا لقد قام بحركةً رائعة. ثم التفت إليها قائلاً: هل سأستطيع أن أمسك بالفأس مثله يومًا ما؟

احتضنت حكمت كتفيه بذراعها اليمنى، وأخذت تشرح له الأمر، وتُحدثه وهي تشير في الهواء بيدها اليسرى قائلة: بالطبع يا بطل فأنت ابن لأجداد عظام أحدثوا ضجة، وأرعبوا العالم وغيروا التاريخ بفرسانٍ شجعان، وستكون بمشيئة الرب فارس قوى تحميني وتحمي أمك وبلادنا من الأعداء.

ابتسم طارق ببهجة صادقة وعارمة لو شاء الله، وتحولت إلى ماء لأغرقت إسبانيا على بكرة أبيها، وقد تخيل نفسه الآن في معركة ما، ويقود الجيش ويركب فرسه ويبارز الأعداء، ويتفادى الضربات والطعنات كسائر شجعان وفرسان إسبانيا، لكن المسكين الصغير لم يكن يعي أن أخته تقصد فرسان من نوع آخر، _ فرسان تركوا النوم والراحة، وحملوا آمنة ورسالة ربهم من بعد نبيهم، حتى تصل إلى أقصى شمال الأرض وجنوبها، وأبعد غرب الأرض وشروقها، وقد كانوا رجالاً معتصمين بحبل الله، ولم يحيدوا عن أمر ربهم، وطاعة نبيهم كالبنيان الواحد، فها هو أبو بكر الصديق من صحراء العرب القاحلة والبيداء القاتلة والرمال العربية الذهبية قضى على الردة وجميع شمل المسلمين تحت لولاء لا إله إلا الله بقيادة أبي سليمان سيف الله المسلول، ومن بعده عمر الفاروق دكة خيوله معاقل قوم كسرى وقيصره ليأتي رسول الحامية الرومية مستأمنا وقال: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر، وقد أقبل على يده أهل مصر طالبين الأمان من بطش الروم، ومن بعده عثمان ذو النورين، وقد بلغت جيوشه السند، ودخلت السودان وليبيا والبلدان المجاورة في الإسلام والسلام بسماحة رجال كانوا خير صورةً للإسلام في التجارة، وحسن الخُلق والأمانة، ومن بعده قال باب خيبر علي بن أبي طالب الذي حارب الفتنة ومُشعليها، وفتح شرق الهند حتى استشهد وهو يصلي لرب العالمين، ومن بعده أول ملك في الإسلام خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب -رضي الله عنهما وأرضاهما- وقد قبضت الدولة الأموية في مجدها على بلاد الترك وشمال أفريقيا، ودخل الأمازيغ في دين الله والترك والصين والهند وخرسان وآسيا الوسطى وبقيادة موسى بن النصير والبطل طارق بن زياد، وفُتحت الأندلس "الله أكبر" فكانت نصرًا وهبةً من عند الله، ومر الزمان ونهض السلاجقة والعباسيون، وجاء أبو الأيوبيون البطل صلاح الدين، وأنقذ القدس العريق، وقد أقسم أن لا يبتسم حتى يرجع مسجد ومسرى رسول الله، ومن بعده قطز قاهر أسطورة المغول وهناك قبلهم ذلك القائد محمد ألب أرسلان في بلاد الترك والجوز، وقضى الله أن يحطم جيشًا من مئة ألف صليبي بجيش قوامه ثلاثين ألف مسلم، وهناك أرطغرل بن سليمان شاه بأني أول حجر في دولة حكمت العالم لألف سنة، ومن بعده المؤسس عثمان والغازي أورهان، وجاء الفتح العظيم على يد الفاتح محمد، وحقق نبوة رسولنا الكريم "لتُفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها" وهناك في الأندلس عبدالرحمن الأوسط الذي قطع نسل الفايكنج، وأسترد ما سلبوه من أموال الأندلس وخيراتها، وبالأسفل يوسف بن تشفين الذي أجل سقوط الأندلس لأكثر من أربع مائة عام، ومن بعده الموحدين والمرابطين، وهناك في روسيا أشعل ابن بطوطة شرارة الإسلام في قلب الروس برحلاته واستكشفاته، وفي الهند قامت الدولة المغولية المسلمة التي ازدهرت في عهدها التجارة والمعمار والطب والفن لأكثر من خمس مئة عام،

وعُد للأعلى وستجد سلطان السلاطين وفاتح مصر، ومكة والمدينة المنورة ناسخ القرآن الكريم سليمان القانوني، وأذهب لإنجلترا ستجد أوفا ركس، وأبحث وتأكد بنفسك من ذلك الملك المسلم الذي حكم إنجلترا، وأسس بريطانيا التي نراها الآن، والآن أليس من حق حكمت أن تتمنى وتتوعد بأن يكون أخيها بطلاً كسائر أجداده الشجعان؟ !_.

بعد مدة وقفت العربة أمام بيت حنا، وقد نزلت منها ممسكة بيد طارق، وأملت عليه بعض الأوامر قائلة، وهم يعبرون البوابة الرئيسية للقصر مجتازين الحديقة الواسعة والأشجار والخُضرة الكثيفة: التزم بالصمت وكن مهذبًا، ولا تتحرك من جانبي الأندلس إذا أمرتك ولا تأكل أو تشرب شيئاً إلا إذا سمحت لك، وتأخذ القليل فقط، اتفقنا؟

.هز طارق رأسه قائلاً بطاعة: اتفقنا

مرت حكمت من خلال بهو القصر إلى الصالون حيث استقبلتهم الخادمة بثوبها الأسود الواسع الطويل ومريولها وطقيتها البيضاء وشعرها الأنيق، وقد أخذت منهم المعاطف قائلة بتهذيب: لحظة واحدة وسأخبر السيد بلايو بوصولكم.

.هزت حكمت رأسها قائلة بهدوء: خذي وقتك

وظلت وقفه على حالتها، ولم تجلس وكم شعرت بالضيق والكتمة فور وصولها للبيت وكما تقول والدتها على مثل تلك الأماكن التي تشعر الإنسان بالاختناق "ريح المكان ثقيلة على القلب" وآخر مرة شعرت فيها بالثقل في أي مكان كانت في بيت كاترينا عندما مرضت وكانت تداويها، وأضف على ذلك هي لا تعرف كيف ستكون ردة فعلها عندما تقابل الشقيقين حقا مجرد التفكير في الأمر يزيد انقباض قلبها، ولكن طارق لم يكن مثلها، بل على العكس ينظر إلى القصر بانبهار سواء من الأثاث الراقي، واتساع المكان أو محراب الصلاة الواسع المليء بالشموع العطرة والصلبان الذهبية، وذلك السلم الذي يربط الصالون بالغرف العلوية من طراز وتصميم ليوناردو دافنشي، وقد كان مُلتفًا على نفسه ذو عمود من الرخام وبه تفاصيل واعوجاج كما في تلك الماصة الطويلة المكونة من لونين ملتفين كسلك الكهرباء حول بعض، وذلك المطبخ الذي لمحه من خلف أبوابه، وقد كان مليئاً بالخدم، وكان حجم المطبخ أكبر من بيته، لكن أفاق من شروده وتأمله المُنبهر لإرجاء المنزل على يد حكمت التي جذبته من ذراعه لأسفل، حتى ينحني مثلها عندما هبط حنا من على السلم متجهًا إلى مكانهما، وقد شعر بأنه يتنفس هواء جديداً ومنعشاً له رائحة أخرى مثل رائحة الحُرية و، لكن هواءه برائحة الياسمين التي لم تفارق أنفه بسبب ذلك المنديل الذي ما يزال يعصبه على راحة يده هو لا يستطيع أن يصف شعوره الآن، لكنه سعيد يشعر بأن روحه التي فارقته منذ شهر قد عادت الآن، وبالرغم من حزنه على والدته، إلا أنه يُريد شكرها على تلك الهدية التي جلبتها له اليوم.

.اعتدلت في وقفتها مُخفضة عينيها لأسفل وبالمثل طارق الذي كان يمسك يدها، ويقلد حركاتها كما أمرته

ابتسم حنا بتلقائية أول ما رأى وجهها عندما نظرت إليه ثم تسائل، وتلك الابتسامة على شفتيه قائلاً: كيف حالك؟

.ابتسمت بخفوت وعينيها أسيرة الأرضية قائله: بخير سيدي... كيف حال السيدة مارلين

كسا الحزن والضيق وجه حنا، وهز رأسه بنفي قائلاً: ليست بخير أبداً، منذ عشرة أيام أصابتها الدمامل، وأخذناها إلى الطبيب، لكن لا فائدة من العلاج، فلم أجد أحداً ألجأ إليه غيرك، ولا أعرف أحداً يستطيع شفاء أمي غيرك.

هزت حكمت رأسها بالقبول، وآثرت الصمت حتى تركها، وقد شعر بأنها لا تُحسن الحديث الآن، واتجه إلى طارق، وتسائل حتى نظر إليه طارق بفضول وفخر عندما قال حنا بمرح: من ذلك البطل الصغير؟

ابتسمت حكمت قائلة بهدوء: أخي الصغير أخيلا.

ثم أمرت طارق قائله: حيي السيد حنا.

انحنى طارق، ثم اعتدل قائلاً بثقة: مرحبا سيد حنا سُررت برؤيتك، هل تعلم أن اسم حنا اسم عربي، وعبري معناه أن الرب تحنن على العبد، ويُلفظ بالعبرية حْنان، وقد أطلقه المسيحيون العرب على بعض كاختصار لاسم يوحنا المعمدان.

داعب حنا شعر أخيلا بمرح وود قائلاً بإعجاب: أوهو! لدينا عالم أسماء صغير هنا، من أين لك هذا يا بطل؟

ابتسم أخيلا بفخر قائلاً برصانة شاب في الثلاثين من عمره: من أبى له كُتب عن معاني الأسماء.

مد حنا يده إلى أخيلا قائلاً، وهو يعقد اتفاقاً: ما رأيك عندما تبلغ الخامسة عشر سأجعلك مستشاري الخاص يا أيها العالم، موافقاً؟

صافحه أخيلا بثقة وسعادة قائلاً: قد قبلت العرض، وسأتمرن على القراه وأتعلم أكثر، ولكن أين تعمل؟

*ضحك حنا بود قائلاً وكأنه يُحاور شاباً كبيراً في السن: أنا صاحب الشرطة في مدريد، وأعمل في مركز الشرطة الرئيسي في حي.

ارتفع حاجبا طارق بدهشة قائلاً: بسم الصليب! أنه بعيد جدًا عن بيتنا، لكن لا تقلق سأجتهد وأعمل معك.

ابتسمت حكمت بفخر وهدوء، وهي ترى أخاه الصغير قد سرق إعجاباً حنا، ورفع رأسها عاليًا إلى عنان السماء وشرفها أمام الحبيب الأول والآخر، لكن قطبت جبينها بشدة، وأسود وجهها وامتعضت ملامحها عندما رأت بلايو الذي أقبل عليهم بخيلائه، فانحنت هي وأخيلا بهدوء عندما أقبل عليهم قائلاً في خيلائه _وهو يرتدي ثيابه الفاخرة على عكس حنا الذي كان يرتدي ثيابه منمقة، لكن ليست شديدة الثراء

والغنىٰ في البيت، لكننا نعلم أن بلايا قد بدأ حرب نفسية قذرة على حكمة، وهذا أول سهم يخرج من الكنانة وهو أشعارها الدائم بالضآلة والنقصان بجانبه، حتى لا يُخيل إليها أنها بإمكانها أن تجاري الأكابر يومًا ما _: أتمنى أن تجدي حلاً في مشكلة أمي، أنها في تلك الغرفة.

ثم أشار إلى غرفة ما في الدور العلوي، وقد امتثلت لأمره، وصعدت على السلم خلفه، وإلى جانبها طارق، ومن خلفها حنا، حتى وصلت إلى الغرفة، ودخلت إليها وألقت السلام عليها قائلة بهدوء وود بعد أن انحنت: كيف حالك سيدتي اليوم؟

هزت مارلين رأسها نافية، وقد كانت تستند بظهرها على سور السرير، وتُغطّى قدميها بالبطانية الثقيلة وشفتيها بيضاء من الإعياء والمرض وجبينها يتفصد عرقًا قائلة بألم وبالكاد يخرج صوتها: لست بخير أشعر بأن هناك خناجر قوية في ساقي تؤلمني بشدة.

ابتسمت حكمت بهدوء قائلة بتشجيع حتى تبث لها الأمان: لا تقلقي سيزول هذا الألم قريبًا بمشيئة الرب.

ثم أخرجت من حقيبتها التي يمسكها طارق قفاز جلدي، وكشفت عن ساقها، وقد امتعضت ملامح وجهها بألم من هول حجم الدمامل، وقد علمت أنها لو تأخرت أكثر من هذا لكان صديد الدمامل أختلط بالدماء.

أخرجت من حقيبتها برطمان صغير به فطر أسود، وأعطته إلى أخيلا قائله بعملية وعلى عجلة: أعطى هذا لاحقا في المطبخ، وأمرهم أن يُعدوا حساء الفطر، ولا يضعوا عليه أي شيء فقط يُسلق الفطر، ويُهرس هيا بسرعة.

امتثل طارق لأمره، وقد خرج معه حنا من الغرفة، ونادى على إحدى الخادمات التي هرولت إليه تلتزم بالأمر، ثم عاد ليجد بلايو يجلس على أحد الكراسي الجلدية في الغرفة يراقب ما تفعله جوليانا من كثب، ثم جلس حنا إلى جواره، ووقف أخيرا إلى جانب جوليانا يناولها ما تطلب، وقد توتر الرجلان كثيرًا، وأخذ حنا يغمض عينيه بتوتر وبلايو يهز قدميه في قلق، ويضع كفيه عند أسنانه يعض عليها عندما بدأت والدتهم بالصراخ والعض على تلك القماشة التي وضعتها حكمت في فمها عندما فتحت حكمت الدمامل، وبدأت تنظفها وتخرج ما فيها من قيح وصديد، حتى أخرجت تلك الدماء الفاسدة وما إن انتهت حتى أخذت تُنظف مكان القيح بالكحول المطهر جيدًا، وبدأت تضع عليه تركيبه من العسل الجبلي، وعسل الحنطة عسل الزعتر وغذاء الملكات، ثم أخذت تلف جرحها بورق البلوط لمنع تجمع الصديد مجددا، ولفتها جيدًا بشاش نظيف وما إن انتهت حتى وصل حساء الفطر وما أن وصل حتى وقفت جوليانا قائله للخادمة: سلمت يديك... ركزي معي قليلاً أعطها الحساء الآن، وفي الصباح قبل الإفطار أيضًا أعطها منه، وإذا ارتفعت حرارتها اصنعي كمادات خل القصب والماء البارد، وأنا غدًا سآتي لتغير الشاش. فهمتي؟

هزت تلك الخادمة رأسها، ووضعت الصينية على "الكمودينو" قائلة: تحت أمرك سيدتي. ثم همت بمغادرة الغرفة وإيصال جوليانا إلى الخارج، لكن حنا استوقفها بسرعة تحت أنظار بلايو الثكلة السامة قائلاً بأمر: لا تتحركي من جانب السيدة مارلين، وافعلي ما طُلب مني أنا سأوصلها.

امتثلت الخادمة لأمره، وانحنت حتى مر حنا، ومن خلفه جوليانا وأخيلا، وقد هبطوا السلم، ولكن قبل الرحيل استوقف حنا أخيلا قائلاً: اذهب يا بطل إلى العربة سوف أقول شيئاً للآنسة، وتتبع خُطاك من بعدها.

نظرة جوليانا إلى أخيلا، وهزت رأسها بالموافقة، وأعطته الحقيبة قائله: أذهب أخي وأنا سآتي خلفك.

وقد امتثل لأمرها، وظلت أنظارها معه حتى تأكدت أنه ركب العربة حتى عاودت النظر إليه قائلة بهدوء: كيف حال جُرحك الآن؟

ابتسم بهدوء قائلاً: بخير الشكر للرب. ثم تابع قائلاً بعملية: كم ستأخذين أجرة عملك؟

"ليس الآن عندما تطيب وتُشفى تمامًا"

"لماذا لم تأخذي أجرة علاجي، لماذا ردتيها في حقيبتي؟"

تلاعبت في أصابع يدها، ونظرت إليه قائلة بهدوء وثقة: لأني لم أعتبرك عملاً، بل أنت غير الجميع بالنسبة إلى، ويكفي ما فعلته إلى في طفولتي والهداية والسعادة والمرح، فتلك أقل طريقه أرد بها جميلك على.

برز فكه للأمام بشدة، وزفر بقوة وأغمض عينيه قائلاً بإرهاق من طوفان مشاعره وغلاظة تلك الفتاة: لا تعطيني الهواء، وتمنعيه عني مجددا يا حمقاء.

ثم أمسك كف يدها اليمنى بين يديه ومال عالية يقبله بعمق وهدوء، وقد سرق بعض لحظات الدفيء والأمل من الزمان القاسي والبارد، ثم أحتضن كفها بين يديه قائلاً وعيناه لا تترك أسر بحر القهوة في عينيها: اشتقت إليك يا جوليانا، الوقت هنا من دونك يمر بغرابة، الطعام لم يعد شهياً مثل الذي تصنعينه، الجو بات باردًا من دونك يا سكرة.

لم تستطع إخفاء ابتسامتها الخجولة والهجوم المفاجئ من القوات العامة للخجل، وأخفضت عينيها لأسفل هامسة بصوت منخفض: أشكرك. لكن استوقفها ذلك المنديل الذي يلفه حول كف يده، وقد تولت هي إمساك كف يده وقلبته تتفحص المنديل، ونظرت إليه بدهشة وإذ هو يبتسم بهدوء حتى تحدثت بدهشة قائلة: هذا منديلي الضائع، لماذا هو معك؟

وثب بأطراف أصابعه، وتحرك للأمام والوراء، وعقد يديه خلف ظهره قائلاً بثقة واقتناع تام بما يتفوه، وقد زاد شعور المسكينة بالذنب اتجاهه وهي تخفى عليه أمر أهم من أي شيء، ولو بيدها لصارحته، لكن ما باليد حيلة: هذا المنديل لن يفارق يدي حتى موتى، وإن مت

في أرض المعركة، واختلطت بهدوء دمائي سيُدفن معي، وإن مت على فراشي سيدفن معي، لأنه يخصك ويحمل رائحتك وروحك التي لا تفارقني.

تجمعت الدموع المتحجّرة في عينيها، حتى باتت الرؤية ضبابية، لكن مسحتها بسرعة قائلة متجاهلة ما قد قيل وهي تهم بالمغادرة: أنا سآتي في التاسعة صباحً غدًا، وأخبر السيدة إيفا إن العطر الذي طلبته جاهزاً.

ولكن قبل أن ترحّل قبض على يدها قائلاً بهدوء: إيفا في.

جيان" مع السنيورة ريموندا والدتها تشترى أغراض لخطوبتها وستعود قريبًا".

ثم ضيق عينيه، وتسائل بهدوء قائلاً وعيناه تلمع بالحب والأمل: هل لي بزجاجة عطر الياسمين؟

هزت رأسها بالموافقة وعينيها تبحث أن أي شيء آخر تنظر إليه غير عينيها قائلة: تحت أمرك... والآن اعذرني، لقد تأخرت على أمي.

ولكن في الحي مجددا، وقد مضى بعض الوقت وخديجة اتجهت إلى المطبخ تعد الغداء حتى تنسى ما تشعر بالقلق والشك في أفعال ابنتها وأقوالها و، لكن ليس لك من ذلك النوع البغيض في السلوك والشرف النابع من شيئين إما مرض في قلب الأهل؛ بسبب تجارب سابقة قد حدثت أمامهم أو فشل ذريع وحتمي وحقيقي في تربية الأبناء أدى إلى تلك الحالة اللعينة من الشك، لكن شك خديجة آخر هو شك خوف من أن يكون قد حدث لابنتها الوحيدة مكروه ما في سفرها الذي لعنت حظها العثر الذي أوقعها في تلك الظروف، وهذا البلاد التي كانت كالجنة وبتفكك مسلميها واتحاد صليبيها تحولت إلى جهنم مصغرة في الدنيا.

أستغفرت ربها، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم عندما سقط كوب فخار متهشمًا على الأرض إلى شظايا، وقد أوقعته جراء توترها وانفعالها في العمل.

، انحنت تلملم تلك الشظايا، وألقتها في سلة القمامة، ثم جلست على أحد الكراسي أمام الطاولة، ومسحت على جبهتها بإرهاق وتوتر، ثم زفرت أنفاسها.

بقوة ونوع من الإرهاق والتعب، وأخذت تستغفر الله، وتدعوا لأولادها بصلاح الحال وراحة البال وزوال شبح الموت المحلق فوق رؤوسهم وتعجيل الله بفرجه وسفرهم خارج البلاد في أسرع وقت.

لكن قطعاً وصلت ماؤها وحبل أفكارها طرقات هادئة على الباب ظنت أنها حكمت وبصحبة طارق، واتجهت إلى الباب لتفتح مُبتسمة، لكن تلاشت ابتسامتها عندما وجدت فيكتور وكاترينا عند الباب، وقد ابتسم هكتور قائلاً بتوتر وخجل: صباح الخير خاله إليزابيث كنت أريد أن أسأل هل جمعتم اللبن حتى أبيعه أم لا؟

.هزت إليزابيث رأسه مؤكدة قائلة: بلا تفضل يا بني انتظر سأُحضر لك السطل

وكان من المتوقع أن يدخل فيكتور أولا، لكن اجتازته كاترينا، ودخلت بأنف الكلاب البوليسية وعيني كاميرات المُراقبة وحدس المخبرين تبحث إن أي شيء غريب في البيت، وأنتم تعلمون أن تلك الزيارة ليست بغرض تجميع الحليب الذي يقوم به فيكتور كل صباح، بل لأنها !رأت عربة شبيهة بتلك العربة التي كانت أمام بيت منذ شهر، وتريد أن تعلم سبب وقوفها وركوب جوليانا بها

عادت خديجة من المطبخ تحمل سطلاً معدنياً طويلاً مليئاً بحليب الماعز، ووضعته في منتصف حجرة المعيشة أمام فيكتور قائلة، وهي .تفرد ظهرها با

.بألم ممسكة به: اعذرني يا بني لا أستطيع حمله أكثر من هذا، وزنه اليوم ثمانية كيلو وربع

.هز فيكتور رأسه نافيًا، وابتسم بود قائلاً، وهو يحمل السطل: لا عليك خالتي في المساء سأُحضر ثمن الحليب

ربتت على كتفه وهو يخرج من البيت متجهًا إلى عربته عارية السقف والزينة يجرها حماران شابان، وقد وضع السطل، وجلس على العربة، وأخذ بضرب الحماران بالعصا حتى تحركا من أمام البيت، وانتظرت كاترينا التي جلست إلى جوارها خديجة بعد أن وضعت لها الشاي قائلة بهدوء ونوع من عدم الترحيب جاهدت نفسها لإخفائه: مرحبًا بك يا كاترينا كيف حالك؟

ارتشفت ذات العيون الغائرة والناب المكسور القليل من الشاي، ثم وضعت الفنجان جانبًا قائلة: بخير عزيزتي، فقط جات للاطمئنان .عليك، وقد قلقت عندما رأيت تلك العربة، وقد كانت تقف منذ شهر أمام البيت، قلت في قرارة نفسي لعله خير

.ابتسمت خديجة بتكلف قائلة، وهي تعتدل في جلستها: خير عزيزتي، فقط عمل لا أكثر أحدهم مريض وجوليانا ذهبت لمداويته

هزت كاترينا رأسها بالقبول قائله بمكر وخبث: لا تخبريني فجوليانا أفضالها علينا كلنا، ويكفي ليلة التفتيش عندما وقفت أمام الجنود، لقد .قال الجميع أنها بطلة

ضحكت خديجة بسخرية، وأخذت تسخر من كلامها بغرض حماية ابنتها من أن يسقط لسانها بأي كلام، وتذل أمام تلك الوحشية، وتقع في مشكلة كبيرة، فيكفي ما يدور خلف ظهر تلك المسكينة من مشاعر محرمة ستصيبها بنوبة قلبية حتمية: جوليانا بطله؟! إنها مجرد فتاة طائشة لو كانت كما تقولين هكذا لتزوجت وما بقيت إلى جواري حتى الآن، هي فقط تحب التباهي والمناظر الخداعة، لكن عقله مجوف .أكثر من تجويف الحذاء

ضحكت كاترينا على تشبيهاتها المضحكة على حالة ابنتها العقلية، واستندت إلى ركبتيها بإرهاق، ووقفت قائلة وهي تتجه إلى باب البيت: كان الرب في عونك، عن أذنك لم أبدأ في طهي الغداء بعد.

بعد مرور عدة أيام كان ينعم فيها كل صباح برؤية وجه محبوبته كان حنا في عمله مساء أحد الأيام في مكتبه الخاصة بعد إرهاق من طول اليوم في دراسة الأوراق وحالة الجنود والأحياء، وتعين البعض والتدريبات كان قد فقد طاقته اليوم، واستنزفت فاختار الاستلقاء على تلك الأريكة الجلدية الكبيرة، وقد حل أزار قميصه كاشفًا عن صدره الذي تخلص من أربطة الشاش أخيرًا، وغطّى وجهه بقبعته العسكرية، ورفع ساقاً فوق الأخرى يحاول أن ينعم بالراحة والنوم في يوم مرهق لم يرتح فيه إلا عند رؤيته لسارقة قلبه ومالكة عقله وصاحبة الجمال جوليانا للحظات تمنى لو كانت العمر كله، وقد ابتسم بتلقائية، وهو يتذكر تفاصيل يومه معها وإثبات شجاعتها وقدرتها العلاجية ومهارتها، وكيف تفصل في حياتها بين من ظلمها ومن لا ذنب له.

ولكن قاطع لحظاته الجميلة مع نفسه الثكلى هو دخول إدواردو الذي ألقى التحية العسكرية وبدوره حنا رفع القبعة عينيه ينظر إليه تحت وطأة أضواء الشموع قائلاً بتثاقل: لعله أمر هام يا إدواردو؟

هز إدواردو رأسه قائلاً بثقة، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء: بلا هو كذلك سيدي، قد أمسكنا جندياً فرنسياً مدسوس بين الجنود والآخر الذي أدخله وديغو يحقق معهم في غرفة التحقيق، وننتظر أوامرك سيدي... ثم أخذ يلُف كفيه حول بعضهم بحركة دائرية قائلاً برجاء وأمل: لكن لو كانوا أكثر لكنا تسلينا الليلة أفضل من العودة إلى زوجتي.

وقف حنا، وبدأ يرتب قميصه وملابسه وهو يضحك على كلمات إدواردو الذي يفضل العمل على العودة إلى زوجته وأبنائه وكأنه قد تزوج الشرطي وأنجب المجرمين، ارتدى حنا قبعته، وربت على كتف إدواردو قائلاً بسخرية: هيا يا أيها الثور دعنا ننهي هذا اليوم غيرك لم ينم منذ الأمس.

الفصل الثالث عشر

وقف حنا، وبدأ يرتب قميصه وملابسه وهو يضحك على كلمات إدواردو الذي يفضل العمل على العودة إلى زوجته وأبنائه وكأنه قد تزوج الشرطي وأنجب المجرمين، ارتدى حنا قبعته، وربت على كتف إدواردو قائلاً بسخرية: هيا يا أيها الثور دعنا ننهي هذا اليوم غيرك لم ينم منذ الأمس.

أمال إدواردو رأسه قائلاً بضيق: يا رجل أنت في أحلى أيام حياتك لما لم تنم، غدًا تتزوج وتستيقظ في منتصف الليل على بكاء الأطفال، وتعود من العمل لتجد الصغار يتضاربون، وفوق هذا مُتطلبات الحياة أخبرني يا أخي كيف أعيش في تلك الحياة موحشة.

ابتسمت حنا بهدوء، وربت على كتفه قائلاً، وهما يهبطان على السلالم المؤدية إلى أسفل الأرض: يا أخي أحمد الرب، وهناك من يتمنى تلك الحياة أولاد وعائلة وأسرة عندما تعود من العمل تجد من يُعد لك طعامك، ومن يتعلّق بقدميك عند عودتك، فلتحمد الرب على ما أتاك من نعم.

ثم تابع وهما ينعطفان تُجاه غرفة ما في نهاية الممر قائلاً، وقد ظهر على صوته الحزن، وفي عينيه نظرة ندم لأول مرة يراها إدواردو، بالرغم من معرفته الطويلة بحنا: أنظر إليه لو عاد إلى العمل مجددا للوراء لكنت تزوجت وكونت أسرة أفضل من تلك الحياة الفارغة صدقني لا شيء مميزاً في العزوبية.

رفع إدواردو أحد حاجبيه، وابتسم ببلاهة ووقف في منتصف الطريق، وقد نظر إلى حنا بتقيم وتفكير، ثم انقلبت الابتسامة إلى ابتسامة خبيثة، وقد بدأ يجمع الخيوط، ويربط بين حالته في الأيام السابقة منذ عودته إلى أكثر من شهر سواء شرود في اللاشيء، أو في ذلك المنديل الذي يلفه حول كف يده متعللاً بألم في يده، ولكن هل يدوم الألم لكل هذا الوقت؟!

التفت حنا الذي كان يسير عاقدًا ذراعيه خلف ظهره إلى الوراء ما أن شعر بهذا الفراغ بجانبه، وقد نظر إلى إدواردو بدهشة، والتحم حاجبيه في حيرة من وقوفه المفاجئ، ومن نظراته الخبيثة تلك.

هز حنا رأسه قائلاً بتساؤل: ما الأمر لمَ وقفت هنا؟

اقترب منه إدواردو ببطء قائلاً، وهو يمط شفتيه مثل ابنته الكبرى ذات الأربع سنوات عندما تكتشف سرًا ما، وتحاول التأكد منه أو أن تذل أحدهم به: لا شيء لكنك وقعت منذ قليل، وأردت الاطمئنان عليك يا أخي العزيز.

زادت دهشة حنا وحيرته وضيق عينيه قائلاً بتساؤل وتفكير: ما الأمر؟ هل أنت محموم؟ أنا واقف أمامك لم أقع.

كور إدواردو قبضت يده، ووكز حنا في ذراعه أعلى مرفقه قائلاً بخشونة ومرح: يا رجل أنا أعني الحب... العشق، لقد وقعت بالفعل ومنذ زمن والآن اكتشفت الأمر... هنيئًا لك عقلك الضائع وسهر الليل القادم.

ثم أخذ في الضحك عاليًا والقهوة، حتى انحنى ممسكًا ركبتيه قائلاً وهو لا يستطيع أن يتوقف عن الضحك، ويلتقط أنفاسه بصعوبة من بين قهقهة: السيد حنا وقع في الحب، لا أصدق حنا يحب مثل باقية الرجل... وغدًا يتزوج ونجده يرقد خلف محبوبته...

لم يعد حنا يتحمل تلك السخرية اللاذعة من صديقه الجلف صلب المشاعر تُجاه مشاعره الصادقة والحساسة ناحية جوليانا وقد كان يتوقع هذه السخرية، وردة الفعل تلك منذ زمن لذلك كان يكتم الأمر في صدره بعيدًا عن إدواردو الذي إن أردت أن تجرح مشاعره أحرمه من الطعام، وأرجعه لزوجته وأطفاله، وبحق سؤلاً لكم لِمَ قد يسخر الإنسان من مشاعر ومشاكل أخيه الإنسان؟ ولِمَ يُقَلَّل من أفكاره ومعتقداته؛ لأنه مختلفة مع الجميع حتى ولو كانت صحيحة؟ ولِمَ دائماً الإنسان صادق المشاعر شديد الحساسية، حتى لو لم يكن قبل ذلك؟!

صاح حنا بحزم وشدة قائد شرطة حقيقة قائلاً بصراخ هز أرجاء المكان والجدران: إدواردو!! كلمة أخرى وتُسلم رتبتك وشارتك، ولا أرى وجهك مجددا في صفوف الشرطة أو الجيش، مفهوم؟!

نكس إدواردو رأسه، ورفع عينيه ناظرًا إليه في خجل وحياء من ما تعرض إليه الآن من إهانة أستحقها وما عرض إليه حنا من خجل وضيق، وقد استدرك الآن فقط حماقة فعلته، وهز رأسه المنكسة قائلاً بصوت خفيض: تحت أمرك سيدي، أعتذر منك سامحني.

لم يرد حنا عليه، وأكمل طريقُه، وهذا الانقباض في جبينه بين حاجبيه لم ينفك بعد، وتبعه إدواردو عندما دخلوا حجرة التحقيق، وقد هم من بالداخل بالتوقف عن العمل والوقوف له احتراما، لكنه أشار إليهم بيده بأن يستكملوا عملهم، وبالفعل امتثل الجميع للأمر، وجلس حنا على أحد المقاعد في نهاية الغرفة، وإلى جانبها إدواردو الذي لم يفتح فمه بالحديث مُطلقًا منذ أن هدده حنا، وعلى الناحية الأخرى في بداية الغرفة كان ديغو يجلس على أحد الكراسي أمام طاولة يستجوب الرجلين وبجانبه الكاتب وأمامهم الرجلان معلقين من ذراعيهما، ولا تُلامس أقدامهما الأرض عاريين الصدر وأمام كلاهما رجلين آخران في حجم الباب وكلاهما يمسكان بعصيان غليظة القوام وطويلة، وقد انهال الرجلان عليهما بالضرب بقوة، وكانا لا يتوقفان حتى يُشير إليهم ديغو الذي كان يسأل سؤالاً يتبع إجابته عدة ضربات، وقد كان إدواردو يشرب القليل من الماء، وهو يتابع مشهد التسالي هذا والعدل يتحقق أمام عينيه، وإلى جانبه حنا الذي لم يستطع أن يرفع رأسه، وينظر إلى ما يحدث ولم تكن تلك عادته إطلاقًا، وتلك أول مرة يرى فيها قلبه على شخص يتألم أمامه، ويستغيث طلبًا للرحمة، وكان مع

كل صرخة يغمض عينيه أكثر، ويعتصر جفنيه بقوة، وينتفض جيدة في جلسة غير ملحوظة، وقد طأطأ رأسه لأسفل، وطحن أسنانه وحاول أن يتنفس بهدوء وانتظام، لكن لا فائدة، وللحظة شعر أن الصراخ قد ازداد هب واقفًا بقوة فاتحًا الباب مندفعًا مثل الطلق الناري، وقد ارتطم الباب الحديد بقوة بالحائط مصدرًا صوتًا عال على إثره نظر ديغو وإدواردو إلى بعضهم بدهشة وعدم فهم، ثم خرج إدواردو يتبع حنا، ومن بعده ديغو الذي أعطى الأوامر إلى الكاتب بمتابعة التحقيق، ثم أخذ في الرقة ورائها، وقد سبقه حنا إلى إسطبل الخيل، وانطلق من خلفه إدواردو، وتابعهم ديغو في محاولة الإمساك به، وبالرغم من أن لا أحد يعلم إلى أين سيذهب وإضافة على ذلك هي سرعة فرس حنا الكبيرة، إلا أن ديغو قد استطاع أن يختصر الطريق، ويدخل من بين الأشجار، ويخرج أمام حنا كاسر عليه الطريق، حتى أطلق فرس حنا البُنى صهيل عالي، وارتفعت قوائمه الأمامية حتى توقف تمامًا، ومن خلفهم إدواردو.

هبط حنا من على فرسه، واتجه إلى إحدى الأشجار، وقد جلس أسفله واضعًا وجهه بين كفيه، واستند بمرفقيه على ركبتيه، وقد اقترب كلا الرجلين بعد أن ربطوا الخيل وجلسا على يمنة ويساره، وقد ربت ديغو على كتف حنا قائلاً بود وهدوء: ماذا بك يا أخي؟

...ابتسم إدواردو ببلاهة، وحاول تلطيف الجو المتوتر قائلاً والابتسامة لا تُفارق شفتيه: إنه الحب يا أخي صدقني.... إن

توقف إدواردو عن الكلام، وأخفض نظرة إلى الأرض بخجل عندما رمقه حنا بنظرة نارية أبلعته لسانه، لكن ديغو أمال رأسه، وأغمض عينيه غامزًا إدواردو بمعنى أهدأ، ثم ربت على كتف حنا مجددا قائلاً: ما يقوله إدواردو صحيح يا حنا؟

كمم حنا فمه، وأنفه بهدوء بيده الملفوفة بالمنديل، وأخذ يشم ذلك العطر _الذي، بالرغم من مرور الوقت عليه خارج حدود حكمت، إلا أنه يشعر بأن ذلك العطر يرفض مغادرة عقله قبل أنفه _ ثم هز رأسه مؤكدًا، وهو يزفر الهواء بقوة، وأبعد يده عن فمه وأنفه قائلاً: نعم، صحيح.

ثم أراح رأسه على الشجرة خلفه، وأخذ يخطف الأنظار إلى السماء السوداء المزينة بالنجوم قائلاً ولأول مرة في حياته يكون مُتحدثًا بأسراره مع أحد: لا أدري ماذا يحدث يا إخوتي؟ لكن الأمر غريب، عندما أعتذر بايو من البابا متعللاً أني في إنجلترا لم أكن هناك، بل كنت مصابًا في كمين فرنسي، وكنت أتلقى العلاج في بيت الملاك جوليانا، أعرف جوليانا منذ أن كانت طفلة، ومر العمر، ولم أرها بعد أربعة عشر عامًا إلا من قرابة الشهرين، في بيت جوليانا تغير كل شيء، كل شيء يا إخوتي، لم أتخيل أني سأقع في الحب يومًا بتلك الطريقة وهذا الجنون، لم أعلم أن في الحواري والبيوت المتوسطة والفقيرة هناك عالم آخر، عالم في بيت جوليانا، تعلمت معنى كل شيء في الحياة اللين، الحب، العفة، الحزن، البكاء، الابتسامة، كيف تساعد دون مقابل، التدين، لقد كان بداخلي فراغ وهدوء منذ أن عرفتها امتلأ ذلك الفراغ، وأصبح هناك صخب، الحب جميل لكن قاسى، وكل شيء ضدي... تصغرني بثلاثة عشر عامًا، عاملة، بلايو يكرهها ولا أدري السبب... وكأن الحياة معي صارت مثل قط يأس يقتنص قوت يومه من فكي أسد ضاريًا.... ثم أخذ يلتفت ينظر إلى صديقيه في حيرة قائلاً: أخبروني ما الحل؟

حك إدواردو مؤخرة رأسه بتفكير، ونظر إلى الأرض لثواني يجمع أفكاره، ثم نظر إلى حنا قائلاً بحيرة: أسمع، أنا لا أُجيد الكلام المعسول، لكن هل أخبرتها أو تعرف حتى؟ هل تُبادلك نفس المشاعر أم لا؟

هز حنا رأسه بنفي قائلاً: لا أستطيع، أخاف أن أخسرها إن عرفت، ومشاعرها لا أدري أحيانًا أرى في عينيها تلك اللمعة وأحيانا أرى في عينيها الخوف والهروب من ماذا لا أدري وهذا شيء يقتلني، تخاف ولا أستطيع أن أحميها.

ابتسم إدواردو بود، وحرج ثم أشار إلى ديغو قائلاً: اسمع يا أخي أمور الحب ديغو يفهمها أكثر مني أنا رجل حرب لا أفهم إلا بالقتال.

ربت ديغو على كتف حنا جاذبًا أنظاره إليه قائلاً بعقلانية: اسمع يا أخي، الحب شيء جميل جدًا، ولكن غير مفهوم إن لم يُتوج بعلاقة رسمية، أنت تشعر بأنها تميل إليك، ولكنها قلقة، وهذا شيء طبيعي خوفًا من المجتمع وبالأخص الأحياء الشعبية تعرف بعضها جيدًا وأي شيء قد يخدش عفة الفتاة، وحتى لو تزوجت بها سيظل لقب الخاطئة يلحق بها في كل مكان وأبنائكم لن يسلموا من الأمر أيضًا... أفضل حل أن تتقدم لطلب يدها، وتعترف لها وعندها يزول كل هذا القلق، ثم نظر إلى إدواردو قائلاً بتساؤل: كلامي صحيح؟

هز إدواردو رأسه بالقبول، وقد اتسعت ابتسامته بشدة قائلاً: بلا أخي معك حق، أفضل حل العلاقة الرسمية تحت إشراف الأهل.

في صباح اليوم التالي، وقد كان الربيع على أعتاب مدريد ينتظر إذن الدخول من ذي الجلال والإكرام رب السموات والأرض وما بينهما، فيأمر ميكائيل -عليه السلام- الموكل بالرياح والأمطار، فيبدأ بنشرها بإذن من رب العالمين، ويأمر ربنا الشمس، فتعدل وينقلب الشتاء ربيعًا، ويأمر ربنا الشجر الميت بأن يحيا مجددا، وتعود إليه أوراقه الخضراء والحمراء والصفراء والبنفسجية، ويأمر الورد ويخرج من نومه والحيوانات الصيفية تخرج من جحورها إلى العالم والحياة مجددا.

وهناك في هذا البيت فتاة قد عادت إليها الروح والحياة مجددا والابتسامة أشرقت وجهها، وتلك الروح المرحة عادت، وها هي تجلس على الطاولة تتسابق مع أخيها على من سينهي طبق الإفطار أسرع من الآخر والخاسر مدين للآخر بأي طلب يطلبه مهما كانت صعوبته، وقد أخذ السباق يشتد ويحتد حتى أنهى أخيلا طبقة، وصفق بحماس رافعًا يديه للأعلى بفخر، وقد صاح بقوة قائلاً: لقد فزت... لا تحاولين... لقد فزت.

زفرت حكمت بملل، وأراحت ظهرها على الكرسي، وعقدت يديها أمام صدرها، ونفخت خصلة الشعر تلك التي نزلت على عينيها قائلة مُدعية اللا مبالاة على هزمتها: قل يا فتى ماذا تريد وخلصني.

استند اخيلا بمرفقيه على الطاولة، ووضع إصبعه على شفتيه، وأخذ يفكر ثم ابتسم بعد لحظات، ونظر إليها بمكر قائلاً: بما أن عيداً مولدي على الأبواب، فأنا أريد أدوات صيد وصنارة.

مطت حكمت شفتيها، ورفعت كفيها وكتفيها قائلة في شك، وهي تنظر إلى والدتها: ليس عندي مشكلة، لكن أسأل أمي أولا.

التفت أخيلا، وقوس شفتيه واتخذ وضعية عيني القطة قائلاً في رجاء واستعطاف: أمي ارجوكى... أعدك أني سأهتم بدروسي جيدًا، ولن أُتعبك أبداً وساغسل أسناني كل صباح، ولن ألعب في الشارع لوقت متأخر فقط قولي موافقة.

قلبت خديجة عينيها الزرقاء تلك، وأخذت تفكر ثم نظرت إلى حكمة التي غمزت لها حتى زفرت بهدوء، ونظرت إلى طارق الذي يتصبب عرقًا من فرط التوتر، ثم تحدثت بكل هدوء قائلة: موافقة لكن تتحقق كل الشروط السابقة.

قفز طارق من على كرسيه، وفق بحماس ثم قفز في أحضان خديجة ثم لثم رأسها، وأمسك يديها وأخذ يقفز بمرح قائلاً: شكرًا يا أمي أعدك أني سأنفذ تلك الشروط.

ربتت حكمت على ظهره قائلة بهدوء، وعلى شفتيها ابتسامة صادقة: هيا يا بطل بدل ملابسك قبل أن تأتي العربة اليوم آخر يوم للسيدة مارلين لا نريد أن نتأخر العربة على وصول.

رقد طارق إلى غرفته بسرعة مُمتثلاً لأمر حكمت، وقد تركها مع خديجة التي أمسكت بيد حكمت قائله ببهجة: أنتِ لا تُصدقين مدى سعادتي بعودة ابتسامتك ومرحك، لقد ارجعتى البهجة إلى البيت، لا تقلقيني عليك، وتظلين صامتة هاكذه، وإن كان معك مشكلة لا قدر الله أخبريني يا حكمة، وإن شاء الله سنحلها معًا.

ابتسمت حكمت بود، وجلست على ساقى خديجة، واحتضنت كلتاهما الأخرى، وقد قبلت حكمت رأس والدتها، واستندت إليها بوجنتها قائله بشرود ولكلامها أكثر من وجه: ادعي لي يا أمي فقط الله وحده من سيصلح شأننا وحالنا، فقط ادعيلي بصلاح الحال وراحة البال.

بعد مرور قرابة الساعة أو أكثر وقفت العربة أمام بيت حنا، ونزلت حكمت وطارق ومثل كل يوم كانت تستقبلهم الخادمة، وينتظروا لدقائق حتى يأتي بلايو أو حنا، ويصعد معهم، لكن تلك المرة كانت إيفا ووالدتها ريموندا قد وصلتا ليلة الأمس مدريد، وكانتا ممسكتين ببعض الصور المرسومة لتصاميم فساتين الخاصة بالسهرات والأعراس الخاصة بالنبلاء، وقد كانت تنظر إليهم بسام حتى وجدت ضالتها في فستان باللون الأحمر بأكمام نهايتها شيفون وقماش الفستان من الحرير ومنسدل لأسفل من دون ذلك الانتفاخ الذي يعيق الحركة، وعلى الصدر بعض التطريز بالخيوط الذهبية والخرز الذهبي.

لكن الشيء المهم أنهم الآن يبحثون عن خياط ملابس جيد، ولا تفسد على يده الأقمشة، وقد كانت تلك من المرات القلائل التي يشترين _ فيها أقمشة للتفصيل، وقد اعتادوا شراء الملابس الجاهزة من خارج البلاد، أو من مصانع مخصصة فقط للنبلاء، وبحق أمر وجود خياط _ .جيد وأمين حتى في عصرنا الحالي بات نادراً

انحنت حكمت وبالمثل طارق عندما وصلوا إلى صالون القصر مُلقين التحية والسلام على الجميع، وقد ابتسمت إيفا بحماس وود، .واقتربت من حكمت قائله بود: جوليانا كيف حالك يا فتاة؟ لم أصدق عندما أخبرني أبي، وعمي أنكِ تعالجين جدتي، لم أركِ منذ زمن

ابتسمت حكمت بهدوء ورأسها منخفض لأسفل قائلة بهدوء: شكرا سنيورة إيفا هذا من لطفك، ثم أشارت إلى طارق قائلة: هذا أخي .الصغير أخيلا. انحنا اخيلا احترامًا مثلاً حكمت، وقد أمالت إيفا رأسها بهدوء

.ثم مدت يدها بحقيبة صغيرة من القماش البيضاء قائلة: هذا العطر الذي طلبتيه مني سنيورة قد جهزته منذ أن طلبته

.ابتسمت إيفا بحماس، وخرجت منها ضحكة فرح من دون إرادة قائله: حقًا أنتِ رائعة

ثم أخرجت صندوقاً خشبياً صغيراً على شكل قلب وعليه قفل كان سيفاً عندما يُسحب لأعلى من غمده يفتح الصندوق وبداخله الزجاجتان، وقد شمت رائحتيهما بإعجاب، ثم أغلقت العلبة مجددا قائلة بود: سلمت يداك، لقد نسيت أمره تماماً بسبب فستان الخطوبة... ثم تابعت مُستدرجة، وهي تشير إلى والدتها وجوليانا قائلة، وهي تعرفهم على بعض: أمي هذه جوليانا أفضل من يصنع العطور في مدريد، .وجوليانا هذه أمي السنيورة ريموندا

انحنت جوليانا بهدوء، وقد أمالت ريموندا رأسها تبادلها التحية، ثم تابعت إيفا قائلة، وهي تخبط على رأسها بسبب النسيان: اعذريني، كم سعر العطر؟

أخبرتها حكمت السعر لتجهز مقلتي إيفا، وترفع ريموندا حاجبيها بعدم تصديق، وتتدخل قائلة لأول مرة: وما ربحك إن كان السعر .منخفضاً هكذا، لن يتعدى بعد البيزيتات

نظرت إليها حكمت قائلة، وهي تفسر الأمر: الزيوت التي تُصنع منها العطور أنا من ينتجها من الأعشاب والأوراق الأصلية فلا أدفع .الكثير في الخامات وبعض الخامات ازرعها في ساحة البيت فأحيانًا التكلفة كلها تكون على المصنعية وثمن البذور والأعشاب

رفعت ريموندا أحد حاجبيها، وأرجعت رأسها للوراء بتفكير، ثم هزت رأسها بعد أن فهمت الأمر، وقد عادت إيفا بالنقود وأخذتها حكمت. ثم تساءلت إيفا قائلة: جوليانا ألا تعرفي أحدًا يحيك الملابس، لكن يفهم في الأقمشة وتصاميم فساتين السهرة، خطبتي على الأبواب، وأريد .تفصيل فستان، ولا أعرف خياط جيداً

كادت حكمت أن تجيب، وقد أخذت لحظات من التفكير لتجد الرد المناسب، لكن طارق قد انفلت لسانه، ونطق ببراءة وسرعة قائلاً بفخر: .أما أفضل حائكة للملابس في مدريد كلها، وقد صنعت فساتين كثيرة

أغمضت حكمت عينيها بقوة، وفتحتها وهي تبتسم بحرج إلى ريموندا التي تساءلت قائلة: وهل لديها معرفة في أنواع القماش؟ نحن لم .نشتر كل شيء بعد

.هزت حكمت رأسها بالموافقة قائلة: بلا سنيورة، أمي تعمل في هذا المجال منذ سنوات ولديها دراية كافية به

أخذت إيفا وريموندا تتبادلان الأنظار بتفكير حتى تحدثت ريموندا بهدوء وتفكير قائلة: حسنًا هل يمكن أن تأتي إلى القصر الأسبوع القادم؟

.هزت حكمت رأسها بالموافقة قائلة: بالطبع سيدتي تحت أمرك، ثم تابعت قائلة باستحياء: أنا فقط أريد الصعود إلى السيدة مارلين

.هزت ريموندا رأسها بالموافقة قائله لإيفا: أصعدي معها يا إيفا

وبالفعل قد صعدت معها إيفا، واتجهت إلى الغرفة، ولكن كانت هناك عينان غاضبة ومعترضة بشدة تُتابع ما يحدث بضيق، وقد كان صاحب تلك العينين بايو الذي كان يستند بذراعيه على سور السلم من ناحية الرواق أمام غرفته، وقد زفر أنفاسه بقوة وحنق، وقد أغمض

عينيه في ضيق، ثم فتحها والتفت إلى حنا الذي كانت تفوح منه رائحة العطر الجديد، وقد اقترب منه حنا عندما وجده غاضبًا قائلاً في تساؤل: ماذا حدث؟ لِمَ أنت غاضباً؟

أشار بلاين بيده إلى غرفة مارلين قائلاً بحدة وصوت منخفض، حتى لا يسمعه أحد: تلك المُصيبة التي أحضرتها إلى هنا ستحضر والدتها لحياكة فستان إيفا وغدًا ستأتي بأخيها، وغدًا ستأخذك من هنا، وبعدها تحتل القصر؛ ومن ثم مدريد، وتطردنا منها لترتاح أنت وتتغازل بها كلما رأيتها.

وضع حنا قبعته السوداء المستديرة، ثم وضع يده في جيبه قائلاً ببرود يُصيب بالشلل: وما ذنبي إن كانت ماهرة، وغير هذا تلك المُصيبة عالجتني وعالجت أمك، وتَحل مشكلة كانت زوجة أخي ستصنع منها ميتماً في البيت، وإن تغازلت بأحد هذا لا يهم أنا أحبها وسنتزوج عن ما قريب. ثم رجع خطوتين إلى الوراء عازمًا على النزول قائلاً، وهو يعطيه قبلة في الهواء: صباح الخير حياتي... اشرب شاياً يهدئ الأعصاب.

لم يذهب حنا إلى عمله اليوم، بل تخفى بين الأشجار تارة وبين الأبنية والجدران تارةً أخرى يراقب جوليانا وإلى أين ستذهب؟ وماذا ستفعل عند عودتها إلى بيتها؟ ومتى ستحين الفرصة التي يتكلم بها معها، وينفذ ما قاله ديغو، ويعرض الزواج عليها، ويضع حدًا لهذا العذاب، ولكن المسكين لا يدري أن العذاب لم يبدأ بعد.

ولكنه اختبأ مجددا خلف تلك الشجرة الضخمة عندما وجد جوليانا قد خرجت من البيت مجددا، وقد بدلت ملابسها إلى ملابس الرعي، وأمسكت تلك العصا الطويلة والغليظة، وبدأت تهش على الغنم، وقد خرجت للرعي، ظل يسير خلفها على قدمه من دون فرسه المخبأ في مكان ما، وقد وضع مسافة جيدة حتى لا تراها.

وظل يسير خلفها حتى وصلت إلى منطقة خضراء على تبة صغيرة مليئة بالحشائش وبعض الأشجار، وقد وقفت بعد أن نظمت الغنم، وأخذت تشرب الماء من تلك القربة الجلدية المعلقة على كتفها، ثم جلست أسفل إحدى الأشجار على ركبتيها وساقيها تتابع الغنم من كثب، ولكن لفت نظرها شيئًا ما على بعد نصف متر منها يصدر صوت خرير ناتج عن احتكاك ذلك الشيء بالرياح، وقد مدت ذراعها تزيح أوراق الشجر المتساقطة، وبدأت تجذب طرف ذلك الشيء، وقد كانت ورقة مكتوباً فيها دراسة لمنازل القمر، وقد فهمت أن أحدهم خبأ تلك الورقة مخافة الاتهام بالهرطقة وأعدمه، ولكن المسكينة لم تعلم أن زعيم الشرطة خلفها شخصيًا، وقد كشف اليوم عن سر عظيم وهو أن سُكرته تجيد القراءه، ولن أنكر أن حنا كان يشك في ذلك الأمر طوال الوقت وبالأخص أن شخصاً مثلها يفهم في الأعشاب والطب من المستحيل أن يكون أمي لا يقرأ ولا يكتب!

اقترب منها حنا حتى أصبح خلفها، وقد ارتعدت خوفًا عندما رأت ظلاً لشخص ما أمامها، وقد وقفت بسرعة، والتفتت تنظر إليه عندما نطق قائلاً بعبث: تقرائين يا سكرة؟

هربت الدماء من وجه حكمت واتسعت حدقتاها عندما رأت حنا الذي كان يبتسم بعبث، وقد ألقت الورقة في الأرض بتوتر قائلة: أقسم لك أن الأوراق ليست لي لقد وجدتها أرضا.

فلتت منه ضحكة صغيرة من دون إرادته، وقد أمسك كف يدها، وربت عليه قائلاً بهدوء: اهدئي لقد رأيتك لن أخبر أحدًا هذا سراً ولكن بشرط.

نظرت إليه جوليانا وقد توجست خيفة، ورفت عينها بخوف قائلة: وما الشرط؟

مط حنا شفتيه بهدوء وتفكير، ونظر إلى الأرض، ثم التفت ينظر إليها قائلاً: أريد أن أُقابل والدتك... ولا ترفضي أريد فقط التعرف عليها.

هزت حكمت رأسها بالموافقة بسرعة، وسحبت يدها من يده بتوتر قائلة وهي عازمة على العودة إلى المنزل: حسنًا سأُحدد لك موعداً، لكن أمي لا تعرف شيئاً.

وطرق التفكير، وهز رأسه دلالة على فهمه تلك الشفرة أن جوليانا لم تخبر والدتها بعد بمكوثه في أثناء مرضه في منزلها، وقد أعطاه العذر، فلو عرف أحد لن يهتم بأن يتأكد من عفتها، بل أول شيء سيفعله سيتهمها في شرفها، وإن لم تمُت ستتعفن في زنازين مدريد جزافا لما فعلت؟

ترك حنا يدها، وقد حاولت الرحيل من أمامه مُمسكة بعصاها من على الأرض، والتفتت تهُش الغنم القريب منها، لكن توسعت حدقتاها برعب، ودهشة ما إن نطق حنا بمنتهى الثقة والبراءة، وهو يضع يده في جيبه قائلاً: جوليانا أنا أحبك.

التفتت إليه بسرعة وعيناها تلك لم تلتقي أهدابها لمدة بدهشة تحاول تكذيب ما قيل، لكنه أعاد الكرة قائلاً: أنا أحبك يا جوليانا.

التقت أهدابها لثواني، واقتربت منه في حالة الفزع تلك قائلة برعب: أصمت، أصمت أنت لا تعي ما تقول، إياك تكرار كلامك مجددا.

رفع حنا كتفيه بلا مبالاة قائلاً بهدوء: على العكس تمامًا أنا في كامل وعي، وأحبك يا جوليانا وأتمنى الزواج منكي، وأن تشاركيني ما بقي من عمري.

هزت حكمت رأسها بالنفي بشدة قائلة: أرجوك توقف، أنا وأنت لسنا لبعض، أمي وأخيك سيرفضون هذا الزواج، أرجوك أنت تضعني في مأزق، ولن ترحمني السنة الناس سيقولون جوليانا تحايلت على شاب من علية القوم، أرجوك توقف ولا تفسد على حياتي وحياتك، مشاعرك تلك ستفتح علينا أبوابًا من النار.

نظر إلى صُلب عينيها، وقد أطال النظر قائلاً بثقة ويقين: أنا أجدر بكل هذه النار، وستنطفئ متى تزوجني، أنا لا يهمني رأى أحد أنتِ كل ما يهمني، أنا أحبك يا جوليانا، أحبك كرريها وأفهميها فأنا لن أدخل معركة، وأعود منها خاسرًا ولأجلك إن أضررت لحرق مدريد سأفعل.

ثم التفت دون أن ينتظر رداً، وقد رحلت حكمت الخائفة وحنا السعيد، وقد افترق كليها في طريق عكس الآخر وكلاهما يعطي الآخر ظهره والقلوب تتراقص والأحاسيس تتنافر، لكن هناك في ناحيةً ما تراقب من كثب ما يحدث ببهجة وخبث، وقد تمنت لو طال الحوار، وأحضرت أهل الحي إلى هنا، وصنعت فضيحة وضجة، لكن الحظ كان في صالح المسكينة حكمت، وقد عبس في وجه الخبيثة كاترينا.

في يوم روتيني، ورتيب أشدّ من كونه عادياً.... أعلم أسمع صوت تافكم والسب واللعن.

لا تلعن أخي وأختي هداكم الله، إن كنتم تظنون أني أمط وأماطل بالأحداث وسرعة الحكاية تتباطأ لا تتسارع وكأنني أكتب بسرعة عشرين نملة لكل دقيقة زمنية، لكن على رسلكم يا قوم التطور وأهل السرعة وجيل الذكاء الاصطناعي، فمن الآن وصاعدًا قد بدأت القصة والحكاية، وستشتعل الأجواء بنار الحماس والحزن، وإن كنت من عشاق الدراما فأهلاً وسهلاً بك، وإن كنت تفر من لحظات الدفيء والشجن العائلية، فاعصر ليمونة وتحمل الرحلة، فقد أقبلت سفينتنا المُبحرة على الرسو في القريب بإذن الله تعالى في مرسي لن يخطر في بال بحارة الأرض العظام... هيا بنا إلى بداية النهاية.

كان اليوم هو اليوم الموعود الذي حددته إيفا ووالدتها لتجهيز فستان خطبتها على فارس الأحلام الأمير تيتوس المبجل وبالطبع بعد الحصول على الموافقة من بلايا بصعوبة، وقد كانت تلك الموافقة هي معجزة العالم التاسعة بعد السبع المعروفة والثامنة هي موافقته على مداوية جوليانا لوالدته.

ولكن المساء قد حل وكانت الشمس تتسلل خلف السحب وأسفل الجبال الشامخة بهدوء، وعلى استحياء من فوق سماء مدينة الأمير محمد الأول _أول بأني في أرض مدريد _ وكأنها تستحي أن ترحل بضيائها عن بلاد الأندلس كما رحل نور العلم والحضارة والتقدم عنها، وتوقع بلاء آخر في قلوب المسلمين، ولكن لا ينفع هذا الاستحياء، فكلما غابت الشمس أعلنت عن اقتراب فجر الأمن القريب في بلاد الأندلس المفقود!

وقد أدى أهل إسبانيا من المورسكينالمسلمين صلاتهم خلصه وأقبلوا على النوم خائفين طامعين في رب العالمين بإنزال سلطان الأمان في قلوب الخائفين النائمين بين ألم وعذاب.

وكانت حكمت مُضجعه على السرير تحاول النوم كعادتها كل ليلة، وفي نهاية المطاف، وبعد طول انتظار وعناء يزور النوم عينيها الحائرة بضع السويعات في اليوم، ويهرب مثل الفأر الذي فُتحت عنه المصيدة بالخطأ وبالطبع تلك الحال لم تكن جديدة، بل منذ أن تسللت رائحة الحب، وقد تسللت معها روائحه أخرى مثل القلق والسعادة والخوف والتفكير والحزن والألم والعشق كلها مجتمعة تمنها من أبسط حقوقها فقط النوم.

أخذت تلعب بذلك الخيط المنسدل من الوسادة بشرود، وهي تسترجع ذكريات اليوم وما قصته والدتها وما قصة طارق من أحداث عندما ذهب كلاهما لبيت العقرب بلايو، وكيف قابلتهم السيدة مارلين بإحسان، ورحبت بهم بابتهاج وحبور كرامةً لما قدمته حكمت من رعاية وعلاج لمرضها الذي قد أخبرها الحلاق والأقرباء أن قدمها ستُبتر، لكن حكمت أعادت لها الأمل، وأنقذت صحتها وعافيتها وحمتها من شر العوز لغير الرب وقدميها، وأما إيفا وريموندا، فقد كانت مقابلة عادية ورسمية للغاية فقط مجرد امرأة ستقضى لهم عملهم، وقد حمدت الله ألف ألف مرة على أنها لم تقابل لا بلايو ولا حنا، ولم تجد في صوت والدتها نبرة الشك، ولم يخبرها طارق بأي شيء مريب أو خبر غريب قد تسرب إليهم عن مبيت حنا في أثناء سفرهم خارج البلاد، وكم شعرت بالسعادة عندما أعجبت التصاميم الخاص بفساتين الأعراس والسهرة إيفا وريموندا ومارلين، وقد نزلت مع إيفا لشراء نوع قماش جيد بألوان زاهية استغلالا لخبرة خديجة في الأقمشة وأنواعها والسيئ والجيد منها، وقد اتفقوا على التسليم بعد أسبوع، وبالرغم من سعادة الجميع بأن خديجة باتت تعمل عند النبلاء والسادة، لكن الأمر مُقلق من الوقوع في أي خطأ صغير يكشف السر الكبير.

تنهدت حكمت بإرهاق وضيق، وتقلبت لتنام على ظهرها، فاردة ذراعيها وعينيها المحددة بصفي أهداب كثيف كنت مغلقة في صراع بين النوم والسهر، وقد كانت ترغمها على النوم عنوةً، لكن قطع نومها ذلك الصوت المحبب الذي اعتادت سماعه منذ مدة قبل نومها.

أزاحت الغطاء، وهبطت على الأرض حافية القدمين، وارتدت الروب فوق فستان النوم، ورفعت غطاء الشعر الملتصق به، واقتربت من النافذة تفتحها بهدوء وبطء حتى لا تصدر صوتًا للصرير بسبب مفصلاتها القديمة أو صوت رجرجة الزجاج المُتخلخل من الباب، وابتسمت ببهجة غامرة، وقد صدق حدثها عندما أمسكت بتلك الرسالة المربوطة بساق ورده مربوطة في القطبين الحديدي لذلك العازل في النافذة، وقد كان ذلك صوت حصى صغيرة ارتطمت بزجاج النافذة.

التقطت حكمت الوردة، وفتحت أحد الكتب، ووضعت الوردة بين صفحاته التي امتلأت عطرًا بسبب رائحة الورود السابقة التي حصلت عليها منذ مدة، وأغلقت الكتاب جيدًا حتى تُجفف الوردة، وتحفظها ثم أمسك بتلك الورقة تقرأ ما فيها، والذي كان فحواها "قد اقتربت حياتنا يا سُكره وأنا عند عهد قطعته في حلم من قبل أن أكون حمادي، وسندك"

الآن فقط يمكنني القول عودة من الماضي للواقع!

الفصل الرابع عشر

قد عدنا الآن إلى الحاضر وأرض الواقع وذهب الماضي مع الذاهبين وفنيي مع الفانين، ولكن هناك من تعلق قلبه وعقله في الماضي، ولا يستطيع الهرب منه، وهناك من تمني الخير من رب الخير في القادم، وهناك من زاد حبه وتعلقه وعشقه بالآخر وهناك من زاد خوفه وهروبه من القادم المجهول، ولكن هناك تلك الفتاة التي كانت في غرفتها تتلحف ببطانية كبيرة وثقيلة، بالرغم من كونهم في نهاية الصيف إلا الشعور بالبرد يكاد يقتلها بسبب إصابتها بدور الأنفلونزا الخاصة بالصيف، وقد كان جبينها يتفصد عرقًا، بالرغم من أنها ترتعش بشدة من هذا الشعور بالبرد.

وبالرغم من أن عافيتها ومناعتها جيدة الآن أن هُناك همًا أخذ يتسلل ببطء إلى قلبها وجسدها بسبب التفكير والقلق، ولم يرحم ضعفها، وأخذ ينفذ طاقتها بقوة بلا رحمة أو شفقة والآن فقط أدركت معنى كلمة أنهكه التفكير.

وشعرت بوالدتها عندما كانت تمر عليها أيامًا ثقالاً من التفكير الذي كان يُلبسها ردا المرض والعجز، وينشر في قلبها اليأس، وفي بدنها الكسل.

ولكن أنا أريد أن أضيف على كل هذا خوفًا ما يتردد في قلب حكمت يزيد حالتها سوءًا ومرضًا وهو خوف غير مبرر، لكن تشعر بأن شيئاً سيئاً سيحدث ولن تستطيع مواجهته سيسحب منها كل أملها وحياتها وعائلتها، ولم تستطع تفسيره أو معرفة سببه، لكنها على إيمان أن القلوب لا تخطئ أبداً.

بدلت خديجة ملابسها، وقد جهزت بعض الأغراض التي طلبتها مارلين وبعض الأدوات والتصميمات الخاصة بفستان زفاف إيفا، وكانت تتمنى لو بيدها أن تؤجل ذلك الأمر ليومين فقط، لكن لا يمكنها، وقد اعتذرت منهم الأسبوع السابق بسبب انشغالها طوال الأسبوع.

تمنت لو مكثت مع جوليانا طوال اليوم، لكن ما باليد حيلة.

دخلت غرفة حكمت، ومن خلفها طارق الذي قد ساعد السائس، ووضع الأغراض في العربة، وجاء ليخبرها أن السائس يستعجلها، لكن وقف قليلاً، وهو يرى خديجة التي أخذت تتحسس حرارة حكمت وتعطيها كوب الليمون قائلة، وهي تمسح على شعرها بحنان: سأذهب ولن أكثر هناك، وسأعود بسرعة فقط ارتاحي أنتِ.

تمسكت جوليانا بيد خديجة قائلة برجاء: أمي أرجوك لا تذهبي ابقي معي.

ربتت خديجة على كف جوليانا قائله بحنان وهدوء: جوليانا ابنتي لقد كبرتي على تلك الأفاعيل أخبرتك أني لن أكثر، نامي وعندما أعود سأيقظك. ثم ساعدتها على التمدد ودثرتها جيدًا غير ملاحظة لدموعها التي تهبط بغزارة وبلا توقف، ثم التفتت إلى طارق قائله: راعى أختك حتى أعود ولبى احتياجاتها، اتفقنا يا بطل؟

هز اخيلا رأسه بالموافقة، وسار خلفها قائلاً، وهم على أعتاب باب البيت: لا تقلقي يا أمي سأهتم بجوليانا جيدًا.

قبلت خديجة رأسه، وربتت على وجنته قائلة بحنان: هذا هو بطلي هيا لا تترك أختك أنا سأغلق الباب.

امتثل لأمرها، ودخل إلى غرفة حكمت وجلس على السرير جانبها قائلاً، وهو يمسح دموعها بأصابعه بقلق: أختي لماذا البكاء؟ هل هناك شيء يؤلمك؟

تقلب على الجهة الأخرى من السرير معطية ظهرها إلى أخيلا، ولم تستطع الإجابة عنه فقط اكتفت بالبكاء، وقد هزت رأسها بالنفي وبماذا ستخبره أصلا؟ وهي لا تفهم لِمَ ذلك الشعور المر والمؤذي كالعلقم يراودها الآن، ولكن أكثر ما يخيفها هو أن إحساس القلوب لا يخطئ أبدًا_ فالحق -سبحانه وتعالى- جعل القلوب كأجهزة الإنذار، فعندما يرتكب العبد ذنبًا يؤنبه قلبه، وعندما يخطئ في حق أحدًا يؤنبه قلبه، وعندما يقترب الخطر ينقبض قلبه، وعندما يقبل على الخير ينشرح قلبه، فسبحان من خلق ذلك القلب الذي صوته أشدّ وطئًا من أي صوت تأنيبا أو توبيخ_.

لف أخيرا حول السرير، وجلس إلى جوارها، وأخذ يمسح دموعها قائلاً باهتمام: جوليانا أخبريني بما يحزنك وأنا سأهتم بالأمر.

مسحت حكمت دموعها بظهر يدها، واعتدلت في جلستها بعد أن ساعدها أخيلا، ووضع وسادة خلف ظهرها، ثم أمسكت المنديل تمسح أنفها المذكور، وشربت الماء حتى هدأت قليلاً، ثم نظرت إلى أخيها، وأخذت تتحدث معه بنبرة غريبة عنه، وكانت تلك أول مرة تعتبره فيها جوليانا رجلاً كبيرًا، وقد تمسكت بيده بقوة قائلة: أخي بعد عدة أيام ستبلغ الرابعة عشر أنت في هذا السن أصبحت رجُلًا بحق لم تعد ذلك الصغير الذي ندلله أو الصبي الذي نضربه، بل صديق لي ولأمك وحماية لنا، أنا قلبي يؤلمني يخبرني أن شيئًا سيئًا سيحدث لي لن أكون معكم، أنتظر لا تقاطعني، أحيانا يكون إحساس خاطئاً، لكن أنا فقط أريد منك أن تعرف أنك ستتحمل المسؤولية ستكون رجلاً صلبًا في الصعاب، وحنونًا على أمك وزوجتك وذئبًا في وجه الأعداء وأخا لي ورجل حكيم في أفعالك وأقوالك، قد ننفصل عن بعض في أي وقت، وهذا شيء بيد الرب ليس بيدي، لكن إن حدث أريدك أن تعلم أني أحبك كثيرًا يا أخي، وأحب أمي، وأريد منك أن لا تنساني من دعائك، وتحكي عني لأطفالك، وأخبرهم أنني رحلت وأنت فخور بي اتفقنا يا بطل.

مسح اخيلا عينيه من تلك الدموع المتحجّرة المزعجة، وبلل شفتيه وهز رأسه قائلاً، وهو يعانقها بقوة: أطال الرب في عمرك يا أختي، لا تقولي هذا أنا لن أنساك أبدًا ما حييت وسأظل فخورًا بكى طوال عمري، ولن ننفصل عن بعض أبدًا.

ربتت على ظهره بحنان، وأخذت تمسح على شعره بهدوء، وقد ألفت هذا العناق الذي لمحت به لأمها في الصباح، ولم تفهمه، وقد جاءها ما تمنته فقط عناق صادق يخفف عنها ذلك الكمد الذي يلتهم قلبها بوحشية وبلا رحمة.

ولكن كسر جمال تلك اللحظة الدافئة، وتلك الراحة والعاطفة صوت طرق الباب العالي ليترك اخيلا أخته وهو يهرول إلى الباب في اعتقاد أنها أمه، لكن تلاشت ابتسامته وحماسه بقوة، وحل موضعها الدهشة عندما وجد طارقًا لم يكن يتوقعه إطلاقا.

يا أمي لا أريد العسل أنا لا أحبه... ابتعدي كرامة للعذراء" كان هذا صياح بلايو في غرفته منذ أن عادت مارلين إلى عافيتها، " واستردت صحتها وهي على هذا العهد أن تعطي كل أطفالها ملعقة عسل كل صباح كما أخبرتها جوليانا عن فوائد العسل التي لا حصر لها، وقد لامت نفسها كثيرًا على أنها لم تكن تعرف شيئاً عن هذا السلاح الجبار الذي يقي من مختلف الأمراض، وقد كانت على العهد أن تعطي نفسها وطفليها ملعقة عسلاً.

صاحت مارلين بغضب أمام بلايو الذي قلب عينيه في السقف بضيق وجز على شفتيه بضيق قائلة: لا يوجد شيء اسمه لا أريد ستأكل العسل الآن، أتظن نفسك كبرت علي؟ ثم مدت يدها بالملعقة بالإكراه ناحية شفتيه، وقد امتثل لأمرها، وأخذ العسل ومسح شفتيه بضيق عندما غادرت والدته، وأخذ يشرب قنينة الماء كلها حتى يخفى مذاق السكر وما أن انتهى حتى زفر أنفاسه بقوة وحنق قائلاً: عليك لعنة الرب يا جوليانا منذ أن دخلت حياتي، وقد قلبتها رأسا على عقب.

ولكن في الغرفة المجاورة كان حنا يضحك بشماتة وسخرية على تذمر بلايو وإكراهه على تناول العسل، ويحمد الرب ألف مرة على أن مارلين قد استعادت صحتها، وألجمت جموح بلايو الذي لا يلجمه أحد سوى أمه.

جلس حنا على طرف السرير يرتدي حذاءه العسكري ذا الرقبة الطويلة باللون الأسود عندما دخلت مارلين غرفته قائله بود: صغيري حنا افتح فمك هيا.

!تناول حنا محتويات الملعقة، ومسح شفتيه بعدها، وأمسك يدها يقبلها قائلاً بمرح: ما هذا الصباح الجميل؟ عسل يطعمني العسل

ابتسمت مارلين حتى بانت نواجذه، ثم جلست على السرير إلى جواره قائلة بحنان: الشكر للرب على عودتك سالمًا معافى لنا أنت لا تعلم كيف كانت حالتي كنت أموت من الخوف عليك، وعلى فقدانك يا صغيري.

احتضن كتفيها، وضمها إلى صدره، ثم قبل رأسها قائلاً بهدوء: آه يا أمي! لقد عشت في رعب أكبر وأنتِ مريضة، لكن الشكر للرب.

ثم ربت على كتفها، وابتعد عنها قليلاً قائلاً باهتمام: أمي أنا أريد أن أخطب فتاة، وأريد منكِ المجيء معي.

ابتسمت مارلين ببهجة بالغة، وأمسكت يد حنا بيدها المليئة بالتجعيد، واعتدلت في جلستها وهي تعدل فستانها الأرستقراطي الرمادي قائلة بابتهاج: حقًا يا حنا! بالطبع يا بني سآتي معك من هي تلك الفتاة؟

أخفض حنا رأسه، وتلاعب بأصابع مارلين بهدوء، ثم نظر إليها قائلاً بهدوء: جوليانا يا أمي، أرجوك لا تعترضي، لقد عاينت جوليانا وعشت معها وأنتِ بنفسك اختبرتا معدنها وأخلاقها أرجوكِ يا أمي أنا أحب جوليانا، أحبها كثيرًا ولن أجد راحتي إلا معها فقط طاوعيني.

أمالت مارلين رأسها بتفكير وهي بحق تفاجأت ولم تتخيل إطلاقًا أن جوليانا هي المختارة والمنشودة من قبل ابنها، ولم تتخيل أيضًا أن حنا غارق إلى قمة رأسه في حب تلك الفتاة، وبالرغم من تعدد محاسنها، إلا أن كل ما يهمها في نهاية الأمر هو راحة ابنها وصغيرها.

ربتت مارلين على وجنته قائلة بعقلانية وهدوء: لا مشكلة عندي فقط ننتهي من عرس إيفا، وأتى معك وأطلبها لك.

ثم وقفت قائلة، وهي تهم بالخروج: هيا أنهى ارتداء ملابسك حتى لا تتأخر على العمل.

.لثم حنا يدها قائلاً ببهجة وصدق: شكرا يا أمي

ربتت على كتفه بهدوء، وأخذت تدعوان له براحة البال والسعادة، حتى خرجت تاركة إياه يُرفرف قلبه من السعادة والفرح، ثم وقف أمام مرآته التي امتدت بعرض الحائط يصفف شعره، ويعقده برباط الشعر على هيئة ذيل حصان، وقد نظر إلى لحيته التي ازداد طولها بضيق، وقد سحبت جوليانا كل ما تبقى من تفكيره وعقله، واستخلصته لنفسها واستأثرته لها وحدها، ولكن يا مسكين تزعجك لحيتك المتطاولة غدًا سيزعجك نسيان الكثير من الأمور كلما ازداد حُبك، وتعلُقك بتلك التعيسة وأكثر ما يثير حنقه هو أنها لم تأخذ له موعداً مع .إليزابيث بعد طوال الأربعة أشهر الماضية

زفر أنفاسه بضيق، وهو ينظر في ساعته الذهبية، وقد اقترب موعد عمله ولا وقت الآن لتهذيب لحيته، وضع ساعته في جيب زيه العسكري، وسلاحه الناري في محفظته بخصره وسيفه في الناحية الأخرى، وارتدى قبعته، وقد هم بالخروج وبالفعل فتح الباب، لكن استوقف مسيرة صوت إليزابيث _خديجة _التي كانت تتكلم مع والدته وريموندا زوجة أخيه في مواصفات فستان زفاف إيفا، لكن أكثر ما .لفت انتباهه، وأثار حزنه هو قول إليزابيث بأن أخيلا في البيت بجانب جوليانا لأنها مريضة، ولا تقوى على الحراك من الفراش

أغلق باب غرفته بسرعة، واختبأ خلفه عندما صعدت النساء إلى غرفة إيفا وما إن رحلة، وتأكد من إغلاق باب الغرفة، حتى خرج بهدوء من دون إحداث أي ضجة، ونزل على السلم بسرعة ناحية العربة غير منتبه إلى بلايو الذي كان يجلس في الصالون وبين قبضة يده كتابًا ما وكأسًا من النبيذ الأبيض العتيق، وقد هز بلايت رأسه بيأس هو يرى حالة أخيه في الفترة الأخيرة من تخبط وتيه وسرحان في أفكاره الخاصة وكأنه انفصل عن الواقع والعالم إلا من جسده الذي يتحرك به مثل الأشباح وهو نقطة الوصل الوحيدة بينه وبين عالمه الخاص، .ليزفر بلايو قائلاً بحنق وضيق، وهو يقلب صفحات الكتاب: عليك غضب الرب يا جوليانا

.صعد حنا إلى عربته، وقد تحركت العربة، ولكن إلى منطقة أخرى غير مخفر الشرطة، بل إلى بيت جوليانا

!ستقولون جنون وهو بالفعل كذلك جنون، ولكن مع عاشق محموم مثل حنا لا يوجد شيء اسمه جنون

استوقف السائق في مواطن عدة، حتى يشتري بعض الأغراض المختلفة من الخضراوات والفواكه والطيور الحية واللحوم وبعض .الأعشاب القليلة التي يفهم فيها، ويعلم أنها مفيدة للإنفلونزا، وقد امتلأت العربة على بكرة أبيها إلى جواره بالحقائب والأغراض

وعادت حنا أن يتسلل مثل الفأر إلى جوليانا كلما تمنّى وأراد رؤيتها تسلل تلك المرة خلف السائق بعد أن صف العربة في مكان بعيد وسبقه بالحقائب، ثم جاء حنا، وقد وقف أمام الباب الخلفي يطرق عليه مرات عديدة بلا صبر، حتى فتح له اخيلا، ولكن اخيلا لم يسمح له بالدخول، وظل واقفًا أمام الباب مثل الحائط، وهو يتبادل أنظاره المُندهشة مع أنظار حنا الباردة لعدة ثواني، حتى تحدث حنا قائلاً لذلك .الصبي الذي يصل بالكاد إلى مرفق ذراعه بهدوء: أريد أن أدخل

.رفع اخيلا كتفيه بلا مبالاة قائلاً ببرود: أمي عندكم في المنزل لا يمكنك الدخول

نزع حنا قبعته العسكرية واضعًا أيها أسفل إبطه، وأرجع بعض الخصلات المشعة من شعره إلى الوراء قائلاً، وهو يتنفس بهدوء حتى لا .يغضب فلا صبر له مع الأطفال: أعلم يا بطل، لكنني جئت للاطمئنان على جوليانا أريد رؤيتها

هز اخيلا رأسه بالرفض القاطع قائلاً بعناد: أعذرني لكن لا يوجد أحد كبير هنا، ولا يوجد داع لرؤيتها عندما نصبح أقرباء تعال، لكن .الآن لا، أو أحضر معك أحداً كبيراً

.تقلصت عضلة صغيرة بجانب فكه لتدل على أنه يطحن أسنانه قائلاً بغضب لم يعد يستطيع السيطرة عليه: أخيلا! لا وقت لهذا العناد

انتفض أخيلا، واهتز كتفيه برعب عندما صرخ حنا في وجهه، وتمسك بعناده أكثر، وكاد أن يغلق الباب قائلاً: لا يوجد أحد اسمه جوليانا .هنا

ولكن قبل أن يغلق الباب قد دفعه بيده، وتخيلوا معي فرق القوة والقدرة البدنية بين الاثنين، وانتصر حنا دون عناء ليرتد اخيلا عدة .خطوات للوراء، وهو ينظر إلى حنا بغضب، وقد التحم حاجبيه بضيق، ولكن حنا امتص غضب الموقف بهدوء

جلس حنا القرفصاء أمام اخيلا، حتى يصبح في مستوى طوله، وأمسك بكتفي أخيلا، وزفر أنفاسه بهدوء قائلاً بعقلانية وصدق: اخيلا صدقني أنا أحب جوليانا وأريد الزواج بها، وسأتقدم لطلب يدها حالاً لو أن الخالة إليزابيث هنا، صدقني أختك باتت هي حياتي كلها وهمها همي، وراحتها راحتي وعائلتها عائلتي، أنت في مثابة ابن لي لو تزوجت في سن أصغر لكان ابني في مثل عمرك، أنا لن أزي جوليانا ما حييت، بل سأكون حماها وهي سكنى وسكوني، فلا تمنعني من رؤيتها والاطمئنان عليها أرجوك يا أخيلا.

طأطأ اخيلا رأسه لأسفل بتفكير، وأخذ يعبث في طرف ثوبه، ثم نظر إلى حنا لدقيقة بتفكير، ثم هز رأسه قائلاً، وهو يرفع سبابته أمام وجه حنا: موافق لكن بشرط لا تطل المكوث فقط خمس دقائق.

هز حنا رأسه بالقبول، واعتدل في وقفته، وبينما أخيلا يغلق الباب قد خرجت جوليانا من الغرفة ترتدي فستان النوم، ومن فوقه وشاح أبيض، وغطت شعرها بإيشارب صغير، بينما كانت تستمع إلى تلك المُشادة الكلامية الصغيرة قد عزمت على فض الاشتباك، لكن سرعان ما فُض الاشتباك من تلقاء نفسه، ولكن وجود حنا هنا وحده وعدم وجود خديجة في البيت هذا مُصيبة واشتباك آخر لا يُفض بمجرّد الكلام.

أسرع أخيرا في مشيته، واقترب من جوليانا وأمسك يدها قائلاً بهدوء وتحذير: أختي فقط خمس دقائق. ثم رمق حنا بنظرة ناريّة كرجل اشتعل رأسه شيبًا، وهرم حتى أكل الزمان عليه، وشرب وكأن أفاعيل وألاعيب الشباب قد مرت عليه، وحفظها عن ظهر قلب قائلاً: ليس كل ما يُقال يُصدق حتى يحدث، يهوذا باع المسيح ببعض الفضة، وقد كان يدعى محبته.

ابتسمت حكمت بإرهاق، وربتت على وجنة اخيلا قائله بود: لا تقلق يا عزيزي السيد حنا سيقول ما يريد ويرحل لن يفعل شيئاً. ثم نظرت إلى حنا قائلاً بنبرة فهمها حنا أنها تريد تهدئة الأجواء: أليس كذلك سيد حنا؟

آمال حنا رأسه بالموافقة قائلاً: بالطبع ثم تابع باهتمام قائلاً: لقد علمت أنكِ مريضة، وجات الاطمئنان عليك، كيف حالك الآن؟

سعلت قليلاً قبل أن تجيبه ثم أعطاها أخيرا بعض الماء لتشرب قائلة: أنا بخير لا تقلق، لكن مجيئك هنا خطأ كبير لا تكررها.

رفع حنا كتفيه بلا مبالاة قائلاً ببرود تام: ليس ذنبي أني أريد الاطمئنان عليكِ، لقد أخبرتك أن تأخذي لي موعداً مع السيدة إليزابيث وأنتِ لم تفعلي، أنتِ المخطئة لا أنا.

زفرت أنفاسها بقوة، ومسحت أنفها بالمنديل، ثم نظرت إلى تلك الحقائب الموجودة على الأرض، وتلك الدجاجة والبطة الأحياء، وقطبت جبينها قائلة بدهشة، وقد اتسعت حدقتاها: هل جُننت ما كل هذا؟

ارتدى قبعته العسكرية، واقترب من الباب حتى يخرج قائلاً بهدوء: شيء بسيط يا جوليانا فقط اهتمي بنفسك، إلى اللقاء.

ثم خرج وأغلق الباب من خلفه تاركًا كلاً من جوليانا وأخيلا ينظرون إلى بعضهم البعض بدهشة من أفعال ذلك العاشق غريب الأطوار والأفعال، وقد نطق اخيلا بتلقائية، وهو ينظر إلى أثر حنا في الهواء: هذا بالتأكيد مجنون.

هزت حكمت رأسها بالموافقة بكل ثقة: بالطبع مجنون.

ثم نظرت إلى تلك الحقائب قائلة بحيرة: ماذا سنفعل في تلك الحقائب.

رفع اخيلا رأسه، ونظر إليها ورفع كتفيه قائلاً في حيرة، وقد مط شفتيه: لا أدري لكن أمي يجب أن تعرف بما حدث اليوم لن نخفي عليها شيئًا هي ستتصرف.

جلست حكمت على أقرب كرسي، ونظرت إليه قائلة، وهي تهز رأسها بالموافقة: معك حق يا أخي، أترك كل شيء كما هو حتى عادت أمي.

اقترب منها أخيلا، وربت على كتفها قائلاً بعقلانية ونبرة رجل عاقل لا طفل في عمره الأولاد: لا تقلقي أختي أنا سأخبر أمي أن اقتحم المنزل، وأنه لا ذنب لكي لا تخافي أنا معك.

ابتسمت حكمت بهدوء، وربتت على وجنته قائلة بحنان: باركك الرب يا أخي، وأدامك في حياتي، صدقني أنت رجلي وحمايا الوحيد في الدنيا بعد رحيل أبي.

ضيق أخيلا عينيه قائلاً بخبث: والسيد حنا أليس كذلك أيضا؟

فرضت حكمت أذنه بسرعة قائلة في غيظ ونوع من التربية في صورة مرح، حتى لا يكرر كلامه مجددا: أيها الوغد الصغير تأدّب. ثم تركته وهو يمسح أذنه المحمرة بألم، ورفعت ساقيها على الكرسي قائلة بإرهاق وأمر: أحضر لي البطانية من الداخل هيا.

وهذا التصميم كم مترًا سيحتاج من القماش؟" تفوهت ريموندا بتلك الكلمات عندما اختارت أخيرًا إيفا بعد عناء وعذاب تصميم لفستان " الزفاف باللون البيج الأقرب للون السكر _وقد كانت تلك هي موضة الأزياء وفساتين الزفاف قبل أن تبتكر الملكة فيكتوريا فستان الزفاف الأبيض، وتنتشر تلك الموضة في جميع أنحاء العالم _ اعتدلت إليزابيث في وقفتها بعد أن كانت تأخذ مقاس خصر إيفا، ثم أخذت تدونه في دفترها الصغير قائلة بعملية: على الأقل عشرة أمتار؛ لأن به عدة طبقات وزينة وغيره، فسيكون ثقيلاً قليلاً.

هزت ريموندا رأسها بالموافقة قائلة: حسنا ستاتين معنا عندما نشتري القماش رجاءً.

وضعت إليزابيث أدواتها في حقيبتها الصغيرة، وهزت رأسها بالموافقة قائلة: تحت أمرك سنيورة، وفي أي وقت تختارينه، فقط اعذروني لقد تأخرت وكما تعلمون جوليانا مريضة قليلاً.

امتثل الجميع لها العذر، وأشارت إليها ريموندا ناحية الباب قائلة: لا مشكلة، عفاها الرب.

لكن مارلين لم تكن معهم في هذه الغرفة بعقلها ولا حتى بنصفه، بل كانت حاضرة بجسدها فقط وعقلها في ما قاله حنا قبل قليل _ واختياره لجوليانا وحبه لها الذي صرح به دون تردد أو خجل، بل وكأنه أمر واقع يجبرها على تقبله، ولا يحتاج سوى تلك الإجراءات الرسمية للزواج بها، ولكن هي عكس بلايو لا تأخذ الأمور بشخصية وحساسية، بل تدرس الأمر جيدًا، فإذا نظرت إلى مزايا جوليانا فهي كثيرة، ويفكر كيف عالجتها وعالجه ابنها، وذلك الأجر الزهيد الذي أخذته في علاجها ورفضها أخذ الأجر في علاج حنا، مهذبة ومثقفة وودودة، يكفي أنها تعرف أهلها منذ أن كان والدها يعمل عند زوجها، وأمانة والدتها ومهارتها التي أقسم الجميع بها عندما شاهدوا فستان إيفا في حفل الخطوبة، ولكن العيوب مُعيقة وأول عيب فارق السن هي لا تنكّر أن فارق السن أمر شائع في الزواج وهي قد كان الفارق بينها وبين زوجها الراحل خمسة عشر عامًا، لكن جوليانا تربت في وسط وطبقة وبيت معين يختلف عن تربية وبيت وطبقة حنا تمامًا، وقد لا تتأقلم معه، وتفهم عقله وطبعة وغير هذا هي امرأة تجاوزت السبعين، وتفهم وتعي ما يحدث حولها وأول شيء كره بلايو لجوليانا الغير مبرر وخلال الأيام التي كانت تعالجها كانت تتعمد تجاهل بلايو وبالمثل هو، فإن كانت تريد الراحة لابنها، فهي أيضًا لا تريد أن يخسر الأخ أخاه، وترى البغضاء والمشاحنة بينهم في آخر عمرها _.

ثم تحركت معها إيفا ناحية الباب قائلة، وهي تقف في الرواق أمام غرفتها تنتظر صعود الخادمة التي سترافق إليزابيث: أبلغي جوليانا سلامي.

ابتسمت إليزابيث بود، وهزت رأسها بالموافقة قائلة: بالطبع سنيورة شكرا لكي ولذوقك.

ثم هبطت مع الخادمة إلى العربة الخشبية التي تجرها الخيول، وأخذت تنظر إلى الحدائق الخضراء والقصور الأخرى في هذا الحي، وكل قصر أفخم وأروع من الآخر وكأن سكان الحي قد تصارعوا وتسابقوا على من صاحب أفضل قصر، وبات من الصعب التميز بينهم.

تنهدت بهدوء، وهي تتابع الطريق، لكن قطبت جبينها بقلق ودهشة، وهي ترى أن السائق قد غير خط سير العربة بعيدًا عن الطريق المؤدي إلى الميادين العامة، وفي طريقها إلى البيت، وقد أوجست خيفة من أن السائس يريد بها شرًا وبالأخص أنها قد حصلت على مبلغ مالي جيد من ريموندا اليوم، وقد يكون طامعًا بهم لذلك حاولت عدم لفت الانتباه إلى خوفها وقلقها، وقد تمسكت بحقائبها، وفتحت النافذة الصغيرة التي في ظهر السائس في العربة، وتساءلت في محاولة أن تُظهر بعض هدوء قائلة: اعذرني، لكن هذا ليس طريق البيت.

ضرب السائس الخيل بحبل اللجام قائلاً، وهو يزيد سرعة العربة: لا تقلقي سيدة إليزابيث السيد حنا يريد أن يتحدث معكِ في المقهى الذي يتردد عليه كدنا أن نصل.

رفعت خديجة أحد حاجبيها دون الآخر بدهشة وتفكير، وقد أغلقت تلك النافذة، واعتدلت في جلستها، ولكن لم تطمئن، بل انفجر في عقلها ينبوع من الأفكار والسناريوهات التي لا حصر لها، وتدفق شلالاً عنيف من الأفكار التي لا حصر لها، وكلها تدور وتتمحور حول شيء واحد ماذا يريد؟!

ولكن لم تطل حيرتها كثيراً، وقد أفاقت من غيبوبة التفكير، وخرجت من وحل الشرود عندما توقفت العربة أمام أحد المقاهي الراقية التي لا يدخلها إلا خواص الخواص وعليه العليا من أهل مدريد غير العاديين.

نزلت من على سلم العربة، ووجدت نادل أدخلها إلى داخل المقهى، وقد وجدت حنا في انتظارها على إحدى الطاولات بيده كأس كبير من الجعة، وقد وضع قبعته العسكرية على الطاولة أمامه وما إن رآها حتى وقف احترامًا لها حتى جلست ثم جلس هو الآخر قائلاً، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة قائلاً: أنا أشرب بيرة اطلُب لكِ قدحًا؟

هزت رأسها بالنفي قائلة بعملية: أشكرك لا أريد الآن، فقط أخبرني ماذا تريد؟

اعتدل حنا في جلسته، وشبك أصابعه قائلاً في هدوء: سيدة إليزابيث أنا أريد أن أتكلم معك في موضوع مهم، منذ مُدة وأنتِ تعرفين أني وعائلتي تعرفنا على جوليانا، وكم أُعجبت عائلتي بأخلاق جوليانا وثقافتها وتأدبها، وقد حاولت كثيراً فتح أبواب الحديث مع جوليانا لكنها كانت تتهرب مني خجلاً منى وخوفًا منك، ولكن بصراحة قد طال الوقت، وبات الأمر سيئًا حقًا، ومن دون أن أطيل عليكِ أنا أطلب منكِ يد جوليانا للزواج ما قولك؟

الفصل الخامس عشر

رمشت خديجة مرات عديدة، وأخذت تقرص فخذها بنفسها حتى تتأكد من ما سمعته، وأنها ليست نائمة، أو في حلم أو حتى قد ضربها أحدًا ما على رأسها، بل في كامل وعيها وما سمعته من ذلك المختل صحيح، ولكن كيف يجرؤ على الاقتراب من صغيرتها والتفكير بها من هذا المنطق والمنطلق. وقد حدث ما كانت تخشاه على نفسها وهي شابة قبل الزواج وما تخشاه على صغيرتها الآن وأنه بالرغم من التخفي والتستر وعدم الاختلاط بالعامة والناس، حتى لا ينكشف ذلك السر الأعظم، ويحدث ذلك اللغط، وتلك الضجة التي وقعت بها الآن!

رفع حنا حاجبيه قائلاً بتأكيد وهدوء عندما لم يجد ردًا: سيدة إليزابيث أنا أتحدث معك، ما قولك في ما قلت؟

هزت إليزابيث رأسها بالنفي لثواني وكأنها تُفق من صدمتها تلك، وتعود إلى العالم الحاضر وأرض الواقع الحي قائلة، وهي تنظف حلقها: اعذرني لكني تفاجأت بما تقول.

ثم تابعت بعملية وضيق مبطن لم يخف على حنا قائله وجميع حواسها متحفظة لما يحدث يُقال: لكن اعذرني ألا ترى أنك كبير على جوليانا قليلًا أعني فارق السن بينكم ليس بقليل.

ارتشف حنا القليل من البيرة من الكأس العملاق الذي أمامه، ثم نظر إليها قائلاً بهدوء وجدية: ليس مبرراً للرفض، اعذريني لكن أغلب نساء مدريد بينهم وبين أزواجهم فارق سن كبير أمي، وأبي الفارق بينهم خمسة عشر عامًا، أخي وزوجته الفارق عشرة أعوام، جدي وجدتي الفارق بينهم تسعة عشر عامًا، وغيرهم الكثير مِمْن يردون علي بطبيعة عملي، أنا لا أرى فارق السن مانعاً أبدًا.

أخذت خديجة تطرق على الطاولة الخشبية بأصابع يدها الممتلئة بعصبية وتوتر قائله: جوليانا ليست من نفس عالمكم، تفكيركم وطبقتكم وحياتكم على النقيض تمامًا في كل شيء، جوليانا أنا أراها طفلة بريئة، وليست لأنها ابنتي، لكن جوليانا بالفعل كذلك لن تقدر على تحمل

حياة القصور، وتلك المسؤولية كونها زوجة صاحب الشرطة في مدريد، اعذرني لكنك تخرج كل يوم وحياتك على المحك واليوم في مقر عمل أو وظيفة غدًا في أخرى أنا لا أريد لجوليانا سوى الهدوء والاستقرار.

ابتسم حنا بهدوء قائلاً برصانة: أنا لم أحب جوليانا إلا لأنها بريئة، ولم يجذبني شيء لها إلا براءتها وعطفها وحنانها في التعامل مع الجميع، وأمر أنها من طبقة أقل ليس مانعاً، أيضًا جوليانا ذكية، وستعتاد تلك الحياة بسرعة، وستتأقلم ولن يكن هناك مشكلة إطلاقًا، أما بالنسبة لعملي فصدقيني أنا واثق أنه من المستحيل أن يُنْقَل إلى خارج مدريد، لقد قضيت خدمات ومُدة طويلة خارج مدريد، وتعينت هنا للاستقرار، فمن المستحيل أن تتضرر جوليانا، صدقيني أنا أحب جوليانا ومستحيلاً أن أدبها أو أن يمسها ضرر ما دمت على ظهر الأرض، جوليانا قطعة من قلبي مستحيل أن يقع عليها ضرر بسببي فقط أريد منكِ أن تصدقيني وتثقي بي فقط.

التفتت إليزابيث إلى جهة اليمين مُختبئة عن أنظاره المترصدة بها، حتى تفكر في رد يُسكت ذلك الأخرق الغارق في محيط غير معلوم نهايته من حب جوليانا والعشق بها.

لكن الكلام سهل، ولا تنكر ذلك، لكن للأسف وأكرر للأسف حنا صادق بما يقول وإيجاده التبريرات وطرق الإقناع ونظرات عينيه وثقته بحديثه تدل على أنه صادق بما يبوح، وأنه راغب في ابنتها حقًا ليس مجرد حديث، لكن ما بينهما أكبر من كل تلك الحجج ما بينهم دين نهايته. أما الجنة أو النار فلا خيار آخر، ولا يمكنها أن تُغضب الله لأجل بشر، ومتع الدنيا الزائلة، ولكن الآن أشيروا على تلك المرأة في ورطة بالفعل الصواب!

بللت خديجة شفتيها، وهزت رأسها قائلة بهدوء: دعني أُخبر أخوالها في مدريد، وأعرض عليها الأمر، ورجاءً لا تقابلها من وراء ظهري أرجوك نحن أصحاب الطبقة الفقيرة ليس لنا شيء نورثه ونمتلكه سوى السمعة الحسنة وعمل صالح لبعد الموت أرجوك إن كنت تحب ابنتي حقًا لا تُلطخ سمعتها وتجعل أحدًا يخوض في حرماتها، أرجوك يا سيد حنا.

زفر أنفاسه بهدوء، وأغمض عينيه لثواني، ثم نظر إليها، وقد وافق على ما تقوله تلك المرأة من حقيقة قد تناسها تمامًا، وما كان يجب عليه أن ينساها قائلاً بهدوء: تحت أمرك ولكن أرجوك لا تتأخري علي في الرد أنا أنتظر بفارغ الصبر.

هزت إليزابيث رأسها، ووقفت عن ذلك الكرسي الخشبي بلا مساند، وخرجت من ذلك المقهى المائة زواياه بالشموع التي أثرت في لون دهانه الزيتي الفاتح والبار بني اللون الذي يعمل عليه ثلاثة شباب في زي مخملي، ومن خلفهم براميل نبيذ عملاقة وزجاجات خمر أخرى، واتجهت إلى العربة، وصعدت إليها بتوتر، وجلست بجانب النافذة تنظر إلى الطريق بتيه وحالة من اللاوعي قد تلبستها وهي تعيد كلاماً حنا في رأسها، وتحاول أن تجد أي حل لتلك الورطة والحماقة التي وقعت بها، لكنها لم تجد أي حل سوى حل واحد لا ثاني له الهرب، نعم الهرب خارج إسبانيا تمامًا وبلا عودة، لكن لا لن يتحقق ما ترجو وتتمنى إلا ببلوغ طارق الرابعة عشر عامًا وفقط كل ما في يدها الآن الصبر والدعاء!

عادت خديجة إلى البيت، وقد طرقت على الباب بحدة وتوتر نوعًا ما، حتى فتح لها طارق الباب، وقد وجدت حكمت تجلس على أحد كراسي حجرة المعيشة متلحفة بالبطانية متكورة على نفسها.

وبالرغم من حالة جوليانا المرضية السيئة، إلا أنها بالغت في رد فعلها، وأخذت تسعل بشدة، وترفع رأسها بثقل عندما اقتربت منها خديجة تتحسس حرارتها حتى إذا علمت خديجة بما حدث لا تزد عليها، وتُثقل في اللوم والملامة وبالفعل سارت الخطة كما خططت، ولكن الفضل لله الذي أبقى في عمرها، وتوتر وقلق خديجة الذين فتكا برأسها وعصفا بتفكيرها فيما قاله حنا منذ قليل، فلم تُجهز عليها الآن فقط الصبر، وستُجهز عليها لا داعي للقلق فمدريد كلها ستُجهز على حكمة!

جلست خديجة على أحد المقاعد، وقد خلعت غطاء شعرها ومعطفها، لكن ما لفت نظرها، وأصم أذنها هو صوت تلك البطة الذي يصدح في الأجواء وهي بالأصل لم، ولن تربي البط أبداً بسبب خدمته المتعبة، لكن لم يطل انتباهها وحيرتها عندما خرج أخيرا من غرفته وهو يحمل تلك البطة، وقد أخذت تُقلب النظر بينه وبين حكمت وما زاد الطين بلة تلك الحقائب الكثيرة الموجودة على الأرض، وقد رممت مرات عديدة لتتساءل في دهشة قائلة: ويلكم، من أين لكم كل هذا؟!

بللت حكمت شفتيها، واعتدلت في جلستها، وأقبل عليها أخيلا واقفًا إلى جوارها، حتى تحدثت حكمت قائله بتردد: أمي... أمي ما حدث. أن الحقائب تلك... جات هنا.

صاحت خديجة بنفاذ صبر قائلة بغضب: جات وحدها؟ كيف جات أجيبوا يا بقر.

اندفع أخيرا قائلاً في شجاعة مطلقة، وهو يدفع عن أخته شرًا محتماً ومحيط بها: أمي جوليانا ليس لها ذنب ذلك السيد حنا عندما عرف أنها مريضة جاء للاطمئنان عليها، وقد حاولنا في أثناءه وطرده، لكنه لم يرجع وأجبرنا على أخذ تلك الحقائب، ونحن قررنا أنه عندما تأتي ستجدين حلاً. ثم تابع برجاء واستعطاف قائلاً: أمي أرجوكِ لا تذبحي البطة دعيها هنا.

لم تهتم خديجة بما قاله ذلك الصغير بقدر أُنملة أو بمعنى أصح لم تكن خالية الوفاض لتركز مع أحد أو أماني أحد، بل عقلها كله منصب حول تلك المصيبة التي اسمها حنا، وقد سقطت فوق حياتهم لتتسلل إليها كالسرطان الذي يأكل جسد المريض ببطء مميت وبلا رحمة، ألا يكفي تلك المسكينة ما تحمله في قلبها من هم ورعب ليكثر حنا همها بطلبه الأخرق هذا، لقد سامة من تلك الحياة.

وقفت خديجة بغضب، وركلت أحد الكراسي المحيطة بالطاولة الخشبية قائله بصراخ وغضب أرعب الصبي والشابة: اللعنة على حنا هذا، فليذهب إلى الجحيم!

ثم دخلت غرفتها، وأغلقت الباب بقوة مصدرًا صوت ارتطام عال، وقد اهتز زجاج النافذة بقوة، وقد انتفض أخيلا عندما قفزت البطة من يده، فذع وأخذت الدجاجة ترقد حولهم لينظر أخيلا إلى حكمت قائلاً بدهشة: أمك فقدت عقلها.

لتوافقه الرأي قائلة، وهي تنظر إلى غرفة خديجة، وتهز رأسها بالموافقة: أقسم بذلك وكله من حنا.

قد مر أسبوعان على حديث حنا مع خديجة، وقد كان ينغمس في عمله منذ الصباح الباكر حتى الليل الدامس المتأخر، وقد باتت حياته مملة وكئيبة لا شيء بها يدعوه إلى الإقبال عليها ما دام لا يراها كل يوم، ويستبشر بوجهها كل صباح حتى تلك الرسائل والورود قد توقف عن إرسالها والتسلل إليها وهو ينتظر ولا يوجد شيء يفعله سوى أن ينتظر ومجبر على أن ينتظر.

فلا يريد أن يُقحم نفسه في أي حماقة، أو يقحمها معه في مصيبة لن يتحمل عواقبها سواها وبالأخص كلام إليزابيث عن شرف الفتاة وبالأخص فتيات الأحياء الشعبية والفقراء لا يملكن شيئاً سوى السمعة الحسنة، وإن تلوثت فعلى تلك الفتاة السلام، ولن ينظر صرصور في وجهها، ويأمنها على بيته وأبنائه.

أغمض عينيه بضيق، وأمسك بمنتصف التقاء عينيه بأنفه بإرهاق، وقد زفر أنفاسه بضيق وملل، وقد أنهى الكثير من الأعمال والقضايا اليوم والشؤون، ولم يبق سوى استلام القنابل التي ستذهب إلى مخازن الجيش عن طريق تأمينها، ومن قبله اليوم، وينتهي من عمله، واستلام الأسلحة الذي يتم منذ بداية الأسبوع، ولكن أوكل تلك المهمة إلى إدواردو الذي قبلها بشرط أن لا يأتي إلى العمل لمدة من الزمن، وقد وافق حنا بلا جدال أو تردد.

اعتدل حنا في وقفته، ورتب الأوراق على طاولته، وعدل وضع قبعته العسكرية، وأخذ يطفأ المصابيح التي تعمل بالجاز والشموع، وقبل أن يطفأ آخر شمعة قد دوى صوت انفجار شديد في القسم أصم الآذان، واختل من أجله التوازن، وتساقطت المصابيح والشموع على الأرض، وتشققت الجدران وخرج منها غبار كثيف، وقد اختل توازن حنا، وكاد أن يسقط لولا أنه تمسك بارفف المكتبة خلفه بقوة، لكن تلك القوة لم تدم كثيرًا عندما خرج من مكتبه بسرعة، ونظر إلى بركة الدماء التي عند مدخل المركز، وقد أمسك العساكر والملازمين ببعض جنود الكنيسة، وقد عرفهم من زيهم، ولكن ما صدمه وجعله يجن جنونه هو رؤية أصحاب الدماء والجثث!

وإن قلنا إن هناك مصيبة وفاجعة عند حنا فهنا أيضا همًا وبلاءً عند حكمت وعناء فلان قد بلغ أخيرا الرابعة عشر من عمره الآن، وقد كانت كل من حكمة وخديجة أعدت حفلاً صغيرًا بمناسبة ذلك اليوم السعيد الذي لطالما انتظروه وقطعوا الأيام الثقال والساعات الطوال،

وعدوا اليالى والدقائق حتى يأتي هذا اليوم، ويعرف فيه أخيلا أنه طارق سليل مسلمي الأندلس وأبنًا لجنود وعلماءً وشيوخ ً عظماء حملوا منارة الحضارة والتقدم إلى بلاد أوروبا بأسرها ولولا حرق كتب المسلمين في الأندلس لكنا نتجول بين المجرات الآن.

ولكن، بالرغم من السعادة والفرح، إلا أنه كان هناك خوف ترح وأول الخوف هو هل سيقبل أخيلا بعد أربعة عشر عامًا من حياة اعتادها وكذبة كانت كل عمره الماضي هل سيصدق بسهولة أنه مسلم هارب؟

بالطبع أمر لا يقبله الصغير قبل الكبير، لكن لا حل أمام حكمة وخديجة سوى إجبار الفتى على تقبل الحقيقة رغمًا عن أنفه.

انتهى الحفل الصغير، وقد قسموا قالب الكعك بالتساوي، وقد التهمه طارق بسرعة وشرب العصير باستعجال، حتى يفتح هديته الغامضة، وما أن انتهى حتى وضع الطبق والكوب على الطاولة قائلاً بحماس وهو يصفق: لقد انتهيت وقت الهدية الآن!

ضحكت كل من المرأتين تركن أطباقهن، وأخبرت خديجة حكمت بأن تحضر الهدية، وقد دخلت غرفتها، وخرجت وهي تضع علبة كبيرة خلف ظهرها قائلة بمرح: أغمض عينيك يا بطل. انصاع اخيلا للأمر، وأغمض عينيه ثم فتحها عندما مدت حكمت العلبة أمام وجهه قائلة: افتح عينيك.

وبالفعل فتحها ببطء، ولكن اتسعت حدقتاه بدهشة، وهو يرى كُبر تلك العلبة، وقد وضعها على ساقيه بسرعة، وقد أخذ في فتحها، ثم شهق ببهجة وصرخ بمرح، وهو يمسك بصنارة الصيد والأدوات الخاصة بالصيد، ثم صاح بمرح، وهو يتفحص الأغراض قائلاً: شكرًا... كما تمنيتها بالضبط شكرًا لكم.

أقبلن عليه المرأتين وعانقته حكمة؛ ومن ثم خديجة التي جلست على الكرسي جواره، وربتت على كتفه بهدوء قائلة: كل عام وأنت بخير يا طارق خالد محمد!

اتسعت حدقتا طارق بدهشة، وهو يبدل الأنظار بين والدته، وحكمت غير مصدق لما قالته أمه الآن وكأنه في حلم، لقد نعتته باسم من هؤلاء الهمج البربر المتوحشين الذين سلبوا بلاده من أجداده قرابة الثماني مئة عام، وأجبروا أهلها على اعتناق دينهم، وقتلوا ملوكهم، وكل عام في الثاني من يناير يحتفل أهل إسبانيا بذكرى طرد هؤلاء الوحوش السفاحين من البلاد وعودتها إليهم مجددا وكم الخذلان والخزي الذي أحاط بهم بعد خروجهم من إسبانيا وعليه أن يسكت عن ما قيل هذا أمرا دُبر بليل ولا سكوت عنه أبدا!

ترك اخيلا الصندوق على الأرض، والتفت إلى خديجة قائلاً بدهشة وحدقتاه متسعتين على قدر استطاعته: أمي ماذا تقولين؟ أنا أخيلا لست طارق ذاك إذا علمت الكنيسة بما قلتيه فسيغضبون عليكى.

سحبت خديجة نفساً عميقاً، ثم زفرته بهدوء قائلة _وقد تذكرت كم كانت حكمة عنيدة مثله الآن عندما علمت، وقد اتخذت نفس أسلوب الهدوء لا الهجوم، حتى لا ينفر منها _: ابني طارق لقد بلغت الرابعة عشر من عمرك، وفي قانون بلادنا يحق لنا ترك إسبانيا والسفر خارجها عند ذلك السن، أنت مسلم يا طارق وأباك مسلم وأنا خديجة مسلمة، وحكمت أختك مسلمة... جديك مسلمان، عائلتنا كلها مسلمة.

قفز طارق من فوق الكرسي مثل الفرقة لوز، ونظر إلى حكمت قائلاً بدهشة وهو لا يصدق ما يحدث من حولها وما يسمعه، وقد تشوش عقله: جوليانا قولي شيئًا ما الذي تقوله أمي؟

أرجعت جوليانا شعره متمردة خلف أذنها قائلة بهدوء هي الأخرى لتسيطر على الموقف: أخي أمي تقول الحقيقة، تذكّر عندما أخبرتك وأنا مريضة أن عند بلوغك الرابعة عشر ستكون رجلاً صلبًا بحق، حياتنا كانت كذبه حتى لا نموت، وتلك الحقيقة نحن مسلمون يا طارق، ولكن بسبب سياسة بلادنا التي لا تسمح إلا بالكثلكه قد أجبرنا على إخفاء إسلامنا حتى لا نموت، الأمر غريب وقاسى، لكن تلك الحقيقة يا أخي، ألم تتساءل لما أمي تبكي عندما تذهب للكنيسة لأنك مسلم، وماذا نفعل في السرداب نصلي لله ونعبده، نحن لسنا كما تعلمت طوال عمرك نحن مظلمون، نحن لسنا وحوشًا يا أخي. ثم اقتربت منه حتى تمسك يده، لكنه اندفع من مكانه ناحية غرفته، وقد تلألأت عيناه بالدموع قائلاً بضياع وتشتت، وقد تثاقل عليه التفكير، وبدأ يصدق القليل من كلامها: اتركوني وحدي دعوني وشأني ابتعدوا.

ثم فر إلى غرفته بسرعة، وأغلق الباب بقوة مصدرًا صوت ارتطام عال وقوى أصم آذان الجميع، وقد أغلقت حكمت عينيها بقوة، وزفرت خديجة بضيق، ووضعت يدها على جبهتها تفركها بإرهاق قائله: اتركيه يا حكمت مع مرور الوقت سيقتنع، أنتِ كنتِ مثله لم

تقتنعى بسهولة، وأنا أيضًا كذلك لقد مر من عمره الكثير وهو مخدوع في حياة معينة مستحيل أن يصدق تلك الحقيقة بسهولة، ولكن سيقتنع إن شاء الله.

هزت حكمت رأسها بالموافقة، واتجهت إلى الطاولة تلملم الأطباق قائلة بإرهاق وحزن على إفساد فرحة ذلك الصغير بأدوات الصيد الذي تمناها كثيراً: إن شاء الله يا أمي إن شاء الله.

آه! اترك يدي على رسلك أنا لن أهرب، هل أنا " ----------
خروف أمامك؟ لا تجرني!" كان هذا صياحاً أقرب إلى مشاجرة وصراخ خرج من فم كاترينا التي كانت عائدة من أحد مراكز الشرطة في المساء بعد أن تأكدت أن ابنها قد غرق في نوم عميق، ولن يفيق من إرهاق اليوم في العمل والدراسة في الكنيسة، فمن سابع المستحيلات أن يشعر بخروجها أو دخولها من وإلى البيت.

ولكن ماذا عسيًا أن أقول سوى أن سوء عملها وقبح فعلها قد بدأ يجذبها ويجرها ببطء إلى بناء أول الألواح الخشبية في نعشها، وباتت نهاية الواشي والظالم قريبة، قد يظن البعض أنني أهوى أو أنطق بما لا يعقل أو يصدق، لكن صدقوني كلما ضاق المخرج، وتعقدت الأمور، وشعرنا أن الهلاك قادم لا محالة فاجأنا ربنا ورب محمد وعيسى وموسى _صلوات الله عليهم وسلامه _ بفرج غير متوقع وكأنه المطر المنتظر بعد جفاف ومجاعة واقعة لا محالة.

ظلت كاترينا تصيح وتقاوم ذلك الرجل قوي البنية الذي كان يجذبها من ذراعها بقوة وعنوة إلى تلك العربة الخشبية التي تصرخ بالثراء والبزغ سواء من تصميمها أو فقط زي قائدها اللامع أو لجام الفرس المُرصع بالأحجار الكريمة، وقد رممت مرات عديدة لتتساءل في داخلها لو هذا المظهر الخارجي، فما بلكم بصاحب العربة؟

وبالفعل لم يستمر تساؤلها، ولم تدُم حيرتها طويلاً عندما أجبرها ذلك الرجل قوي البنية ضخم الجثة على الصعود إلى العربة، وقد ركبت بالفعل، ولم تكف عن الثرثرة والوعيد الذي لن تحقق منه شيئًا.

جلست على المقدم المُقابل لصاحب العربة الذي كانت رأسه مختفية في الظل سقف العربة، وكان يرتدي زياً جلدياً باللون البني الفاخر وحذائه ذو الجوارب الطويلة، وقد تحدث بهدوء ورزانة، وهو ينظر في ساعته الذهبية قائلاً: لماذا كل تلك الضجة يا كاترينا الناس نيام؟

صاحت في حنق، وهي تُشير إلى ذلك الرجل الذي كان يسحبها عنوةً قائلة بصوتها الحاد المؤلم للأذن: هذا الرجل أنظر يجرني خلفه مثل الخروف، ولا يخبرني إلى أين سنذهب حتى، وأحدثه ولا يرد على ما هذا بحق يسوع؟!

ابتسم ذلك الرجل صاحب العربة قائلاً بهدوء من بينه تلاعب بالحديث وخبث وسخرية: اعذريني سوف أعين حراساً يعرفون كيف يتعاملون مع النساء جيدًا... ثم ضرب بعكازه الخشبي _وغرضه الزينة لا التعكز عليه _بخفة على الأرض قائلاً: لقد سمعت الكثير عنكِ يا كاترينا وكم أنكِ امرأة مخلصة للدولة وللكنيسة وليسوع الرب؛ ولهذا أنا اخترتك وأريد منكِ خدمة صغيرة.

ثم أشار إلى الحارس بأصابعه بمعنى اقترب أو هات ذلك الشيء، وقد أخرج ذلك الحارس كيساً جلدياً مليء بالذهب، وقذفه إلى كاترينا التي التقطته بسرعة وفتحته، وقد سال لعابها، ولمع مع لمعان الذهب على ضوء القمر قائلة، وهي تغلق الكيس، وتخبئه في صدرها بدونية ووضاعة: أنا تحت أمرك، ما الأمر؟

ابتسم ابتسامة جانبية خبيثة تنم على مكنون الشر والحقد داخله قائلاً: فضيحة، أريد فضيحة، جوليانا ابنة أندرو الحداد وإليزابيث أريد منكِ أن تجعليها لا تخرج من بيتها اجعلي سمعتها أسوء من ممسحة الغائط ولكِ أن تحقق الأمر ضعف ما معكِ، ماذا قلتي؟

حكت كاترينا، وجنتها بتفكير، وقد جاءتها فرصتها لتقضي على أسطورة إليزابيث الأمينة وابنتها على طبق من ذهب لتهز رأسها بالموافقة، وعلى شفتيها ابتسامة قذرة قائلة: اعتبر أن جوليانا قد دُفنت حية، ولكن اعذرني من أنت يا سيدي؟

أخرج ذلك الرجل رأسه من ظل العربة أخيرًا، وقد ظهر وجهه لينظر إليها بعينيه الخبيثة والمخيفة قائلاً بنبرة غريبة وهادئة تصيب بالرعب: السيد بلايو!

الفصل السادس عشر

كانت عينا حنا الزرقاء أشبه ما يكون لزُرقة العمل عافاكم الله من صدمته، ومن هول شدة وصعوبة المشهد أمام عينيه وهو يرى بركة دماء كبيرة انتشرت في الأرض مثل النار في الهشيم، ولطخت جدران المدخل بغزارة وفوق هذا هناك بعض الأشلاء الآدمية من جثث المغدورين تناثرت في المكان، وقد كان مدخل المركز أقرب للمجزرة من ساحة الحرب والنزال.

اقترب حنا ببطء وخوف وتوجس، وقد أخذ يرتل الأدعية، وينذر النذور حتى يكون ما يفكر به خاطئًا، ولم يحدث أو لعله الآن في كابوس سيئ وبشع سيستفيق منه الآن ما أن يحدث شيء خارج عن توقعه، لكنه لم يستفق ولم يحدث شيء، بل صدق حدثه وأصبح كابوسه حقيقة وأمر واقع ونافذ.

كانت الجثث لثلاثة عساكر وإدواردو صديق عمره، وتؤمه الأول الذي منذ أن تعرف عليه في أثناء الخدمة العسكرية لم يفترق عنه ولا عن ديغو أيضًا، لكن إدواردو مختلف، فلم يكن صديقًا وحسب، بل كان الأخ الأصغر الذي لم تُنجبه أمه، كان قطعة منه ارتبطت برباط طاهر وصاف يخلون من الحقد أو البغضاء أو الكره، وكأن الله قد قذف في قلوب بعضهم البعض الأخوة والتراحم.

جلس حنا على ركبتيه، ونظر حوله بدهشة وكأنه في حلم، ويحتاج إلى إثبات ذلك، لكن ديغو الذي كان مصاباً في جبهته، ويجلس في زاوية المدخل يبكي وينتحب بقوة مثل الأطفال على فقدان صديقه أكد أن كل هذا لم يكن حلماً، بل الحقيقة الكاملة بعينيها.

بأيدي مرتعشة أمسك حنا قميص إدواردو الملطخ بالدماء، وقد فقد ذراعه بسبب قربه من القنابل الشديد، وتحسس وجه صديقه ودموعه الأبية قد نزلت أخيرًا ما أن لامس قميص صديقه، وقد تذكّر يوم زفاف إدواردو، وكم كان خائفًا من خوض تلك المغامرة الجديدة، وأخذ حنا يمثل أمامه دور الرجل، وديغو دور الأنثى ليعرف ماذا سيفعل والآن قد رحل أطيب قلب بينهم، وهنا قد أفاق حنا من صدمته لتخرج معها صرخة عالية هزت أرجاء المركز والحي صارخًا باسم إدواردو، وقد أخذه إلى أحضانه وهو يودعه قائلاً بألم: أخي! لماذا يا أخي؟ لماذا فعلت هذا؟ لماذا لم تصمد أخبرني؟! آه! يا أخي، ما زال العمر أمامك لماذا رحلت لماذا؟ من سيمرح معي، ومن سيربى أطفالك؟! آه!

صرخ بقوة وألم، وقد انتفض من مكانه واثبًا مثل الأسد الجائع بين قطيعه ناحية فريسته، ولكنه الآن ذاهب إلى ناحية جنود الكنيسة بغضب، وقد أمسك أحدهم من تلابيب قميصه، وظل يسدد له اللكمات بقوة ووحشية، وينعتهم بأبشع الألفاظ، ولم يثنه عن هذا إلا بعض الضباط والعساكر الذين أبعدوه عن الجنود بتعقل بحجة أنهم سيموتون ويجب التحقيق معهم أولا، صرخ حنا بالعساكر الممسكين بجنود الكنيسة قائلاً بغضب ودموعه لم تجف: هؤلاء الكلاب يبدأ التحقيق معهم فورًا، وبعد أن يدفن زميلكم يحالون إلى المحكمة وإياكم أن يهربوا، وأحضروا طبيباً للمصابين، وأخبروا أهالي المصابين والضحايا.

" كإنسان تعزيه أمه هكذا أعزيكم أنا. إن عشنا فالعرب نعيش، وإن متنا فاللرب نموت فإن عشنا، وإن متنا فالحرب نحن. الذين يعزينا في كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزي الذي هم في كل صفقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الرب" هكذا ألقى أحد أقرباء ادواردوا العزاء في الكنيسة في أثناء مراسم القداس الخاص به.

وهناك في بدلته الكلاسيكيّة السوداء، وعلى رأسه قبعة مستديرة سوداء كان يجلس حنا في الصف الأول بين مقاعد الكنيسة يتلقى العزاء من أصدقائه، ويستمع إلى تعازي البابا وأقوال بعض أفراد عائلة إدواردو عن أخلاقه وصفاته الجيدة وأعماله الصالحة، بينما إلى جواره زوجته وطفلاه الصغيران الذين تركهما للعالم والحياة هكذا من دون حماية، أو ظهر أو سند لهما، ولم تكف ابنته الكبرى ذات الأربع سنوات عن البكاء، وبالرغم من صلابة زوجته والتخفيف عن طفليها، إلا أنها بين اللحظة والأخرى تفر من عينيها دمعة، وتقبض على قلبها بألم كلما صعد أحدهم على منصة الكنيسة، وأخذ يعدد محاسن إدواردو وأعماله الصالحة والبابا يدعوان له وللضحايا الآخرين بالغفران، وأن يسكنوا الملكوت ويجاوروا الأخيار.

لكن هنا كان في عالم آخر حتى لم يستطع أن يقف ويتكلم، وعن من سيتكلم؟ سيتكلم عن قطعة منه وصديق عمره الوفي الذي لم يغدر به، أو يخن عهده، أو يكسر بقلبه أبدًا فكيف يتكلم عنه؟!

وإلى جواره من الناحية الأخرى ديغو الذي لم يكن أقل من حنا حالاً ولا حزنًا، بل كلما صعد أحدهم على منصة الكنيسة، وأخذ يعدد محاسن إدواردو، وتذكّر آخر ليلة سهر لهم سويًا عندما ذهبوا إلى إحدى المناطق غير المأهولة بالسكان عند النهر بعد أن أنهوا سهرتهم في إحدى الحانات، وقد أسرفوا في الشرب احتفالًا بحنا الذي انفكت عقدة لسنه، وأخبر إليزابيث عن حبه لجوليانا، وطلب يدها للزواج، وكم كان مرحًا، وأخذ ينصح حنا بأن يكون رومانسياً، ويتصرف برومانسية وحنان مع زوجته المستقبلية، حتى لا تنفر منه، وتكون طوع أمره، ولكن تلك الحياة تأخذ منا الطيبين دائما، وليس بيدنا سوى الانتظار حتى يوم المحشر واللقاء.

انتهت مراسم العزاء والجنازة ليحي موعد الدفن والرحيل ليقف ديغو وحنا، وينظران إلى بعض بلا حياة، ويتجهان إلى التابوت الخشبي من خشب الأبانوس المحفور عليه صليب كبير بطوله ومُضائه شمعه يسر بها أحد القساوسة من الأمام، حتى وضع التابوت في عربة لنقله إلى المقابر، ومن خلفه زوجته وطفليه وعائلته وأصدقاؤه تودعه الوداع الأخير حتى اللقاء يوم الحساب وطوال الطريق كان القس يقرأ بعض الآيات من الإنجيل، حتى وصلوا إلى المقابر الكاثوليكية، ونزل التابوت وبدأ حنا يرمى عليه التراب، ومن بعده ديغو وبعض أقرباء ادواردوا بالتناوب حتى انتهى الأمر، وسجى إلى مثواه الأخير.

وقد جلست زوجته وطفليه على طرف المقبرة المرتفعة، وأخذت تدعون له بالرحمة والغفران وطفليه يبكيان ليقترب منهم حنا تاركًا ديغو خلفه، ويقف أمام زوجته قائلاً بجمود ونبرة صوت تخلوا من أي معالم الحياة: من اليوم أنتِ وأبنائك أمانة إدواردو في رقبتي إلى يوم وفاتي لا تترددي في طلب أي شيء يخصك أو يخص الصغيرين، إدواردو كان يحبك حقًا.

لم تجبه المرأة، بل وضعت المنديل عن أنفها، وأخفضت رأسها المزينة بالقبعة السوداء ذات القماش الدانتيل، وأخذت تتشنج وتبكي بلا هوادة أو إرادة منها، وقد كور حنا قبضته بألم، ونظر إلى السماء، وهو يقمع تلك الدموع من النزول الآن وعليه أن يكون مصدر قوة لولدي صديقه وزوجته.

ثم مسح عينه بأصابعه الملطخة بالتراب بإهمال، وهي ينظر إلى بلايو الذي قد جاء ومعه شخص ما تبدو عليه علامات الثراء والأهمية في الدولة، وقد كانا يقفان مع ديغو يتحدثون معه ليقترب منهم عندما أشار إليه باليو.

وقف بينهم حنا الذي كان يتطاير شعره بإهمال بفعل الهواء و_ لا ننسى حالته المزرية هو وديغو وبلابسهم ملطخة بالتراب وأيديهم _ ابتسم بلايو بفتور، وأسف قائلاً بحزن على حزن أخيه: تعازي الحارة لك.

هز حنا رأسه باقتضاب، دون أن يتحدث ليتابع بلايو، وهو يشير إلى ذلك الرجل قائلاً بهدوء: هذا السيد أغسطس ضابط محكمة تفتيش مدريد يريد التحدث معك على حدة.

بعيني حنا الزرقاء الضيقة؛ بسبب أشعة الشمس والأتربة المتطايرة نظر إلى بلايو بشك، ثم نظر إلى ديغو الذي طأطأ رأسه للأسفل بأسف وخجل، ثم التفت إلى ذلك الرجل الذي مد يده ليصافحه، وقد بادله حنا التحية بفتور، وسار معه عدة خطوات حتى ابتعد عن مجال سمع بلايو وديغو في منطقة ما يتكلّم ذلك أغسطس قائلاً بعملية ومراوغة: أنت لا تعرف كم حزنت على هذا الخبر المؤسف، ولكن تلك هي الحياة تأخذ الأخيار دائمًا، والبابا أيضًا غاضب بشدة لما حدث وحزين على ضياع خيرة شباب بلادنا غدرًا، لكنه وبعثنا برسالة لك.

رفع حنا أحد حاجبيه، ونظر إلى أغسطس بشك وكأن نظرته تقول أيها الكاذب، لكنه فضل الصمت ليعرف نهاية تلك المسرحية ركيكة التمثيل تلك، ليُمسك ذلك أغسطس كتفاً حنا، ويربت عليه بهدوء قائلاً: البابا يطلب منك إطلاق سراح الجنود، وهو يتعهد لك بأنه بنفسه من سيحاسبهم على فعلتهم تلك، واعذرني لكني كنت أمرت باعتقال أو قصف من يشكون فيه أنه من الفرنسين وللأسف أخطؤوا، ولكن إذا رفضت أنت هكذا تضر بمصلحة البلاد، وتهز صورة الكنيسة أمام الشعب والفرنسين وأنت ضابط مخلص لا تقبل هذا.

نفض حنا يد أغسطس عن كتفه، وكانت عيناه القاتمة أبلغ من أي حدود، أو من رد فعل، لكنه الآن فقط أدرك أنه يعادي الدولة والكنيسة، ومهما حاول ففي النهاية لا خاسر سواه.

ذهب حنا إلى ديغو قائلاً بتهكم وضيق، وهو ينظر إلى أخيه بازدراء: نفذ ما جاء إليه حضرة الضابط أغسطس، وسلمه الجنود بنفسك.

ثم رحل وهرب وأسرع في خطواته، وقد شعر أن الأرض تضيق عليه بقوة من كل ناحية، ومن كل جانب، وقد أخذ يخلع رباطة عنقه بضيق ويلقها أرضا، وهو يركب فرسه متجاهلاً مناداة أخيه له، وكان صوته ذو حياء ومروة عنه، ويرفض الخروج بعد ضعفه وتنكيس

العهد بينه وبين إدواردو على أن يرجع إليه بحقه، وقد ركل الفرس في أسفل معدته بقوة، وهو يفر من المكان بسرعة أقرب لسرعة الريح من حوله وهو حق لا يعرف إلى أين يذهب؟ وماذا سيفعل؟

خالة جوليانا أين أخيلا ألن يأتي للعب معنا اليوم؟" صاح بتلك الكلمات هيكتور صديق أخيلا المقرب الذي قد أوحشه وافتقده بسبب غيابه " عن اللعب أو الذهاب للكنيسة قرابة الأسبوع وهو متقوقع في البيت، حتى لا يذهب ليرمي القمامة، بل جالس في غرفته لا يتحدث إلى أحد .وعيناه زائغة في الفراغ بلا كلل أو ملل

فتحت جوليانا النافذة المطلة على الشارع الرئيسي، وجلست بركبتيها على الأريكة الملتصقة بالجدار الذي يحوي النافذة، ووضعت إشارب أسود على رأسها، حتى تخفي شعرها، ثم نظرت إلى هيكتور الذي قد دفع ذلك الباب الصغير، ودخل إلى حديقة المنزل الصغيرة .قائلة: لا يا هيكتور أخيلا ما يزال متعبًا، وأمي لا تريده أن يخرج حتى لا ينشر العدوة

ضم هيكتور شفتيه بضيق وحزن على حال صديقه، وهز رأسه على مضد قائلاً بحزن: حسنًا خالة جوليانا فقط الأب أنطونيوس قد سأل .عنه؛ لأنه تغيب عن درس الأمس، وأنا أخبرته أنه مريض، لكن عليه المداومة الأسبوع المقبل

.هزت جوليانا رأسها بالموافقة قائلة بهدوء: بالطبع سيكون تحسناً بمشيئة الرب فقط ادعى له

هز هيكتور رأسه بالموافقة، ولوح لها بيده قبل أن يرحل وهو يرى أن بقية أصدقائه قد تجمعوا في الشارع يتجهزون للعب، وقد شرعوا .في إحداث ضجة حتى لا يمر الوقت المخصص للعب دون اللعب

أغلقت جوليانا النافذة، ونزعت ذلك الإشارة، ووضعته على أحد المقاعد بإهمال، ثم نظرت إلى والدتها التي كانت تمسك بمصفاة نحاسية وبعض حبات الفاصوليا، وتقسمها وتنتقى الطازج منها قائلة بهدوء: اخيلا لا يريد التحدث بعد؟

توقفت والدتها لبرهة، وزفرت الهواء من رئتيها بضيق قائلة، وهي تهز رأسها بأسف: نعم، وقد حاولت منذ قليل التحدث معه لكنه رفض، ثم تابعت بأمل ورجاء قائلة بنبرة معينة، حتى تستميل عطف حكمت: ابنتي ادخلي تحدثي معه هو يستمع اليكى دائمًا، ويحب الحديث معك .تكلمي معه لعله يرتاح ويهدأ قليلاً

قضمت حكمت شفتيها بتفكير، ثم هزت رأسها بالموافقة، ثم حملت البطة التي كانت تشرب من طبق المياه في إحدى زوايا أرض الصالون قائلة بمرح وكأنها تتحدث إلى شخص عاقل: أنا والآنسة بطة سنتحدث مع طارق قليلاً، أليس كذلك أنت بطة؟

أصدرت البطة صوتاً بطبطة وكأنها توافق على ما قالته حكمت لتضحك خديجة، وتهز رأسها بيأس، وتزفر بضيق وتتنهد بأسى والآن كان همها فقط حزن طارق صار الآن همها زواج حكمت من حنا، والذي يجب ألا يتم بجميع الأحوال وبأي طريقة كانت، حتى لو اضطرت لقطع قدمي حكمت حتى تمنعها عن حنا، ولكن السؤال لماذا دائمًا عندما يُلاحق شاب فتاة نضع اللوم على الفتاة، وتتحمل الذنب !والشاب بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب؟

دخلت حكمت غرفة طارق بعد أن طرقت مرات عديدة على الباب وكالعادة منذ أن دخل في حالة الكمد والعزلة تلك وهو لا يجيب عن أي أحد، أو يستمع إلى أحد فقط وحده مع نفسه المصدومة والمتألمة من كذب أهله عليه وإخفاء أمر كهذا عليه طوال عمره المنقضي، .ونعته باسم هؤلاء الهمج البربر مغتصبوا البلاد كما تعلم وعرف طوال عمره

نظر طارق إلى حكمه نظرة جانبية بلا أي اهتمام ليعرف من دخل، ثم تقلب على جهته الأخرى على السرير ليعطى حكمت ظهره كإجابة من قبل أن تتكلم تقول لها اغربي عن وجهي، لكن حكمة لم تهتم بردة فعله التي اعتادتها منذ أن عرف الحقيقة، وجلست على سرير جانبه .وهو يوليها ظهره لتضع البطة على السرير قائلة بمرح: لقد جئت أنا والآنسة بطة لزيارة هذا الكهف الغريب، ونتعرف على رجل الكهف

لم يلتفت لها أخيلا، ولم يهتم ولكنها لم تستسلم أبدًا أن تخسر المعركة لتتابع قائلة بهدوء وعقلانية: أنا أعرف أن الأمر ليس سهلاً عليك، وأن تصحوا على شيء، وتنام على الآخر شيئاً صادماً وصعباً، لكن ضع نفسك مكان أمي، وأنظر إلى ما فيه البلاد من توتر وانقسام وقل لي ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاننا يا طارق؟

انتفض طارق من مكانه بقوة كمن لدغه عقرب، والتفت ينظر إلى حكمت قائلاً بغضب، وقد انحلت عقدة لسانه أخيرًا، وأخرج كل ذلك الكمد والغضب الذي في صدره: أنا اخيلا أندرو أغسطس لست ذلك طارق افهمي، أنتم الكاذبون والمخادعون، اخترتم دين هؤلاء الهمج والوحوش، وتريدون إلصاق الأمر بي يكفي كذبًا إلى هنا لقد سئمت.

بللت حكمت شفتيها، وزفرت الهواء من رئتيها بهدوء قائلة: اسمعني يا أخي جيدًا، ثم قرر وأحكم بما تشاء. منذ ألف ومئة عام حكم لذريق بلادنا عنوة بعد أن مات الملك جيشا، وهدد ولاة العرش بالقتل، ومن بعد ذلك هربوا إلى حاكم سبتة يوليان كان يحب الملك جيشا، وكان عادلًا وعاقلًا، فاستقبل أبناء جيتشا عنده، وكان طارق بن زياد يحاصر سبتة حتى يستسلم يوليان، وتصبح تحت الحكم الإسلامي، لكن طارق بن زياد تراجع عن خطته فجأة، وعاد إلى طنجة في المغرب، وفي تلك الأثناء كانت فلوريندا الجميلة ابنة يوليان تتعلم في قصر لوذريق، ولكنه اغتصبها واعتدى عليها، وعندما بلغ يوليان ذلك قرر التحالف مع طارق بن زياد لسلب الحكم من يد لوذريق والأخذ بثائره لشرفه، لكن طارق كان يريد أن يرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله في أوروبا، وينير سماء العالم بنور الإسلام، فوافق وأخذ موافقة حاكم القيروان القائد موسى بن نصير وموافقة الخليفة الأموي الوليد ابن عبدالملك في دمشق، وساعده يوليان بالأسلحة والسفن ليعبروا المضيق إلى إسبانيا والبرتغال وحدثت معركة، وادي لكة وانتصر المسلمون المجاهدون بسبعة آلاف مقاتل في السابع والعشرين من رمضان على جيش لذريق الذي كان قوامه مئة ألف مقاتل وفتحت الأندلس، ودخلت في عهد وذمة المسلمين، وقد أمن المسيحيون واليهود أبناء إسبانيا الأصلين الخليفة الأول عبدالعزيز بن موسى بن نصير على دينهم ومعابدهم، وأموالهم وبيوتهم وتجارتهم، وقد صدق وعده، وعشا المسلمين سواء من أسلموا من أهل البلاد، أو من النازحين من أنحاء العالم الإسلامي إلى الأندلس مع اليهود والمسيحيين في سلام، لكن هناك كان الحاكم بلايو كان خبيثًا، وكارهًا للمسلمين ودينهم؛ لأنهم دخلوا بلاده عنوة، لكنه كان على يقين أنه زمن المسلمين الآن، وقرر الهرب مع بعض الشباب والأطفال زرع في قلوبهم كره المسلمون جيلاً بعد جيل، وقد حارهم الخليفة، وتبقى منهم ثلاثون نفراً احتموا في صخرة بلايو، وقد رائف واستهان بهم المسلمون، وكانت تلك الكارثة، فتكاثر هؤلاء تلاميذ باليو، وتكاثر معهم كره المسلمون وحقدهم، حتى ضعف المسلمون، وتفككوا وحادوا عن طريق الله، وسقطت الأندلس بعد حكم إسلامي ثماني مئة عام، وبالرغم من العهود التي قطعها أبو عبدالله الصغير مع فرناندوا، وأزال ملكة قشتالة على حماية المسلمين وعدم المساس بهم، إلا أنهم نقضوا العهد، وأنشئوا محاكم التفتيش التي قتلت الآلاف من المسلمين واليهود، وهجروهم خارج إسبانيا، وقطعوا رؤوسهم من يفعل ذلك يأخذ مكافأة، وسلبوا أموالهم وأجبروهم على التنصير، ومن يرفض جزاءه الموت، وقد هرب من هرب إلى المغرب والجزائر، وإسطنبول واستنجدوا بالأزهر في مصر والسلطان قايتباي، وقد أفتى لهم الأزهر بتنصير خارجين، واعتناق الإسلام في السر؛ وهكذا حافظ أجدادنا على الإسلام حيًا حتى يومنا هذا قُل لي الآن هل ما زلنا بربر وهمج الآن؟

جلس طارق أمام حكمت متربعًا، وقد استند بمرفقه على ركبتيه واضعًا رأسه بين كفيه وهو ينظر إلى حكمت بضياع، وقد بدأت تلك السحابة السوداء تتقشع عن عينيه خطوة خطوة، وقد شعر بشيء غريب في قلبه استيقظ لا يستطيع تفسيره سوى أنه كان أحمق، وبدأ يقتنع بالحقيقة، لكن بعض الشكوك تراوده.

على حالته تلك ووضعه تسأل بشك قائلاً: ويسوع المسيح ومريم العذراء وأصدقائي كيف نتخلى عنهم.

هزت حكمت رأسها بالنفي سريعًا قائلة: على العكس نحن نؤمن بهم كما نؤمن بنبينا محمد، السيدة مريم العذراء عليها السلام قد ذكر الله اسمها في القرآن الوحيدة دونًا عن نساء العالمين، حتى لم يذكر الله اسم زوجات نبينا محمد أو بناته، ونبينا عيسى قال الله فيه هو روحًا منه، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، وقال نبينا محمد أنا أولى بعيسى أخي من قومه، كيف نكره الطاهرة مريم عليها السلام وروح الله عيسى -عليه السلام- نحن؟ وأصدقاؤك المسيحيون أهل كتاب وذمة، وقد وصانا نبينا على أهل الكتاب يهود ونصارى، وكانت زوجة نبينا محمد ماريا القبطية مسيحية مصرية، وأسلمت فيما بعد، على العكس في الكثير من البلاد المسلمين والمسيحين أخوة يحبون بعضاً كما في مصر وبلاد الشام والمغرب وغيره كلهم يعيشون في حب وسلام فقط المشكلة في بلادنا نحن فقط.

نظر إليها طارق بشك قائلاً: إن صدقتك سأموت؟

هزت رأسها بالنفي سريعًا قائلة، وهي تكور وجهه بين يديها حتى ينظر إلى عينيها الصادقة: إن شاء الله لن يمسك سوء فقط لا تخبر أحدًا، ولا تتكلم مع أحد أنت أمام الجميع اخيلا أندرو أغسطس الكاثوليكي، وفي البيت طارق خالد محمد اتفقنا يا بطل؟

.حك طارق رأسه بتفكير لمدة، ثم هز رأسه بالموافقة قائلاً: اتفقنا يا حكمت

ابتسمت حكمت ببهجة وعانقه طارق الذي بادلها العناق بصدق لتربت على ظهره قائلة بمرح: هيا بدل ملابسك سنخرج للصيد عند النهر .وأنا سوف أقنع أمي، هيا يا طارق

كانت حكمة تسير إلى جانب طارق الذي قد بدأ يتحسن بعض الشيء، ويكسر حالته النفسية السوداوية تلك، ويخرج منها خطوة خطوة بهدوء وببطء، وقد كان اقتراح حكمت صائبًا وفعالًا، وقد كانوا يسيرون في الطريق، وطارق يتساءل عن أسماء بعض النباتات والأزهار وفوائدها، وقد كانت ترد عليه حكمت بصدر رحب وبلا ملل، أو سام على العكس كانت سعيدة للغاية برجوع روح أخيه المتفاعلة وحيويته .في الحياة مجددا

انظري ما رأيك أن نجلس...." كان هذا صياح طارق الذي أشار إلى هذا الموقع النائي عند النهر وأسفل أشجار الزيتون_ التي أدخلها " المسلمون إلى الأندلس، وقد كانت وما زالت زراعة الزيتون في الأندلس مصدراً اقتصادياً كبيراً _تحت ظله العليل، لكن توقف طارق عن الحديث، وابتلع كلماته بقلق ودهشة، وهو ينظر إلى حنا الذي قطع عليهم الطريق، وخرج من حيث لا يحتسبوا، وقد كانت هيئته .أقرب إلى هيئة المتشردين وقطاع الطرق

نظرت حكمت إلى طارق بتوتر ودهشة، وقد زاد توترها عندما اقترب حنا بهيئة الأشباح تلك، ووقف أمامها قائلاً بضيق وحزن وألم: .أريد أن أتحدث معك، وارتاح وأينما ستذهبين سأذهب، لكن لا ترفضيني أرجوكِ لا أحد لي غيرك الآن يا جوليانا

الفصل السابع عشر

نظرت حكمت إلى طارق بتوتر ودهشة، وقد زاد توترها عندما اقترب حنا بهيئة الأشباح تلك، ووقف أمامها قائلاً بضيق وحزن وألم: .أريد أن أتحدث معكِ، وارتاح وأينما ستذهبين سأذهب، لكن لا ترفضيني أرجوكِ لا أحد لي غيرك

نظرت حكمت بتوتر إلى طارق الذي كان يشعر ببعض الخوف والقلق من حالة حنا المزرية تلك التي قد تدفعه لأي جنون أو حماقة تجاه أخته إذا رفضت الخضوع لأمره، وفي الوقت نفسه خائف من أن يراها أحد مع حنا، وتكون فضيحة وضجة لا داعي لها، وقد أدرك منذ .أن عرف الحقيقة الكاملة كم أن أسرته الصغيرة بحاجة ماسة إلى الستر والتخفي بعيدًا عن أعين الناس، وقد أشار عقله في حزم الأمر

لكن حكمه كان لها رأي مغاير لطارق ونظرة أخرى قد تخللها الحب والإشفاق على حال الحبيب، بالرغم من أنها قد فكرت بنفس منطقة طارق، إلا أن قلبها يكاد ينفطر على حال حنا، ويرق له، وقد عاهدته صلبًا رابط الجأش حتى في لحظات مرضه، لكنه لم تعهده خائر القوى ضعيف العزم كالطفل الصغير يتطلع إليها بأمل أن توافق على الحديث معه، وتخفف عنه ذلك الحمل الثقيل المعلق في رقبته .كالأغلال الحديدية تقيض عنقه بشدة

.أغمضت عينيها لثواني معدودة، وسحبت نفسًا عميقًا قبل أن تزفره بقوة، وتهز رأسها بالموافقة وكأن شيئًا ما غير عقلها يدفعها للقبول

.هزت حكمت رأسها بالموافقة قائلة بهدوء وعينيها تأبى أن تلتقي عينيه الميتة: اخيلا ذاهباً للصيد سنجلس أسفل شجرة الزيتون هناك

.أمسك يدها، وسار إلى جوارها بتثاقل وخطى ثقيلة قائلاً بصوت خال من الحياة: أي مكان المهم أنكِ معي

لم ترفض أن يتمسك بها بتلك الطريقة، بالرغم من صراخ ما تبقى من رشدها وعقلها أن تتوقف عن تلك الحماقة، وتدرك حرمة ما تفعله، لكن نفسها الأمارة بالسوء أبت أن تستمع إلى نداء العقل، وتمسكت بيد حنا التي تشبثت بيدها بقوة، واتجهت إلى أسفل تلك الشجرة، وإلى

جانبها طارق الذي كان يكاد ينفجر من الغيظ من أفعال أخته المتهورة، وكل مرة تقول إنه آخر لقاء، وتنقض العهد فور رؤيتها لذلك الأبله حنا.

شرع طارق في الصيد، وألقى صنارته وإلى جواره، لكن على بعد قليل تمسك حنا بيد حكمت بقوة، وشبك أصابعهم سويًا، وأراح رأسه على كتفها بلا تردد أو تفكير، وأغلق عينيه بهدوء وسلام شعر به الآن فقط ورائحتها الذكية تتغلغل إلى قلبه قبل أنفه أما هي، فكان الخجل يلتهمها من كل جانب؛ بسبب فعلته الحمقاء تلك ولم، ولن تكون قريبة من أي رجل في حياتها من قبل بتلك الطريقة السيئة.

زفر أنفاسه بهدوء وكأنه غريق، وصعد إلى الهواء، وما زال مغمض العينين ليتحدث بثقل قائلاً حتى ينزل ذلك الحمل من على صدره: إدواردو صديقي وأخي الصغير مات، منذ أن رحل وأنا أراه في كل مكان لا يفارق عقلي، لم أنم منذ يومين، ثم رفع يده الحرة، ونظر إلى يده قائلاً بألم وعذاب: بيدي تلك ألبسته بدلة زفافه، وبيدي أيضًا سجيته إلى قبره، ثم اخفض يده بإهمال، وقد استسلم لثقلها لترتمي على فخذيه بقوة، ويكمل بخجل من نفسه وشعور كبير بالدونية والجُبن والوضاعة: آه يا جوليانا! وأكثر ما يؤلم قلبي، ويعذبني أنني لم أستطع أن أخذ حقه من قاتله ونظرات عيني أطفاله يوم دفنه كانت كالرصاص اخترقت قلبي بشدة، وكلما نظرت في عينيها لا أجد سوى إدواردو، لماذا رحل باكرًا يا جوليانا لقد كان صغيرًا وصالحًا لم يكن يتغيب عن الصلاة أبدًا، ولم يرتكب خطيئة أبدًا لماذا رحل وأمامه العمر كله؟

ربتت حكمت على يده قائلة بهدوء وإشفاق على حالته المزرية تلك: اهدأ يا سيدي، هذا أمر الرب لا تعترض فقط ادعى له بالغفران والرحمة، أنظر إلى.

رفع رأسه من على كتفها، ثم تابعت قائلة بحكمه: عندما مات أبي كان في الخمسين كان صغيرًا أيضا وبعده بمدة ماتت إحدى صديقاتي، وكان عمرها سبعة عشر عامًا اكتسبت بشدة، وكان كل ما أفكر فيه أن الحياة ظالمة وليست عادلة، لكن عندما تقدم بي العمر اكتشفت أن الدنيا اختبار، ومن ينجح فيه ينتهي عمره لينال جزاءه في الجنة مع الصالحين الخوف ليس عليهم، بل علينا نحن في تلك الدنيا وما فيها من مغريات، أحزن الحزن شيئاً طبيعياً، لكن لا تجعله يعكر حياتك وخذه قدوة في أفعاله الحسنة اتفقنا يا سيدي.

نظر حنا إلى عينيها، وأمسك كفيها بين يديه، وقد نسي ألمه وحزنه بين يديها وفي ثنايا قلبها، وقد أطال النظر وأكثر التمعن حتى همس بهدوء ورزانة قائلاً: قد أقسمت بالرب أن لا أحب امرأة عينيها بُنيه، وها أنا لا أبر بقسمي وأخونة كطعنة بروتس للقيصر.

بللت جوليانا شفتيها الوردية التي اتخذت من وجنتيها إمامًا قائله وعينيها أسيرة عينيه: لماذا سيدا؟

قطب جبينه بعض الشيء، وقد ازداد تعمقًا، وقد غرق في بحر القهوة هذا قائلاً بهدوء، لكن غامضاً وعشق لكن عميقاً: أنتِ لا تعرفين ماذا تفعل الشمس بعينيك... تصنع من قدح القهوة هذا جبلًا من الذهب الساطع الذي يأسر القلوب، ويعمي الأبصار وكأن الرب اختزل في عينيك جمال السموات والأرض يا سكرة!

ما أن انتهى من كلامه حتى انتفضت حكمت التي اشتعلت فيها نيران الخجل، وبات لون وجهها لا يفرق شيئاً عن فستانها الوردي، وقد وقف طارق هو الآخر من دون كلام، وذهب مع أخته بهدوء إلى البيت تاركين ذلك الحنا يبتسم بمرارة، ويهز رأسه يمينًا ويسارًا بسخرية من حالة التي في أوج حزنه وضيقه يتغازل بمحبوبته.

ولكن في أثناء سيرهم في الطريق لاحظ طارق أن سُكان الحي غير طبيعيين اليوم، وينظرون إلى جوليانا ثم يتهامسون فيما بينهم بكتمان وأنظارهم مشحونة بالغضب والكراهية أما عن حكمة فلم تلاحظ شيئاً بسبب عقلها الغائب عن أرض الواقع، وقد عادت حكمت مُحملة بالهموم ومملؤ صدرها على أكمله بالضيق والغم حزنا على حزنه وحزنًا على حالها اليأس البأس وحظها العثر الذي أوقعها في حب رجل مثل حنا، وقد أغضبت ربها بهذا التفكير، ولكن هل كان لها عقل، أو بات لها وجدان يرشدها في أي شيء!

دخلت المنزل هي وطارق، وقد استقبلتهم خديجة ببهجة وابتسامة، وهي ترى طارق قد زال من وجهه سواد الغضب والحزن وسعادته بما اصطاد من أسماك، أما حكمة فقد حيت والدتها، وفرت إلى المطبخ تعد الطعام وهي شبه غائبة عن العالم من حولها، وفي الخارج كانت خديجة تعلم طارق حفظ سورة الفاتحة، وقد كان طارق بنصف عقله؛ لأن النصف الآخر كان يفكر في أنظار الحي إليهم في أثناء رجوعهم من الخارج، وقد أنقذه من تيهه هذا حكمت التي خرجت تحمل الأطباق إلى الطاولة، وبينما تضع الأطباق قد اخترق حجراً في

حجم قبضة اليد زجاج نافذة البيت، واصطدم برأس حكمت التي صرخت بألم، وهي تمسك بموضع الحجر، وقد خرجت الدماء منه بغزارة، وأقبلت عليها خديجة في قلق وصرخت بهلع: حكمت ابنتي، ماذا يحدث؟

ثم أخذت الإيشارب حول عنق حكمت وربطت به رأسها حتى توقف الدماء، لكن في الخارج جذبها صوت سب بشع موجه إلى حكمة وإليها ليخرج طارق في غضب، وقد دفع باب البيت، ومن خلفه خديجة وحكمة.

ليصتدموا بمنظر بعض المتسولين وأهل الحي يصرخون قائلين بغضب وهدير قوى: اخرجوا الخاطئة من حين، تلك العاهرة التي يبيت عندها الرجال، اخرجوا من حين لا نريد أن يغضب علينا الرب بسببكم.

ثم بدأ سيل من الحجارة الصغيرة يقذف في وجوههم، وقد أقبل عليهم فيكتور وماريز وابنها هيكتور وبعض الجيران يحاوطونهم ويحموهم من الحجارة التي هبطت كالمطر ليصرخ فيهم فيكتور بصوته الجهوري العالي بغضب قائلاً: اخرسوا... يا عالم اصمتوا اتقوا الرب وأعطوها فرصة تدافع عن نفسها.

ثم من حيث لا يحتسب فيكتور خرج طارق الذي صرخ بهم وهو يرد عليهم الحجارة بغضب قائلاً: يا كلاب... هذا بيت أندروا الحداد وإليزابيث التي تلبسون من صنع يديها كيف تقولون هذا، أُقسم أني سأقتلكم.

دفعه فيكتور إلى الوراء بصعوبة، وهو يُقصيه عن حماقته تلك ليرجعه داخل دائرة الحماية وبمساعدة بعض الجيران أدخلوهم إلى المنزل، وآمنوا عليهم الباب، ثم أمسك فيكتور إحدى الزجاجات الملقاة أرضًا، وقذفها على الأرض بقوة لتعطي صوت انكسار عالي هز أرجاء الحي ليصيح فيكتور بقوة وهدير غاضب: توقفوا وعودوا إلى رشدكم تلك التي تتهمونها في عفتها الشابة والقابلة جوليانا التي عندما يمرض أحدكم أو أبنائكم يلجئ إليها وكم منكم شُفى على يديها ومن دون، وكم منكم عالجته من دون مال، كيف تتهمونها باتهام بشع حذرنا منه يسوع، وتكررون خطأ بني إسرائيل عندما اتهموا مريم المقدسة في شرفها، نحن نعرف بيتاً أندروا الحداد منذ أن سكن هنا، ولم يخرج من أهل بيته العيب، يكفيكم ما تحملونه من ذنوب وأوزار الآن، وقد افتريتم على فتاة مسكينة لا رجل لها،

!وأقسم أن تعرض لهم أحدًا عليه أن يواجهني قبل أي شيء، انفضوا

بالفعل انفض الجميع المقتنع وغير المقتنع، وعاد كل واحد إلى بيته، وعمله أما كاترينا، فكانت تقف خلف أحد البيوت تتابع الأمر باستمتاع وشماتة غير طبيعية، بالرغم من حديث ابنها، إلا أنه حديث لن يستمع إليه أحد، فقد تلوثت سمعة جوليانا وإلى الأبد.

طرق فيكتور باب بيت خديجة، وقد فتح له هيكتور صديق أخيلا ودخل، وقد كانت ماريز جارة جوليانا ووالدة هيكتور وماريا الصغيرة تقدم جرح جوليانا وتوقف نزيفه، وقد انتهت بالفعل عندما تحدثت خديجة التي كان على وجهها آثار الدموع مثل ابنتها التي كانت تنتحب بالبكاء قائلة بامتنان: شكرًا لك يا بني لولاك لكنا هلكنا اليوم.

هز فيكتور رأسه بالنفي قائلاً بهدوء وأسف: لا تشكريني يا خالتي هذا حقكم علينا، وأنا أعدك أني سأعرف من أشاع هذا الأمر.

ثم نظر إلى جوليانا قائلاً بأسف وخجل: سامحيني يا أختي حقك علي.

هزت حكمت رأسها بالموافقة، وأخذت تمسح دموعها بألم، وقد كانت تقضم شفتيها مانعة نفسها من البكاء مجددا، وقد ربتت ماريز على كتفها قائلة بشفقة وود: عزيزتي جوليانا لا يضايقك ما حدث دائماً الصالح في تلك الدنيا يؤذيه الحاسدون لا تضعفي أمامهم قوتك ستُخرِس كل تلك الألسنة.

لم تقدر على الحديث بشي، وابتلعت دموعها حتى لا تبكي مجددا، وقد أشار عليهم فيكتور بالخروج، وتركها حتى ترتاح، وقد امتثل الجميع للأمر وخرجوا، ولكن خديجة شعرت بالشك مجددا تجاه حكمت، وقد ربطت كلاماً حنا بمعرفته بحكم وكلام الجيران، وقد بدأ الشيطان يعطس في أنفها، ويصور لها أشياء كثيرة خبيثة وسيئة لم تحصل أبدًا.

اقتربت من حكمة التي أخيرًا بكت بحرقة، وقد أخذ طارق يربت على ظهرها بحنان، ويهدئ من روعها، ومن دون مقدمات صفعتها بقوة، ثم قبضت على ذراعها قائلة بحدة: منذ أن عدت وتصرفاتك غريبة، وذلك الخنزير حنا تجرأ وطلب يدك وحديث الجيران، أنا أشك فيك يا قذرة.

!حاولت حكمت الدفاع عن نفسها قائلة من بين شهقاتها: ا. أمي. أقسم بالله العظيم... أن... إنهم يكذبون... أنا... آه

صرخت بألم مجددا عندما صفعتها ثم قبضت على شعرها تجرها أمامها إلى المخزن، وقد ألقتها بداخله، وأغلقت الباب قائلة بحدة: لن .ترى الشمس مجددا إلا عندما تتحدثين وتقولي ما الذي يحدث وإلا سوف أرسلك إلى خالك في غرناطة وعندها ستنحل عقدة لسانك

.ثم نظرت إلى طارق قائله بتهديد ووعيد: أقسم بالله أن اقتربت منها، أو حاولت الحديث معها سأقتلها وأنا لا أمزح في هذا الأمر

في منتصف إحدى الليالي لم ينم طارق بعد، وقد شغلت أخته المسكينة تفكيره، ولم تغب عن باله للحظة طوال اليوم أو اليوم المنقضي، وقد حاول طوال اليوم أن يدخل لها، لكن أمه تمنعه، وقد علقت مفتاح المخزن القابعة فيه حكمت بعقد في صدرها ولا طريقة للتواصل .بينهما

دخل غرفة نوم خديجة، وكان يأمل أن تكون قد نزعت ذلك المفتاح من رقبتها، ولكن ما أن تسلل إليها، ووقف جانبها على ضوء الشمعة المُمسك بها، حتى زفر بيأس عندما وجد أن المفتاح معلق في عنقها، ولم يعد هناك أمل في تخليص حكمت من سجنها سوى ما فكر فيه !الآن، وأقسم على تنفيذه

قد مر يومين أو أكثر لا أدري فالأيام باتت متشابهة مثل قطرات الماء لا فرق بينها أو اختلاف، وبالأخص عند حكمت التي بات طارق بالنسبة إليها هو عيناها للعالم الخارجي وأذنيها التي تسمع، وكم كانت محظوظة وأيضًا إن الله تعالى رئف بحالها الرثة تلك، وجعل لها أخًا متفهماً وعطوف مثل طارق يخفف عنها وحشة الوحدة وضيق السجن وقسوة أمها والناس عليها، وقد بدأت الآن ومنذ تلك اللحظة .تدفع ثمن نُبلها وغبائها في وقت واحد

فنُبلها مُتجسد في مساعدتها لحنا يوم أن كان مصاباً لا يقوى على طرد بعوضة مُتطفلة من فوق وجهه وقبولها بمكوثه عندها، أما غباؤها يتهيأ في شكل وقوعها في حب حنا وعدم اعتراضها على حُب حنا إليه ووضع حد لتلك المهزلة التي قد حرمها رب العالمين من سابع سماء من فوق العرش الكريم بقرار مكين، حفاظًا على حق المرأة المسلمة في أبنائها وحقها في الطلاق وغيره من ما أحله الله في الزواج .في الدين الإسلامي

ولكن في الخارج على الناحية الأخرى كان طارق في سريره يدعى النوم والنعاس الشديد نائمًا على وجهه واضعًا وسادة فوق رأسه تحجب عنه ضوء الشمس المتسلل من النافذة بقوة وعنوة مستفزة، لكن الفدائي طارق والبطل المغوار كان مستيقظًا منتظرًا خروج خديجة .من البيت، حتى ينفّذ خطته الانتحارية لإنقاذ حكمت من ذل ومرارة الأسر الذي هي فيه

وقف طارق، وأزاح الغطاء من على جسده لتتكشف ملابس الخروج التي قام بها حتى لا تعطله عن مهمته، واتجه إلى شباك المطبخ يقفز منه إلى الخارج، وقد كان الوحيد في المنزل بلا أسلاك أو عوائق، وبالرغم من ضيقه، إلا أنه نجح بسبب جسده النحيل، سقط على ركبته ليلتقط أنفاسه لمهملة من الزمن، ثم رقد بقوة يسابق الرياح حتى وصل بعد مدة من الزمن ومدة من تنمر المتشردين على ركعة وسبُاب !المارة الذين استخدم بهم بإهمال إلى بيت العم جورج أو محمد إن كنتم تتذكرونه

ظل طارق يطرق الباب بقوة وبسرعة أفزعت من في المنزل حتى فتح له جورجيوس، أو أسلم الذي ظن لوهلة أنهم جنود محاكم التفتيش، ولكن ارتاح لكسر الثانية، لكنه عاد إلى فزعة عندما رأى طارق في تلك الحالة وملابسه مُلطخة بالتراب والعرق وشعره مشعشع .وكأنه كان في حلبة مصارعة، وعاد إلى قوة الآن

!اتسعت عينا جيرجيوس بهلع قائلاً: ماذا حدث يا أخيرا؟ هل أنت بخير؟

.هز اخيلا رأسه بالنفي قائلاً، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة: أريد عمي جورج أرجوك... جوليانا في مشكلة بسرعة

أدخله جورجيوس البيت بسرعة، وقد خرج جورج أو محمد من غرفته بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه، وقد خرجت زوجته إلينور من المطبخ هي الأخرى، وكل ما يجول في خاطر الجميع أن محاكم التفتيش ألقت القبض عليهم، لكن اطمئنوا قليلاً عندما اقترب طارق من محمد قائلاً في لهفة وتوتر: عمى جورج، أمي ضربت جوليانا وحبستها في قبو المنزل، ولا تريد إخراجها.

مسح محمد جبهته بقلق، وربت على كتف طارق بهدوء قائلاً: حسنًا اهدأ يا بني، وأجلس وأخبرني بكل شيء على مهلك، فقط إهداء.

بالفعل أخذ الماء من يد جيرجيوس، وشربه بسرعة حتى ارتوى وهدأ قليلاً، ثم أخذ يسرد عليهم كل ما قصته حكمت وما حدث في الحي قبل عدة أيام وما فعلته والدته مع حكمة وكيف هرب من البيت في إيجاز وسرعة بسرعة.

وما إن انتهى حتى مسح محمد جبهته بتوتر وزفر الهواء من رئتيه بضيق ونظر إلى الجميع من حوله، وقد كانت تعبير وجوههم غير مفسرة أو مفهومة ومعهم الحق كل الحق فالأمر معقد للغاية، ولا يستطيعوا الآن معرفة من المخطئ، ومن الضحية، ولكن حكمت مخطئة؛ لأنها أعطت لحنا ذلك وجهاً، وسمحت له بالحديث معها والاقتراب منها، وفي الوقت نفسه ضحية لسياسة بلاد ولحب غير مشروع ولقاذفى محصنات غافلات، وكم أن عذابهم عظيم عند رب العالمين.

هز محمد رأسه بعد أن فكر ماليًا، ووجد حلاً لتلك مشكلة، ثم ربت على كتف طارق قائلاً بهدوء: حسنًا يا أخي لا عد إلى البيت قبل أن ترجع إليزابيث، وأنا غدًا سآتي إليكم، لكن أظهر أنك لا تعرف شيئاً عن زيارتي، ولا تخبر أحدًا.

وقف طارق، واتجه إلى الباب قائلاً بامتنان وأمل: شكرا لك عمي جورج أتمنى أن تُخرج جوليانا من ذلك المأزق صدقني هي لا ذنب لها.

هز محمد رأسه قائلاً بهدوء: أعلم يا أخي لا غدًا الرب سيُظهر الحقيقة كُن حذرًا.

خرج طارق من البيت، وأخذ يسير في الطريق وباله مشغول بما سيحدث غدًا والأهم هل سيستطيع جورج على إقناع والدته بترك جوليانا وأنها بريئة من ما يُقال، وقد أخذ يفكر في عواقب الأمور المُترتبة على فشل محمد وأولها أنه لن يخرج من البيت طوال عمره مجددا وثانيها سيشتد الحصار على حكمة ويضيق، ولكن إن البراءة من دون دليل ليست حلاً يجب أن يكون هناك دليل يسكت الألسنة التي تتحدث في وتثرثر، وتخوض في عفة وشرف أخته، وحتى تستطيع حكمت إكمال حياتها من دون خجل أو خوف، بل يجب أن يُرفع رأسها عاليًا بعزة وكرامة.

وقف للحظة على جانب الطريق، وأخذ يحك فروة رأسه بتفكير حتى وجد أنه حنا هو أيضًا متورط بتهوره في ما تعانيه حكمة وعليه أن يبحث هو أيضًا على دليل البراءة حكمت هو الآخر.

رقد مسرعًا، ومركز الشرطة الرئيسي صوب عينيه عازمًا على الوصول إلى حنا، ولن يرجع البيت خالي الوفاض من دونه أبداً.

وصل إلى المركز، وقد دخله متجاوزًا الحارسين الواقفين على يمين ويسار الباب يحملون البنادق الطويلة، وتجاوز عمال البناء الذين يرممون الجزء المتضرر من حادث الانفجار، ثم نظر إلى ذلك العسكري الذي كان يستقبل المشتكين، واقترب منه قائلاً بهدوء وتأدب: إذا سمحت أريد التحدث مع السيد حنا أرجوك.

نظر إليه ذلك العسكري، وأخذ يتفحص هيئته المُريبة، وكان يبدو على هيئته أنه يجري من لصوص أو قطاع طرق أو قاتل متسلسل، لكن طريقة كلامه الهادئة عكس ما يبدو عليه من إنهاك وتعب جعلته يعتقد أنه يريد واسطة لشيء ما أو يتسول، لذلك قرر تجاهله، وأكمل ما كان يكتبه في دفتر كبير أمامه قائلاً بلا مبالاة: أرجع لبيتك يا فتى لا نستقبل الشكاوى اليوم تعال غدًا.

هز اخيلا رأسه بالنفي، ونظر إليه برجاء وإلحاح قائلاً: أنا لا أشتكي من أحد أنا أريد مقابلة السيد حنا في أمر مهم للغاية أخبره أخيلا يريدك.

قلب ذلك العسكري عينيه بسئم، وترك القلم الذي بيده على الطاولة بإهمال قائلاً بحدة وصراخ، وقد نفذ صبره سريعًا: أخبرتك لا يمكن عد إلى البيت وإلا حبستك هنا الليلة.

هز اخيلا رأسه بالنفي، وصاح بصوت عال وجنون قائلاً: لن أتحرك قبل أن أتكلم مع السيد حنا أخبره أخيلا أندرو أغسطس في الخارج يريد التكلم معك.

أشار ذلك الرجل إلى أحد العساكر بأن يلقوا القبض عليه وبالفعل قد أجهز عليه أحد العساكر، وأخذ طارق يقاومه بشراسة، ويصرخ بقوة بأنه أخيلا، ويريد مقابلة السيد حنا، ولن يرجع وقد عم الصراخ والشجار أرجاء المركز، ولكن لحسن حظ طارق أن ديغو قد أنهى عمله، وسيعود إلى منزله، وقد استوقفه هذا الشجار ليصيح بحزم قائلاً: ماذا يجري هنا علي أنتم في زقاق؟!

اعتدل الجميع، وأعطاه التحية العسكرية ليُقبل على طارق قائلاً بجدية: ماذا تريد؟ لماذا كل تلك الضجة التي أحدثتها؟

أفلت طارق ملابسه من بين يد العسكري، وأقبل على ديغو قائلاً في رجاء: سيدي أنا أحتاج إلى الحديث مع السيد حنا، وهم يمنعونني رجاءً خذني إليه.

ضيق ديغو عينيه قائلاً بحيلة ومكر: أن أخبرتني ماذا تريد أو من أنت سآخذك للسيد حنا.

تطلع إليه طارق قائلاً بأمل: أنا اخيلا أندرو أخو جوليانا الشابة والقابلة.

رفع ديغو حاجبيه في تفاجأ، ودهشة ثم أقبل عليه، وحاوط كتفه قائلاً إلى أحد العساكر، وهو يتحرك مع طارق ناحية مكتب حنا: أحضر للسيد أخيلا ماء بارداً وعصيراً إلى مكتب السيد حنا.

دخل ديغو، وطارق إلى المكتب بعد أن جلس كلاهما على كراسي خشبية مطوقة في حلقة حول الطاولة الخشبية الكبيرة في منتصف مكتب حنا الفسيح، ثم ربت ديغو على كتف طارق قائلاً بتشجيع، وهو يشير إلى العصير البارد: اشرب يا فتى تبدوان منهكًا... حنا في الطريق لا تقلق.

أمسك طارق العصير، وقد ارتشفه بهدوء، وعلى مهلة حتى لا يظن ديغو أنه جشع أو جائع وما أن وضع شيئاً أمامه أنهاه بلا أدب.

ما إن انتهى طارق من الكوب كان حنا قد وصل_ الذي كان يزور أبناء إدواردو كما تعهد منذ وفاة صديقه_ وقد هرول إليه طارق بسرعة، وعانقه من خصره قائلاً برجاء: سيد حنا، لقد وعدتني أن لا يمس جوليانا سوء وهي الآن في مشكلة كبيرة بسببك.

ربت حنا على ظهره، وسار معه ناحية المقاعد قائلاً بقلق: خير أخبرني ماذا بها جوليانا؟

أخذ طارق يقص عليه كل ما حدث مع جوليانا منذ عودتهم من عند النهر حتى صباح اليوم وبين اللحظة والأخرى كان يذكره بوعده بحمايتها وعدم أذيتها، حتى يتحرك ولا يتلكأ في إيجاد الحل.

أنهى طارق كلامه ليضرب حنا بقوة على الطاولة جعلت كلاً من طارق وديغو ينتفضون برعب خفيف.

مسح حنا وجهه بعنف قائلاً بحدة: لماذا لم تخبرني منذ يومها.

دافع طارق عن نفسه قائلاً بسرعة: صدقني أمي كانت تحبسني في البيت أنا هربت وعليا العودة قبل أن ترجع إلى البيت، لكني أعرف أين يمكن أن تجد هؤلاء الصعاليك.

نظر إليه كلاً من ديغو، وحنا باهتمام ليشرح لهم قائلاً: كل يوم بعد الواحدة ظهرًا يخرج فتى يرتدي قميصاً رمادياً ممزقاً من عند الصدر وبنطال بني مهترئ يتسول عند الكنيسة، في حين هذا الفتى هو من بدأ الشجار، وإن انتظرت ستجده عند الكنيسة منذ يومها وهو لا ينفك عن التسول بلا خجل أو خوف من أحد.

ربت حنا على كتف طارق بهدوء قائلاً: حسنًا يا أخي لا عد إلى البيت وأنا سأتصرف ولا تخبر أحدًا، ولا تخبر جوليانا بأنك كنت هنا، وغدًا صدقني سيعود إليها حقها، وأعاهدك على ذلك.

وقف طارق، وانحنى بهدوء ثم خرج من المكتب قاصدًا منزله بأقصى سرعة قبل عودة خديجة.

وعلى الناحية الأخرى كان ديغو ينظر إلى صديقه بأسف وضيق لحزنه ولكثرة المصائب التي تُقذفزفوقورؤسهم كالنيازك استند حنا بمرفقيه على الطاولة، وخلل أصابعه بين شعره، ونكس رأسه لأسفل بحزن قائلاً: أنا السبب فيما تعانيه الآن، لو أنني لم اعترض طريقها كل مرة، وطلبت يدها مبكراً ما كان لهذا أن يحدث.

بلل ديغو شفتيه، وربت على ظهر خليله قائلاً بهدوء وعقلانية: حنا اهدء لقد أخطأت وأنا وإدواردو نصحناك أكثر من مرة، لكن الآن يجب علينا أن نفكر كيف سنحل هذا الأمر وأنا عندي حل.

نظرت إليه ذلك المشتت الضائع باهتمام ليتابع ديغو قائلاً بهدوء: بما أن ذلك الفتى متسول وهو من حرض العامة عليها، ولا يعرفها، فهذا يعني أن هناك أحدهم حرضه على ذلك، اسمع الآتي.....

أصوات مضغ طعام مقززة تثير الغثيان والتقزز وطريقة أكل بشراهة مفرطة تنم على مدى جوع وجشع هذا الشاب الذي أمسك الطبق بيده اليسرى، وأخذ يأكل بيده اليمنى، ويلعق أصابعه الأربعة دفعةً واحدة بعد أن أنهى طعامه، وقد كان ديغو الذي أمره حنا بالتحقيق مع ذلك الشاب يجلس على مقده في مقابلته رافعًا قدميه على الطاولة الخشبية التي تفصل بينهم، ويضرب بعصاه بيده اليمنى بخفة على يده اليسرى في انتظار، حتى ينهي ذلك الخنزير تناول طعامه ليبدأ التحقيق معه، وقد أنهى أخيرًا هذا الوغد طعامه، وتجشئ بطريقة مقززة مُصدرًا صوت عال، وأخذ يمسح فمه بظهر يده، ثم مسح يديه في ثيابه المُلطخة بالأتربة، وتفوح منها رائحة العرق النتنة.

اعتدل ديغو في جلسته، وانزل قدميه أرضا، ثم بدأ بالتحقيق قائلاً بسام: أنهيت طعامك، تكلم من أخبرك أن جوليانا سيئة السمعة والسلوك؟

حك ذلك الشاب لحيته قائلاً: سأخبرك بكل شيء، منذ عدة أيام كنا نجلس في المكان الذي نجتمع فيه بعد نهاية التسول، ونعطي المال للزعيم الذي يفرقه علينا، ويأخذ النصف له جاءت امرأة اسمها كاترينا عمرها يفوق الستين أو السبعين، وأعطت الزعيم عدة عملات ذهبية قسمها علينا، وأخبرنا أن هناك فتاة اسمها جوليانا في حي *علينا التشهير بها وتلويث سمعتها، وقد فعلنا ما أمرنا به، لكن أرجوك احمينا من كاترينا تلك المرأة شيطانة متخفية بين الناس.

قطب ديغو جبينه قائلاً بتعجب: لماذا؟ ماذا تعمل تلك المرأة؟

اقترب منه ذلك الشاب برأسه، وأخذ يوشوشه بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد قائلاً بتوتر واضح، وقد خبأ فمه بيده: تعمل مع محاكم التفتيش، تلك المرأة واشيه هناك، وقد تفتري على أي أحد يقترب منها، أو يزعجها وأخشى إن عرفت تفعل بي ذلك.

صفف ديغو شاربه بإبهامه وسبابته قائلاً باهتمام: وهل محاكم التفتيش هي من أمرتها أن تُشهر بسمعة جوليانا.

هز ذلك الشاب رأسه بالنفي قائلاً: لا تلك المرة سمعتها تتحدث مع الزعيم قائلة بأن تلك أوامر شخص مهم في الدولة وعند الملك يسمى باليو.

حبس ديغو أنفاسه بتوتر ودهشة كأنها الصاعقة قد هبطت على رأسه ما أن سمع اسم بلايو وأوصافه تلك حتى شعر بأن اللعبة الآن تغيرت والأمور احتدت، وأن الأمر بات الآن حرب الأخ وأخيه ليست فقط حرب الحب.

خطف ديغو نظرة سريعة إلى شُراعة الباب الخاص بغرفة التحقيق المفتوحة، ولكنه لم ير سوى عيني حنا القاتمة، بل قل السوداء كليلة لم يظهر بها القمر، وقد كانت كفيلة، وأبلغ من أي حديث لتعلم أن ذلك الرجل الآن بأنه بات وحشاً كاسر وشرساً، وقد فقد ما تبقى من عقله الآن، وعن قريب ستحدث حرب طاحنة الناجي منها محظوظ.

أمسك ديغو ذلك الشاب من تلابيب قميصه، واقترب من الباب بعد أن رحل حنا، وأخذ يطرق على الباب الحديدي بعنف، حتى فتح عسكري صغير السن، فصاح به ديغو بتحذير وغضب، وهو يرفع سبابته في وجهه قائلاً: هذا الكلب ينام في زنزانة وحده وغدًا في الصباح توصله بنفسك إلى حي*ينهي مهمته، وترجع به حيًا إلى هنا وإياك ثم إياك أن يلمسه أحد، أو يتعرض له، ثم هدر بقوة هزت أرجاء الغرفة قائلاً: أتفهم؟!

.سحبه ذلك العسكري قائلاً بإذعان: سمعًا وطاعة يا سيدي

الفصل الثامن عشر

كان الوقت الآن هو صباح ذلك اليوم الذي توعد الجميع فيه لطارق بالمجيء وإنقاذ تلك المسكينة من ذل ومرار الأسر، وبالرغم من أن والدتها قد أدخلت إليها الإفطار، إلا أن حكمة لم تأكل شيئاً منذ الأمس ترفض الأكل حتى تخرجها خديجة، وتسمعها وخديجة رأسها أصلب منها، وقد تلبسها شيطان سوء الظن والشك، وأقسمت على أن تعرف الحقيقة، وقد تشاجرت معها عند دخولها إليها وساومتها إما أن تتكلم وتخبرها بالحقيقة، أو ستعاقبها بطريقة سيئة لن ترضى بها، ولن تنساها أبدًا، ولكن حكمة أصرت على نيل حريتها أولًا ثم الحديث، ولكن انتهى الأمر بأن صفعتها خديجة للمرة الألف، ولم يسبق أن يرى بيته السعيد في حالة التوتر والبؤس تلك، وكل هذا بسبب هؤلاء الواشين .النمامين الذي لا يعرفون حرمات الله

لهذا لا أستغرب أبدًا لماذا قذف المحصنات الغافلات من السبع الموبقات والسبب واضح أمامنا انظروا لأم مثل خديجة كانت هي وابنتها مثل الأصدقاء وأكثر فقط كلام القاذفون أشعل نار الشك في قلبها، وتلبسها سلطان العمى عن الحقيقة الجلية والدفاع عن عفة ابنتها التي .ربتها بنفسها وكأن الاثنين والعشرين عامًا من عمر ابنتها لا شيء يذكر

وعلى الناحية الأخرى كان طارق يجلس في غرفته، وعلى سريره وينظر إلى النافذة بتوتر وقلق، وقد قاربت الظهيرة، ولم يظهر أحد .بعد، وقد بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه بأن أمر أخته بات نسيًا منسيًا، وستظل على تلك الحال السيئة

لكن بدأ الأمل يتجدد مجددا، ويظهر مفعوله عندما لمح خيال جورج أو محمد يطرق باب البيت، وقد تأنى في الخروج حتى ينتظر والدته تفتح أولاً وبالفعل، وقد خرج طارق من الغرفة إلى محمد قائلاً ببهجة: عمى جورج كيف حالك اليوم؟

ابتسم محمد، وهو يتقن دور الضيف المار بالصدفة قائلاً: بخير يا أخيلا كيف حالك؟ ثم أخذ يقلب بنظره في أرجاء البيت قائلاً: أين .جوليانا لا تقول إنها نائمة حتى الآن

.نظرت خديجة إلى طارق قائلة بوجهها الجامد: طارق إلى غرفتك أنا والسيد محمد لدينا حديث خاص

رفع طارق حاجبيه عاليًا، واتسعت حدقتاه عندما علم أن جورج هو محمد ومسلم مثلهم، وقد شعر بدلو ماء بارد سُكب عليه في ليالي يناير الباردة ليبتسم محمد ببشاشة قائلاً ببهجة لمعرفة طارق حقيقة دينه: مرحبًا بك يا طارق، أخيرًا يا بطل والدك كان ينتظر هذا اليوم .طوال عمره ليرحمه الله

ثم التفت إلى خديجة بوجهه الأبيض المحمر ولحيته البرتقالية تلك قائلاً بهدوء وعقلانية: خديجة زوجة أخي طارق أخبرني بما حدث مع .حكمت، ما فعلتيه ليس صحيحًا بالمرة وحرام

تخلصت خديجة من جمودها هذا، واندفعت مثل الذئب المفترس على الفريسة طارق حتى تضربه، وقد سبته، لكن يد محمد الذي اختبئ .خلفه طارق منعتها ليصيح بحدة قائلاً: اعقلي يا امرأة واهدئي يكفي أتباعك للشيطان، وأنا أراه قد عطس في أنفك، طارق فعل الصواب

توقفت خديجة لتنظر إليه بدهشة، ووضعت يدها في خصرها قائلة بحنق: أي صواب تلك السافلة التي بالداخل، وهذا الوغد قد تآمروا .على وضاعت تربيتي

رفع محمد حاجبه قائلاً بضيق: الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- قال اجتنبوا السبع الموبقات، ومنهم قذف المحصنات الغافلات وابنتك محصنة غافلة، وربنا يقول في تلك الحالة يجب أن نأتي بأربعة شهداء، ابنتك لم تفعل شيئاً لتأتي بأربعة شهداء، بل وقع عليها افتراء والصحيح أن تسأليها ونسأل من قالوا هذا عن مصدر كلامهم، لكن لا تحبسيها هكذا ماذا فعلت، ابنتك ضحية وليس جاني.

ثم التفت إلى طارق قائلاً بهدوء: استغفر الله، طارق أحضر حكمت إلى هنا هيا.

اقترب طارق بتردد من خديجة التي كانت تنظر إليه بنظرات نارية أحرقته ثم خلعت العقد الذي فيه المفتاح عن رقبتها، وقذفته في وجهه، وقد هرول إلى المخزن، وفتح إلى حكمة التي وقفت بدهشة قائلة: طارق ماذا يحدث؟

ابتسم طارق ببهجة قائلاً: لقد أخبرتك أني سأنقذك والحقيقة ستظهر الآن هيا بدلي ملابسك، وتعالي إلى الخارج عمي محمد ينتظرك، وبعد قليل حنا سيأتي.

ابتسمت ببهجة وقبلت رأسه قائلة بامتنان: مهما فعلت أنا لن أستطيع رد جميلك يا أخي.

تملص من عناقها، وأخذ يجذبها ناحية المرحاض قائلاً: هيا لا وقت أسرعي.

بالفعل امتثلت إلى أمره، وبينما هو ذاهب إلى حجرة المعيشة قد أوقفته طرقات على الباب ليفتح ظنًا منه أنه حنا، لكن كانت مارلين التي كانت تتكئ على عكازها الخشبي الأنيق، وترتدي فستاناً أرجوانياً، وعلى شعرها الأبيض قبعة أرجوانية مربوطة عند عنقها بإشارب متصل بها قائلة بهدوء: كيف حالك يا أخيلا؟ هل إليزابيث موجودة في البيت؟

هز اخيلا رأسه وأدخلها قائلاً، وهو يغلق الباب: نعم تفضلين سنيورة.

ثم ذهب بها إلى حجرة المعيشة قائلاً، وهو يشير إلى محمد: هذا عمى جورج.

وقف محمد، وهز رأسه بالتحية وبالمثل مارلين وكذلك خديجة، وقد جلست مارلين مدت ساقيها المتهالكة قائلة بهدوء وعقلانية: أنا اليوم هنا لأزورك لأول مرة، ولكن ليست لآخر مرة بمشيئة الرب، وكنت أريد التحدث معك في شيء مهم بخصوص جوليانا هل ممكن؟

ثم نظرت إلى محمد بحرج ليتدخل طارق بسرعة قائلاً، وهو يزيد رصيد غضب وحنق خديجة: عمى جورج يعرف كل شيء سنيورة لا تقلقي.

هزت مارلين رأسها قائلة براحة: هذا جيد جدًا، والآن منذ ثمانية أشهر مضت قد دخلت إلى هذا البيت لأول مرة أبكي، وقد كان حنا ابني الصغير يموت، وأنتِ أم، وتعرفين ما معنى أنه قد تفقدين قطعة من قلبك، كان حنا مصاباً بطعنة في بطنه غائرة، وقد كان معه بلايو، ودلهم أحدًا ما على بيت جوليانا وتلقى العلاج في بيتها حتى برئ، جوليانا قد عاينتها بعيني ابنتك فتاة صالحة الرب يحبها مثال للفتاة مستقيمة الخلق، بالرغم من مكوث ابني ومراعتها له، إلا أنه لم تأخذ بيتا واحدة، وقد حكى لي حنا عن معاملتها، وكم كانت ترعاه ولم ير منها شعرة واحدة وأنا بنفسي عندما داوت دمامل قدمي قد اختبرت أمانتها وصدقها، لا يمكن أن يكون لديك ابنة مثلها في أمنتها وأخلاقها، وتصدقين بعض النمامين أين الثقة؟ أنا امرأة قد جاوزت السبعين، ورأيت أبناء أحفادي، ومر على الكثير ما حدث كما حكى اخيلا يبدوا بوشاية من أحدهم يكيد لابنتك، اعقلي الأمور يا إليزابيث.

ثم التفتت إلى طارق قائلة بهدوء: اخيلا نادى جوليانا.

هز طارق رأسه، وقد هم بالفعل، وهو يشعر بالسعادة بأن ملامح وجه خديجة بدأت تهدأ وتعيد حساباتها وتفكر مجددا، ولكن ينقص الدليل، وقد عاد بعد ثواني ومعه حكمت المتورمة عينيها من البكاء، وأثار الصفعات على وجنتيها واضحة، وهذا الجرح جراء الحجر في جبهتها.

ما إن رآها محمد حتى هز رأسه بأسف، ونظر إلى خديجة بحنق وضيق، وقد كانت خديجة ترفع رأسها بأنفة وكأنها لم تفعل شيئاً، وعلى الناحية الأخرى مارلين التي زفرت بضيق قائلة: جوليانا صدقيني الرب سيظهر الحقيقة وحراس الرب كثيرون لا تقلقي يا ابنتي.

هزت حكمت رأسها بالموافقة قائلة بوجهها محتقناً بحمرة الخجل وحبس البكاء: بمشيئة الرب.

ثم استدركت مارلين قائلة بهدوء: جوليانا لقد جاء في أمر آخر، حنا يطلب يدك للزواج ما رأيك؟

رفعت خديجة حاجبيها، ونظرت إلى حكمت بحدة تحذرها أن تقبل إما طارق الذي لا يفهم شيئاً كان مثل الأحمق. أما محمد، فقد اتسعت !حدقتاه، وأخذ يقلب بنظره بين حكمة وخديجة ليفهم ما يحدث هنا وما كل هذا الجنون

ولكن حكمت فكرت جيداً، وحزمت أمره، وقد أوشكت على الرد، لكن طرق الباب القوى أوقفها، وقد فتح الباب إذ بهكتور ابن ماريز .جارتها يقتحم البيت قائلاً بسرعة، وهو يجذب حكمت من يدها إلى الخارج: خالة جوليانا تعالى هناك أحدًا ما يريدك بسرعة

وعلى أثر فضولها وقوة هيكتور خرجت خلفه، ومن ورائها طارق ومحمد وخديجة ومارلين، إذ بها ترى ذلك المتسول يقترب منها هو وبعض الذين خاضوا في عرضها، وقد قبل قدمها لتبتعد حكمت بسرعة، وتقزز وتنظر إليه قاطبة جبينها، وقد جثى هؤلاء الواشين قائلاً .كبيرهم: سيدتي سامحينا نحن أخذنا مالاً لأجل الوشاية ارجوكى سامحينا والحي كله عرف الحقيقة فقط سامحينا

نظرت إليهم بتقزز قائلة بضيق: إن سامحتكم فلن يسامحكم الرب، عليكم اللعنة جميعًا قذرين. ثم دفعت ذلك المتمسك بطرف ثوبها بقوة قائلة بضيق إلى أهل الحي المُتجمهرين مطأطئي الرؤوس الخجلين من فعلتهم: لقد عفوت لكن عقاب الرب سيصيبكم مهما كان ومثل ما .حدث معي سيحدث معكم جميعًا سواء أنتم أو بناتكم، وأنا أعرف وأثق أن ذلك اليوم قريبًا لا مُحال

ربتت مارلين على كتفها حتى تهدئها قائله مجددا بصوت مسموع لأهل الحي: السيد حنا ولدى يطلب يدك للزواج ما رأيك؟

.نظرت إلى خديجة وأهل الحي بتحد قائلة: قبلت طلبه

هزت مارلين رأسها بالموافقة، ثم اتجهت إلى عربتها في هدوء، وقد اكتفت من العرض، ومن بعدها محمد الذي شعر بأن الأمور باتت .خاصة للغاية ووجوده سيزيد الوضع سوءًا لن يصلحه

دخلت حكمت إلى المنزل وخديجة خلفها مثل الطلق الناري، وقد لحقت بها قائلة بحدة، وأمسكت ذراعها بقوة: أنتِ مجنونة وحمقاء كيف تقبلين شيئاً حراماً؟

جذبت حكمت ذراعها بقوة قائلة بضيق: أما يكفي، هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن إسكات بها كل تلك الألسنة ولينتهي شكك بي أنا اليوم .فقط عرفت قيمتي جيدًا عندك

ثم هرولت إلى غرفتها، وقد أغلقت الباب بقوة وبالمثل فعلت خديجة، ومن خلفهم طارق الذي كان يضحك ببهجة لبراءة أخته ولأن !خديجة نسيت أن تعاقبه

كان بيتهوفين أصمًّا، لكنه من أروع الموسيقيين في العالم أعطى موسيقى استلهمها من الطبيعة الإنسانية المعقدة، ومن محيط الحرب والجوع الذي عاناه هو وبلاده صنع موسيقى ما تزال محفوظة ومحفوراً في عقل العالم حتى اليوم، بالرغم من مرور قرابة الثلاث مئة .عام على وفاته

وإن كنت تسأل لماذا بيتهوفن بالتحديد، فلأنه لم ينظر إلى الإعاقة على أنها حاجز أو مانع يدفعه للتقاعس والإحجام والخور، بل دفعته لأن يكون مميزًا في هذا العالم، ولا يرحل قبل أن يعطي كل ذوي الهمم مثالًا أنهم قادرون على الوصول إلى شُم الجبل، لكن كن كـ"بتهوفين" أبدع وأعطى وسخي من موهبته بلا حدود أو عناء اليأس ليظفر بالنجاح عبر مئات السنين، ولكن الجانب المحزن أننا صرنا .نرى النجاح مدعاة للحسد وللحقد وللسخرية والقلة القليلة هي من تُقدر عناء النجاح وتعبه وآلامه

ولكن أنا لست هنا لأتغنى وأتغازل في جمال مقطوعات ومعزوفات بيتهوفين الرائعة بلا جدال، بل أنا هنا؛ لأن بلايو هنا في مكتبه في قصره، وعلى كرسيه وأمام كومة من الأوراق يراجع أعمالاً، ويحل مشكلات ستُناقش في مجلس مستشاري الملك قريبًا، وعلى الجميع أن يقدم حلولاً جوهرية ومجدية لحل مشاكل الحرب مع فرنسا ومشاكل تقسيم الحدود مع البرتغال القائمة منذ سقوط الأندلس والخلافة .الإسلامية عندما كانت إسبانيا والبرتغال دولة واحدة اسمها الأندلس

ولا أنكر على بلايو أنه مجتهد جدًا في عمله، ومتفاني ومراعي لذلك أبدًا، وقد استحق وظيفته عن جدارة حقيقة أثبتها في عدة أعمال ناجحة أُسندت إليه، ولكن مزاجه كان رائقًا مثل ماء الجير الرائق قبل دخول ثاني أكسيد الكربون عليه، وقد أحس بلذة النصر، واطمئن قلبه بأنه أطاح بجوليانا إلى أبد الآبدين بعد أن باتت ممسحة الغائط أفضل سمعه من سمعتها والأحمق يظن أن الأمور كلهم طيبة، وتسير على أكمل وجه وبتلك الطريقة سيساوم حنا على طبقته الاجتماعية ووظيفته إذا فكر في أن يُصرح بحبه لجوليانا مجددا وبالطبع الأحمق فقط من يبيع طبقته الاجتماعية ووظيفته من أجل الحب، أليس كذلك؟

لكن بالرغم من مزاجه المعتدل والسعيد، إلا أن صوتاً معزوفة لبيتهوفين كان يصدح في الأجواء عن طريق الكمان أرق تركيزه، وشوش على تفكيره، وقد كان صوت تلك المعزوفة يقترب منه خطوة خطوة حتى دخل ثاني أكسيد الكربون عليه وعكره، أعني بذلك حنا الذي كان يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً أبيض قد فتح أزراره حتى منتصف صدره، وكان يضع الكمان على كتفه، ويحرك جسده تناغمًا مع جمال تلك المعزوفة التي تأخذ المُستمع والعازف إلى عالم آخر من الهدوء والسكينة.

لكن هنا كان يقصد إثارة غضب وحنق بلايو لا أكثر فقط، حتى يعطيه الخبر المفرح والبشارة بأن والدتهم هناك في منتصف المدينة تطلب له يد جوليانا للزواج، وقد بات الحلم أن يصبح حقيقة.

أخذ حنا يلتف حول بلايو الذي رفع أحد حاجبه ببرود، ونظر إليه بزاوية الداكنة بعض الشي بصمت، حتى يصل إلى نهاية تلك الأفعال الصبيانية التي لا طعم لها أو معنى ولأول مرة يعود إلى مرحه هذا منذ وفاة إدواردو صديقه.

وقد انتهت المعزوفة، وتوقف حنا عن الرقص والعزف أخيرًا، ثم حرك كرسي أخيه الدوار حتى أصبح في مواجهته، وقد اتكأ على مسندي الكرسي باستفزاز رفعًا حاجبيه معًا وبزاوية الباردة رسم ابتسامة مستفزة تزامنًا مع شعره الذي عقده للوراء قائلاً باستفزاز: هل تعرف؟ أين أمي الآن يا باليو؟

بنفس الهدوء والبرود تحدث بلايو قائلاً: ماذا تريد يا حنا لدى عمل مهم؟

آمال حنا رأسه، وتابع بالوتيرة نفسها: أمم يبدون أنك لا تعلم لكني أعرف وسأخبرك، أمي في بيت أندرو الحداد تطلب يد جوليانا للزواج مني، ووصلني البشير بأن جوليانا وافقت ما رأيك في هذا الخبر المُفرح؟

رفع بلايو زاوية شفتيه بسخرية، وأرجع ظهره للوراء قائلاً بسخرية وأريحية: بالطبع ستوافق لقد سمعت بالفضيحة التي حدثت لها فأي فرصة للزواج ستوافق عليها حتى تداري على الفضيحة.

هز حنا رأسه بالنفي، وأخذ يتأتى بمعنى لا، ثم زم شفتيه قائلاً بسخرية مُدعيًا الحزن: يا إلهي! ألا تعلم أنها قدمت محضراً بالواقع، وبعد التحقيق أمسكنا بالفاعلين، واعترفوا بكل شيء، واعتذروا منها أمام جميع أهل الحي، لكن لا تقلق كاترينا بخير لم اقترب منها وأنا لن أخبر أحداً بفعلتك تلك لأني أحبك يا أخي الكبير، وأبي الذي رباني بعد أبي.

ثم اعتدل في وقفته، وربت على صدر بلايو الذي احتقن وجهه الأبيض بالدماء بقوة من فرط الغضب، وأن ضغط عليه سيفرقع مثل البالون المملوء على أكمله بالهواء قائلاً بهدوء مملوء بالجدية: أنا لست متدينًا وأحيانًا لا أصوم في العام عشرة أيام حتى، لكن إلا النساء يا أخي، لديك إيفا ولديك ديف في قرطبة مع زوجها تتمنى لها السعادة، الرب لن يرضى بفعلتك تلك ولتصلى للعذراء أن جوليانا عفت عنكم جميعًا.

ثم اعتدل في وقفته، وألتقط كمانه من على المكتب، وأمسك بمقبض الباب، لكن قبل أن يفتحه استدار ينظر إلى بلايو الذي وقف ووضع يده في جيب بنطاله البني قائلاً بتحد وسخرية: وأن أثبت لك أنها ليست كاثوليكية ماذا ستفعل؟

أمال حنا رأسه قائلاً بلا مبالة: بلايو لن يفرق الأمر كثيرًا، حتى لو كانت بروتستنت أو أرثوذوكس، وتخفى الأمر ستتغير عند الزوج.

قهقه بلايو بسخرية لاذعة على سذاجة أخيه ومحدودية تفكيره ليسكت بصعوبة تحت وطأة أنظار حنا المحتقنة بالغضب من أفعال بلايو وسخريته، ثم تابع وهو يقترب منه حتى أصبح أمامه قائلاً بعبث ونبرة باردة: دائمًا ما أقول إن عقلك ضيق الأفق ووظيفتك ومنصبك بالحظ، بروتوستنت أو أرثوذوكس فقط هذا ما فكرت به، جوليانا إن كان اسمها جوليانا تلك أكاد أُقسم أنها مسلمة، وسيأتي يوم وأثبت هذا.

ألقى حنا كمانه أرضًا، وقد اشتعلت عيناه بغضب مُستعر، وقبض على تلابيب قميص أخيه بقوة قائلاً بغضب وحدة: لا مكان للمسلمين بيننا، ما دمت في السلطة هؤلاء البربر لا مكان لهم بيننا وإياك أن تتهم من ستكون زوجتي بهذا الوسم القذر كأفعالك.

ثم خرج، وقد وضع كمانه فوق كتفه مثل الجوال وترك بلايو، وهو يستمع إلى صوت زئيره وصراخه الغاضب، وتكسير زجاجة الخمر والكأس الذي كان يشربه، وتلك الأوراق التي تطيح في الهواء، لكن بلايو يحتاج إلى من يصفعه على وجهه ليفيق من جنونه هذا، لكن ما فعله حنا لن يفعل شيئاً سوى أنه يزيد جنونه هذا.

وكيف لا وشكه في كلماتها ونصرانيتها يتفاقم يومًا بعد يوم.

في مساء اليوم أسفل رف خشبي فوقه عرائس صغيرة قطنية وخشبية كانت هناك صاحبتنا تجلس على كرسي دوار صغير أمام مرآة صغيرة، وتمسك بالفرشاة الخشبية تُصفف شعرها المسروق من سماء الليل، وقد اشتاقت إلى فعل هذا منذ أن حُبست في مخزن البيت، وقد كان تفكيرها كله منصباً على هول تلك الابتلاءات والمصائب المتلاحقة الواحدة تلو الأخرى بلا هوادة منذ أن اقتحم حنا حياتها بلا إذن، وسرق قلبها من مكانه بكل هدوء وأريحية على علم منها لا فائدة منه.

أرجعت شعرها للوراء، واتكأت على التسريحة بمرفقيها، ووضعت رأسها بين كفيها، وزفرت أنفاسها المُشتتة بإرهاق، وأخذت تُفكر في آخر الأحداث، رغم أنها عفت فقلبها وروحها لن ينسوا ولن يعفوا بشيء، قلبها أسود أليس كذلك؟

لكن ما حدث مع المسكينة ليس هين إطلاقًا فلا حتى بائعة الهوى ترضى بأن تتلوث سمعتها وشرفها حتى ولو كانت كذلك بالفعل، وعلاقتها بأمها لن تكون بخير أبدًا، وقد شُرخت بشك خديجة بها وبتصديق كلام الناس عليها، وقد كانت أول من خذلها وحنا أول من وقف جانبها وصدقها، وبالرغم من أنها وافقت على طلب الزواج المحرم، إلا أنها لا تجد شيئاً أفضل لسد تلك الأفواه التي تفوح بالخبث والخبائث سوى أن توافق على طلب حنا، ولا تملك من أمرها شيئاً، أو من علم الغيب مثقال ذرة، لكن هي على ثقة تامة بأن الله لن يتركها وحدها تعاني مرارة الحسرة والخوف والإقدام على شيء ينافي أوامر وتعاليم الله رب العالمين.

زفرت بهدوء أخذت تعقد شعرها للوراء على هيئة كعكة مرتبة وا، تحت حجابها الذي ربطته للخلف، وأمسكت بشال صغير تضعه على كتفيها، وقد همت بالخروج من الغرفة إلى حديقة البيت الخلفية وما أن خرجت من الغرفة الوردية الصغيرة، حتى خرج طارق هو الآخر من غرفته لينظر إليها قائلاً وهو يتثاءب: إلى أين... آه... يا حكمت الوقت متأخر.

هزت كتفيها قائلاً بهدوء: إلى الحديقة الخلفية سأشتم الهواء تعال معي.

حك فروة رأسه قائلاً بتفكير: حسنًا، لكن أريد أن أتحدث معك الآن.

اتجهت إليه، وحاولت كتفه قائلة بهدوء وود: أنا تحت أمر البطل طارق الذي أنقذني من مصيبة كبيرة.

ثم جلس كلاهما على الأريكة أسفل النافذة المفتوحة لينظر إليها قائلاً باهتمام: حكمت هل ستتزوجين بحنا فعلاً؟

اعتدلت حكمت في جلستها، وقد أصبحت مُقابلة مُباشرةً قائلة بجدية: انظر يا طارق، الله في ديننا حرم على المسلمة الزواج بغير المسلم، وأباح للمسلم الزواج بغير المسلمة.

ثم أخذت تشرح وهي ترى على وجهه علامات الغباء وعدم الفهم قائلة بهدوء: أنت رجل تتزوج بمسلمة أو مسيحية أو يهودية لا مشكلة، الزوجة هنا تسير بشرع الزوج، أي يمكنك تطليقها والطلاق مباح في الإسلام لأي سبب مهم ليس بعشوائية، والأطفال سيكونون على دينك ما عدا اليهود الطفل على دين أمه، وستعطيها حقوقها من نفقة ومهر ومؤخر وغيره والعلاقة ستكون حلالاً. أما أعنا وحنا لا يمكننا الزواج ستكون علاقة زنا فلا الأطفال سيكونون على ديني، ولن يمكنني الطلاق؛ لأن الطلاق مُحرم في المسيحية إلا في حالة زنا أحد الزوجين، وقوانين الميراث في الإسلام غير المسيحية وكذلك النفقة وغيره، لذلك الله -عز وجل- حرم زواج المسلمة من غير المسلم.

نظر إليها طارق قائلاً بحيرة ودهشة: لكنكِ وافقت على عرض الزواج ماذا ستفعلين الآن؟

أمسكت بكفه قائلة بجدية ودفاع عن نفسها: كنت مُضطرة الجميع يتحدث على بالباطل والعاطل ولا شيء سيُسكت تلك الألسنة، غير أن .أحدًا مثل حنا سيتزوجني، أنا لا أعرف ماذا سيحدث، لكن أنا أدعي بأن يحل الله تلك المسألة من عنده أنا في مشكلة لا أتمناها لأحد أبدًا

زم طارق شفتيه قائلاً بضيق وجدية: لكن حنا يحبك حقًا، وفعل المستحيل لأجلك، هل تحبينه أنت أيضًا؟

نكست حكمت رأسها، وبللت شفتيها في توتر وعينيها أخذت تنظر إلى بيت العنكبوت في زاوية الأرض خلف الكرسي بخجل، وقد احمرت وجنتاها، وتفاجأت من سؤال طارق لها، ولكن لن تصمت ويكفي ما فعله الصمت بها، وفي الوقت نفسه لن تكذب ويكفي ما فعله .الكذب بها

رفعت رأسها، وبللت شفتيها قائلة بصدق، ونظرت في عيني أخيها: اسمع يا أخي، أنا لن أكذب وأراوغ من الآن فصاعدا أنا أعرف حنا منذ أن كنت في الرابعة من عمري، وكان هو شاباً في السابعة عشر كنت ألعب معه، وكان يدللني مثل أي طفل، حتى جئنا إلى مدريد، ولم أره إلا منذ ثمانية أشهر مضت ولا أنكر يا أخي أنا أحب حنا أحبه كثيرًا عندما كان مريضًا كان قلبي ينفطر عليه، وعندما يفرح أفرح أنا أيضًا، لقد تعلقت روحي بروحه ولا مجال للإنكار، ولكن كان شيء ضدّنا ماذا أفعل وحدي أمام دولة بأكملها؟

ولكن أنا سأحارب العالم كله لأظفر بكِ ليست الدولة فقط يا سكرة." كان هذا صوت حنا الذي كان يتطلع إليها من النافذة المفتوحة، وقد " .صرخ طارق، وحكمت بفزع ورعب من دخوله الرائق المسبب للحرائق

وضعت حكمت يردها على موضع قلبها الثائر، وقد تدفق الأدرينالين بقوة إلى رأسها، ونظرت إليه وجلست على ركبتها لتواكب طول النافذة قائلة برعب: منذ متى وأنت هنا؟

.داعب حاجبيه قائلاً باستفزاز: منذ أن أحببتيني وتعلقت روحك بروحي يا سكرة

زفرت بهدوء، وقد بدأت تهدأ وتطمئن من أنه لم يسمع أي شيء سابقاً يقذفها إلى وراء الشمس، بينما هو كان يسلم على طارق الذي بات رفيقه، وانتهى الأمر قائلاً بود: كيف حالك يا بطل؟

.ابتسم طارق بود وبادله التحية قائلاً: بخير سيدي، أشكرك على ما فعلته معنا لولاك لكنا في وضع سيئ الآن

.قلب حنا عينيه قائلاً بمرح: إن كنت تريد شكري أحضري لي كوب ماء، فقد جاء على قدمي إلى هنا

امتثل طارق إلى أمره، وذهب إلى المطبخ لتنفيذ طلبه، لكن حكمت استغلت فرار طارق أخذت تضربه في صدره وكتفه قائلة بغيظ وغل: .عليك اللعنة، أنت السبب في كل شيء أنت السبب أيها البارد، أحمق، أخبرتك أني سأموت بسببك

أمسك يديها التي تضربه وفرقهما عن بعض قائلاً باستفزاز: يا سُكره هل هناك فتاة تُقابل خطيبها بهذا العداء؟ أين الحب، صحيح إيفا .غاضبة؛ لأنكِ لم تحضري حفل زفافها الأمس

ابتسمت باصفرار قائلة: اعذرني كنت في مجلس مستشاري الملك أناقش مشروعاتي المستقبلية، ثم تابعت بغيظ وغل، وهي تحاول جذب يدها من قبضته: أخبرتك ألف مرة أن أخاك هذا سيقتلني يومًا ما أنا أثق أنه وراء ما حدث، وأنت أيضًا لن ترتاح حتى أموت على يدك، بسببك أنا محرومة من مغادرة المنزل إلا مع أمي أو مع أخيلا، يعجبك هذا؟

جذبها من يديها ناحيته أكثر قائلاً بعبث: ليس لبلايو شئنًا معكِ حديثك معي أو مع أمي فقط وغير ذلك أجل هذا جيد، حتى لا يراكِ أحد .غيري قبل حفل الخطوبة

ثم ترك يدها للحظة، وعبث في ثوبه يبحث عن شيء ما حتى أخرج من جيبه رباط شعر حرير، وأمسك يدها اليمنى يلفه حول إصبع .البنصر قائلاً ببهجة: خطوبة سعيدة لا تقلقي سأشتري الخاتم، لكن هذا دليل على محبتي لكِ

فلتت منها ضحكة هادئة، وهي تقلب يدها في الهواء تنظر إلى ذلك الرباط الحريري الأحمر بلطف وسعادة، ولا ننسى الحزن، لكنه قطع حبلاً، وصال مشاعرها عندما أمسك يديها مجددا، ثم نظر حوله، وإلى داخل البيت يتأكد أن طارق في المطبخ ليقترب بوجهه أكثر منها

وهي تنظر إليه في دهشة قاطبة جبينها ليهمس لها بعبث: أعطيني قُبلة وضعنا مغرى بصراحة، ولا يزال الوقت مُبكرًا على الزفاف ياسرة.

انتزعت يديها بقوة، وأخذت تضربه في صدره بقوة قائلة والخجل يسيطر عليها من كل مكان ويلتهمها: أيها السافل الوقح هل تظن أني لعبة أغرب عن وجهي عليك اللعنة وقح متبجح قليل الأدب والحياء، أتقى الرب يا عديم الخجل والحياء، يا بارد.

وبالرغم من أنه كان يقصد أن يناوشها ويمزح معها، وقد كان يُقهقه على غضبها وخجلها باستمتاع، وهو يرى أخيرًا الجانب المرح من شخصيتها، إلا أن ضحكه توقف فجأة، وامتقع وجهه من ما رآه خلفها، وكان هذا آخر ما يتمنى أن يراه في حياته، وأخذ يلتف ويرجع إلى الوراء حتى يهرب، لكنها تمسكت بمعطفه الطويل قائله بغيظ: إلى أين تهرب أنا لم.... آه!

صرخت هي الأخرى برعب أيضًا عندما استمعت إلى صوت خديجة خلفها التي صاحت بغضب قائلة: ماذا تحسبون أنفسكم فاعلين؟ ماذا تفعل أنت هنا؟

نظرت إليها حكمت قائلة برعب، وهي تتمسك بحنا الذي يحاول الهرب: أقسم بربي أنه جاء مثل اللصوص، دون أن أعرف ثم أشارت إلى طارق الذي أقبل يحمل كوب الماء: وها هو أخيرا أسئلة.

جذبتها خديجة من ذراعها، وسحبتها إلى الوراء، ثم اقتربت من حنا قائلة بحدة: ماذا تريد؟ كلامي مع والدتك ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المُتأخر؟

بلل حنا شفتاه، وقد أرجع شعره إلى الخلف قائلاً بهدوء: أمي تعزمكم على الغداء نهاية الأسبوع، وقد أخبرتني أن أخبركم، لكن كان لدي عمل طويل اليوم؛ ولذلك أنا هنا في هذا الوقت، وإذا سمحتي لا ترفضي هذه دعوة من أمي.

رفعت خديجة أحد حاجبيها، وهزت رأسها بالموافقة قائلة، وهي تغلق النافذة: حسنا سوف نأتي هيا إلى منزلك، ولو سمحت لا نريد مشاكل.

ثم أغلقت النافذة والستائر من دون أن تنتظر منه المغادرة حتى، ثم صاحت في وجه أبنائها بغضب قائلة: إياكم والسهر في وقت متأخر كهذا من الآن فصاعدا كل حمار منكم على غرفته وإلا لا خروج نهائي من البيت.

تحت الأرض!" دائماً ما تتبادر تلك الجملة كدليل على الغموض أو لإثارة الفضول والرعب، ومن كثرة تكرار تلك الكلمة على لسان " الصغار قبل الكبار بات تأثيرها ضعيفاً للغاية على العقل البشري، وأصبحت تحت بند القبول الضمني لأغلب مُستمعيها إلا قلة قليلة مَمْن يستمعون ويعقلون ويحللون تلك الكلمة سيجدون أن لها معنى كبيراً وواسعاً ليس مقتصراً فقط على العالم السفلي أو جهنم عافاكم الله.

وأنا كنت مِمْن تمر عليهم تلك الكلمة مرور الكرام، دون أن أعي معناها، وأفهم مغذها حتى قرأت في كتابنا المحفوظ من رب البرية تلك الآية الرائعة بلا جدال وهي "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" أخذت أطبق تلك الآية الكريمة على كل موضوع وموقف في حياتي، وقد لاحظت أن نظرتي إلى الأمور باتت أوسع، وأخذت أُفكر في كل شيء بمنظور أوسع، وقد فتحت أمامي أبواب من المعرفة المخفية والمختلفة، واكتشفت أن القرآن كتاب لا يخلوا من المعجزات التي لا تنضب على مر العصور، وكلما تقدم العلم تواكب تفسير القرآن العظيم معه.

حقًا كلمة تحت الأرض تحمل الكثير من المعجزات والخفايا والأسرار التي تنتظر مغامر ومستكشفاً قلبه عامر بالإقدام وحب المعرفة والحق، وستنفتح له أسرار العالم أجمع.

ولكن هذا ليس سياقاً حديثي وسردي، إلا أن معنى كلمة تحت الأرض كبير وواسع فهناك أسفل إحدى الأراضي والحارات معمل وبيت في نفس الوقت وبالطبع أُناسًا مثلهم سيعيشون في تخفى تحت الأرض، فقد كان ذلك المعمل، وهذان الزوجان في سن الأربعين يعملون في صناعة السموم الفاخرة، وقد تفنن الزوجان في صنع السموم التي تتراوح في القوة والشدة والتأثير من عدة أيام إلى كسر الثانية، ومن غير لون أو طعم أو رائحة إلى ذي لون وطعم ورائحة.

وقد كان هناك ذلك الرجل قصير القامة أصلع الرأس إلا من مؤخرة رأسه ببعض الشعر الأسود يكمم نفسه بذلك القناع الذي يشبه أنف الغراب حتى لا يستنشق تلك الرائحة السيئة السامة المنبعثة من تركيبة سم رخيص السعر للعوام يظهر مفعوله في يوم واحد، أو عدة أيام.

لكن طرقاً ما على الباب جعله يترك الدورق المخروطي وأنبوبة الاختبار، ويتجه إلى الباب ظنًا منه أنها زوجته التي ذهبت لشراء بعض الأعشاب السامة، لكنه أخطأ التقدير عندما فتح وكان ذلك الرجل الأحدب الذي يتردد عليه أحيانا طلبًا لوصفة طبية أو للسم وأنواع مختلفة.

ابتسم ذلك الأحدب ذا السن المكسور، وهز رأسه قائلاً بابتسامة بلهاء: طاب مساؤك سيدي جئت إليك في طلب مخصوص.

أدخله ذلك القصير، وأغلق الباب وجلس معه على كرسيين حول طاولة صغيرة بها ثلاثة مقاعد مهترئة، ثم أمسك بورقة وقلم قائلاً بعملية إلى زبونة المميز، وهو يدون ما يقول: قُل المواصفات يا أحدب.

ابتسم ذلك الأحدب، ثم أخذ يشرح الأمر، وهو ينظر إليه بعين ونصف عين مفتوحة: أريده بلا لون أو طعم أو رائحة، ويظهر مفعوله بعد تناوله بمدة جيدة خمس أو ست ساعات تقريبًا.

نظر القصير إلى الورقة والمواصفات قائلاً بسخرية: يبدوا أنك تطلبه لشخص مميز، لكن لا تقلق طلبك عندي، لكن غالي الثمن ليس سهلاً أبدًا.

ثم وقف واتجه إلى خزانة تضم الكثير من زجاجات السم سواء سائلة أو عبارة عن مسحوق، وأخذ يعبث بهم حتى وجد مُراده، وقد كتبت مكوناته في ظهر الزجاجة.

ثم اقتربت منه ليخرج ذلك الأحدب سُرة نقود ذهبية من أسفل وشاحه المهترئ المرقع، ثم سكبها على الطاولة قائلاً بثقة: أظن أن ذلك يكفي.

أخذ ذلك القصير يعد العملات الذهبية، وقد كانت أكثر من ما سيطلب، لكن الجشع داء عفاكم الله منه جعله يمط شفته بتصنع الضيق قائلاً: ليس كرمك الذي أعدت عليه، لكن كرامة لا يكفي.

ثم مد يده بالزجاجة، لكن توقف في منتصف الطريق قبل أن يُعطيه الزجاجة قائلاً بتحذير ووعيد: إياك ثم إياك أن يعرف أحدهم من أين جئت بالسم، وإن شُفى المسموم منه قد تتضرر إحدى حواسه أتفهم يموت أو يعيش بإعاقة على حسب تحمله، وقد ينجو تمامًا.

هز ذلك الأحدب رأسه، ثم أخذ الزجاجة قائلاً بسخرية بعد أن خبئها أسفل وشاحه: فليحفظك الرب يا أيها الرجل الطيب.

ثم خرج من الباب، وخرج للأرض أخيرا، وبالرغم من أنه يستنشق هواء طبيعياً، إلا أن رائحة المجاري تلك لم تترك أنفه، وقد أخذ يسير بين الأزقة والأماكن الضيقة في الحارات الضيقة في خطوط متعرجة، حتى إن رآه أحد ضاع أثره بين الأزقة حتى بعد مدة ليست قليلة خرج من الحارات إلى شارع مهجور وكأن جانًا قد تلبسه فقط لا غير عندما أخذ يفرد ظهره وطوله، ويصبح ظهره مستقيماً لا حدبة به ولا إعاقة، ثم نفض ذلك الوشاح الممزق، ووضعه في حقيبة على ظهر خيله الأبيض الذي كان مربوطاً بإحدى الأشجار، ونزع ذلك السواد عن إحدى أسنانه، ورمى عن رأسه قبعة تشبه قبعة الرهبان، ولمعت عيناه الخبيثة على ضوء القمر وأسنانه على ضوء شموع عمود الإنارة قائلاً بسخرية، وهو يرفع زجاجة السم إلى عينيه: سنشتاق تلك المرة لكي حقًا يا جوليانا.

الفصل التاسع عشر

كانت أجراس كنيسة المدينة تدق لتعلن عن موعد صلاة يوم الأحد مثل كل أسبوع، وكانت من عادة خديجة وأبنائها أن يؤدوا الصلوات في إحدى كنائس الحي القريبة والصغيرة بعيدًا عن الضجة والزحام وألم القلب من دخول كنيسة قديمة وكبيرة كانت في الزمن الخالي مسجد .أُقيم فيه الأذان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وكم من مصلى صلىٰ لله في هذا المسجد سواء في عيد الفطر والأضحى، وكم قيام ليل أُقيم في رمضان، وكم إفطار وكم تهجد، وكم اعتكاف، وكم فرض، وكم نافلة، وكم طفلاً قلد أباه في الصلاة وبيده الأخرى بعض الحلويات يأكلها بجهل برئ في أثناء الصلاة، وكم فتاة حضرت إشهار زفافها، وكم صلاة جنازة وخوف واستسقاء وكسوف، وآهً عليكى يا مدريد، وعلى مساجدك الممتهنة والمشتاقة جدرانك !وزوايا إلى سماع صوت الأذان ولو بالخطأ

.وقد تحقق الكابوس والخيال المؤلم على أرض الواقع، وقد شهدت تلك القلوب المتألمة الخائفة ما كانت تهرب منه طوال العمر

وللأسف اليوم يوم عزيمة مارلين وحنا قد تفرغ اليوم، وقد مر على بيت حكمت من دون سابق إنذار، وكاد أن يتشاجر مع خديجة لأخذهم للصلاة معه والذهاب للبيت لولا حكمت وطارق الذين حلوا الأمر، وتدخلوا بينهم لكانت حدثت مشكلة وللأسف أيضًا أخذهم إلى مسجد. آسفة كنيسة المُدينة حاليًا لإقامة الصلوات، وبينما حنا مشغول، ومنكب في الصلاة يدعوان ربه أن يحقق أمانيه وأحلامه في تلك الحياة كانت من خلفه حكمت وخديجة، وطارق في عالم آخر من الكمد والغضب لما حدث إلى هذا المسجد المقدس وكيف انقلب حاله بسبب تفكك ملوك الطوائف لأهواء شخصية شيطانية جعلتهم أضعف من بيت العنكبوت، وها هم يدفعون ثم حقد ونزاع وغباء لا ذنب لهم .فيه

انتهت الصلاة، وانفض الجميع بعد أن أخذوا خبز التناول وكأس الخمر _وبالطبع بالإكراه لأصدقائنا _ تقابل حنا مع طارق وخديجة بعد .أن بحث عن حكمة، ولم يجدها ليسأل طارق قائلاً ببعض القلق: أين جوليانا؟ لم أجدها في الكنيسة ولا في مكان الاعتراف

.أشار إليه طارق إلى الجهة المُقابلة ناحية حكمت قائلاً: إنها هناك

التفت حنا إلى تلك الجهة مُتجاهلًا نظرات خديجة النارية له، وقد التحم حاجبيه وهو ينظر إلى تلك المرأة التي معها طفلة في عمر السادسة على الأكثر، وكانت تقف مع حكمت هناك، والتي لأول مرة يراها مع حكمت إطلاقا طوال الثمانية أشهر الماضية التي انقضت في معرفة حكمت، لكن لا يدري لماذا يشعر بأنه رأى تلك المرأة، أو قابلها مرةً ما، لكن عقله لا يسعفه الآن، ولا يساعده على التعرف .عليها، ولكنه يُقسم بكل ما هو مقدس أنه قد قابل تلك المرأة من قبل، لكن لا يذكُر أين

مرت حكمت واجتازت الطريق إليهم أمام العربة بعد أن صعد الجميع، وقد صعدت إلى جانب والدتها ومقابلهم حنا وطارق، وبالرغم من أن حكمة قد ركزت على الطريق الذي حفظته، إلا أن هنا كان في عالم آخر مع حكمت ليس الحب فقط الآن، بل الغموض وأمر تلك !المرأة يشغل باله وتفكيره بصدق، ولا يستطيع أن يتذكر تلك المرأة حقًا. يا ربي ما هذا الغباء الآن؟

وبعد مدة ليست قليلة توقفت العربة في بهو الحديقة الخاصة بالقصر، وقد نزل حنا، وطارق أولا بالإكراه من قبل خديجة، حتى لا يفكر أن يمسك يداً حكمت بحجة أنه يساعدها على النزول، وقد بدأ حنا حقًا يشعر بالضيق والغضب من طريقة تعامل خديجة معه، وقد كانت طريقة سيئة حقًا، ولو أنها رفضته لكان أهون عليه من نظراتها الحارقة أو كلماتها المقتضبة مثل الحجارة الصغيرة تقذفه بها كلما رأته، .ولكن إن صبر فلأجل جوليانا وعيون جوليانا لكن أيضًا للصبر حدود مهما بلغت قيمة الإنسان عند أخيه

استقبلتهم الخادمة التي أخذت متاعهم سواء حقائب أو قبعات، وقد خلعت حكمت وشاحها الأسود الذي أبرز أسفله فستان أخضر من !الدرجة الداكنة، وقد كانت تلك هي الدرجة التي قسمت ظهر حنا، فإذا كان يحب الأخضر فما بالكم بالأخضر على جوليانا

اتجهت حكمت مسرعة إلى مارلين التي وقفت على عكازها من على الكرسي العملاق في الصالون، واتجهت إليهم، ولكن حكمة سبقتها، وقد انحنت إليها بهدوء، لكن مارلين إزالة ذلك الحاجز، وعانقتها بهدوء وترحيب قائله بود: مرحبًا بالعروس الصغيرة، تلك الزيارة .مختلفة تماماً

.ربتت حكمت على ظهرها المحدب برفق قائلة: شكرا لكي سنيورة هذا فضلًا منك

.ثم ابتعدت عنها مارلين، ورفعت سبابتها قائله بتحذير مرح: سأتقبل سنيورة تلك مؤقتًا حتى ينعقد القرآن

ثم أقبل عليها طارق الذي قبل يدها وبدورها قد ربطت على ظهره، وحيته بحفاوة ثم خديجة التي نظرت إليها مارلين بعتاب، لكن سبقتها قائلاً بهدوء مقتضب: كيف حالك سنيورة مارلين، شكرا لكي على الدعوة.

نظرت إليها مارلين بهدوء ونوع من الضيق بعض الشيء قائلة: العفو منك سيدة إليزابيث لولا أني غاضبة مني، لكن سلامك يكفي... ثم نظرت إلى ما وراء خديجة حيث حنا الذي يجر بلايو جرًا، ويجبره على النزول_ وقد كان وجهه مسودًا حانقًا غاضبًا لما يحدث من دون إرادته، ويشعر أنه يُتَلَاعَب به كالدمية بين أفاعل حنا ومارلين التي يقصدون بها استفزازه وإثارة غضبه وكأن لا كلمة له في هذا البيت _ ثم ربتت على كف يدها قائلة بنبرة ذات مغزى: سنتحدث فيما بعد لدى الكثير لأقوله لكِ.

هزت خديجة رأسها بنعم، وقبلت ما تقوله مؤقتًا، وقد أقبل عليهم بايو الذي ألقى تحية مقتضبة فقط "صباح الخير" ولكن ما أثار انتباهها هو وجه بنتها الممتقع والغاضب وكأن جنًا قد تلبسها وانقلب حالها من جيد إلى سيئ جدًا وهنا فتحت حكمت على نفسها مدخلاً من مداخل الشك الجديد الذي ليست بحاجة إليه إطلاقا!

قضى على هذا الجو المتوتر صوت الخادمة التي أنحت تخبرهم بأن الطعام جاهز وبالفعل حثتهم مارلين إلى الطاولة، وقد كانت كالشوكة في الحلق لخديجة عندما حثت مارلين حنا على الجلوس جانباً حكمت وأخذت خديجة بينهم، وقد كان البيت هادئًا يخلون من إيفا التي في عش زوجيتها ومعها ريموندا التي تزورها كل أحد بعد الصلاة وتطمئن عليها.

ولكن، بالرغم من سعادة حنا الكبيرة والبالغة مثل اليتيم الذي حصل على ثوب عيد ميلاد جديد لأول مرة في حياته، إلا أن بلايا كان أشد فرحًا وسعادةً من أخيه ولولا أنه من العيب لكان وقف ورقص فوق الطاولة الآن وأقام الولائم، ولما لا وأمامه جوليانا التي بدأت في تناول طبق الأرز والشوربة الساخنة والفاصولياء الموضوع بهم السم الذي اشتراه من صانع السم قبل عدة أيام وأجل كان هو ذلك الأحدب الذي يتردد على صانع السم، والآن سيقول بعد عدة ساعات قليلة أكثرها على صباح الغد، فليرحمك الرب يا جوليانا!

ولكن الجانب المُشرق في الغداء الأخير أنه كان دجاج أي لحم حلال، وقد شُفيت صدورهم من قلق داهمهم قبل العزيمة أنه يكون لحم خنزير، فيكفي خمر الصباح الذي تناولوه كراهية.

جلست مارلين، وإلى جانبها خديجة بعد انتهاء الطعام، وقد ذهب بلايو إلى مكتبه بمنتهى الوقاحة والبرود، وطارق إلى إسطبل الخيل وحنا، وحكمت إلى الشُرفة المُقابلة للصالون، وقد رتبت مارلين كل هذا حتى تستطيع التحدث مع خديجة بعقلانية وهدوء.

أسندت مارلين عكازها البنى على مسند الكرسي الفضي المُزركش ببعض الرسومات الذهبية والحمراء متناغمًا مع رخام البيت الأبيض.

ثم مالت بيدها واتكأت على المسند بمرفقها ناحية خديجة قائلة بعقلانية وهدوء: الآن يمكنني أن أتكلم معك بهدوء وأنتِ من دور أبنائي يا إليزابيث الفارق بينك وبين بلايو ابني الأكبر ليس كثيراً، ولكن اسمعيني وبعدها ردى.

أمالت خديجة رأسها بالموافقة قائلة بهدوء: بالطبع سيدتي هذا شرف لي كبير.

اسمعي يا إليزابيث، موقفك سئ مع جوليانا لأنك لم تُساندِيها بالشكل الكافي في أزمتها، أي فتاة في تلك اللحظة حتى ولو كانت مخطئة " "...فعلًا تتقوى بعائلتها، جوليانا إن خبئت عليكِ أمر حنا فهي خافت من عقابك

قاطعتها خديجة رافعه أحد حاجبيها باستنكار، وأشارت إلى نفسها: أنا أعاقبها؟! لم يحدث في حياتي أن ضربتها يومًا.

نظرت إليها مارلين بجدية قائلة بحزم: لكنك فعلتي ولم تساندِيها، ما لا تتقبليه هو أن جوليانا كانت مُجبرة على الوضع، وليس برضاها نحن اقتحمنا حياتها ببلانى وشرنا وهي وحيدة بين كل هذا، وفعلت ما يُمليه عليه ضميرها.

"على الأقل كانت أخبرتني لم تلف وتدور علي"

كانت ستُخبرك، أنا وأنتِ كنا فتيات في سنها وفعلنا مصائب، وكان يمر الوقت، ونخبر أهالينا من دون ضرب أو سب أو حبس في " المخازن. خلاصة القول تحدثي معها وضعي

" .حد لهذا الخصام ابنتك مثل صديقتك تُشكلينها على يدك، وتتخذين منها كاتمة أسرار وهي كذلك أنتِ في نعمة كبيرة

.زفرت خديجة بهدوء قائلة: عندما نعود سنتحدث بمشيئة الرب

ربطت مارلين على يدها بحبور وسعادة وود، لكن قطع تلك اللحظة الدافئة، وأخرجهم من هذا المزاج الرائق هو هرولت حنا وعدم رده !عليهم، وقد دخلتا إلى الشرفة ليرتفع صراخهم وعويلهم، ويشق سكون القصر من هول بشاعة المنظر أمامهم

في شُرفة القصر الأرضية المُطلة على الحديقة الخلفية للقصر دخلت حكمت، ومن خلفها حنا الذي أغلق الباب الزجاجي حتى يستطيع أن يتحدث معها على حدة وهدوء، ويبدأ يخطط لحياته القادمة معها والآن أدرك قيمة والدته الحقيقة ومعنى كلمة مكر النساء وذكائهم الجبار .وأخيرًا وجد أحدًا يستطيع كبح جموح خديجة، ويوقفها عند حدها، ويوقف نظراتها الحارقة وكلماتها الحادة أكثر من حد السيف

ولكن حكمة كانت في عالم آخر من الانبهار بهذا الجانب الخفي من القصر، وقد كانت تلك الشرفة كبيرة واسعة من الرخام الأبيض، وعلى عموديها الذين يحملون الطابق العلوي تمثال من نفس نوع الرخام لجسد المسيح المصلوب وبها طاولة صغيرة وأربعة مقاعد، وقد جلست على أحدهم، وأخذت تنظر إلى تلك المساحة الخضراء الفارغة الواسعة من الحديقة بانبهار، وتلك النافورة الرخامية ومائها المُنهمر وبعض الطيور كانت تستقي منها وهناك لمحت طارق عند إسطبل الخيل يلاعب أحد المهور الصغار، ويطعمهم وكأنهم في الجنة .بمعنى الكلمة

نظرت إلى حنا الذي جلس أمامها بتساؤل قائلة وهي تُشير إلى تلك المساحة الخضراء: لماذا لا تستغل تلك المساحة، وتزرع بها بعض .النباتات والأشجار، وتضع حولها سياجاً، وتكون مساحة خاصة، ستكون مفيدة وجميلة جدًا

ابتسم حنا بهدوء، وعقد ذراعيه أمام صدره على قميصه الرمادي قائلاً: فقط حددي موعد الزفاف، وستكون تلك المساحة لكِ وحدك .ازرعي بها ما تريدين، وقد أبني لكِ بها معمل خاصاً

!شبكت أصابعها بتوتر واستدركت: هل سنعيش هنا بعد الزواج؟

.هز رأسه قائلاً بهدوء: نعم هذا القصر أرث عن جدي الأكبر بعد أن انتزعنا مدريد من أيدي المسلمين وعائلتنا كلها تزوجت فيه

ابتسمت له يتوتر وآثرت الصمت، وقد شعرت ببعض الدوار الذي يداهمها وألم بسيط للغاية في معدتها، لكنها تجاهلته وأمسكت كوب الشاي تشربه بهدوء وبسبب كلماته تلك شعرت أن قوالب السكر الثلاث لم تغر مرارة الشاي إطلاقًا، لكن حنا كان هناك أمر يشغله وغاب .عن نظره أي شيء غيره

.نظر إليها قائلاً بتساؤل وهو بنفس جلسته: من تلك المرأة التي كانت تقف معك عند الكنيسة بعد الصلاة

ارتشفت القليل من الشاي، وبللت شفتيها بهدوء، ثم وضعت الفنجان عن الطاولة، ونظرت إليه بهدوء قائلة: سأخبرك لكن هذا سر، .وأرجوك لا تخبر به أحدًا

هز رأسه باهتمام لتتابع حكمت وعينيها تتواصل مع عينيه لتثبت له صدقها: تلك المرأة اسمها رؤيتنا جارتنا مات زوجها منذ خمسة أعوام، وترك لها ابنتها الوحيدة، ولكن كان يعمل عامل نظافة ودخله محدود وهي يتيمة لا أحد لها، واضطرت لأن تعمل في البغاء حتى تطعم ابنتها، وقد أراد أهل الحي طردها، لكن أنا وأخي فيكتور الشماس وأختي ماريز وزوجها عرضنا عليها العمل في شيء آخر يعطيها رزق حلال، وقررت أن تعمل في الطهي، وقد استعارت منى مبلغ لشراء موقد وأواني طهي وأغراض ستساعدها، وقد تحسنت أحوالها .تمامًا، وكانت تسدد المبلغ الذي استعارته منى

زفر حنا بهدوء، وأغمض عينيه لثواني بعد أن انتهت من كلامها والآن تذكر أن تلك المرأة قد كانت رفيقة له قبل ثلاثة أعوام، وكانت تأخذ منه مالاً طوال رفقتهم التي استمرت لشهرين، وقد أنهى هو الرفقة لمله منها وكم كان حقيرًا حقًا، وتلك الفتاة تشعره الآن بمدى .حقارته، وكأنها سكين قد طعنه بقلبه، وأيقظه على قذارة ماضيه

فتح عينيه ينظر إليها، وقد ابتسم بهدوء قائلاً بصدق: أنتِ أجمل وأروع إنسانة في الوجود، ليس هناك الكثير منكِ في هذه الدنيا لكانت انتهت حروب العالم. ثم تابع بفضول، وهو يغلق على هذا الموضوع الذي يؤلمه واستأنف: اخبريني بحق، أين تضعين تلك الورود التي أحضرتها لكِ والرسائل.

ابتسمت بفخر، وأخذت تشرح وهي تُضيق يديها بحجم الصندوق: في صندوق خشبي متوسط لونه بنى في السرداب الأيمن، ووضعت فيه الرسائل أيضًا، وقد كتبت به رسائل لك أيضًا، لكن لن تحصل عليها إلا عند... آه!

خرجت منها أنه عالية متعلمة، وقد أمسكت بصدرها بألم، وانحنت بجزعها إلى أسفل قليلًا، وقد وقف حنا بقلق، وأقبل عليها ورفع وجهها المحمر بعض الشيء وربط على، وجنتها قائلاً بخوف: جوليانا ماذا يحدث معك؟

حاولت سحب أنفاسها بصعوبة قائلة بصوت خافت بلا طاقة: لا أستطيع التنفس أريد ماء.

دخل حنا إلى القصر بسرعة، وهو يرقد إلى المطبخ يُحضر كأس ماء مُتجاهلًا أسئلة خديجة ومارلين عن ما يحدث، وبينما يملأ الماء من السطل الكبير استوقف شيء أسفله لامع، وقد انحنى يأخذه وينظر إليه، وحاول قرأته، وقد كانت زجاجة سم مُنسكب القليل منها على الأرض وهي فارغة! ولا أحد في رأسه يفعل هذا الآن سوى بلايو وهو المُتهم الأول والوحيد الآن؛ بسبب رصيده السيئ مع حكمت.

ولكن لم يجد وقتاً للتفسير، وقد سقط الكوب، وتكسر من يده عندما صرخت خديجة، ونادت عليه مارلين بأعلى صوتها وكذلك طارق!

وقفت العربة أمام باب المشفى الصغير الفاخر الخاص بالسادة والنبلاء، وهبط منها حنا برعب وبسرعة، ومن خلفه خديجة التي كانت لا تستطيع السيطرة على بكائها، وقد شحب وجهها بشدة، وهي ترى حالة حكمت السيئة، ولم تكن طبيعية إطلاقا بداية من وجهها المزرق المتورم بشدة ونهايةً بصعوبة تنفسها البالغة، وقد هرول بها الأطباء إلى إحدى الغرف، وقد منعوا حنا وخديجة من الدخول، لكن حنا استوقف الطبيب بعجلة وسرعة قائلاً بقلق، وهو يخرج تلك الزجاجة التي وجدها في القصر: انظر لقد وجدت تلك الزجاجة، وربما تكون خطيبتي قد شربت منها أرجوك افعل أي شيء وأنقذها أرجوك.

نظر ذلك الطبيب إلى مكونات الزجاجة المدونة عليها، وقد ربت على كتفه يُطمئنه قائلاً بعملية: فقط اهدأ وهدء السيدة، ولا تقلق لقد أنقذتها بالفعل.

ثم رقد ذلك الطبيب إلى الغرفة التي بها حكمت وأخذ الممرضان يدخلون ويخرجون ببعض العقاقير الطبية والمستلزمات الطبية، وعلى الناحية الأخرى قد جلس كلًا من خديجة وحنا على تلك الكراسي الخشبية في رواق المشفى أمام الغرفة، وقد كانت خديجة تبكي بصمت، لكن بقوة تدعوان الله في سرها بعودة ابنتها سالمة، وإلى جانبها حنا الذي تمسك بالصليب المُعلق في رقبته يدعوان ربه بأن تعود سالمة وبصعوبة بالغة كان يسيطر على أعصابه، وكلما مر الوقت يزداد توتره واحتمال أن تنفلت أعصابه في أية لحظة، ولكن مع ذلك التوتر، وهو يرى خديجة تستند بمرفقيها على ركبتيها، واضعه وجهها بين كفيها متكورة على نفسها تبكي بصمت، وتحاول التماسك والدموع تغرق وجنتيها بقوة وبلا توقف مثل مياه الصنبور المُعطل وكيف تتماسك، وتلك ابنتها الوحيدة والكبرى قد في أي لحظة ترحل عن عالمنا نهائيًا، ويكفي أن حكمت غاضبة منها؛ لأنها صدقت كلام الواشين.

كيف فعلت هذا بابنتها حقًا، وصدقت كلام الوشاة؟!

وقف حنا من على كرسيه، ثم اقترب منها، وجثا على ركبتيه أمامها، ثم أمسك كفيها بين كفيه الشاحبين كلون وجهه، وقد نظرت إليها بعينيها التي تشبه كأسًا من الدم، وقد تسللت أصابعه المرتعشة تمسح دموعها عن وجنتيها بهدوء، ثم أمسك بيدها قائلاً بهدوء ظاهري، وهو يبث إليها طاقة موجبة: أما إليزابيث، سناديكى أمي فيكفي أنكِ المرأة التي أنجبت جوليانا إلى تلك الدنيا وربيتها، وكبرت على يديك حتى أعطيتني قطعة من سماء الدنيا الصافية، صدقيني يا أمي جوليانا ستكون بخير توكلي على يسوع، وادعى وستكون بخير، جوليانا قوية وصغيرة، وتنتظرها حياة وعمر طويل لا يمكن أن ترحّل بتلك السهولة، أُقسم لكِ أنها ستعود إلينا؛ لأننا من نحتاجها ليست هي، ولكن عديني أنكِ ستتحدثين معها، وتنهي هذا الخلاف.

بللت خديجة شفتيها قائلة بصوت متحشرج من البكاء: لتلك الدرجة تحب جوليانا؟

ابتسم بفتور قائلاً بصدق يشع من عينيه نافذ كشعاع الشمس: لقد وهبتني جوليانا الحياة، وأنا أموت ليست حياة عادية، بل حياة هي فيها وتُنيرها بوجودها، أنا سأفعل المستحيل لأجلها جوليانا قد حملتها وهي طفلة على يدي ورعتني وهي شابة جميلة كيف لا أحب جوليانا، يكفي إخلاصها للرب، وإيمانها بأن عملها مهنة سامية لا تحتاج إلى المُغالاة في الأجر، يكفي ابتسامتها وحنانها الذي تغمر به الكل، يكفي موقفها مع فتاة الليل، يكفي أنها تحبني بكل ما بي من عيوب.

مسحت خديجة دمعة فرت من عينها اليسرى دون اليمنى قائلة بإرهاق وحزن على حالة هذا الشاب وابنتها: ولكن جوليانا عصبية وعصبيتها مدمرة قد تخرج منها كلمات قاسية، وعندما تغضب لا تغفر.

رفع رأسه بلا مبالاة قائلاً: ليست أكثر مني، أنا أحب جوليانا ولا أرى عيوبها يا أمي فالحبيب المخلص لا يرى في حبيبه أي عيب، لقد أحببت السيد أندرو، وقد كان أعرج بسبب ذلك الحادث الذي أصاب قدمه، وتحملتى غضبه، ولم تشعري بإعاقته أبدًا؛ لأنكِ تحبينه من قلبك لا من رؤية عينك فقط أو تفكير عقلك فقط... ثم اختنق صوته بالبكاء، وكبح دموعه التي تحجرت في عينه من النزول قائلاً بصوت متحشرج مثل الأطفال بتعلق وتيه: أنا أحب جوليانا يا أمي إليزابيث، لكن حبي مؤذ لها منذ أن عرفتها، ودائمًا ما يأتيها الألم بسببي، لو ضاعت جوليانا سأضيع ليس لي غيرها.

ثم توقف لبرهة يتحكم في صوته ودموعه تهبط في سلام واستأنف: منذ شهر خسرت أعز إخوتي وأصدقائي، وكنت أراه في كل .... مكان، وكل خطوة وعندما تعبت لم أجد سوى جوليانا أتحدث معها، وتخفف عن قلبي، وقد كانت سكني وسكوني، لكن إن رحلة... ثم انفجر بالبكاء من دون سابق إنذار قائلاً من بين شهقاته: إلى من... سوف... ألجأ... ليس لقلبي سواها... يا أمي!

ثم خبئ وجهه البكاي بين أحضانها، وانخرط في بكاء مرير وكأنه شخص آخر غير ذلك الذي كان يبث إليها الطمأنينة والسكينة، وقد انهار الجبل، وتحطم صمود الصخر بين أحضانها التي احتوته بهدوء وألم لمشاعره الصادقة وكم الألم الذي سيتعرض لو عرف الحقيقة وبالتأكيد لن يقدر على أن يتحمل صدمة الألم والحقيقة التي لا بد من معرفتها سواء عاجلًا أم آجلا، ولكن عقلها الآن مشلول يعطف على ذلك البأس المدعى للتماسك ومع حكمت التي بين يدي الله وحده القادر على إنقاذها.

استمر هذا الوضع عدة دقائق حتى خرج الطبيب قائلاً ببشاشة: اطمئنوا تمامًا ابنتك بخير يا سيدة وخطيبتك بخير فقط هي نائمة، وتحتاج إلى الملاحظة والرعاية حتى يخرج السم من جسدها تمامًا.

ثم أشار إلى حنا بأن يقترب منه، وكانت قد دخلت خديجة إلى غرفة حكمت حتى تطمئن عليها.

أخرج الطبيب زجاجة السم من جيبه قائلاً بعملية، وهو يشير إليها: هذا السم من المفترض أن يظهر تأثيره ببطء، ويقتل بهدوء وخلال ست ساعات أو سبعة، لكن يبدوا أنها قد شربت خمر اليوم، ولم تشرب منذ مدة، فلم يتحمل جسدها، وظهرت الأعراض، وبالرغم من هذا ليس جيداً، فتأثير السم سئ، وقد تعيش بإعاقة، وستظهر مع الوقت، وعلى المدى البعيد بالتدريج، ولكن قد تكون في العينين أو الحركة أو الإنجاب هذا ما يمكن أن نجزم به الآن، وعلى الأرجح عيناها هي المتضرر الوحيد هنا، لكن هناك أملاً بسيطاً في أن تتعافى فقط إذا لم تتعرض لأي صدمات جسدية أو نفسية، سامحني لكن خطيبتك كانت كمن يتمسك بالموت هربًا من الحياة.

نكس حنا رأسه بغضب وألم، وكل هذا بالتأكيد بسبب بلايو ولا أحد غير بلايو، ولكن كيف يوقفه عند حده ومحبوبته الآن ستتضرر لآخر عمرها.

نظر إلى الطبيب ودموعه لم تجف قائلاً بحزن وكمد: أرجوك لا تخبر أي أحد.

هز الطبيب رأسه بتفهم، وربت على كتفه بهدوء يواسيه ثم رحل، وقد دخل حنا إلى غرفة حكمت غافلاً عن زوجي الأعين الداكنة البنية التي كانت تُراقبه من بعيد!

صوت تكسير كراسي خشبية قديمة وصراخ وهدير غاضب يخرج من ضبع غاضب قد انتزع منه ذئبًا شجاع فريسته الضعيفة اليوم.

وقد كانت الألواح الخشبية تتطاير يمينًا، ويسارًا في الهواء حتى اصطدمت بجبين ذلك الفتى مساعد بلايو طويل القامة ضخم الجثة عظيم البنية عريض المنكبين الذي كان يتجسس على حنا في ذلك المشفى، وقد أوصل له الأخبار السيئة والمؤلمة أن حنا قد أنقذ جوليانا وقد تعافيت تمامًا ليجن جنونه، ويشتد غضبه، وقد شعر بأنه سُيصاب بجلطة دموية أو نوبة قلبية وكأقل الخسائر البول السكري من فرط الغيظ الذي غلب على الكره، وكم كانت حكمت محظوظة لأبعد حد وكأنه خسر كل الحظ الجيد في حياته، وقد كسبته جوليانا بلا حساب أو إذنًا منه.

ولم يجد شيئاً يفرغ به غضبه وعصبيته وضيقه سوى مستودع المنزل والأشياء القديمة فيه، ولم يعد هناك شيء سليم تحت وطأة يده.

أنهى تهشيم أخر كرسي في الجدار بقوة، وكل ساق منه طارت على حده ليصرخ بأعلى صوته بغضب قائلاً: شُيئًا لا يُطاق لا يُطاق، يا يسوع ساعدني، ماذا أفعل لأتخلص من عدوة المسيح تلك، آه! أكاد أفقد عقلي!

نظر إليه مساعدة فرانسيس قائلاً بهدوء واستحياء ويديه مضمومة على بعضها عند حزامه الجلدي: سيدي اعذرني لقد تلوثت سمعتها ونجت وأعطيتها سماً، ونجت وضربتها ولم يؤثر بها لماذا...

اقترب منه بلايو بعينيه حمراء البياض سوداء الزُرقة وشعبه المشعشع ولحيته غير المنتظمة وقميصه المُمزقة أول ثلاث أزرار منه جراء شدة بعنف وضيق عينيه قائلاً بهدوء ما قبل العاصفة: لماذا ماذا؟ قُل يا فرانسيس تكلم.

رفع فرانسيس نظره إليه قائلاً ببلاهة: لماذا لا تتركهم وشأنهم والسيد حنا يكتشف خطأه وحده، ويدرك قيمة أفعالك لأجله؟ أو... صمت لبرهة قبل أن يكمل بغباء لا محدودية فيه: لماذا لا تُبلغ عنها محاكم التفتيش وهم سيجدون حلًا إن كُنت تشُك في كلماتها ونصرانيتها، ولا تملك دليل هم سيجدون الدليل؟

انتهى فرانسيس من كلماته المعدودة الحمقاء لتهبط صفعة قوية على وجنته اليمنى من دون سابق إنذار من كف بلايو الغليظ، وقد أدرك الآن كيف كان شعور جوليانا التي صفعها هذا الكف من قبل.

ولم يستطع حتى إن يضع يده على وجنته، بل جذبه بلايو من تلابيب قميصه بقوة، وصرخ في وجهه بنفاذ صبر قائلاً: أقسم أن قتلك وحده ليس جزاء لغبائك هذا، بل إني سأُمثل بجثتك بعد قتلك يا أحمق، ثم دفعه في صدره بقوة، حتى تراجع عدة خطوات للوراء ليكمل بلايو بحنق قائلاً: حركة الترقيات على الأبواب وبالتأكيد اسم حنا بها إن علم أحدهم أن خطيبته مشكوك في أمرها بأي طريقة كانت حنا أول من سيتضرر وبالمثل أنا، أنت غبي!

نطق فرانسيس بدفاع عن نفسه بسرعة قائلاً ليتفادى كل هذا السب وتلك الإهانة: أنا كنت أقصد أن محاكم التفتيش كل فترة تقبض على مدعي الكثلكة سواء من بيوتهم، أو من على الحدود يحاولون الهرب، وبعد مدة تُضئ النيران المشتعلة في جثثهم ليل سماء مدريد.

خلل بلايو أصابعه داخل شعره ويده في خصره وهو يستمع إلى حديث فرانسيس بلا مبالاة، وقد اعتقد أنه سيتفوه بأي غباء أخر، لكن ما أن انتهى من حديثه حتى اشتعلت في رأسه شرارة شمعة أعطته فكرة جبارة تلك المرة لن يثق بنجاحها، لكن سيحاول وليرمي ورقته الأخيرة ولتربح أو تخسر لم يبق أمامه سوى تلك الفكرة الأخيرة.

التقط باليو سلاحه الناري للصغير من على الطاولة، ووضعه في خصره قائلاً، وهو يربت على صدر فرانسيس: صدقني إن نجحت تلك الفكرة برأسي لك مُكافأة كبيرة هيا اتبعني.

أتتذكرون صانع السم القصير الذي يسكُن في مختبر دكستر العبقري تحت الأرض؟!

أجل ذلك الأصلع مثله مثل الوطواط قد كان يعمل في الليل عندما تسكُن الحركة، وينتهي استقبال الوافدين المشترين في الصباح ويرتاح قليلاً، ثم يعاود العمل في الليل وزوجته المخلصة الوفية تسعى له على النباتات السامة والطبية وبعض المواد الكيميائية العلاجية والسامة، أجل هذا هو.

قد كانت زوجته الشقراء ذات العينين الخضراء عادت إلى توها إلى مُختبرهم الواسع وعش زوجيتهم تغطي وجهها بحجاب أسود من الشيفون على وشاحها الأسود وبيدها سلة من القش متوسطة بها بعض الخبز وبعض البقالة، وقد أزاحت تلك النباتات عن الباب في الأرض بعد أن دخلت هذا الكهف الصغير، ونزلت الدرج المؤدي إلى باب المختبر، ولكن صرخت بقوة ورعب عندما نظرت إلى جثة زوجها مفصولة الرأس، وقد وضعت رأسه على صدره والدماء تغرق الأرضية وأثار العراك واضحة في أرجاء البيت، وقد كانت هناك ورقة على رأسه اقتربت منها بأيدي مرتعشة لتصرخ بخوف وألم وهلع، وهي تقرأ ما قد كُتب "هذا جزاء من يصنع سموماً غير نافعة، "!الأحدب... ولكن لا يوجد شخص اسمه الأحدب تعازي الحارة مدام

ولكن إن كنتم تظنون أن بيت صانع السم وزوجته فيه كرب وبلاء ومصيبة فأنتم إذًا لا تعرفون على ماذا استيقظ أهل الحي فجر قتل !صانع السم

وقد استيقظ أهل الحي على صراخ عال وعويل نساء وأطفال بسبب اشتعال النار في بيت حكمت، وقد وصلت النار إلى حد السماء في ارتفاعها وقوتها قد التهمت جدران البيت والأشجار والورود على جانبها وصوت صراخ الغنم في الحظيرة بالحديقة الخلفية كان أكثر ما !يُسمع، وكانت النيران تلتهمهم أحياءً بلا رحمة أو شفقة مثل نار جهنم عافاكم الله تلتهم الكافرين أحياء

وقد تكاتف أهل الحي أغلبهم_عادا كاترينا التي حاولت منع فيكتور من الخروج من البيت، ولكنه لم يستمع لها، وخرج بالقوة _ الذين خرجوا من بيوتهم بملابس النوم والنساء بشعورهن حرة من دون حجاب يطفئون تلك النيران وألسنة اللهب سواء بالماء أو بالرمال أو .بالبطاطين، ولكن لا فائدة من ذلك فلقد التهمت النيران المنزل حقًا، ولن تُطفأ بسهولة

وتخيلوا معي أعزائي القُراء منظر أهل الحي الذين تشحمت وجوههم، وتلوثت بهباب الحريق وملابسهم اسودت، وكل شيء بات أسود سواء حديقة حكمت المزروعة بالأعشاب النادرة والطبية وجدران البيت البيضاء والورود والأغنام الميتة والبطة الخاصة بطارق، كُل .حي قد مات ولا حياة في هذا البيت من الآن فصاعدا ولا مكان لخديجة وأبنائها في هذه الحياة من الآن فصاعدا

ويا ليت أن البيت فقط قد احترق، بل الحياة والذكريات والصداقة والشباب والطفولة والفرح والحزن كل شيء قد احترق أيضًا، كل !شيء

وقد دخل بعض الرجال إلى البيت بيأس وقلوب ثقيلة مُحملة بالهم من موت تلك العائلة الطيبة، وقد تذكّرت النساء كل اللحظات والذكريات معهم، وشرعن في البكاء والنواح والألم حينما شرع الرجال في إخراج الجثث، لكن مهلاً ما الذي يحدث بحق الله الواحد الأحد لا يوجد أي أثر لأي جثث أين إذًا خديجة وأبناؤها؟!! وهنا قد حط على رؤوس أهل الحي الطير، وتحول الحزن إلى خوف من أن تكون .أرواح شريرة غاضبة أصابت خديجة وأبنائها بالسوء والبعض مُندهش، وبات الشك يساوره في أمر هذا الحريق الذي ربما يكون مُفتعل

ولكن هناك في مكان آخر بعيد جدًا كان بلايو يقف عند أحد التلال العالية الكاشفة للمدينة بأكملها إلى جانب خيله الأسود، ويتخذ وضع .ذلك الأحدب للتخفي، وينظر إلى ذلك الحريق المُشتعل ببهجة بالغة، وقد تحقق حلمه الآن، ونال ما صبر عليه، وقد طال الصبر

وقد زادت سعادته وفرحته عندما التفت إلى ذلك الفتى مساعدة فرانسيس وهو بنفس هيئة الأحدب، وقد انحنى ذلك الفتى، ثم اعتدل قائلاً .بأدب وعينيه مُسلطة على النجيلة الخضراء: لقد تم الأمر سيدي، أبشر

الفصل العشرون

هل بإمكانك أداء الصلوات وتملى علينا صلوات الزفاف آنسة جوليانا" نطق بتلك الكلمات ضابط برتبة متوسطة القيمة بين رُتب ضباط " محاكم التفتيش وبالأخص نحن الآن تحت أقبية محكمة مدريد وللأسف قد سقطت حكمت كفريسة بائسة وبمنتهى الذل والمهانة من دون أن تقاوم حتى، واستسلمت إلى أغلال الأسر، ويقوض الرعب تسلب منها ما بقي من عمرها إلى نهايته فالداخل هنا مفقود وعليه اليقين أن رؤية شعاع الشمس باتت أصعب من السفر إلى المريخ.

حاولت حكمت التحلي بالهدوء والثبات الانفعالي بقدر ما هو مُستطاع، بالرغم الضغط والاضطراب من حولها في تلك الغرفة الصغيرة والأعين كلها عليها وحدها، وكيف لا وهي الآن تسلية الليلة!

بللت شفتيها المُشققة الجافة قائلة بهدوء، وفي تواصل بصري مع ضابط التحقيق: بالطبع سيدي.

أشار إلى محراب الصلاة حيث يقبع صليب خشبي عليه جسد المسيح وبعض الشموع قائلاً: تفضلي أدى الصلاة أمامي.

جرّت قدماها ثقيلة الخطوات بفضل الرعب الذي تلبسها ثم جثت على ركبتيها أمام المحراب، وأغلقت عينيها ثم ضمت كفيها أسفل ذقنها، وأخذت تتلوا الصلوات بصوت مرتفع نسبيًا، حتى يتثنى له سماعها، وقد انتهت بالفعل، ثم وقفت وتزامًا مع وقوفها قد دخل أحد الجنود يرتدي وشاحاً طويلاً أبيض عليه صليب أحمر مثل قميصه، ثم وضع صينية طعام، وقد كان عليها كأس بيرة كبير، وقطعة لحم كبيرة نسبيًا وخبز، وقد كان اللحم لحم خنزير، وقد كان الهدف من هذا الاختبار معرفة ما إذا كانت ستأكل من اللحم، وتشرب البيرة أم لا، وإن لم تفعل، فقد بات أمرًا واضحًا للعيان. أما مسلمة أو يهودية _ففي اليهوديّة لحم الخنزير مُحرم كما في الإسلام _وقد وفرت عليها عناء التعذيب والخداع، ولكن هذا لن يحدث أبدًا، فسواء إن اعترفت أم لم تعترف فستحصل على حصتها من العذاب لا محال بينهم غير أمر الله.

أشار الضابط إلى الطاولة، ثم وقف قائلاً بعملية: تفضلي تناولي الغداء حتى يأتي البابا والضابط ونبدأ التحقيق.

ثم خرج وخرج الجندي، وقد باتت وحدها مع صينية الطعام، وذلك الضخم الملثم، وكان يرتدي قميصاً وبنطالاً باللون الزيتي والباطل أغمق في الدرجة، وفي خصره سيفه، ويغطي وجهه بشيء يشبه الجوال باللون الزيتي أيضًا ما عدا عينيه المُثبتة عليها بكثب وبلا توقف، حتى يراقب أي فعل صادر منها، ويُحسب نقطة عليها.

سحب نفس عميق، وجلست على الكرسي، ثم بدأت في التناول على مضد تحاول إخفاء علامات التقزز على وجهها بجهاد كجهاد النفس، وقد نظرت إلى ذلك الملثم نظرة أخيرة قبل أن تنظر إلى فتحة التنفس في الأرض، وتتذكر ما قد حدث قبل يوم وما قد أوقعها في أسوأ كوابيسها الآن.

والآن سنعود يوماً إلى الوراء قد كانت تماثلت إلى الشفاء تمامًا، وما عاد هناك مشكلة، إلا أنها تشعر بألم يناوشها من فترة إلى أخرى في عينها اليسرى دون اليمنى، إلا أن حنا والطبيب احتالوا عليها فقط بأنه أثر السم _وبالطبع لم يقدر حنا على القول بأنه بلايو فقط أحد يكيد بها، وقد فكرت خديجة بأنها عدوة الحي اللدودة كترينا، وبينما ذهبت حكمت إلى أنه بلايو بلا منازع _ وسيزول قريبًا، ولكنه لم يزل بعد، ولكن أكثر ما أدهشها هو تحسن العلاقة بين حنا وخديجة إلى حد كبير مُقلق ومُبشر بالخير أيضًا وكأنها أمه وهو ابنها بحق، ولكن كلاما في مصلحتهم فلا مشكلة، ولكن الجانب السيئ هو أن حنا عليه السفر خارج مدريد إلى قُرطجنة في مهمة خاصة بعمله، وقد يستغرق أسبوعاً أو أسبوعين على الأكثر، ولكن السيئ هنا هو شعور بالانقباض والخوف ألم بقلبها ومشاعرها بأن شيئاً سيئاً سوف يحدث لمن هي لا تعلم بالضبط، وليس خوفًا فقط من مرحلة الخطوبة الرسمية التي تبدأ بها تلك العلاقة المحرمة، بل شيء سيئاً آخر ينقبض إليه القلب عفاكم الله.

ووسط كل انشغالهم بإيجاد طريقة للهرب من تلك الزيجة ومن حنا، وقد كانت محاولاتها في التفكير هي ووالدتها وأخيها تنتهي بصفر كبير على اليسار لا فائدة ولا حل وكيف سيهربون أصلًا وحنا صاحب شرطة مدريد بأي وسيلة سيأتي بهم، وفي النهاية شرعت في الصلاة بتهور وجنون داخل حجرتها ليس داخل السرداب بلا أدنى حذر، وقد باتت بلا عقل يملى عليها الحذر.

وأخذت في الدعاء والصلاة ومناجاة الله بأن يمن عليهم بالخلاص والنجاة وعدم الوقوع في الخطيئة المحرمة التي لا يقدر عقلها البسيط ولا قدراتها المحدودة على حلها، وظلت على تلك الحالة تدعوان الله، وتستغفر وتصلي على نبينا محمد صلاة يقول بها الهم، وتنحل بها العقد.

وقد تحقق وعد الله للقائل ﷻ في كتابه "ادعوني أستجب لكم" والقائل في معجزة خلاص ذي النون _عليه السلام _"لولا أنه من المسبحين للبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون" وقد شعرت بيدي طارق التي أخذت تهز كتفها حتى تستيقظ من غفوتها على سجادة الصلاة مُفترشة الأرض، ولم تجف دموعها بعد.

!وقد كانت هناك زيارة من بلايو لهم والتي لم يتوقعوها أبدًا، وأن يخطو المستشار بلايو من بلاط الملك بيتهم، هذا من العجب العُجاب

أخفت سجادة الصلاة أسفل سريرها، وعدلت حجابها ليُلائم ذلك المنتشر في إسبانيا وأوروبا، ثم خرجت إليه، وقد كان يجلس على أحد كراسي الصالون مرتديًا أفخر ثيابه، وساعته الذهبية المُعلقة في جيب صغير بمعطفه بسلسلة ذهبية، وعكازه الخشبي الأنيق البني، وكانت رأسه على شكل صليب مطلي بالفضة.

وقف أصحاب البيت الثلاثة إلى جوار بعضهم البعض مُتكاتفين أمام المُحتل الضيف غير المُرحب به، وكانت الأنظار المُندهشة من قبل خديجة وصغيرها إما حكمت فكانت أنظارها مشتعلة غاضبة تحرق أنظار بلايو الباردة.

مدد بلايو عصاه على الكرسي المقابل، ثم نظر إلى حكمت ببرود قائلاً: أنتِ في ورطة يا جوليانا وأنا هناك إليكِ بالخلاص.

ثم بلل شفتيه، وتابع بالوتيرة نفسها: زواجك بحنا لن يجلب سوى الخراب عليكما وغير هذا أنا لن أقف أشهد على زواج حنا من امرأة أشك في كلماتها ونصرانيتها لذلك عندي حل مرضي للجميع.

لم تحد أنظار حكمت عنه، ووقفت بنفس الحدة والتحدي، ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها قائلاً بتساؤل: ما حلك؟

وقف بلايو والتقط عصاه قائلاً: هناك مركب تجارة ستنطلق في التاسعة غدًا من الشرق أي مسير خمس ساعات تجهزين قبل الفجر وأنا سأتولى أمر غيابكم وتجهزوا الآن، ستذهبون إلى المغرب آخر مكان يتوقعه حنا، اتفقنا؟

قبضت حكمت على يد خديجة قبل أن تتفوه بأي شيء يضر بمصلحتهم، ونظرت إليها بمعنى اصمتي، ثم تقدمت عدة خطوات لتقف أمامه قائلة بحزم: موافقة لكن أريد بيتاً، وعمل نحن لن نذهب من دون أن نؤمن حياتنا.

وضع قبعته الطويلة الأسطوانية السوداء قائلاً بلا مبالاة: رتبت كل شيء فحالتكم مثيرة للشفقة، على العموم عند وصولكم إلى الساحل المغربي اسألا الصيادين عن رياح خطابي وهم سيدلونك عليه وهو قد رتب كل شيء اتفقت معه عليه.

ثم رحل تُجاه الباب حتى يخرج تاركًا وراء ظهره زوجي من الأعين السوداء من الغضب والحقد خلفه تدعوا عليه بالوباء والبلاء والهم والغم لما فعله بحياتها، وقد قلبها رأسًا على عقب بمنتهى الوقاحة والبرود التام.

وقد هم بلايو بأمسك مقبض الباب والخروج، لكنه التفت قليلاً برأسه إلى جوليانا التي صاحت بغضب: أنت من وضع لي السُم ذلك اليوم؟

ارتفعت زاوية شفتيه المُغطاة بشاربه بسخرية وظهر لمعان نابه الأبيض تزامنًا مع زرقة عينيه؛ بسبب ضوء مصباح الجاز قائلاً بسخرية: ذكية للغاية يا جوليانا، للغاية! وعلى العموم تجهزوا بعد ساعتين سيأتي أحدهم بخيل سيوصلكم إلى نقطة تجمع مع المسافرين هي بلنسية وستتحركون وسطهم. ومنها إلى طنجة.

ثم رحل وتركهم لتهرول خديجة تُجاه حكمت وتجذبها من ذراعها قائلة بجدية: حكمت ما الذي يتفوه به ذلك الرجل؟

رفعت حكمت كتفيها بلا مبالاة قائلة: أمي بلايو منذ أن جاء بنا إلى هنا، وقد تشاجرت معه بسبب اتهامه لي بعدم مملكتي وهو من صلة على الوشاة وأمامك أعترف بأنه وضع السم لي، بلايو لا يريد أن أتزوج بحنا، ويرمى لنا بآخر ورقة في جُعبته وعلينا تصديقه، وليس أمامنا غير هذا... صدقيني هذا ما كنا نريده ولا وقت للشرح في المركب سأخبرك بكل شيء هيا بنا.

صوت تخلله واحتكاك خمس عملات ذهبية في كف متسخ مليء بالأتربة والقذارة أسفل أظافر التي لم تقم منذ عام لأحد الرجال هو ما كان يسيطر على مخزن بيت كاترينا إلى جانب صوت صرصور الليل كان القاطع لحديث كاترينا الواشية مع ذلك المتخصص الذي

استأجرته فورا من جانب نسبة الخضروات التي يقتات عليها عندما رأت بلايو بهالته وطلته التي تصرخ بالثراء يدخل بيت إليزابيث، وكان الهدف هو التنصت على حديثهم ومعرفة ما يدور هناك، وقد تشَتت وتشُتت تفكيرها عندما علمت صلة القرابة القوية بين بلايو وخطيب جوليانا المبجل ومنذ عدة أسابيع طلب تلويث سمعتها والآن هي خطيبة أخيه.

شيء مُعقد وغير قابل للتصديق بالفعل؛ ولذلك هذا الجاسوس هنا بعد أن تنصت عليهم، وأخبرها بموعد ركوب السفينة واللقاء، وإلى أين سترسى براكبيها المتاعيس الذي هم غافلون عن تلك المكيدة التي تُدبر لهم من خلف ظهورهم.

رحل ذلك الفتى بعد أن أقسم أنه لا يعرف امرأة تُدعى كاترينا، حتى لو صُلب لن يشي بها.

ثم تلحفت كاترينا بعباءتها السوداء ووشاحها الأسود، وتسللت من البيت خلسَة بعد أن تأكدت من نوم هيكتور، وقصدت في مشيتها العرجاء بسبب تقدم سنها محكمة التفتيش بمدريد لتشي بما وصل إليها منذ قليل.

بينما هناك في منتصف المدينة، وعلى ضوء الشمس كان الأهالي مشغولين بإطفاء الحريق الذي افترس منزل جيرانهم، كانت حكمت تركب فرسها الأبيض وأمامها بقليل فرس عليه خديجة وطارق الذي لا يحسن ركوب الخيل والقليل القليل من المتاع، وقد اجتازوا حدود كوتيكا، واقتربوا من بلنسية في وسط فوج من قرابة المئة فرد، وفي مثل حالهم هاربون، ولكن لا أحد يكلم الآخر خوفًا من وجود الوشاة بينهم، وقد يكونون ينصبون لهم كميناً وفخ قبل الوصول والجميع يدعى في هذا الفوج بأنهم تُجار لا أكثر ولا أقل.

وقد كان بينهم شيوخ راكبون ومترجلون وأطفال ورضع ونساء وشباب وفتيان وفتيات يحملون ما يسد عطشهم فقط وجوعهم حتى بلوغ طنجة أمل وطمعًا في الأمان الذي قد نسوا معناه في بلاد الخوف والرعب، أما هي فقد دعست على قلبها، وتركت الحب وحنا وراء ظهرها بألم وعدم تصديق، لكن هي اختارت الله ومن اختار الله بدله بالخير.

وليتها أجساد فقط التي تمشي على الأرض، بل أحلام مدفونة وطموحات ميتة وهوية مسلوبة عنوة وذكريات ضائعة مثلها مثل الآلاف مِمْن مروا بدربهم.

أنزلت حكمت قربة الماء من على شفتيها بعد أن اكتفت بالقليل من الماء حتى تُبلل شفتيها المُشققة فقط وربطتها مجددا، وأرجعتها في جُعبتها، ولكن لتفتت إلى الوراء، وهي تسمع صوت صراخ رضيع يريد الأكل في أحضان أمه إلى جانب أبيه الذي تولى أمر حمل المتاع وبسبب الزحام لا تقدر على إطعام صغيرها.

فكرت حكمت قليلاً في أمر مساعدتها، وقد حسمت أمرها بأن تساعدها مُقتضيه في فعلتها بأمر رسول الله صلى الله عليه، وسلم "صنائع المعروف تقي مصائب السوء".

ركلت بطن فرسها الذي أطلق صهيلاً منخفضاً، وعادت إلى الوراء، واقفة أمام تلك المرأة، ثم ترجلت قائلة بهدوء: دونكِ الفرس أطعميه، ثم أنزلي واركب أنا.

نظرت المرأة إلى زوجها بقلق وهو كذلك، لكن ما باليد حيلة سوى القبول وبالفعل صعدت على الفرس، وغطت جسدها وأخذت تعلمه، وإلى جانبها حكمت التي أمسكت بلجام الفرس تقوده بشكل متأن، وقد أشارت بيدها إلى خديجة التي نظرت إليها بقلق بمعنى اهدئي.

وقد انتهت المرأة بالفعل بعد مدة، ونظرت إليها قائلة بامتنان: شكرًا لكِ أختي باركك الرب.

ابتسمت حكمت قائلة: لا شكر على واجب المهم....!

قاطعها صوت صراخ وإطلاق رصاص في الجو، وقد التفتت إذ بجنود الكنيسة من خلفهم قد أمسكوا ببعض الشباب في الخلف وامرأتين، ويقتربون منهم، وقد هاجت الخيول، وفلت لجام الفرس من يدها، وقد هرب الخيل بالمرأة برعب وبالمثل خيل خديجة، وطارق الذين صرخوا عليها بقوة، وقد حاولت الرد واللحاق بهم، لكن الجنود كانوا أسرع منها، وقد أمسك بها أحدهم الذي كان على خيله من خصلاتها وآخر ما رأته هو دموع خديجة وصراخ طارق باسمها قبل أن يختفوا عن الأنظار خلف الغبار المنتشر في الجو، وقد قيد ذلك الجندي

يديها وأعلى جسدها، ولفه بالحبال، ووضع حبل غليظ حول رقبتها، وأخذ بسحبها منه، وقد استسلمت تمامًا لمستقبلها الأسود الذي ينتظرها لا محالة.

وهناك في الحي الجميع خارج بيته يجلس على عتبة بيته في انتظار قدوم أحد أقرباء الجيران المفقودين لعلهم عندهم أو حتى قدوم الشرطة ليعرفوا ما مصير هؤلاء المفقودين.

ولكن هناك كاترينا كانت تجلس على كرسي مُتهالك مثلها في منزلها تضع ساقاً فوق الأخرى وبيدها كأس من النبيذ الرديء تحتسيه على تمهل واستمتاع، وهي تنتظر قدوم الجنود ومعهم جوليانا وإليزابيث وأخيلا بفارغ الصبر، حتى تستمتع برؤيتهم بالأغلال، وقد انتظرت ذلك اليوم بشدة، وهرمت من أجله.

قد تسألون لماذا كاترينا شريرة وقلبها أسود قد استحوذ عليهم الشيطان سأقول لماذا السماء زرقاء والنبات أخضر والقمر مستدير؟!

الشر والكره مشاعر أمهم الغيرة ولا مبرر للغيرة سوى النقص، وذلك ما يُزين للمؤذى عمله بأن حيان يكره بيان لذلك على بيان إيذاء حيان!

المهم قد قفزت كاترينا من على كرسيها، وخرجت بسرعة إلى جوار ابنها عندما سمعت صياح أهل الحي، وتهامسهم وصوت الخيول.

وقف بضعة جنود أمام بيت حكمت وحكمت خلفهم على فرس مُقيدة بالكامل ما عدا قدميها، وبالرغم من هذا كانت ترفع رأسها بشموخ وعزة وعينيها بها إصرار وقوة لا يراها أحد إلا في عينيي قائد المعركة المُنتصر.

ترجلت من على الفرس بعد أن جذبها الجندي من الحبل الملفوف حول رقبتها ناحية المنزل.

وقفت أمام المنزل المُتفحم، وهي تنظر إلى صلب عيني الجندي الذي نظر إليها قائلاً بجدية وحزم: ما الذي حدث هنا؟

بمنتهى الثبات والبرود أجابته: ضربة البرق فاحترق.

ما أن انتهت من كلامها حتى ثار حنق الجندي، وصفعها بقوة أصمت المشاهدين، ومن بينهم رؤيتنا التي خبئت وجه ابنتها بين أحضانها، حتى لا ترى هذا المنظر الصعب وبالمثل ماريز وابنتها، وقد أمسكت بفيكتور الذي كاد أن يذهب إليها حتى يساعدها وهيكتور المُنكس رأسه بخجل من خوفه ووقوفه مكتوف الأيدي وكاترينا الشامتة.

اعتدلت حكمت من انحنائها، وعاودت النظر إليه بثبات، بينما الجنود البقية دخلوا يفتشون البيت، وبعد مدة خرجوا بلا أي شيء أو دليل إدانة لترتفع زاوية شفتيها بسخرية قائلة: ألم أخبرك؟ كل شيء قد دخل النار.

صفعها مجددا، وتلك المرة قد سبقت الدماء على الأرض لتصبح كاترينا قائله بشماتة: باركم الرب، على بلادنا أن تُنظف من الخونة وأعداء الكنيسة والمسيح والساقطات.

احتدت أنظار حكمة، ومن دون سابق إنذار قد ركدت من مكانها بقوة تجاه كاترينا، وهي تصرخ بغضب: تلك الخائنة ستكون لعنتك الأبدية.

لكن توقفت بسبب ذلك الحبل الذي جذبها الجندي به لتزئره وتصرخ في وجه كاترينا التي تضحك بشماتة، وهي تخرج كم الكبت والكمد الذي يحبسه صدرها حتى لا تبكي أمامهم.

ثم صعدت على الفرس بالإكراه، وهي تصرخ في أهل الحي: اللعنة عليكم جبناء، أنتم تعيدون التاريخ ومثلما باع الحواريون ويهوذا المسيح تبيعوننا، أنتم مثل النعام ستظل رؤوسكم تحت الأرض بمنتهى الذل والمهانة ولتحل لعنتي ولعنة كل مظلوم عليكم، أنا سأعود وسيعود حقي أنا لم أسقط، بل أنتم جبناء ساقطون ليلعنكم ربى دائمًا!

.....عودة إلى الحاضر

أنهت حكمت ما وُضع أمامها من طعام بالكامل، وأنهت جلسة الذكريات تلك تزامنًا مع دخول ذلك الضابط، ومن خلفه ثلاثة من أمثال ذلك المُلثم، ولم يشفع لها تناول تلك الوجبة بشيء، بل على العكس تقدم منه اثنان من هؤلاء المرعبين، وقد نزع أحدهم حجابها عنوة لينسدل سواد الليل هذا على كتفيها وحول وجهها وهي تقف بلا حراك وقيد يديها أمامها، ووضع ذلك الطوق الحديدي حول رقبتها وبالأسفل قُيدت قدميها، وغُرزت في أصابع قدمها كلاليب حديدية مُدببة جعلتها تصرخ بشدة، وهي تشعر بألم شديد، وقد اخترقت أصابعها، وسالت منها الدماء، لكن صوت الصراخ هذا ومحاولات الاستناد إلى الطاولة تلك لم تعجب ثالثهم الذي لكمها بكفه الغليظ بقوة حتى تصمُت، وقد اهتزت مقلتاها برعب، وهي تُجر جرًا إلى غرفة التحقيق والدماء تسيل من قدميها.

دخلت غرفة التحقيق، وقد رأت أبشع منظر رأته في حياتها وهي تُقسم أن ذلك المنظر لن ينمحي من ذاكرتها حتى موتها.

رأت رجلًا قد جلس على الخازوق، وقد كمم فمه، وخرجت منه أنات مُتألمة، فما يزال حيًا والخازوق في منتصف بطنه، وامرأة مُعلقة من أصابع يديها التي تشققت من ثقل جسدها وطول مدة التعليق.

تجمعت الدموع في عينيها بخوف من ما هو قادم ورعب من ما ستنال من حصة الألم إلى أن ينقضي أجلها.

وقفت أمام طاولة مُستطيلة عليها الضابط المسؤول في المحكمة والبابا والكاتب، ومن خلفها زبانية جهنم ممسكون بالسياط الرفيعة الناعمة.

بدأ الضابط التحقيق متسائلاً: إلى أين كنتِ ذاهبة؟

ضغطت على شفتيها بألم، ثم أجبت بصوت مرتعش بعد أن وكلها ذلك الملثم بقوة في ظهرها بمقبض السوط: إلى بلنسية ومنها إلى إنجلترا.

لم تتحمل الوقوف أكثر، وتلك الكلابيب في أصابعها لتسقط على ركبتيها بألم، وقد صرخت بقوة لينظر إليها البابا قائلاً بهدوء: قفي يا ابنتي عليكِ الاعتراف بخطاياكِ.

نظرت إليه بضعف والدموع تنسكب من عينيها: لا أقدر يا أبانا.

انتهت من جملتها، وقد توالت عليها الصفعات على وجهها بالسياط من كل حدب وصوب، حتى تشققت وجنتها اليسرى، وهبطت ضربة قوية على عينها اليسرى لتمسك بها بألم، وقد شق صوت صراخها الغرفة والأماكن حولها، وقد بدأت الدماء تسيل منها كدليل على فقدانها بصرها في عينها كما تنبئ الطبيب، لكن بطريقة سيئة.

ولكن هل تعتقدون أن هذا شفع لها على العكس جرها المُلثم من خصلات شعرها بقوة، حتى وقفت على قدميها مجددا مُتجاهلًا بكائها وتوسلها وصراخها وبالمثل الضابط والبابا، وقد تابع الضابط ببرود: ولكن زملاءك الذين قبضنا عليهم قالوا إنها كانت ذاهبة للمغرب.

تحدثت بصعوبة وخوف من تلقى أي ضربة أو صفعة، وقد اختلطت دموعها بدمائها، وقد أدركت أنها باتت عوراء قائلة بشنهجة عالية: أنا... تاج... تاجرة وعشابة. أبيع الأعشاب، وكنت ذاهبة إلى... إنجلترا لبيع وصفاتي واعشابى.

نظر إليها الضابط بملل قائلاً: أنتِ تكذبين وعقوبة الكذب هي النار.

ثم أشار برأسه بعد أن أخذ موافقة البابا إلى الملثم خلفها قائلاً بلا رحمة أو شفقة: إلى المحرقة أحرق شعرها حتى تعترف!

وهناك في الوطن الجديد قد رست المركب، ورست على الساحل، ورست معها الكثير من الأقدام للكثير من الأفراد لتحكي وتخط الكثير من القصص والحكايات، وكم مشتاقاً إلى أهله سيراهم، وكم مشتاقاً إلى الحرية والأمان سيحصل عليهم الآن.

وقد كان طارق الآن هو القائد، ومن يتولى زمام الأمور، وقد كان هو وخديجة التي تقرحت وتشققت عيناها من كثرة البكاء على ابنتها منذ ليلة الأمس، وقد وصلوا إلى ساحل طنجة عند شروق الشمس بعد أن رست السفينة التي تأخر وصولها بسبب تغير منطقة الالتقاء عند "اليكانتة" حتى لا يعثر عليهم الجنود وهم الآن في طريقهم إلى بيت رياح خطابي بعد أن سائل عنه _قوى القلب رابط الجائش_ طارق أحد الصيادين، وقد وقفت العربة أمام بيته، وقد كان بيتًا كبيرًا نوافذه عبارة عن مشرابية مُزخرفة بالأربسك والنقوش العربية، وقد أمسك ذلك الصياد مقبض الباب الكبير، وطرق عليه بقوة، حتى فتح له شاب في أواخر العشرينات من عمره، قصير ونحيل القدمين والجسد وكثيف شعر الرأس وحلق اللحية وبصدره صليب خشبي كبير، وهذا ما أدهش طارق، إذ ظن أنه بوجوده في بلد عربي وإسلامي لا وجود لغير المسلمين.

تحدث ذلك الصياد قائلاً: جرجس أخبر سيدي خطابي بوصول الضيوف.

ابتسم المدعو جرجس قائلاً: حسنًا اذهب أنت وأنا معهم.

وبالفعل قد ذهب ودخلت خديجة، ومن خلفها طارق خلف جرجس، وقد اجتازوا فناء المنازل الإسلامية المُنعطفة ثم إلى ساحة كبيرة بها زرع قليل ونافورة بيضاء، ومن حولهم مباني بيضاء مُتلاصقة على هيئة دائرة ثم إلى ممر، وانتهى بهم الأمر إلى مكتبة متوسطة مليئة بالكتب الأندلسية، وقد كان هذا هو حال جميع البيوت المغربية، وبها رجل أسمر البشرة متوسط الطول حليق الرأس ملتحي، وقد شابت لحيته وبيده مسبحة طويلة بُنية، ويرتدي جلباب ونطاقاً وعباءة، وقد التفت إليهم ليتقدم جرجس قائلاً بهدوء: شيخي هؤلاء الضيوف من الأندلس كما اتفقت مع السيدة خديجة والأخ طارق.

ابتسم ذلك الرجل، وقد كان درس الأول في فكه العلوي مكسوراً، ووضع الكتاب الذي بيده في رفه، وتقدم إليهم قائلاً بود وترحيب: أهلا بأهل الأندلس نجاكم الله من الكرب والهم ومرحبًا بكم في بيتي.

هز كلاً من طارق وخديجة رؤوسهم بالتحية ليُشر خطابي قائلاً بسرعة إلى جرجس: جرجس بُنى خذهم إلى أم الخير في بيتها لتعد لهم الغرفة، وأخبر ست الحسن بأن تُعد الغداء.

ابتسمت خديجة بوهن قائلة: أشكرك على كرم أخلاقك نحن فقط متعبون، ونريد الراحة لا تُتعب أحدًا.

هز خطابي رأسه بالنفي قائلاً بنفي قاطعو: لا يمكن سيدة خديجة أنتم من أعز بقاع الأرض وضيوفنا غير هذا أنا لا أُتعب أحدًا أو أتكلف، هؤلاء زوجاتي وقد انتظروكم منذ أن جاءنا الخبر.

ثم أشار إلى طارق بود ومرح قائلاً: هيا يا طارق إلى غرفتك مع أمك هيا، ولا أريد أن أسمع أي اعتراض.

دائماً ما نقول إنه لا شيء أسرع من الأيام، ولكن ليس على الجميع، فإذا قلنا خديجة وطارق، وإن كانوا أحراراً فالحزن يأسرهم وحكمت كل شيء من حولها يضيق الخناق حول عنقها، وأما حنا، فقد عاد فرحنًا مسرورًا من ابلائه الحسن في عمله ولأنه سيرى سُكرته مجددا.

وقد كان بين أمه مسودة الوجه وبلايوه البارد في العربة لرؤية جوليانا والمسكين لا يدري أنه ذاهب إلى المقابر بعد أن زيف لها ولعائلتها قبور، وقد تمنت مارلين أن تنشق الأرض، وتبتلع بلايو على قساوة قلبه، وهذا الموقف المحرج الذي وضعها به.

وقفت العربة أمام المقابر الكاثوليكية وحنا على رأسه الطير لا يفهم لما هو هنا؟

وقد هز بلايو رأسه، وسحبه من ذراعه ومارلين من خلفه، وقد وقف أمام المقابر المزيفة لينظر حنا إلى الأسامي، وتتسع حدقتاه بصدمة، وهو يرى اسم جوليانا يتوسط صخرة القبر نظر إلى أمه قائلاً بغضب ورعب: أمي ما هذا؟ ما الذي يحدث؟!

نكست مارلين رأسها بخجل، وقد تجمعت الدموع في مقلتيها المترهلتين، ومسحت أنفها بالمنديل قائله وعينيها تتفادى النظر إلى عينيه: جوليانا وإليزابيث وأخيلا قد ماتوا قبل أسبوع في حريق منزلهم، ولم نستطع إنقاذهم.

لم يرحمه بلايو وتابع ببرود وهو حالة الشلل والصدمة التي تلبست حنا ليكمل: لقد جئت بأمي؛ لأنك تصدقها عني ولتُأكد لك الحقيقة.

وقد أسرع الحارس للمقبرة قائلاً بتأكيد بعد أن قبض مبلغ حسن من بلايو: أجل أجل سيدي، لقد وضعتهم في قبورهم بيدي تلك، وشهد أهل الحي عزاءهم.

واحد اثنان ثلاثة قد شعر حنا بأن الجو بارد وكأنه بليالي يناير الشتوية ونغزات على طول كتفه الأيسر ودوار كبير داهمه وعقله يرفض تصديق أي شيء من ما قيل، وبالرغم من كم التأكيد، إلا أن عقله وقلبه يرفضون التصديق وما هي إلا ثواني، حتى سقط حنا مغشيًّا عليه من دون أي مقدمات!

كانت مُعلقة على ترس دوار منذ الأمس بزاوية مائلة قليلًا لا ترى شيئاً ليس بسبب عمى عينها اليسرى، بل بسبب الظلام الحالك إلا من نافذة صغيرة فوق رأسها تشع ببعض الأشعة الضئيلة والباهتة من الضوء.

هي هنا منذ ثلاثة أسابيع هذا ما تفعله تعد الدقائق والساعات والأيام حتى تبلغ أجلها الذي تدعوان به الله في سرها لتتخلص من هذا العذاب.

عذاب من كل جهة وجانب.

عذاب جسدي، ويكفي دماؤها المنسكبة على الأرض والآلام التي تشمل رأسها التي بدأت بالاتهاب وأصابع قدميها المتورمة بشدة.

وعذاب نفسي من رؤيتها لهذا المنظر البشع، وهو ترى مراهقاً يصرخ ويموت بالبطء أمامها، وقد وضع فوق بطنه قفص من الفئران، وفوقه خشب مُشتعل لتخترق الفئران بطنه وهو حي إلى الجهة الأخرى هربًا من حرارة النيران.

وصوت أنبوب المياه الذي يقطر بجانب أذنها، ويزاولها جعلها تلعن اليوم والساعة التي ولدت بها وعطفها على تلك المرأة التي كُتب لها أن تهرب على خيلها، وتقع هي في الأسر الذي لا سبب له!

لماذا هي وأمثالها هنا؟ ولماذا تعاني هكذا؟

هل حظها العثر هو السبب؟

أم حُبها لحنا وكره بلايو لها؟

أم دينها الذي هو حق مكفول لأي إنسان منذ أن نزل آدم -عليه السلام- على الأرض؟

أم هو بلاء وابتلاء ليطهر به الله روحها التي تشعر أنها ستخرج منها قريبًا؟

كم اشتاقت إلى أمها وأخيها وشجارهم، تدفع نصف عمرها، وتعود وتقبل قدم أمها وأخيها، وتعيش معهم في الضوء فقط ولو ساعة.

تتمنى النوم على فراش دافئ بدلا من الأرضية الصلبة الباردة والمُتسخة المليئة بالصراصير والحشرات.

تتمنى أن تعود إلى حديقتها وأعشابها وزهورها العطرة ووصفاتها الطبية وزحام العمل.

تتمنى أن تأتي بطارق من الكنيسة مجددا، وتتشاجر معه على ترتيب المنزل وقسمة الحلويات والسكاكر بينهم.

تريد الاستحمام، وقد باتت رائحتها أقرب للجيفة مثل رائحة المكان حولها.

.تُريد أن تُبصر مجددا، وتجلس أمام المرأة، وتمشط شعرها المحترق

.تريد أن تسمع كلمة سُكره من حنا مجددا

.تريد حنا وحنانه الآن لينتشلها من تلك القسوة المحيطة بها

تريد أن تصلي، وتقرأ القرآن، وتصلى على المصطفى خير الأنام، وتقرأ في تفسير القرطبي وتاريخ الأندلس وأعمال ابن فرناس وابن .حزم

.تريد أن تصرخ، ولكن إن صرخت أو أصدرت أي صوت ستجلد

!بكت بصمت ولا شيء سوى البكاء

!العلكم تتساءلون لماذا هي تعذيبها أهون من هؤلاء؟

وببساطة هؤلاء قد خار عزمهم، ولم تعد لهم قوى على التحمل، واعترفوا بذنبهم والآن يُنفذ بهم حكم الإعدام على عكسها ما زالت تتحمل، ولكن إلى متى؟ الله وحده أعلم؟

فتح أحد الملثمين المتشابهين الباب الحديدي الصدئ الخاص بالغرفة، ودخل منه أحد الضباط، وقد أشار إلى الملثم بإنزالها وبالفعل نزلت، .وقد سقطت على ركبتيها بضعف ما أن أحل قيودها

انحنى ذلك الضابط، وأمسكها من تلابيب فستان الخيش الخشن الذي ترتديه بقوة، ورفعها لتقف على قدميها المتورمة بألم لم يتجاوز .ملامح وجهها

تسللت يده إلى خصرها يضمها إلى صدره العريض وبيده الأخرى منديل مبلل بالماء يمسح عن وجهها الدماء المتجلطة والأتربة، حتى ظهر لون بشرتها الشاحب، ثم ألقى المنديل بإهمال، وتسللت يده الثانية إلى وجنتها الشاحبة، ومرر إبهامه عليها بنعومة تحت نظرتها .المرعوبة وارتجاف جسدها وهي تشعر بانتهاك عذرية وحرمة جسدها بلمساته القذرة وغير البريئة

.وقد نظرت إلى وجهه الأبيض وشاربه البرتقالي وشعره البرتقالي وعينيه البندقية غير البريئة إطلاقا بهلع وتلذذ

ليهمس أمام شفتيها البيضاء قائلاً بتلاعب: أليس من العيب أن تعاني امرأة جميلة مثلك تسر الناظرين من كل هذا؟ مكانك في القصور، .وعلى ريش النعام يا جوليانا

.ثم مال على وجنتها يلثمها بخفة، وقد شعرت بغصة مريرة في حنجرتها كالعلقم، وأرادت التقى من شعورها بالتلذذ الشديد لمساته اللعينة

ثم تسلل إبهامه إلى شفتها السُفلية قائلاً بتلاعب على أعصابها حتى تنهار وتعترف: أنتِ جميلة جدًا، ومن الممكن أن تتحرري فقط ببضع .كلمات صغيرة، وإما ستكونين كهؤلاء الأموات حولك

شهقت برعب، وأبعدت رأسها إلى الوراء، وهي تراه يتحنى ليقبلها مجددا، لكن كانت حماية الله وعونه أنقذتها، وقد التفت ذلك الضابط إلى الباب الذي فُتح وأصدر صوت صرير عالي، وقد دخل منه جندي قائلاً بسرعة وهو يلهث: سيدي، لقد جاء الضابط المسؤول الجديد !ليحلف اليمين هيا إلى قاعة الاحتفال البابا يسأل عنك

الفصل الواحد والعشرين

بسم الآب والابن والروح القدس، وبسم الملك والبابا والكنيسة والدولة نوكل إلى حنا باخوميوس منصب الضابط الأعلى لمحكمة مدريد " "العليا، ونأمل أن يكون كفا لتلك المهمة

كانت تلك الكلمات خارجة من فم البابا المسؤول ف محكمة التفتيش بمدريد بعد أن نصب وأعلن لسائر العاملين في المحكمة وحضور بعض مستشاري الملك، ومنهم بلايو بالطبع بأن حنا صاحبنا بات رئيس محكمة التفتيش بمدريد في حركة الترقيات التي تُقام كل بضع سنوات، ولو قلنا على المستوى المهني، فقد استحقها حنا بإدارة، ولو أن بلايو قد توسط ليحصل حنا على هذا المنصب، لكن لا تخبروا !أحدًا بذلك

تحت أنظار بلايو الفخورة والمنتصرة وقف حنا الراكع على ركبته بزيه الأبيض، وعلى صدره ووشاحه صليب أحمر، وعلى رأسه خوذة الحرب المعدنية، ثم أمسك بالسيف من يد البابا قائلاً بطريقة عسكرية: بسم الآب والابن والروح القدس وبسم الصليب، وكل فرد في .الدولة أتعهد أنا حنا باخوميوس بأن أُحافظ على سلامة وأمن البلاد وتطهيرها من الخونة وأعداء الكنيسة والمحتلين

وهكذا قد تعهد حنا وابتدأت الاحتفالات، ونزلت أصناف الأطعمة والخمور على طاولة طويلة جلس عليها كل من في المكان ما عدا !الجنود الحراس للمكان وبلايو

وآه من بلايو! فقد خرج من قاعة الاجتماعات بالمحكمة القائم بها الاحتفال إلى أحد المكاتب بعد أن أشار إليه فرانسيس بأن عنده كلاماً .مهماً

دخل فرانسيس، ومن خلفه بلايو وقد همس فرانسيس في أذن بلايو بعض الكلمات قد جعلته يشطات غضبًا، وقد سحب سيفه من غمده، ووضعه على رقبة فرانسيس، وجذبه من ياقة قميصه بيده الخالية، وصاح بغضب غطى عليه صوت الموسيقى والضحك في القاعة: !!أتسمع يا ابن اللخناء ما الذي تنطق به؟ جوليانا من التي بالأسفل؟

انكمش فرانسيس على نفسه برعب، على الرغم من هالته الضخمة قائلاً: أقسم بيسوع أني رأيتها بالأسفل بأم عيني، وقد قُبض عليها هي .والبعض ليلة الهرب

دفعه بلايو بغضب ساحق وحنق مثلما يدفع الدنس عن ثوبه الفاخر، ووضع سيفه في غمده، ثم أخذ في شد شعر رأسه بقوة وهو يفكر، !وقد وقع في مشكلة حقيقية الآن، ولا حل لها، فلم يعُد بإمكانه تنحية حنا عن منصبه أو إخراج حكمت من تحت أقبية الكنيسة أبدًا

.وكأن الدنيا بمن فيها قد تآمرت عليه، واتحدت على أن تهد كل ما بناه فوق رأسه بمنتهى السلاسة والهدوء

التفت إلى فرانسيس رافعًا سبابته في وجهه بتحذير قائلاً بفحيح وهمس مرعب: إياك ثم إياك أن يعرف حنا عليك أن تحول بينه وبين أي .وسيلة توصله بالحقيقة

هز فرانسيس رأسه بالموافقة، وأخذ يُعدل ملابسه وبالمثل بلايو الذي خرج ورسم على شفتيه ابتسامة وملامح سعيدة وكأنه لم يسمع أبشع .خبر في حياته منذ قليل

دائمًا ما يوصينا أطباء القرن الحادي والعشرين بأهمية السير على الأقدام لما يُعانيه الجيل الحالي من كسل وبدانة وسوء في تنظيم دورتهم الدموية وأكبر دليل ألوان بشرتهم السيئة بالأخص في عصر التقنية والكسل والأطعمة السريعة والمُصنعة وسوء التغذية، ولكن كأحد أفراد هذا الجيل يمكنني القول بأنه لا حياةً لمن تنادي.

لكن السائر الآن حنا ضابط المحكمة الجديد الذي تولى منصبه الجديد، وقد كان مثالاً سيئاً في اللا مبالاة وعدم الانتظام والاهتمام بالعمل، فقد كان طوال الأسبوع الفائت لا يذهب إلى عمله، ولم يذهب اليوم إلا بعد إلحاح قوي من والدته التي أشفقت على حالة التيه والضياع التي هو بها منذ خبر وفاة حكمت الكاذب منذ شهر مضى، ولم يمكث طويلاً، وقد عرج على الحانة أخذ حصته من الكونياك، ثم أخذ في العودة سائرًا على قدميه إلى بيته بلا اهتمام.

لكن أوقفه في منتصف طريقه بجانب سور قصره وقوف وجه مألوف له، وقد أقبلت عليه صاحبت ذلك الوجه، وعانقته بقوة بفستانها الوردي ومشده الأسود، وقد كان مدهوشًا من أن تلك رؤيتنا التي أبلغته حكمت بتوبتها.

حاول أن يبعدها عن صدره، لكنها تمسكت به بقوة قائلة بهمس: عانقني السيد بلايو يراقبنا من خلف نافذة مكتبه رأيته وأنا أقف هنا منذ الصباح ولدى كلام هام بخصوص جوليانا.

اتسعت حدقتاه على فورها ما أن نطقت باسم جوليانا وقد عانقها كما قالت لتكمل من دون إضاعة وقت: جوليانا لم تمت لقد أمسك بها جنود الكنيسة.

رؤيتنا أنتِ متأكدة من ما تقولين؟!!" صاح بتلك الكلمات حنا الذي انتفض من أحضانها، وأبعد رأسه لينظر إليها مدهوشًا، وقد تفوهت " الآن ببعض الكلمات قد أحيت الأمل في قلبه، ولكن كيف وقد رأى مقبرتها بأم عينيه، وقد شهد الجميع في الحي على موتها بلا استثناء والآن تأتي هي وتُعيد قلب موازين اللعبة والقصة ببعض الكلمات أثقل في الوقوع على قلبه قبل أذنه من ثقل مدفع البازلين الذي هدم به !محمد الفاتح أسوار القسطنطينية

شدت رؤيتنا على عناقه، ودست أناملها النحيلة بين خصلات شعره الطويلة لتجذب رأسه إلى أحضانها بقوة قائلة بصوت منخفض، حتى لا يسمعها أحد: سيد حنا أعقل أفعالك، أحتاج إلى الحديث معك، وأعين السيد بلايو لن تتركنا وشأننا هناك الكثير لتعرفه أنت لا تعرف شيئاً عن ما يحدث من خلف ظهرك دعنا نذهب إلى أي مكان بعيد عن الأعين.

ابتعد عن أحضانها بهدوء، ونظر في عينيه التي، وسبق له أن رأى فيها الانكسار والعهر والعوز والحاجة، وقد استغل كل هذا في نزوة فانية ولذة مُنقضية يرى فيها الآن الصدق والقوة التي تدفعه أن يصدق ما تقول ويتمسك بها وهي الآن تعطيه أملاً جديداً في حياته التي ظن أنها انطوت بموت معشوقته وفنائها وفناء أحلامه معها إلى الأبد.

أحاط كتفاها، واتجه إلى الحارس يُخبره عن حاجته إلى العربة، وقد امتثل إلى أمره، وفي ثواني مُعدودة تحت وطأة أنظار بلايو المندهشة من أفعال أخيه وعودته إلى تلك المرأة مجددا قد جاءت العربة وركب حنا، وإلى جواره رؤيتنا، وانطلقت إلى بهما إلى تلك الحانة التي يتردد عليها.

"أنا أخاف من الظلام، وعندما أنام أشعل مصباحاً بجانبي لذلك يهرب أخيلا، وأمي من النوم في غرفتي"

أتتذكرون أعزائي اللطفاء تلك الليلة التي ولأول مرة تفتح فيها حكمت أبواب قلبها الصدئة من طول مدة الإغلاق لصالح حنا يوم التفتيش.

والآن صغيرتنا التي تعاني رهاب الظلام تقع تحت نوع آخر من التعذيب النفسي وهو مكوثها في تلك الغرفة المظلمة طوال الليل والنهار.

تشعر بأن تلك الأشباح التي كانت تُرعبها ليلًا أثناء طفولتها عادت، لكن أكثر رعبًا وبشاعة من ذي قبل.

كانت تتشكل على هيئة وسائل التعذيب تارة وتارة على هيئة بلايو بأنياب كبيرة ملطخة بالدماء وتارة على هيئة كاترينا وعينيها الغائرة سوداء مثل قلبها المُتعفن.

.تتمنى فقط، ولو بصيص ضوء صغير

.قد تظنون أنه من غير المنطقي ذلك الخوف، ففتاة في عمرها تخاف الظلام أمر غير منطقي

!ولكن مُنذ متى كان الرُهاب أمراً منطقياً؟

!فأنا أعرف رجالاً ونساء لديهم رهاب من بعض الثقوب المتلاصقة يسمى رهاب النخاريب

ولكن ليس موضوعي الآن، فأنا أرى أن حنا المُهمل الذي لا يعرف أن حبيبته أسفل الأرض لا يراعى عمله، وقد أصدر أمره بمضاعفة العذاب ضعفين، وقد خرجت من زنزانتها مع ذلك الملثم الذي حفظت رسمت عينيه عن ظهر قلب، وقد كانوا يتخذون هذا الزي مخافة .الانتقام في حالة خروج أحد المساجين حياً من محكمة التفتيش

.لا تدري كيف جلست على الكرسي، وقد اكتشفت لتوها أنها في الصباح من ضوء الشمس الخافت الداخل من فتحة التنفس

مُدت أصابعها عنوةً داخل آلة كسارة الأصابع التي عبارة عن تروس مثل تروس الدراجات، لكن متقاربة بشدة بها عشر فتحات للأصابع .تدخل بها، وتُدار الإله بمقبض يتحرك في حركة يدوية دائرية

وما أن بدأت بالتحرك على أصابعها حتى صرخت وهي تسمع صوت طقطقة عظام أول أصبع من يدها لتصيح بعلو صوتها وهي تلهث .بإضراب من فرط الألم: أنا... أنا اعترف... كنت ذاهبة للمغرب

رفع ذلك الضابط البرتقالي الأبيض طرفاً شاربه كدلالة على الابتسام قائلاً ببرود: وماذا كنتِ ستفعلين هناك؟

.ارتجفت شفتاها بألم قائلة بشنهجة: أنا... هاربة... هناك شاب يلاحقني وأردت الهرب منه

!هبطت صفعة قوية على وجنتها، ولكن لا طاقة للصراخ فمن ماذا؟ ولماذا ستصرخ؟

.أشر الضابط للملثم بالتوقف قائلاً: يكفي ما سمعت أعدها للزنزانة حتى يأتي المسؤول ويسمع اعترافها، هيا

وقف طارق أمام المرأة، وهو يتأمل هيئته برضا وسعادة، وقد أخذ يلتف حول نفسه، ويتطلع إلى ثوبه العربي والمختلط بالثقافة .والزخارف الأمازيغية بإعجاب وانبهار، وقد اختلفت هيئته تمامًا عن هيئته بالزي الإسباني

.ومن نظر إليه الآن لظن أنه عربي بن عربي _أو أمازيغي _من هيئته تلك

.ابتسم واقترب من خطابي قائلاً بود وصدق: سيدي خطابي أشكرك على هذا الزي، وعلى ما تفعله معي أنا وأمي

.ضحك المدعو خطابي، وربت على كتفه قائلاً بحنان: يكفي أنك بطل من أبطال الأندلس وقدوكم إلى بيتي زادني شرفًا

.رفع طارق أصبع الإبهام في وجه خطابي بمعنى جيد قائلاً: أنت تتحدث الإسبانية ببراعة

ثم أخذ يدفعه برفق من كتفه إلى الخارج، وهو يسير إلى جانبه قائلاً: أنا أتحدث خمس لغات عربية وإسبانية وإنجليزية وفرنسية وتركية، .والآن هيا جرجس حضر العربة سنذهب إلى مراكب الصيد الخاصة بي

توقف طارق ومعه خطابي لينظر إليه طارق قائلاً باستحياء: عمي خطابي نحن مسلمون والمسيحيون مختلفون عنا، وفي أوروبا يقتلونهم لماذا جرجس مساعدك ويعمل معك؟

ضم خطابي شفتيه لثواني، ثم زفر أنفاسه بهدوء قائلاً بعقلانية: أنظر لي يا بني ربنا في كتابنا القرآن يقول "طعام أهل الكتاب حلًا لكم" ويقول "وقفينا بعيسى بن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة»، ويقول" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي

هي أحسن"،" ويقول أيضًا من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" وأيضًا" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين "قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لا يستكبرون.

ديننا يا بني دين محبة، ورحبت إلهنا هو إله أهل الكتاب، ومثل ما يوجد مسيحيون أشرار يوجد كذلك مسلمون أشرار، الدنيا خير وشر، وفي كلا الجانبين، يوجد آلاف الأديان والأعراق، فقط نحن إخوة في الإنسانية، وقد كان خادم النبي يهودياً وزوجته مسيحية مصرية وأسلمت.

ابتسم طارق، وهز رأسه بعد أن اقتنع قائلاً: أعرف أختي حكمت أخبرتني ثم تثاقلت عيناه الزرقاء بالحزن وتابع بقلق: أنا أخشى على أختي الموت قد أمسكها الجنود منذ شهر ونحن لا نعرف عنها شيئاً، ومن يدخل محاكم التفتيش لا يخرج إلا جثة، هل ستموت؟

داعب خطابي شعره بحنان قائلاً: انظر يا طارق كل ما قيل صحيح، لكن هناك حالات كانت يأسه على وشك الموت، وقد استطاعت بفضل بحارة مسلمي الهرب مثل سلطان الجزائر بابا عروج، حراس الله كُثر، وليس بيدنا فتح الأندلس مجددا ولا بيدنا إنقاذها، ولكن بيدنا أعظم من كل هذا الدعاء فقط ادعى لها.

ثم أخذ يمسح دموعه قبل الخروج قائلاً بود ومرح: حسبك يا طارق ماذا ستفعل عندما تعود من رحلة الصيد بلا أي سمكة؟ هل ستبكي هكذا، تماسك يا رجل ما تزال نيئًا.

مسح طارق عينيه بطرف كم قميصه، ثم تسائل وهو يركب العربة إلى جوار خطابي: هل صحيح نرى إسبانيا من طنجة؟

يمكنك ذلك من الميدان الرئيسي، ولكن نحن الآن في حي الحسنى، وسنذهب إلى السوق، وفي نهاية اليوم سآخذك معي الميدان " "الرئيسي

أخذ حنا رؤيتنا إلى الحانة التي اعتاد التردد عليها منذ أيام صباه مع إدواردو وديغو، وإلى أبعد طاولة في المكان وبعيدة عن الأعين والآذان جلس الاثنان.

وقد نظر إليها حنا باهتمام لتُباشر بالحديث من دون الغاز مفصحة عن حقيقة من المقرف إخفاءها.

قضمت شفتيها قائلة: منذ شهر جاء السيد بلايو إلى بيت جوليانا وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس اشتعلت النيران فجأة في بيتها، ولم نجد جثثاً ليأتي بعدها السيد بلايو بمدة قصيرة نصف ساعة على الأرجح، ويرشى الجميع بالذهب حتى لا يتحدث أحد بأن جوليانا وعائلتها جثثهم غير موجودة وهم أحياء.

تنفست قليلاً لتُكمل: بعدها في الصباح وجدنا جنود محكمة التفتيش قد أحضروها للحي مُقيدة يفتشون البيت، ولكن رحلوا ما إن وجدوا أنه لا يوجد شيء وهي معهم.

طحن حنا أسنانه بغضب، وقبض على زند رؤيتنا قائلاً بغضب بصوت منخفض: لماذا لم تخبريني من قبل؟ هل تعرفين ما الذي تعانيه الآن؟ وهل هي حية أو ميتة؟

رفعت إبهامها وسبابتها المضمومتين قائله برجاء وتبرير: صدقني سيدي أنا لم أكن أعرف طريقك، وحاولت الذهاب إلى مقر الشرطة، ولم أستطع مقابلتك، وخفت أن أذهب للبيت، ويفعل بي السيد بلايو شيئاً أو بابنتي، لكن عذاب الضمير لا يجعلني أنام، جوليانا لا تستحق مني جبني هذا، لكن عدني أنك سوف تحمي ابنتي من أي شخص أنا لن أعيش والسيد بلايو لن يتركني وشأني.

ترك زندها، وخال أصابعه الغليظة في داخل شعره بعصبية وتوتر، وأخذ يهز قدمه بتوتر، وهي يتأكد الآن من كذبة بلايو التي، وإن صدقها فقلبه كذبها ألف مرة كل يوم.

زفر أنفاسه بغيظ، ووقف وهو يضع مالًا على الطاولة قائلاً: رؤيتنا أشكرك وصدقيني أنتِ وابنتك أمانة عندي خذي المال، واركبى إلى بيتك وأنا اليوم قبل غروب الشمس سوف أمر عليكِ.

ثم رحل وركب العربة قاصدًا المحكمة وهي من خلفه قد تنفست بهدوء، وكان رئيسها قد سُدت والآن فُتحت وباتت تتنفس هواء نقياً وطبيعياً، وقد أزاحت عن صدرها حمل الصخور، واستقلت عربة بعد أن ركلت أحد السُكارة الذي حاول التحرش بها متجهة إلى منزلها مُتغافلة عن ذلك الذي سلطة بلايو لمُراقبتها!

هواء الخريف البارد كان يدغدغ وجنتيها، ويداعب سواد الليل الكامن في شعرها المموج الطويل.

وقد كانت جالسة في إحدى الحدائق أسفل شجرة تفاح بدأت أوراقها بالتساقط واحدة تلو الأخرى وبفستانها الأبيض الطويل الفضفاض أخذت تتأمل جمال الأزهار والنباتات من حولها، وتطلق على كل نبتة وزهرة اسمها وفائدتها، وقد كانت هناك أرجوحة مكونة من لوح خشبي كبير ومعلقة في جزع شجرة الزيتون العتيقة بتلك المنطقة بحبال كتان غليظة.

ابتسمت ببهجة وفرح، وهرولت إليها وهي تُمسك بالفستان حتى انكشفت قدماها العارية التي تتلمس برودة النجيلة بحرية.

ثم جلست على الأرجوحة، وبدأت بدفع نفسها بنفسها بهدوء مغمضة بحري القهوة أسفل ستائر جفنيها باستمتاع وهدوء ولا شيء حولها سوى الهدوء وأصوات الطيور الشجية وصوت الكروان، وقد رددت خلفه بيقين وإيمان "الملك لك يا صاحب الملك".

ولكن قاطع صفو مزاجها يداً دافئة ربتت على كتفها، والتفتت إلى صاحب اليد ببهجة، وقفزت من على الأرجوحة حتى تعانقه بقوة وهو كذلك قائلة تلك الفتاة: أبي اشتقت إليك كثيرا لما رحلت وتركتني وحدي؟

ابتعد ذلك الرجل، وكور وجهها قائلاً بحنان: ابنتي حكمت الجميلة اشتقت إليك كثيرًا يا صغيرة أبيك، لقد جات الاطمئنان عليكى، وأُبشرك بأنه قريب ستعود الحياة إلى طبيعتها، وستعودين ملكة كما كنتي.

قوست شفتيها، ولمعت عيناها بالدموع قائلة بتوسل: أبي أرجوك خذني معك، ولا تتركني هنا أنا خائفة، لم أعد أتحمل كل هذا الألم وحدي، خذني معك إلى ربى الناس هنا سيئة للغاية.

ربت على وجنتها اليمني قائلاً بحنان وإيمان تام بما يقوله: صدقيني كل شيء سيتحسن والألم سينتهي وستعود حياتك، لا يمكنك المجيء معي الآن العمر أمامك ستنجبين أطفالاً، وستتزوجين وسينتقم ربى من ظلمك لا محالة فقط كلما يأتي تذكري أن سيدنا بلال بن رباح كم كذبه أمية بن خلف الكافر، وفي النهاية بلال بات سيدًا في الدنيا والآخرة، وكلما زاد العذاب عليكِ بدعاء يونس عليه السلام.

أغمضت عينيه بيأس من ذهابها معه لتفتح عينيها، وتشهق بقوة، وقد عادت إلى غرفتها المظلمة النتنة، واستيقظت من هذا الحلم الوردي على دلو الماء الذي سُكب عليها، وقد انتفضت من مكانها، ووقفت بسرعة وعدلت الوشاح الخيري على رأسها، وقد جذبها الجنود بقوة من ذراعيها بعد أن قُيدت يديها، وقدميها وغمرت عينيها إلى حيث لا تعلم ولا تملك الجرأة لتسأل أو تريد حتى إن تعرف!

منذ أن رحلت حكمت عن الحي، ولن أقول إنه بلا حياة أو طعم أو روح طيبة فالبعض لم يفرق معه الأمر تمامًا والبعض لم يهتم والبعض خجول من موقفه السلبي والبعض حزين والبعض يبحث عن حل والبعض قد تضرر؛ لأن لا يوجد عشاب أو عشابة في مثل مهارتها، وبات عليهم الذهاب للحلاق لتلقي العلاج بمبلغ طائل من بعد الخدمة التي كانت تُقدمها حكمت.

ومن هؤلاء المتضررين شخص لن يخطر على بال فرس النهر وكلب البحر.

وقد كانت كاترينا التي منذ عدة أيام وبسبب إصابتها بالدمامل خرجت تركب حمارها إلى غابة معزولة في جنوب المدينة تبحث عن الفطر الأسود وأوراق البلوط، وقد كانت حكمت توفرهم للجميع وبأقل تكلفة.

وبالرغم من معاناة البحث والألم الذي يفتك بظهرها المصاب بالدمامل، إلا أنها حصلت على ما تريد لتبتسم بنصر، وتضع أغراضها في حقيبتها، ولكن ما أن اقتربت من حمارها حتى ارتفع صوت الضباع، ودب بالحمار الرعب، ثم فر وأسقطها أرضًا على ظهرها، وقد صرخت بألم، وهي تحاول الوقوف مجددا، ولكن فشلت بسبب جرح أصاب كاحلها، وقد جذبت رائحة دمائها النجسة الضباع الجائعة، وقد اقتربت منها، وما زادهم صراخها، أو محاولة هربها البائسة إلا إصرارًا على تلك الوجبة الليلة.

وقد زار الضبع، وظهرت أنيابه المملوءة بلعابه النتن، وقفز فوقها عاضدًا بطنها، وقد تجمعت حولها الضباع تأكلها وهي حية.

وظلت تتعذب ببطء، وهي ترى الحياة تلوح بالوداع في الأفق، وتسود خطوة خطوة وكلما خرجت أنفاسها الأخيرة رأت وجوه الذين ظلمتهم واحدًا تلو الآخر نهايةً بحكم ولتنتهي أنفاسها، وينقضي أجلها في تلك الدنيا الفانية، وصعدت روحها إلى بارئها، وقد انقضى أجلها مُحملة بذنب كل من ظلمته وبكل خطاياها، ولم تُكرم حتى بالدفن!

"سلمت يداك أختي خديجة؛ بحياتي كلها لم أر تطريزاً بهذه الدقة والروعة وكأن يدي ملك!"

كانت تلك مُجاملة أم الخير زوجة السيد رياح خطابي الأولى التي قد استضافت خديجة، وطارق في غرفة بمبناها الخاص، وقد ألفت بخديجة، وأنست بها، وقد أشفقت عليها، وعلى ابنتها وكم هي بريئة وما تتعرض إليه الآن من ظلم وتعذيب جزاءً لنُبلها مع غيرها.

وقد ذكرتها بابنها الأكبر الذي قد مات وهو ينقذ طفلاً قد سقط في بئر وما أن أخرجه حتى انهار البئر عليه بسبب تهالكه، وتكسر جدرانه في أثناء الإنقاذ.

ابتسمت خديجة بوهن قائلة بلا حياة: هذا من ذوقك يا أم الخير، فقط هذا عملي، وعلى إتقانه ووضع كل حبى به.

ربتت ست الحسن على يد خديجة _وقد كانت الزوجة الثانية للسيد رياح خطابياً، وقد كانت علاقتها بأم الخير أفضل من الأخوة، ولكن إشفاقًا على وحدة أم الخير؛ بسبب موت ولدها، وهجرت الاثنين الآخرين مع زوجاتهم تركت خديجة، وطارق لها ليؤنسوا وحدتها، ولكن العجيب في الأمر أنهم بنات خالة فام ست الحسن تكون الأخت الصغرى لأم أم الخير _قائله بود: خديجة امرأة ماهرة بحق.

ثم وقفت تشير إلى فستانها الذهبي قائله بفخر: انظري هذا الفستان من صنع يديها.

ابتسمت خديجة بفتور، ولم تُعقب وعادت إلى حالة الشرود تلك مجددا، وقد ضمت ست الحسن شفتيها بخجل، وهي ترى دموع خديجة الوشيكة على السقوط لتجلس أم الخير جانبها، وتحتضن كتفيها وتضم رأسها إلى صدرها، وقد انفجرت خديجة في بكاء مكتوم منذ شهر بخجل ليخرج أخيرًا حاملًا معه كل علامات الألم.

تحدثت بصعوبة من بين شهقاتها: أنها ابنتي الصغيرة... صغيرتي لا أعرف عنها شيئاً... هل هي حية أو ميتة... صغيرتي تتعذب ببطى وأنا لا أستطيع إنقاذها... أنا أم سيئة... لقد كانت غاضبة مني لأني أخطأت بحقها... كان على الاعتذار... لكن... لكن سرقوا مني أغلى ما في حياتي...

ربتت ست الحسن على كتفها بحنان، وقد أثرت الصمت بسبب تلعثمها وعدم قدرتها على الحديث في تلك المواقف، وقد اكتفت بالتربية الصادق لعلها تصدق في مشاعرها تجاهها.

زفرت أم الخير قائلة بحزن: نحن لا نملك لها سوى الدعاء توسل إلى الله وناجية بشدة وقوة وتوقف عن أي معصية قد تضر بدعائك فقط ارفعي يديك إلى السماء وقولي يا الله، هو الوحيد القادر على إنقاذها، أنا أشعر بكِ يا أختي، وأتكلم من تجربة، عندما فقد ولدى كان يأتي في الحلم حتى مدة، وانقطع ظللت ادعوا الله، وأخرج صدقات لروحه، وأقرأ القرآن حتى عاد إلى زيارتي، إن شاء الله ابنتك ستعود إليكِ، كيف الله وحده يعلم، وإن ربي منتقم جبار سيأتي لها بحقها عاجلًا أم آجلا.

والآن! ما أن خرج جنود الكنيسة حتى تركوها مُكبلة الأيدي والأرجل، وأغمضت العينين برباط أسود في حضرة الدوق حنا، والذي كان يجلس على كرسيه الفخم المنجد بريش النعام ومغطى بالقطيفة ومطلية مساندة بماء الذهب، ومن خلفه تلك الشموع العطرة ذات الرائحة النفاذة وضوء القمر الفضي الخافت الذي تسلل على استحياء من خلف ستائر النافذة الزجاجية العالية. وأي وقت أفضل من هذا الوقت من الليل الدامس، حتى يتسنى لهذا العاشق الذائب في شلال عنيف من العشق لكي يرى هيامه في الحياة.

ولكن حال هذا العاشق ليس بخير إطلاقا. وكيف يكون هذا؟ وهو يرى من قتلته بابتسامتها الخجولة سابقًا الآن تقف أمامه، وقد خسرت نصف وزنها، خسرت لون بشرتها البرونزي اللامع، واكتسبت آخر أسود مغربي من الأتربة والكدمات، خسرت وجنتها الجميلة المتوردة دائمًا، واكتسبت أخرى مشوهها سوداء وكدمات زادت تورم وجهها، خسرت بهاءها في تلك الثياب المُهترئة، خسرت روحها وضحكها وأملها وحلمها تحت أقبية المعبد هذا.

وضع يده على وجنته في دهشة، وهو يشعر بمرور هذا الشيء الساخن على وجنته، والذي أدهشه أنها دمعة فرت من عينيه!! حقاً ما زال الزمان يأتينا بكل غريب!! الدوق حنا الذي مر زمانه وهو غارق بين الأبرياء يحاكمهم ويصدر الأوامر والنهي والأمر بالقتل والعقاب والنزال سوء العذاب هو وزبانية جهنم من جنود المحكمة على الأبرياء، يبكي فقط لمجرد أن من سلبت نومه وعقله أمامه بتلك الحالة المصرية وهو السبب وأمثاله من ملوك العذاب والألم.

لا يعلم كيف نزل من على كرسيه، ووقف أمامها وساقته قدماه إليها، وقد انقبض قلبه وهو يرى ارتجاف جسدها من تلك العباءة الخفيفة من الخيش، وهذا الشال الصلب على رأسها، والذي انزلق إلى الوراء بعض الشيء ليبرز رأسها الأصلع المشوه نتيجة حرق شعرها، وتلوث جراحها، وتلك الرائحة الكريهة المنبعثة منها؛ بسبب الدماء المتجلطة في جسدها، ولكن مهما حدث ستظل الأزكي ريحًا والأجمل خلقة وخُلُقًا.

أما تلك المسكينة، فكانت أقل ما يُقال عنها أنها مرعوبة، بل أن الرعب لا يصف فيها شيء. وعقلها يصور لها أبشع الأحداث وألوان العذاب التي ستحل بها من دون سبب وبالفعل ليست مُستعدة لأي ألم، فيكفي حصة الألم التي حصلت عليها في صباح اليوم من كسرت الأصابع، ولا تزال تشعر بأن تروس الآلة تضغط على عظام أصابعها الآن. ولكن الغريب تلك الرائحة العطرة التي تشمها والهواء النقي وأخيرًا بعد طول غياب، وقد ظنت أنها فقدت حاسة الشم بسبب رائحة تفسخ الجثث والرطوبة التي اعتادتها منذ شهر مضى كالقرن.

التف من خلفها، وحل أصفاد يديها وقدميها، ثم همس في أذنها اليسرى بهدوء جعلها تنتفض خوفًا قائلاً في هدوء: لا تفتحي عينيكِ حتى أمرك جوليانا. اتفقنا؟

هزت رأسها بنعم سريعة ومرتعبة وبالفعل احتضنت يديها إلى صدرها منتظرة الأمر، حتى تكلم صاحب الصوت الفخم قائلاً: افتحي عينيكِ!

الفصل الثانى والعشرين

فتحت عينيها، ولكن يا ليتها لم تفعل وهي الآن تزيد حسرته، وندمه آلاف الحسرات، وهو يرى عينها اليسرى التي انقلبت بكاملها إلى البياض، واختفى منها قدح القوى الذي سلب لُبه وقلبه، وشغل عالم أحلامه، وكم تغازل به، وغنى له، وقد خسرته مثلما خسرت كل شيء حولها.

يريد أن يصرُخ! يُحطم! يُدمر! يقتُل!

.كل من ساهم، ولو بالمشاهدة والصمت على ما وقع على رأس حبيبته

والآن فقط يا حنا أنت تشعر وتتألم مثل البشر، وشعرت بفجاعة وبشاعة ما تفعله بالأبرياء مثلاً حكمت؟! ولأنها غالية عليك فقط ما كنت .أشفقت عليها

كانت نزعة الغرور وداء العظمة المُسيطر على المكان بدأت تكبر في قلبه وقساوته زينة له الجلوس على عرشه الفاخر لتفتح عينيها، وتراه في ما هو فيه جاه وعظمة، لكن رؤيته لعينها وحالتها السيئة تلك كانت بمثابة الصفعة على وجه النائم الغارق في بحر عسل من .النوم

ركد! نعم ركد إليها، وقد استسلمت هي أخيرًا إلى عناقه ويديه التي قد طوقت خصرها بتملك شديد وراحة، وقد وجد السلام الغائب عن .عالمه أخيرًا

أما هي، فقد تعلقت بعنقه بقوة مثل الغريق الذي قد تعلق بقشة بإيمان ويأس حتى ينجُ من الكرب والبلاء، ولا تفعل شيئاً سوى البكاء !والانتحاب بقوة وكأن روحها سترحل إن لم تفعل

!وقد كان الأمر كذلك، وكيف تبكي وقد قُتلت امرأة ليلة أمس بسبب إصابتها بالربو وارتفاع صوت سعالها؟

حاول النظر إلى وجهها، لكنها شدت على عناقه قائله بتية وخوف: لماذا تركتني ورحلت... الغرفة مظلمة وأنا أخاف الظلام... أريد العودة إلى أمي وأخي... لا تتركني يا حنا أنا أحتاجك... لا تتركني مجددا... قلبي يؤلمني... رائحة الموت حولي لا تتركني... أريد أن .أستحم وأمشط شعري.... آه! لقد حرقوا شعري يا حنا... لم يعد لشعري وجود... لقد فقدت عيني... أصبحت مشوهة بشعة

ابتعد قليلاً، وكور وجهها بين كفيه وإبهامه يمسح دموعها تلك بأصابع مرتعشة من قوة اللحظة قائلاً بحنان وصدق: لا بل ما زلت جميلة، هم المشوهون والبشعون، لكن لا يوجد من هي أجمل منكِ، شعرك سيعود، وستخرجين من هنا هذا وعد حبيب حر، فقط أخبريني ماذا حدث؟

مسحت أنفها في طرف ثوبها الخشن، وأردفت بصوت مبحوح من البكاء: بلايو عرض على ترك أوروبا، وأن ابتعد عن طريقك أو، .وأنه سيستمر في أذيتي وأذية عائلتي، ورتب لنا في مركب ذاهبة للمغرب

ثم توقفت للحظة، وهي تلتقط أنفاسها، ثم تابعت تحت اهتمامه وغضبه الجلى من بلايو: عند رجل يُدعى رياح خطابي، وفي الطريق .تعرض لنا الجنود أمي، وأخي هربوا وأنا لم أستطع الهرب

قبل جبهتها، وأعادها لأحضانه قائلاً بحنان: حدث ما حدث اهدئي أنا ساجد حل لإخراجك من هنا فقط توقفي عن البكاء، وإن سائلك أحد .قولي كنت أستجوبك

.ثم رفع وجهها، وقبل جبهتها قائلاً: أريد المكوث معك، لكن سالفة الأنظار عودي، وفي المساء سوف أجد حلًا

.تمسكت في قميصه الحريري قائلة بذعر من ذكر القبو: أرجوك لا تتركني أموت هنا، لن يكون لي قبر ولن أدفن

رفع كفها إلى شفتيه يقبله بنعومة ويداعب وجنتها: أموت ولا أضرك أبدًا الأمر ساعات، وسنكون سويًا في الخارج، وحقك سيعود قريبًا .يا سكرة

وقفت عربة حنا عند بيت رؤيتنا البعيد قليلًا عن بيت جوليانا وقد نزل ديغو _الذي جاء مع حنا المجنون على مضاد ليثبت له أن رؤيتنا تلك كاذبة، وقد كان يشعر أن حنا أغبى أغبياء الأرض، ولم يصدقه ولو لدقيقة وكيف، إذ حضر عزاء جوليانا بنفسه؟!! _وحنا على جنب، ولكن نظروا إلى بعضهم بدهشة عندما كان هناك تجمُع كبير من الجيران والمارة في الشوارع حتى الباعة المتجولين، ومن يحمل .قفص دجاج وطيور فوق رأسه قد توقف أمام بيت روايتنا

.وقد كان هناك صوت بكاء أطفال وصراخ مُنبعث من البيت يُنذر بالشؤم والمُصيبة التي يبدوا أنها وقعت لا محالة

استغل ديغو، وحنا ملابسهم الشرطية الرسمية، حتى يفرقا الزحام من أمام المنزل وبالفعل قد نجحا في ذلك، وتفرق الناس خوفًا من تلك .الرُتب الكبيرة التي دخلت الحي، ولكن لم يتوقعوا قدوم الشرطة بتلك السرعة إلى حيهم الفقير المتواضع

.قد كانت الصاعقة على رأس ديغو أكبر وأعظم من صاعقة حنا الذي كان يشك في الأمر، وبات الآن شكه حقيقة

كانت رؤيتنا مُعلقة في السقف بحبل غليظ مشنوقة مفارقة للحياة وعينيها تنظر إلى اليسار، وقد كان أسفلها كرسي مرمى أرضًا، ولكن بالرغم من ترتيب المنزل، إلا أن فيها كانا مبعثرين في المنزل وشعرها مشعشع بفعل أصابع يدين وهناك احمرار على معصمها، وتمزق .في فستان البيت

وقد لفت نظر ديغو ورقة في جيب فستانها ليرتفع على أصابع قدمه ممسكًا بالورقة، وقد كانت رسالة انتحار، وقبل أن يمررها لحنا همس .له: رؤيتنا لا تجيد الكتابة أو القراءة تلك جريمة قتل، أبدأ التحقيق يا ديغو رجاءً

.بالفعل أخلى ديغو البيت، وطلب المدد من مركز الشرطة وبدأ التحقيق

وقد كان هناك حنا مع ابنه رؤيتنا المدعوة انطونيت ذات الست سنوات التي عرفته، وقد ركدت عليه ما إن عادت من درس الكنيسة، وعانقته وهي لا تعرف أي شيء عن ما يحدث بالمنزل ولا أن والدتها فارقت الحياة فقط قد نبهت عليها أنه إن رأت ذلك الرجل صاحب .العينين الزرقاء والشعر الطويل تذهب معه إلى حيث يأمرها

.ابتعدت عن عناقه قائله بعينيها المتسعة التي تُشبه عيني أمها تمامًا: أنت العم حنا، أمي أخبرتني أنك ستأخذني معك

ملس على شعرها النحاسي الطويل بحنان زرعته به حكمة ليردف بهدوء: سنذهب إلى مكان جميل به امرأة جميلة الآن، وستكون هناك .ألعاب وحدائق وورود

نظرت إليه بعيني القطة قائله بتساؤل: ألن نأخذ أمي معنا؟

غصب على شفتيه ابتسامة قائلاً: أمك لأنها امرأة صالحة، وتحب ابنتها وتفعل الخير أصبحت ملاكاً كبيراً بجناحين وفستان أبيض في .السماء، وأخبرتني أن أنطونيو ستكون ملاكاً، لكن بعد أن تكبر وتهرم

ثم وقف ومد يده إليها، وقد ألقت نظرة أخيرة على بيتها، ولوحت إليه بطفولية، واضعه إصبع السبابة في شفتيها قائلة: وداعًا ماما .سأصبح ملاكاً، وألحق بكِ عندما أكبر

لمعت عينا حنا الذي كره شخصيته الطرية التي اكتسبها مؤخرًا، ومسحها بسرعة ثم أمسك بيدها الصغيرة بعد أن ابتسمت له بصدق .وأمان

وأثناء مروره إلى العربة تساءل: هل تعرفين؟ أين هيكتور لقد طرقت على بابه ولم أجده؟

هزت رأسها، واهتزت جدلتها الطويلة لتنظر بعينيها الخضراء الواسعة قائلة: بلا، لقد التحق بالدير، وأصبح راهبًا بعد أن ماتت خالة .كاترينا

ثم وضعت إصبعها على شفتيها قائلة بصوت منخفض: لقد جاء رجل، وقال إن جوليانا ماتت، لكن جاءت بعده ومعها رجال ضربوها .عند بيتها المحترق

حملها من أسفل ذراعيها، وأدخلها العربة قائلاً بهدوء ظاهري، وقد تشنجت أطرافه بغضب: اسمعي انطونيت عندما نذهب للبيت .أخبريني بكل شيء، ولكن يجب أن يظل الأمر سرًا بيني وبينك فقط

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وكان صوت صرصور الليل، وضحك السُكارة وبكاء العاشق مكسور القلب الذي جاء إلى الحانة طلابًا للشراب من أجل النسيان هو المُهيمن على الجو العام في الحانة حول حنا.

ولكن هنا كان في عالم آخر، وإلى الآن أنهى ثلاث زجاجات خمر، ولا يزال عقله يعمل ويفكر وهو ينظر إلى جُحر الفئران الصغير التي كل مدة تخرج من الجحر تسرق الطعام وتعود، وقد كان يفكر في ما حدث اليوم ورؤيته لجثة روايتنا ونظرها المصوب إلى شيء ما بعينه وبالتأكيد قاتلها، وبات يوسع أُفق تفكيره، ويشعر بمدى حماقته في تقديره للأمور.

تذكر حُلم الأشباح قبل قرابة العشرة أشهر في بيت جوليانا وشك بلايو الذي صرح به بدل المرة ألف، ثم رفض والدتها للخطوبة في البداية، ثم الهرب للمغرب ومدارات الأمر، والآن مقتل رؤيتنا المدبر، وقبل أن تتسمم جوليانا تحدثت عن صندوق في السرداب الأيمن، وقد رفضت أن تخبره عنه أي شيء!

كل هذا جعله يدرك كم هو أحمق، وأن مرآة الحب عمياء بحق، وكان لا بد من البداية أن يشك في أمرها، ولكنه كان مسحورًا مأخوذا بعشقه لها والآن فقط قد بدأ يرتب أفكاره، ويجمع الخيوط والأمور ليست عادية أبدًا، بل هناك شيء مُريب وغريب مجهول يجب أن يعرفه.

كرع آخر كأس على مرة واحدة، ثم ترك النقود في طبق مخصص للحساب، وخرج راكبًا خيله الأسود قاصدًا بيت جوليانا وليبحث تحت الأرض، وفي كل مكان ليفهم ما يحدث من وراء ظهره.

ربط خيله بلجامه الجلدي في إحدى الأشجار، ثم سار على قديمه، وتسلل إلى البيت المُتفحم والمُتهالك، حتى دخل بين الهباب وجيفة الغنم والستائر والكراسي المحترقة، وبالرغم بالحزن على موت ذكرياته هنا، إلا أنه دفن قلبه، وأيقظ عقله ليكتشف الحقيقة الآن.

دخل إلى المخزن المحترق، وضرب باب السرداب الأيمن قبضة يده، وقد تحول إلى غبار لم يحتج إلى وقت حتى يفتحه، فقد تهالك بالفعل.

أخرج الكبريت من جيبه، وأضاء مصباح كيروسين معلق في الحائط، وقد نجح ونزل إلى السرداب ليكتشف عالماً آخر وكأنها مكتبة بغداد قد سُرقت، وها هي الآن تحت بيت جوليانا!

كانت كُتب كثيرة بلا اسم أو عنوان وأوراق، ولكن باللغة العربية والأسوأ هو نسخة من القرآن الكريم بالعربية والإسبانية.

وقد احمر وجهه حتى أذنه بغضب، وزادت حرارته، وقد بدأت شكوك بلايو تصدق وتنقشع تلك الغشاوة عن عينيه، وقد أخذ يُفتش بعصبية في السرداب وبين الرفوف، حتى وجد الصندوق الذي حدثته عنه، وقد وضع المصباح على أحد الرفوف، وفتح الصندوق ليجد به الورود والرسائل التي كتبها لها وليجد ورقة كبيرة مختلفة بينهم، وقد أخذ يقرأها لتشتعل عينيه بغضب ساحق، وقد كان يُتَلَاعَب به كالدمية الحمقاء من فحواها الذي كان "إذا وصلتك تلك الرسالة يا حنا، فاعلم أني ميتة حتى ولو كنت حية فأنا سأموت، أنا مسلمة أندلسية اسمي حكمة خالد محمد، قد عرفتك وأنا طفلة شملتني بحنانك، وكنت أفضل أصدقائي، وعندما كبرنا تغيرنا وباتت الصداقة البريئة تتحول إلى حب عذري، لكن مليئاً بالكذب، أنا أحببتك ولم يكن بيدي شيء، كنت أموت ألف مرة، وأنا أرى في عينيك الصدق ومشاعر الحب، وأنا أكذب عليك، العالم كله ضدي، لكن لا يمكنني أن أُغضب ربي، سامحني يا حنا".

صرخ بقوة، وهو يركل صندوق الورود بطول قدمه إلى عرض الحائط، وقد أطلق ألفاظ نابية بطيئة تعبر عن مكنون الغضب من الحقيقة واللعبة القذرة التي كان بها.

ليخرج صاعدًا على السلالم قاصدًا الكنيسة ليحرق الأخضر واليابس، ويدمر من دمرت قلبه قبل حياته.

صوت صرير عال دليل على فتح باب زنزانة المسكينة الصدى، وقد كانت متكورة حول نفسها في زاوية الغرفة وأقل مكان يصل إليه الماء الذي يسكبه عن قصد حتى تظل وقفة طوال الوقت.

رفعت رأسها الموضوع بألم وإرهاق بين ذراعيها على ركبتيها، ونظرت بنصف عين إلى الدخول، وقد توحشت غربتهم لأكثر من أسبوع لم يقترب منها أحد، وقد ظنت أنهم نسوي أمرها، وتركوها وموتها البطيء مع نفسها مثلها مثل الآلاف هنا من مات منسيًا في زنزانته، ومن مات منسيًا في العذراء الحديدية؛ بسبب السكاكين التي مزقته إربا، ومن مات على كرسي الاعتراف المليء بمئات المسامير، ومن مات بحبس الغائط بسبب حزام العفة وغيره، وقد ظنت أنها مثلهم، ولكن خاب ظنها وهو ترى حنا بزيه العسكري الفاخر ونظرة غاضبة وحاقدة تملأ قلبه قبل عينيه، وإلى جانبه البابا وبعض الملثمين، وقد تقدمهم أجهرهم صوتًا، وقد فتح لفافة ورقية، وأخذ في قرأت فحوها، وكان "بسم المسيح وبسم الكنيسة، وبعد مراجعة الأدلة والتدقيق في التحقيق ومباركة البابا للطائفة الكاثوليكية قررنا نحن الضابط الأعلى لمحكمة مدريد حنا باخوميوس معاقبة المدعوة جوليانا أندرو أغسطس بالإعدام حرقًا حتى الموت لاستحالة كثلكتها، وذلك ".في ميدان مدريد الرئيسي بعد غد بحضور جلالة الملك المعظم ولفيف من مستشاريه

وقع الخبر على قلبها وقوع الموت على عاصي غافل _عافكم الله _مؤلم الأمر وصعب للغاية أليس كذلك؟

ولكن تلك الحقيقة المرة التي كرهت حكمت تصديقها وسماعها، وقد تأملت فيه هو الخير، وقد وعدها بالأمان والآن يخلف بوعده، ويهد .ما بناه بينهم عبر سنوات في لحظة أقل من ثلاث دقائق

!والآن فهمت ما معنى كلمة خذلان، وشعرت بألم الخذلان، ولكنه أمر بشع وسيئ أن يأتيك الخذلان من أقرب

خرج الجميع. أما هو قد وقف ينظر إليها بقسوة وحقد عارم وهي لا تقل قسوة وحدة عن أنظاره، وبالرغم من جلوسها أرضًا أسفل قدميه، .إلا أنها تحمل شموخ وعزة العالم كله

.بصقت جانبها على الأرض قائلة بكرة: كاذب نجس ترك الفرنسيين يمرحون في البلاد، وتجرأ على النساء والأطفال

طحن أسنانه بغضب، وقد هبط إلى مستواها قابضًا على فكها بقوة، ورفعها من فكها قائلاً بتقزز: النجس هو أنتِ يا كافرة، ستحترقين في .الدنيا وفي الآخرة. يا حكمت الكاذبة

قاومته برأسها بغضب وقوة، وأردفت "الكافر هو أنت وأمثالك أنا سأدخل الجنة لأني آمن بالمسيح وأمه، أنا لم أظلم أحداً، ولم أقتل أحدًا، "!كيف ستدخل الجنة أنت بما تفعل؟

ظل قابضًا على فكها بقوة جسدت كم الغضب والألم الذي بداخله ليهمس بعد أن أسند جبهته على جبهتها: أكره قلبي الذي لا يزال ينبض .إليكِ، لقد ذبحتني وقتلتيني وأنا حي، يا ليتك رفضي حبي، ولا تفعلي بي هذا

ضربته في صدره بيديها الضعيفة قائلة ببكاء مرير: لقد دمرتم حياتي... آه... ما ذنبي أني مسلمة... هذا حقي المسروق... أكرهك وأكره حبي ليك... لماذا ظهرت في حياتي... أنا كنت مرتاحة البال خربت حياتي ودمرت عائلتي... قتلت روحي بالبطيء. لا أستحق كل الألم .هذا... كان أمامي عمري، وبنيت أحلامي وأنت دمرت كل شيء... كل شيء ضاع

سقطت دمعة من عينيه على وجنتها لتختلط بدموع عينيها الساخنة، وقد اكتفى إلى هنا من تلك الكذبة الكبيرة التي عاش بها ليهمس مرة أخيرة قبل أن يرحل: لا يمكنني نسيان حبك ولا التفكير بكِ أو الوقوع في حبك كلما رأيتك، لكن يمكنني كرهك وهذا جزاء ما اقترفته .يداك

" يا رب موسى وعيسى ومحمد، يا منقذ يونس من بطن الحوت، يا من جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، يا من نجيت نوح من الطوفان، وشفيت أيوب من الضر، وأتيت داوود الحكمة، ورفعت يوسف مكانًا عليًا، ونجيت لوطاً وأهله من القرية الفاسق أهلها، وسخرت الحمامة والعنكبوت لإنقاذ محمد والصديق، سخر لابنتي إذن الخير، اجعل طريقها سهلاً لا عثرت فيه ولا سقوط، نجها من القوم الظالمين كما نجيت امرأة فرعون من فرعون وعمله، احفظها بحفظ، سخر لها جنودك، احميها كما حميت مريم عليها السلام، وعيسى من "الكرب العظيم، يا رب أذن لها بالخير والعمر المديد، احمها وأربت على قلبي وقلبها، أنا أم أربت على قلبي يا الله

كان هذا دعاء خديجة على المُصلية الخضراء في غرفتها المطلة على النافورة في وسط المنزل، وقد راودتها كوابيس بشعة أيقظتها من نومها، ودفعتها للدعاء والصلاة لأجل ابنتها.

وآه من هذا الدعاء! سحر عجيب لا أدري لما لا يستغله البعض اليأس والمحبط مثلي ومثلكم في تغير قدرة والإلحاح على الله في طلب العون والمدد إلى جانب العمل؟

ولكني أدركت أنه رزق من عند الله لا يؤتيه الله إلا لا صالحة قلوبهم وأعمالهم حتى ولو بفعل صغير، فكم من قصص الخطائين الذي دعوا الله، وقد انقلبت حياتهم رأسًا على عقب، وتبدل الخطأ بالعمل الصالح.

والأهم هو صلاح ونقاء القلب النادر في آخر الزمان.

في ميدان مدريد الرئيسي، وفي منتصف حلقة كبيرة من تجمهر الناس والسكان وحول حلقة أصغر من مجلس الملك الذي توسط دائرة من مستشاريه والبابا الكاثوليكي الأكبر في البلاد ورئيس محكمة التفتيش حنا والبابا المسؤول بها وبعض الجنود والملثمين.

وبالمناسبة بلايو هنا، لكنه لا يعرف من هي المحروقة!

وفي حلقة أصغر من الصُغرى كانت هناك طاولة عليها من الطعام كل ما تشتهيه الأنفس من لذات وأنواع فاخرة ونادرة عليها القليل القليل من المساجين في محكمة التفتيش قد خرجوا مع تلك المسكينة المحكوم عليها بالموت حرقًا اليوم، ولم يكن الخروج بغرض الفسحة أو التهوية، بل للعبث والضغط النفسي عليهم ليروا جزاءهم القادم لا محال في حالة إخفاء دينهم الأصلي، واعتناقهم ديناً غير الكثلكة، ولم يكن الطعام، وحث الجنود لهم على تناول الطعام إلا للظهور بصورة لطيفة طيبة للعامة وبالطبع لم يجرا الأسرى على لمس الطعام.

أما المسكينة، فكانت ترتدي جلبابًا مُغطى من أوله لآخره بالشحم والكيروسين وكذلك وجهها الذي اكتسب اللون الأسود الذي، وقد اختفت ملامحها تمامًا وكأنها بثرة سوداء في وجه أبيض!

ولكن كانت روحها التي تحمل كل تعابير الألم والعذاب متهالكة لا تقدر على حمل قدميها، وقد رُبطت بالكامل بعمود خشبي، وأسفلها خشب وقش فوق منصة خشبية استعدادًا للرحيل للدار الآخرة، وقد فقدت الأمل القليل تمامًا، ونظرت إلى السماء نظرة أخيرة تتأمل الطيور والسحاب، وتلعن كل من وضعه هنا الآن.

وأما حنا، أتتذكرون عندما تأملته حكمت ووصفته بغليظ الملامح والصلب كان وجهه أسود بالإضافة إلى غلاظة ملامحه، وليس السمار خلقه الله، بل السواد الذي في قلبه قد ظهر على وجهه، وقد نظر إلى تلك الكاذبة بتشف، وفخر من ما أقدم عليه.

وقف رجل ضخم الجثة ملثماً بالأسود بالكامل، ويحمل فأس أكبر من فأس تورجوت الغازي وبيده الأخرى شُعلة نار، وبدأ بصوت جهوري يعلن بيان موتها "بسم المسيح وبسم الصليب قد تجل عدل الرب في الأرض، وحكمت المحكمة بعد مباركة الملك والبابا بإحراق تلك المرأة بعد استحالة كثلكتها، واتباعها الشيطان وعدم دفن رمادها"

ومع آخر كلمة أغمضت عينيها لتفر منها دمعة تائه لا تدري على ماذا تهبط والموت الذي تمنته ودعت به يأتيها الآن، ولكن تلك الدمعة كانت دمعة ألم الخذلان من الجميع، وهي ترى في أعينهم نظرة الشماتة والحقد والكره وبحياتها لم تتمن الشر لأحد، وترى الآن أعز الناس على قلبها يسبها ورفاقها من بين الحشود يلقون عليها الحجارة والقذف البشع، والآن وحدها بجسدها الصغير وقلبها المكسور تحمل خطايا وذنوب العالم كله.

وقد ألقى الملثم الشعلة ومعها على صراخها والنار تلتهم جسدها بوحشية وافتراس بشع ومؤلم، لكن ليس كالم قلبها الذي ينبض للمرة الأخيرة.

وهناك حنا قد وقف بشموخ، وأخذ يصيح بقوة، وقد سحب سيفه من غمده "المجد للملك. المجد للملك"

ومن خلفه الجميع يردد المجد للملك. المجد للملك.

"!لا أدري يا بني، لكني أشعر أن الطعام بلا طعم"

.كانت تلك الجُملة ترددت على مسامع حنا كثيراً منذ وفاة والده

وقد كانت تتكرر من أمه المُتيمة عشقًا بأبيه، ولن تكذب إذا قالت إنه لا مذاق للسعادة والبهجة من دونه، وكأن العالم من دون نصفها .الآخر مثل شيء جميل، لكنه لم يكتمل بعد فغاب جماله، وعبرت عنه الأيام، وبات نسيًا منسيًا

.ولكن تلك المرة كان قاسي القلب عديم الرحمة حنا هو المُتحسس والشاعر بهذا الأمر

.أقنع نفسه بأنه فعل الصواب، ومن عرف بذلك فقد هو فعل الصواب

.فأرواح المسلمين الوحشية تلك لا تستحق الشفقة أو الرحمة حتى

!وإن أشفق عليهم لبسوا جلد النمر له ولبلاده وكل من فيها، فأفضل أمر هو العصي لمن عصا

!ولكن سؤالي موجه هنا لقلبك لا لعقلك يا حنا، هل حقًا حكمت كانت وحشة، ولا تستحق الشفقة أو الرحمة منك أبدًا؟

وكيف سولت لك نفسك الاستمتاع والفخر بقتل روح طاهرة منحتك الحياة، بينما لم تكن تقوى على هش الذبابة من فوق رأسك؟

.أنت لست سوى قلب أسود متعفن ملئه الحقد، وأعماه الغضب الذي لا مبرر له سوى تعفن روحك في قصص وهمية وكره متوارث

وقد كان على طاولة الطعام إلى جانب أمه وبلايو وعائلته، ولكن أمه هي الوحيدة التي تشعر بتغيره التام الذي يزداد كل يوم عن ذي قبل، ويتجه إلى الاسوء كلما مر الزمن، ولو فقط يعطها الفرصة، ويفتح قلبه لها لاستطاعت مداواة بعض جراحه فالبعض الآخر جوليانا فقط .من تقدر على مداواته

.ترك حنا الملعقة المعدنية، وقد شعر أن طبق الخضراوات واللحم والمشروب مثل الماء لا مذاق لهم أبدًا

مسح شفتيه ويديه في منديل الطعام، ثم وقف قائلاً ببرود وهدوء غير مدرك لحجم القنبلة التي يرميها الآن على الطاولة: أنا في إجازة لمدة شهر لا أريد أن يسأل عني أحد، وبالمناسبة لقد وجدت فتاة من غرناطة، وطلبت يدها للزواج وعن ما قريب ستأتي لمدريد لإتمام !الزواج

كقلب أي أم كانت مارلين سعيدة وفرحه بهذا الخبر، وقد ابتسمت ببهجة صادقة، وهي ترى أن ابنها قد اجتاز محنته وفراق خطيبته .ليخطو خطوة قد طال انتظارها، ولكن لا بد منها في الأحوال جميعهم

لكن بلايو قد أفسد سعادتها، وقد بدأ في استجواب حنا باستهزاء وبرود: وماذا تعمل تلك المرة أم أنها تقتات على التسول؟

طرق حنا بقبضة يده على الطاولة بنفاذ صبر وبرز فكه للأمام، ثم قلب عينيه ليرد بسام وضيق: لا تقلق تعيش مع خالها وهو تاجر .معروف، فقط أنت دعني وشأني، ولا ترسل جواسيسك خلفي، الأمر شائن ومقرف حقًا

أمال بلايو رأسه، ومط شفتيه قائلاً ببرود: أنا أفعل كل هذا من أجل مصلحتك، والنتيجة مبهرة قد نسيت جوليانا وكلامك الأحمق عن .حبك لها

وضع حنا يده في جيبيه قائلاً بنبرة ذات مغزى: جوليانا تحت الأرض الآن، وأظن أنك تشعر بالانتصار، لكن حياتي ليست لعبة بين يديك .لتعبث بها، وتحطمها كما تشاء، أنا أُدير أمن البلاد، ولا أنتظر من أحد أن يُدير لي حياتي حضرة المستشار

ارتفعت زاوية فم بلايو بابتسامة جانبية ساخرة، وعاود تناول طعامه وهو على يقين تام وسلام نفسي بأنه فعل الصواب الذي كان لا بد من حدوثه الآن، وغلق باب القصر القوى الذي أرعب الجميع عن خروج حنا كان بالنسبة له لحن شجي لم يسمع في روعته إلا بكاء !جوليانا

الفصل الثالث والعشرين

.قد مر أسبوعان كاملان منذ أن أخذ حنا الإجازة، وقرر الابتعاد عن بلايو الذي كل يوم يزداد كرهه له وغضبه يوماً بعد يوم تُجاه بلايو

!وكم هو مقرف هذا الرجل يملك شراً لا حد لجنونه وبربريته

فيكفي حقًا أنه السبب في قتل رؤيتنا المسكينة التي كل جريمتها أنها فقط حاولت إنقاذ النعجة التعيسة من فكي ضبعًا قذر، وجمع قلبين .تائهين

.ولكن بلايو يضمر من الحقد والكره لكل من يقف في طريقه كما يضمر من الحب والعشق للسلطة

ولا تظنوا أن بلايو أقدم على ما أقدم حتى ولو بطريقة غير مباشرة سواء تفرقة حنا وجوليانا وقتل صانع السم وقتل رؤيتنا _وكل ذلك !عن طريق رجال بلا ضمير انساقوا وراء شهوة المال والعوز والحاجة _بدافع حب حنا فقط

وإن ظننتم ذلك فاسمحوا لي نحن هكذا نعيش في عالم كوكب زمردة على سبيستون، ونرى العالم مبتهجاً وسعيداً كما رآه شمشون بعين .سبونج بوب

بل دافع بلايو مادي بحت، وكله خوفًا على فرار السلطة منه، وتلوث سمعته بمجاراته الفقراء والمشكوك في كلكتة وبائعات الهوى، وإن .عرف أحد سيدعى الجميع الشرف والعزة، وتُسحب منه طبقته الاجتماعية

!لكن القتل فعل عظيم وسيئ حقًا، فلا أدري كيف سينتقل إلى الدار الآخرة بيدين ملطخة بدماء الأبرياء هكذا؟

أتتذكرون ذلك القصر الكبير المليء بالحدائق والورود وبه امرأة جميلة الذي وعد به حنا انطونيت؟

.ها نحن الآن فيه، أو حنا هو من يقتحم أبوابه بهدوء وسلام داخلي وطمأنينة تغزُ قلبه عند الاقتراب منه

وقد اتبع أصوات الضحك القادمة من الغرفة الواسعة في الطابق الثاني متجاوزًا الخدم القليل جدًا الذين شرعوا في وضع الطعام على .الطاولة قاصدًا حديقة المرح بالأعلى

ابتسم بهدوء بعد أن دخل الغرفة، ورأى أنطونيو التي تجلس على كرسي كبير ضاعت فيه لضآلة جسدها على مكتب، وإلى جانبها جوليانا التي كانت كلتا قدميها مربوطة بشاش طبي وكذلك رأسها، وكانت تغطيها أسفل أشارب صغير، حتى لا يرى أحد رأسها المُجرد من .الشعر

...!مهلًا لحظة، جوليانا

.نعم جوليانا، هي جوليانا بأم عينها ولا أحد غيرها

!ما لكم حط على رؤوسكم الطير فلا يزال في القصة بقية

قفزت أنطونيو من على كرسيها تاركة جوليانا التي كانت تعلمها كيفية كتابة اسمها، وقفزت في أحضان حنا متعلقة برقبته، وقد بادلها العناق، وحملها من على الأرض.

قلبت وجنته الملتحية قائله ببهجة: عمي حنا اشتقت إليك كثيرًا، ثم أشارت إلى الأوراق على المكتب قائله: انظر لقد استطعت كتابة اسمي من دون خطأ، خالة جوليانا ساعدتني.

اقترب وحمل الأوراق باهتمام وقراها، ثم وضعها جانبًا قائلاً بفخر: أنتِ أذكى الفتيات يا أنطونيو، وعندما تكبرين ستصبحين عالمة كبيرة.

ضحكت الفتاة ببهجة وتعلقت بعنقه، وقد اقترب من حكمة، وقبل جبهتها وعانقها لتبادله العناق قائلة بصوت ناعم مُستكين: اشتقت إليك اليوم كثيرًا.

.ثم رفعت وجهها عن صدره ليُقبل عينها المُطفئ ضوءها ليردف بهدوء: ليس أكثر مني يا سكرة

ثم نظر إلى لؤلؤتيه قائلاً بحنان: أنا جائع وأريد أن أكل بقرة بحالها من سيأكل معي؟

!رفعت كلتاهما يديها قائلتين بحماس: أنا

ماذا يريد الإنسان في تلك الحياة سوى الراحة والسكينة والطمأنينة والستر والسلام الداخلي؟

.لا شيء، فمن ملك تلك المقومات قد ملك الدنيا بمن فيها، ومن عليها وبات أغنى من أغنى ملوك الأرض والعالم

كان هذا حال حنا الذي وجد الراحة والسكينة التي أضاع ما أضاع من عمره في البحث عنها، ولم يتخيل أنه سيجدها هنا بين امرأة يحبها وتبادله الحب الحقيقي بلا تكلف أو طمع فقط عليه أن يُقدر حبها له، ويبادلها الأمر نفسه، وطفلة صغيرة تملأ حياته سكينة وحنان حتى، ولم تكن ابنته، فيكفي النفس البريئة الطاهرة على الفطرة لم يلوثها خُبث الشيطان ودنس الدنيا وظلم الناس.

وإن كانت حكمت وانطونيت تأكُلان بين الضحكات والمرح والسعادة فحنا لأول مرة يشعر بلذة الطعام، رغم أنه نفس الخضار ونوع الدجاج والأطباق وإلى آخره... إلا أن للراحة والفوز والسعادة والنصر طعماً آخر لا يدركه إلا المحارب الذي كسر في معركته مئة سيف، وحطم ألف درع، وانتصر على ألف جندي في حرب ضروس بين نفسه وما يريد وبين نفسه وهوى نفسه والنتيجة أمامه، حب حياته يبادله الابتسامات والحديث، ويؤنس قلبه ويسكن إليه في الليل، ويعطي حياته لونًا أخضرا مريحاً وجميلاً!

.صوت تأوهات وأناة متألمة كان هو المسيطر على غرفة حنا، وحكمت ولولا وجود الباب المنيع لكانت خرجت تلك الأصوات للخارج

وقد كانت حكمت تجلس على كرسي وثير ودافئ وأمامها حنا الذي كان يُطهر جرح رأسها، ويضع لها ذلك الدهان، ويربطه بالشاش القطني جيدًا.

!وبالرغم من أن الحرق قد كون فوقه طبقة جلدية جديدة دليلاً على اقتراب الشفاء والاستجابة للعلاج، إلا أن النار نار

تحرق القلب قبل الجسد؛ ولهذا لم يكن اختيار رب العالمين لها عقاباً للمنافقين والقتلة والكاذبين والظالمين عبثًا _حاشى لله وتعالى_، بل لأن أصعب الأم الإنسان هي النار التي تفتك وتحرق بلا رحمة أو هوادة.

فما بالكم بحكم المسكينة التي حُرقت بغير وجه حق، وفي أعز ما على قلب المرأة شعرها الذي تتفنن فيه النساء سواء بالصبغة أو التسريحات والقصات على أحدث صيحة من الموضة أو شراء الزيوت باهظة الثمن للعناية به والظهور بأبهى صورة، والآن تلك المسكينة محرومة منه مؤقتًا وبلا سبب فقط الكرة.

وإن كان علي حنا، فبالرغم من ظهوره الخارجي القوي والمُساند لها، إلا أن نياط قلبه تتمزق بقوة وببطء على شعورها بآلام، وتجمع تلك الغشاوة البلورية في عينيها ومحاولات تماسكها الفاشلة التي تنفضح إذ تنتفض أو تشهق أو تهرب من عينيها دمعة تأبى الرضوخ.

غسل يديه، وعاد إليها، وقد مسحت عينيها بأصابعها المرتجفة بسرعة، حتى لا يرى بكاءها.

جلس على ركبتيه أمامها، وكور وجهها بين كفيه الضخمين، وداعب وجنتيها بإبهامه قائلاً بحنان: حكمت، صدقيني شعرك سيعود كالسابق، وأجمل فقط الأمر متعلق بنفسيتك، عليكِ أن تتحلى بالقوة والثبات لتُشْفَى.

بللت شفتيها، ومسحت عينيها بأصابعها قائلة بصوت مبحوح من البكاء: متى سنوعد إلى القصر؟

أردف بعزم وإصرار: عندما تستردين عافيتك وقوتك وعزمك، يجب ألا يراكِ أي أحد مهزومة أو مكسورة، أنتِ ملكة يجب أن يكون رأسك مرفوعاً في السماء.

ابتسمت بدفء وهدوء هامسة: أنا أحبك جدًا، وأحسد نفسي على وجودك وحبك في حياتي.

قبل جبهتها، ثم ابتعد قليلًا قائلاً بابتسامة هو الآخر: ليس أكثر مني يا حكمت السكرة.

ثم وقف واتجه إلى التسريحة، وأخذ الفرشاة ثم جلس عند قدميها، وحل رباط شعره، وأعطاها الفرشاة لتبتسم بحنو ودفئ، وهي تلتقط الفرشاة، وقد شرعت في تسريح وتهذيب شعره الطويل قائلة بهدوء وسلام ولا شيء آخر غيرهما سوى الحب: نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- يقول.

توقفت ليردف بهدوء مغمض عينيه من الشعور الغريب اللطيف الذي يغزُه عندما يُذكر نبي الإسلام مؤخراً بلكنة عربية ضعيفة للغاية: صلى الله عليه وسلم.

لتتابع: من كان له منكم شعر، فليكرمه وأمنا عائشة -رضي الله عنها- تقول زين الله الرجال باللحى والنساء بالضفائر، وإذا نظرت في المرآة تقول اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي، لذلك كل فعل نفعله نأخذ عليه أجور كثيرة من عند الله، سواء إحياء سنة نبينا محمد، وفعل الخير والواجب وذكر الله، فالنظافة لها أجر، وقال الفاروق عمر -رضي الله عنه- لو أسرفت نصف مالك على العطر ما كنت مُسرفًا، والوضوء له أجر وكلما أحسنت الوضوء ارتفعت قيمتك عند الله، وبر الوالدان له أجر، عيسى ابن مريم -عليه السلام- قال في سورة مريم وبرا بوالدتي، ولم يجعلني جبارًا شقيًا، والكلمة الطيبة صدقة، والعطف على المسكين والضعيف والحيوان له أجر، وتوقير الكبير ورحمة الصغير من الإسلام، والعدل واجب وأمر وفرض، وأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر خيره وشره تلك أركان الإيمان، والصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن تركها، فقد هدم الدين، والجهاد له أجر سواء مجاهدة نفسك على المعصية أو بالمال أو بنفسك، ولقد كرمنا الله، ووهب لنا عقول وشهوة إما أن نرتقي بشهوتنا، ونغلبها ونصبح كالملائكة عقولاً بلا شهوة، أو نتبع الشهوة، ونصبح كالحيوانات شهوة بلا عقل، والمرأة سكن للرجل، وهو آمن لها، وآخر شيء الليلة ربنا لم يحرم علينا الخمر إلا لحماية جسدنا وصحتنا من الأمراض وعقلنا وروحنا من الدنس.

وقد أنهت حديثها الهادئ مع انتهائها من جدل شعره على هيئة جدلة أنيقة رجولية، ليفتح عينيه من حالة الاستمتاع التي عاش بها للحظات قليلة سواء من ملمس يديها أو صوتها الدافئ أو نصيحتها الغالية، وكل شيء أفضل من الآخر.

أرجع رأسه للوراء ليستقر على فخذها لتلمس لحيته الكثيفة قائلة بهدوء: فهمتني يا يحيىٰ؟

أمسك بكفها الموضوع على وجنته الملتحية ليضعه على شفتيه يقبله بنعومة، ثم وضعه على قلبه قائلاً: فهمتك يا حكمت.

.ولعلكم تتساءلون ما الذي يجري هنا؟! وكيف جاءت القلعة إلى جانب البحر؟ وكيف لهذا أن يصبح ذاك

لكن لأنني امرأة عطوف، وأكره القصص المأساوية والحزينة قررت تغير النهاية لشيء مُبهج للجميع، ولكن احذروا ففي أي وقت قد !_أغير رأياً والجميع سيحزن عندها _حاليًا أنا أضحك بشر

.والآن نعود إلى الوراء سويًا وصولًا إلى أسبوعين ماضيين

بعد تنفيذ حكم الإعدام الذي لا ريب أو شك فيه، فقد كان حقيقيًا مئة بالمئة أمام البابا والملك والجميع إلا حنا وحكمة، فقد كان هناك رأي .آخر

فبعد أن علم بأمر إسلامها جلس عند النهر الذي اعترف عنده بحبه لها، وقد كانت نفسه تشتعل غضبًا وحقدًا من تلك اللعبة التي كان بها .كالدمية ذات الحبال وقلبه الغبي هو من يتحكم بها

جلس وتذكر كلماتها بأن ما يفعله خاطئ وكلاهما يقع في ذنب عظيم، ثم نظر إلى الرسالة المُجعدة بين قبضته، وتذكر وعوده لها بأنه سيحارب العالم لأجلها وسيفوز بها، وتذكر كل شيء جميل صنعته لأجله، وكيف داوته وعند البرودة سهرت طوال الليل تُعد له تلك البطانية، ودافعت عنه بجرأة ليلة التفتيش، وفكر للحظة أليس الحب الحقيقي هو نفسه أرض المعركة التي يحارب بها الجندي الحقيقي !بالسُبل كلهم حتى ولو بيديه العاريتين

ألا تستحق حكمت الحرب والمُجازفة؟

ألا يستحق هو أن يفوز بقلبها، ويقف أمام الصخر، ويصرخ بأعلى صوت أنا من حطمت غرور الجبل؟

.بلا يستحق وهي تستحق، كلاهما عانى الألم وداس الشوك بقدميها العارية منذ بداية الطريق وعليهما الوصول للأرض الخضراء الناعمة

.أغمض عينيه لعدة دقائق يحاول فيها نسيان كل شيء تعلمه وعرفه في بلاده والسلطة منذ نعومة أظافره

لأجلها سينسى حقد أجداده الدفين، سينسى أن المسلمين همج ووحوش، سينسى أن هؤلاء المسلمين لا يستحقون العيش وما هم إلا مغتصبو !بلاد، سينسى كل ما تعلمه مثل ذلك، وسيفتح لقلبه وعقله صفحة جديدة فقط لأجل حكمت

.أمسك تلك الرسالة، ثم وقف ومزقها إربًا، ورماها في النهر لتجري مع الماء، ويجري معها تاريخ جديد سيخطه حنا بالجنون والعشق

.قد كان حنا مع ديغو الذي جذبه من قميصه في مكتبه بمركز الشرطة عنوةً إلى محكمة التفتيش، حتى يبحث معه في ذلك الحل الجنوني

وقد كان ديغو مجهولا تمامًا من حماقة صاحبه، وينظر إليه بضيق، وهو يُفتش في دفتر أوراق المساجين والتحقيقات، حتى يجد اسم .مشابهاً لاسم جوليانا

قذف حنا ديغو بريشه القلم بغضب ليردف بنفاذ صبر، وهو يرى ديغو يجلس على كرسيه عاقدًا ذراعيه بلا اهتمام: أيها الوغد أبحث معي .لا وقت للكسل

رفع ديغو كتفيه ببرود ورد، وهو ينظر إلى نظافة أظافره: لا شأن لي هي حبيبتك، أنت من سينقذها جُل الأمر وما سأفعله سأوصلها إلى .القصر لا أكثر ولا أقل

نظر إليه حنا بزرقته الغاضبة بنظرة جانبية، وأطلق لفظ بذئ من شفتيه، وتابع بحثه في الدفتر الثامن عشر، وقد بدأ في هذا العمل منذ .الثالثة صباحًا والآن الساعة قد اقتربت من الثامنة ولحسن حظه أنه لا أحد يجرؤ على دخول مكتبه مهما كانت سُلطته

مسح عينه حمراء البياض بإرهاق ليصيح بابتهاج وتتسع عيناه على وسعها، ويقفز من كرسيه قائلاً بنصر: أنظر جوليانا أندرو أغسطس .نوح، ثم أمسك ورقة حكمت قائلاً جوليانا أندرو أغسطس بيتروتشي

مط ديغو شفتيه المزينة بشاربه، ووضع قبعته العسكرية على شعره الخفيف قائلاً بعدم فهم: ماذا في ذلك؟! أنا عندما كنت في الكنيسة كان معي فتى ذكي اسمه ديغو دانييل وأنا ديغو دانييل أيضًا، وكنت أبغضه لسرقة الأضواء مني.

صفع حنا مؤخرة رأسه قائلاً بضيق من غبائه وتكرار خطة الهروب للمرة السابعة قائلاً: أيها الحمار كم مرة سأكرر؟ فقط بعد غد عند موعد التنفيذ تعالى وخذ العربة، أغرب عن وجهي الآن.

نظر إليه ديغو شرزًا، وامتعضت ملامحه وخرج من المكتب يتمتم ببعض السب والكلمات المتذمرة التي لم تصل إلى مسامع حنا الذي نزل إلى القبو يبحث عن جوليانا نوح، وقد وجدها امرأة في الأربعينات، وقد كانت تهمتها هي التحالف مع الفرنسيين.

دخل إلى الزنزانة بعد فتح له الملثم، ثم غادر بعد أن أشار إليه.

وقد كانت تلك المرأة لا تقل سوءًا عن حال حكمت بقدر أنملة سوى أنها ما زالت تُبصر والضوء في عينيها مُقيم.

عقد حنا ذراعيه خلف ظهره، وفي زاد ذلك المعطف من الفراء حجمه ضخامة وهيب.

نظرت إليه تلك المرأة، ثم نزلت علي قدماه تُقبلها بيأس وألم وخوف من وصلة عذاب أخرى قائلة ببكاء ومرارة: اقتلوني. أجرؤكم لم أعد... أتحمل هذا العذاب... لقد اعترفت... اقتلوني لا أريد أن أعيش!

دفعها حنا بحذائه اللامع بتقزز قائلاً ببرود، وهو يُدرك أنه يعقد صفقة رابحة: أنا هنا لتلبية طلبك، لقد صدر أمر بإعدامك حرقًا بعد غد استعدى.

ضحكت تلك المرأة، وأخذت تصفق ببهجة وهستيرية مُخيفة ترسم حجم الرعب والمُعاناة التي تعرضت لها خلال مدتها هنا تحت أقبية المعبد.

خرج تاركًا تلك فاقدة العقل على حالتها المُرعبة ليأخذ الجنديان الحارسين لغرفتي كلتا الجوليانا، ويأمرهم بعد إبلاغها بخبر الإعدام بتبديلهم في الغرف من دون أن يعرف أحد، وبالطبع لا ننسى تلك الإكرامية التي دفعها لتمام المهمة.

وبدل أوراقهم، وأحرق ورقة حكمت وظلت ورقة جوليانا نوح تلك، وبات لا وجود لجوليانا بيترتوتشون تلك في دفاتر المحكمة.

وقد جاء اليوم المنشود، وعندما تشحمت المرأة بالشحم، ولم يظهر منها حتى وجهها خرج كل اولوا الأمر من المحكمة، وتأكد ديغو من أن الجميع في ميدان مدريد العام، حتى تسلل إلى المحكمة، وأخرج حكمت معصوبة العينين والمقيدة إلى عربة خشبية مغلقة جوانبها بالخشب، حتى لا يراها أحد، وقد وضع الأمانة في بيت حنا الخاص بالاستراحة في أقاصي المدينة، وقد كان اختيار متهوراً من حنا أن تظل حكمت في المدينة، وفي بيت قد يصل إليه بلايو بسهولة، لكن أفضل مكان تختبئ به هو بيت عدوك لن يظن أحدًا بأن حكمت في مدريد أبدًا.

وقد كانت أنطونيا في القصر عندما كان ديغو يحمل حكمت المقيدة إلى الغرفة، وقد تمسكت بها الخادمة بحرص كما أمرها ديغو فور صعود الطبيب خلفه.

وقد مر ما مر من الوقت، وفي نهاية اليوم بعد الإعدام والتنفيذ، وقد كان حنا بدل ملابسه لأقل من بسيطة للغاية لا تلفت الأنظار، ولا تُظهر مدى ثراء صاحبها، وقد حزم حقيبة ملابس صغيرة تكفيه للسفر، وتلك المهمة التي أقدم عليها.

دخل إلى القصر في وقت متأخّر قاصدًا أن لا يلتقي أنطونيو التي لا طاقة له اليوم بها وبالوقت نفسه لا يريد أن يجرح مشاعرها الصغيرة بكثرة الأسئلة والحديث.

وضع حقيبته أرضاً في مدخل القصر، وقد قابله ديغو الذي كان يحتسي فنجان قهوة في الصالون، وقد ترك الفنجان، وأقبل عليه ليبادر حنا الحديث بهدوء: كيف حالها اليوم؟

عانق ديغو كفيه بنفسه مع بعضهم، وضم شفتيه ثم أمال رأسه بعد ثانية تفكير قائلاً بواقعية وصدق: ليست بخير، تأكل وتأخذ العلاج، لكن خائفة وتبكي بصمت، وتستيقظ من نومها مفزوعة حالها سيئ، لقد أخبرتها بما فعلت وما ستفعل، لكن أتمنى أن تكون مُدركًا لما تُقحم نفسك فيه.

هز حنا رأسه بالقبول، ثم تنهد قائلاً قبل أن يتجاوزه: شكرًا على كل ما فعلته يا أخي، انتظرني لحظة ستوصلنا للميناء.

وقبل أن يتجاوزه قبض ديغو على ساعد حنا قائلاً بصدق وفخر: صدقني بالرغم من خطورة الأمر إلا أنا فخور بك، ولو إدواردو هنا لكان أشد فخرًا مني بك.

ربت حنا على كتف ديغو قائلاً بصدق: وأنا أحمد الرب على وجود أصدقاء، وفيه مثلكم في حياتي.

ثم تركه وصعد حيث قلبه يقبع هناك في الأعلى.

وقف أمام باب غرفتها للحظة، ثم سحب نفساً كبيراً، ثم زفرت بقوة قبل أن يدخل الغرفة.

دخل وقد وجدها نائمة في السرير البيضاء ملائته ولحافة وخشبه بني اللون بتصميم بسيط للغاية، وقد كانت تغوص في اتساع السرير بسبب ضآلة جسدها ونُقصًا وزنها الشديد.

جلس على طرف السرير، وأخذ يمرر سبابته على وجنتها زرقاء اللون، وأثار السوط التي بدأت في الاختفاء بعض الشيء، وقد كانت مُتعرقة يدها، بالرغم من إقبالهم على الشتاء والجو البارد، وقد كانت ملامحها متألمة غاضبة، ولكن عليها الاستيقاظ الآن حتى يأخذ الموافقة منها.

!ولكن انتفض برعب من وضعه عندما استيقظت برعب وصراخ: ابتعدوا عني

وقد كانت تتخبط بهستيرية ظنًا منها أنها ما زالت في المحكمة إلى الآن.

وقد عانق جسدها حتى يُقيد ويشُل حركتها، وقد هدأت بالفعل، لكن بصعوبة ووتيرة أنفاسها عالية وكأنها كانت ترقد في ماراثون جري سريع.

ابتعد عنها قليلًا، وأخذ يربط على وجنتها بهدوء قائلاً بهدوء ظاهري يخفي ذلك الألم الذي يعتصر قلبه: حكمت إهدائي هذا أنا حنا اهدئي.

ثم سكب القليل من الماء في الكوب، وساعدها على الشُرب حتى هدأت.

ثم نظرت إليه بعينين متناقضتين الحال قائله بتيه: صحيح ما قاله ديغو؟ أنك من أنقذني.

زفر بهدوء، وأردف وكفه يعانق وجنتها والآخر يدها: الأمر ليس سهلًا أبدًا على، ثم أطلق ببصره إلى النافذة قائلاً بتيه: وكأنها الأيام في عيني لم تمضي، هناك أبو ضابط محكمة مدريد وبلايو الشاب وابنتاه ديف وإيفا وأنا هناك أعود من الشمال مكللاً بالانتصار، وأصيح بأعلى صوت المجد للملك... لا مكان للمسلمين في بلادنا، ثم اصحوا على الجديد، وقد تغيرت نظرتي والعالم من حولي، ثم عاود النظر إليها متابعًا بنفس التخبط والتيه: والآن مات أبي، لم يعد بلايو ذلك الشاب مع ابنتيه الصغيرتين، فارقت الجيش، ثم ماذا؟ أسلمت... خنت قسمي بقتل كل مسلم، وطردهم من البلاد وأسلمت، فكرت مليًا في الأمر، وجدت نفسي حائرة عند مُفترق طُرق بين نداء قلبي وحبي لكي، وبين السلطة وقسمي بتطهير البلاد من المسلمين وإعلاء كلمة الصليب والكنيسة، ولم أجد نفسي، إلا أنها انساقت وراء نداء القلب وأسلمت، لأني قطعت وعدًا بأني سأحرب وأُحطم الجُدران لأجل حكمت وعينيى حكمت.

مسح بأنامله دموعها التي انسكبت وهي تسمع حديثه بهدوء، وقد كانت نظراتها كلها فخراً وحب كاملاً وسعادة لوقوع حظها برجل مثل حنا وبالفعل استحق قلبها عن جدارة، فيكفى فخر أنه يُهدد عمله بالخطر، ويقف أعزل أمام قانون دولة لأجلها فقط.

رفع كفها الأيمن إلى شفتيه يقبله بنعومة وهدوء، ثم ابتعد وهو يداعبه بإبهامه وزرقواتيه استحالت لون صافي وأداء ليُكمل: بعد حفل الحرق سافرت لغرناطة، وطلبت يدك من خالك وهو من لقنني الشهادة، بت أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، كان وقوعها على قلبي غريباً لا أدري هل أنا سعيد أم حزيناً لكني خائن، ثم أمسك الصليب المعلق في رقبته قائلاً في صراع بين الماضي والحاضر: لقد خُنت حبي ليسوع وأمه، وأسلمت واتبعت الهمج كما تعلمت، بعت يسوع وأمه لأجلك يا حكمت.

هزت رأسها الملطخة بالدموع والكدمات بالنفي القطع، وقد ارتفعت يدها إلى وجنته الملتحية قائلة بصوت مبحوح من فرط المشاعر التي تداهمها: لا لا أنت لست خائناً، صدقني لو نزل عيسى -عليه السلام- وأمه البتول لكنت أنا أول من يُقبل قدميهم، نحن نُقدس عيسى روح الله ومعجزته وأمه الطاهرة التي أحصنت فرجها مثل ما نُقدس محمد حبيب الله وآل بيته الطيبون، نبي الله عيسى فخوراً بك لأنك أنقذتني، في القرآن هناك سورة كاملة باسم مريم الطاهرة، وقد ذُكر عيسى -عليه السلام- في أكثر من موقع في القرآن بالتكريم، ولم تُذكر زوجة من زوجات النبي محمد أو بناته فقط مريم العذراء؛ لأنها حملت آمنة ما كان لأي امرأة أن تُطيقها، يكفي أن المسيحيين أقرب إلينا مودة ورحمة كما في القرآن، ويكفي أن زوجة النبي محمد كانت ماريا المصرية المسيحية، نحن والمسيحيون أخوه وإلهنا واحد هو الذي خلقنا جميعًا، النصارى أهل زمة وكتاب عزيز نزل من عند الله، لم يدخل طارق بن زياد ولا موسى بن النصير إسبانيا إلا لنشر راية التوحيد، البلاد بلاد الإسبان والدين لله ومن شاء فليؤمن، لست خائنًا يا حنا، وأنا لست همجية متوحشة.

ثم تسللت أناملها الهزيلة تمسح دموعه التي لأول مرة تراها ترقرقت في زمردي حنا الذي أغمض عينيه لعدة ثواني تحت سطوة يديها ليفتحها قائلاً: خالك ينتظرني في ميناء بلنسية هو يعرف كل شيء سنذهب إلى والدتك حتى نعقد القران هناك هل أنتِ موافقة.

بللت شفتيها، وهزت رأسها بالقبول وضحكت، بينما دموعها تتساقط مثل حبات المطر: موافقة، موافقة يا يحيى، من الآن اسمك كاسم نبي الله يحيى وابن خالة مريم البتول وعيسى المسيح، قد كان معجزة، وقرة عين لزكريا عليه السلام، قال فيه نبينا محمد هو الشهيد بن الشهيد، وقال الله ولم نجعل له من قبل سميًا أي أنه أول من أُلقب بيحيى على الأرض يا يحيى.

ابتسم بهدوء، وقبل جبهتها وربت على وجنتها، ثم ابتعد قائلاً، وهو يتذوق لحن اسمه الجديد: يحيى، اسمي يحيى.

الفصل الرابع والعشرون

صدق من قال إن المغرب والأندلس مثل الذرة المتماسكة لا ينشطران، فإن مشيت في أحياء وشوارع المغرب القديمة سترى هناك الأسواق وصوت الباعة في كل مكان والأطفال التي تلعب أو نزلت للعمل في السوق مع آبائهم وإخوانهم والنساء التي تُفاصل في ثمن السلع، وغلوا التجار في الأسعار وثرثرتهم عن أنواع الطعام وطرق الطهي وهناك على النواصي قهقهة الصبيان على بعض المواقف، وهناك من يصيح يُعلن عن سلعته، ويبالغ في جودتها، سواء كان بن فيصيح "البن اليمني... بُنًا طازج"، وإن كان خيوط وأقمشة" حرير چيان... حرير الأندلس "، وإن كان سمك" سمكًا بحرياً... سمكًا طازج.

وهناك أثرى القوم وأغناهم باعة البهارات والعطارة، وقد كانت ملوك الناس قبل ظهور تُجار النفط والكهرباء والإلكترونيات هم تُجار الأعشاب والعطارة، وقد اشتهر العرب بأجود أنواع الأعشاب، والتي يأتون بها من أفخر بلاد العالم، وقد نُقلت تلك الثقافة بعد الفتوحات الإسلامية للعالم، ولا ننسى أن السبب الرئيسي في التأثير في تلك التجارة هو ارستوفر كولومبوس الذي اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح الذي قطع سُبل التجارة والتبادل بين أفريقيا وأوروبا، وباتت طُرق السفر من أوروبا إلى منبع العطارة في آسيا.

وعند إحدى الزوايا كان هناك فرقة مُنشدة من الدراويش تُنشد في رثاء الأندلس منذ السقوط، وقد اختار العقال الأسود على رؤوسهم دائمًا حتى عودة الأندلس بأصوات عذبة مجروحة مثل الكروان أسير القفص المحروم من الرفرفة والطيران إلى حيث موطنه، ولا يملك سوى "صوته مُترنمًا

جادك الغيثُ إذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلسي

لم يكن وصلك إلا حُلمًا

في الكرى أو خلسة المختلس

يا أُهيل الحي من وادي الغضا

ضاق من وجدي بكم رحب الفضا

لا أبالي شرقهُ من غربية

فأعيد عهد أنس قد مضى

"تُعتقوا عبدكم من كربهِ

كل هذا كان أمام زرقاوتى حنا الذي كان يسير إلى جوار أحمد خال حكمت والآن قد أدرك أنه أضاع عمره من دون المجيء إلى المغرب والاستقرار بها، فبالرغم من خطورة الأمر، إلا أن الحياة بين أبناء المغرب قد جددت له الشعور بالتكاتف والانتماء والود الذي يفتقده كما .يفتقد الأمن والأمان في أندلسه الضائع والمسلوب

.أما أنا. أقصد يحيى كانت مشاعره متناقضة بين القديم والجديد والراسخ في ذهنه لعقود وما يراه الآن

فهنا يرى الجارة تُحدث جارتها من النافذة بكل ود وأريحية، ويتبادلون فناجين القهوة، والأطفال توقر الكبير والكبير يعطف على الصغير، ويلقون السلام على بعضهم البعض في الأزقة والطُرقات، حتى لو لم يعرفوا بعضاً، فيكفي قوله عليه أفضل الصلاة والسلام .."أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام" ليرى يحيي كل هذا أمام عينيه

لا يدري، لكن شعوراً بالألفة والطمأنينة تسرب إلى قلبه وهو يرى تلك الأجواء الهادئة والسعيدة بين الناس، وقد بدأ ينشر صنم الرعب الذي تربى عليه، ولكن ليس تمامًا، لكن المدهش حقًا أن تلك البلاد الطيبين أهلها والسمحون الذين لا ترى في وجوههم أي شراسة أو !عدوانية قد خرجت منها قبل أكثر من ألف عام جيوش طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين والمرابطين والموحدين

!كيف والقوم أرق وأطيب من أن يحملوا سلاحاً؟

.ولكن الشجاعة في القلب، ولا تظهر إلا في موضعها والشراسة لا تظهر إلا في الحاجة

والأهم من المشاعر السخيفة تلك من وجهة نظر حنا الآن كيف سيجدون رياحاً خطابياً ذلك؟

.وهم لا يعرفون شيئًا عنه سوى اسمه فقط، وأنه من طنجة، وهم الآن في طنجة، ولا يجدون السبيل

.وزيادًة على ذلك عربية يحيى البشعة التي تضعه في مشكلة كما حاول الحديث مع أحد، ويأتي أحمد بعربيته اليسيرة ويحل الأزمة

.وقد قاموا من كثرة سؤال المارة ليقرر أحمد السؤال في المسجد لعله يجد الإجابة

وقد كان هناك في ساحة أحد المساجد الرخامية البيضاء رجل طاعن في السن وحوله مجموعة أطفال يحفظون القرآن، ويتعلمون الكتابة .والحساب

.وقد كاد أن يدخل يحيى بحذائه لولا يد أحمد التي منعته، وقد فهم الأمر

ثم وقف أحمد يتساءل مع أحد الرجال الذي أعطاه النور، وهو يوصف له الطريق إلى مطعمه ودكان السمك في السوق، ويحيى بينهم !كالقروي الساذج لا يجرى ماذا يحدث، لكنه سيجري معه

ولكن تحركت حواس يحيى، وبدأ ينتبه إلى صوت أحد الصبيان والأطفال يقرأ القرآن بعربية ضعيفة، ويعدل له الشيخ، لتدفعه أذانه .الأرنبية للا

لتفات، وقد توسعت زرقاوتاه عندما كان ذلك الفتى طارق الذي التفت إلى تلك العينين التي تراقبه، وقد نظر إليه بدهشة ونوع من الخوف .والذعر وأول ما فكر به أن حكمت أصابها مكروه

كسر يحيى تواصل أحمد مع ذلك الرجل، ومر من بينهم إلى طارق، وانتشله من حلقة الحفظ، وقد كان متغيرًا عن آخر مرة رآه، فقد .اكتسب بشرة سمراء أعطته هيبة وبهاء مع عينيه الفاتحة الزرقاء واللباس العربي والعمامة قد زادته وقار

.وقد كان الطلاب والشيخ مندهشين من احتضان الأندلسي كما يُلقبونه ذلك الغريب والتحدث بلهجة أخرى

.ابتعد يحيى عن عناق طارق قائلاً ببهجة: أخيرًا أنت هنا، أبحث عنك وعن أمي إليزابيث منذ أن وصلت

رفع طارق حاجبيه قائلاً بدهشة: كيف عرفت أننا هنا؟ ثم تابع بتوتر: أرجوك قل أن جوليانا بخير لم يصبها مكروه؟

.ربت يحيى على وجنة طارق قائلاً: لا تقلق حكمت بخير، لكن حدث الكثير، وأصبحت أعرف كل شيء أنا هنا لأجل حمايتها يا أخيلا

.وقد قاطعهم أحمد الذي ربت على كتف يحيى قائلاً بتأكيد: يحيى يقول الحقيقة يا طارق فقط دلنا على بيتكم

.عانقه طارق ببهجة قائلاً: خالياً اشتقت إليك

ثم أشار بيده بمعنى انتظر ثم تحدث مع شيخ الحلقة، وهمس بشيء في أذنه ليهز رأسه بالقبول، ويأخذ فتى أصغر منه في السن قليلاً ...والحجم ليُشير إليه قائلاً: هذا مُختار حفيد السيد خطابي سيدلنا على الطريق و

.ولكن قبل أن يُكمل قد قاطع طارق صوت أذان الظهر ليتوقف عن الحديث كما تعلم أن للأذان احترامه

ولكن وقوع الأذان على مسمع يحيى كان له وقوع أخر وشعور غريب، وقد أصابته قشعريرة ورجفة غريبة غزت قلبه قبل جسده، هو لم يفهم ما يُقال سوى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وقد أدرك أن العبارة تلك مُقدسة عند المسلمين قد نطق بها لينطق بكمال الله وأهم صفاته التوحيد والربوبية وحده لا شريك له، خالق كل شيء ومقسم الأرزاق، وأيقن أن كل ما حدث معه حتى الآن كان بتدبير .وترتيب من الله، حتى يعيش ما يشعر به الآن

ولم يقف على ذلك التناغم والدي الذي يشعر به الآن إلا عندما دفعه أحمد وطارق إلى دورة المياه للوضوء وأداء الصلاة، وقد كانت تلك .أول صلاة، لكن على غفلة، ومن دون إرادة، ولكن شيئاً بحجم حبة العدس في قلبه يدفعه للقبول بالأمر

وقف بينهم، وقد بدأ أحمد بعلمه الوضوء بهدوء، ويعيد له كلما أخطئ حتى تعلم، وقد أيقن أهمية النظافة والماء عند المسلمين، إذا وجد من غسل وجهه ويديه بالصابون، ومن دخل والتنزه من البول والغائط بعد قضاء حاجته، ومن يعمل في الجزارة أو بيع الفحم قد أقبل واغتسل وخلع سترة العمل المتسخة، وارتدى الجديدة فالجميع هنا على موعد مع الله بلا حاجز أو وسيط فقط أطرق باب الله، وسيفتح لك .أبواب الخير والرزق والبركة والجنة

وهنا قد ازدادت دهشته وهو يرى طارق ومختار وأحمد يقفون جانبه للصلاة وجانبهم بائع العطارة والذهب الأثرياء وجانبهم رجل ضرير يقتات على تلميع الأحذية وآخر أسود بجانب أبيض والشيخ بجانب الطفل والسليم بجانب المعاق وكأنهم لؤلؤ مرصوف جانب .بعضه بلا تكلف أو أنفه أو نزعة الطبقية فقط هنا الكل سواسية

وفي الوقت نفسه في إسبانيا في ذلك القصر الكبير كانت حكمة بدأت تتحسن نفسيتها بعد سماع تلك الأخبار السعيدة التي شرحت قلبها، وقد قررت أن تصلي لله شكراً لما من عليها به مِن خير وسعادة وحرية، وقد جمعها بحلاله مع حبيب الفؤاد الذي تشوقت إليه، وقد استجاب الله لندائها ودعائها ومناجاتها وصلاتها وقيامها وصيامها.

وبالطبع بما أن نفسيتها قد تحسنت فبالتالي بات الشفاء قريبًا، وباتت الحياة أفضل الآن.

وقد قررت أن تخرج من غرفتها، وتتجول في القصر، وتتعرف على طرقاته ودهاليزه.

وقد استندت إلى ذلك العكاز الخشبي؛ بسبب جروح قدميها، وهبطت على السلم ببطء، وقد اصطدمت بالخادمة الشقراء والبدينة بعض الشيء بفستانها الأسود وفوطة التنظيف والمريول الأبيض والكعكة في شعرها، وقد نظرت إليها بدهشة قائلة، وهي تساعدها على الوقوف: إلى أين سيدتي؟ السيد حنا طلب منك أن تستريحي في غرفتك.

إمالة وجهها المغطى بالاشارب الزهري المماثل للون الفستان قائلة برجاء: سنيورة ازادورا أنا هنا منذ قرابة الأسبوع، وسئمت من الغرفة أريد الجلوس في الحديقة، أرجوك لن أخبر حنا هيا.

زفرت المدعوة ازادورا، وهزت رأسها بالقبول على مضاد قائلة، وهي تسير معها بشكل متأن_ بعد أن تأبطت بذراعها _: فقط نصف ساعة سيدتي حتى تلتئم جراحك، لقد كنتي ميتة، وزرع الرب فيكِ الروح مجددا.

ابتسمت حكمت بهدوء وإرهاق، ثم أشارت إلى منطقة قريبة من الأشجار والنافورة من الرخام قد حط عليها الطير: أريد الجلوس هناك بجانب النافورة رجاءً.

امتثلت لأمرها، وأوصلتها وساعدتها على الجلوس على كرسي وثير ودافئ قد حملة الجنيني إليها، ثم انصرت لتكمل عملها.

وقد أغمضت حكمت عينيها المتناقضة تلك سامحه لنسيم الهواء الرطب بمداعبة فستانها ووجنتيها بهدوء وصوت انسكاب الماء الهادئ من النافورة مع صوت العصافير والبلبل اللطيف الذي نزل للشرب من النافورة كل شيء هنا يدعوها إلى الهدوء والتعافي والتأمل، وتلك الورود الوردية المعلقة على الأشجار، ولم تدخل إسبانيا إلا على يد أحد الخلفاء الذي كان مُتيم بحبه للشام وورد الشام، فقرر زرعه في الأندلس ليتذكر الشام، وها هي تتذكر الأندلس التي لم ترها.

ولكن استفاقت من نشوتها تلك على يد صغيرة قد عانقه رقبتها وضحكات صغيرة وصيحة طفولية قائله: بوه!

ادعت حكمت الخوف قائلة بتغير نبرة صوتها إلى أخرى خائفة مرحة: يا ربي أنا خائفة من الوحش العملاق.

ثم قفزت أمامها انطونيت قائله بضحك وسعادة طفولية: أخفتك، لقد نجحت وأخفتك.

ضحكت حكمت بمرح، وجذبتها من يديها لتجلس في أحضانها، وتربط على شعرها النحاسي الطويل قائله: اشتقت إليك كثيرًا يا أنطونيو، كيف حالك؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها بطفولية قائلة: أنا بخير، لكن عندما كنت ألعب مع ازادورا، وجئت هنا لم يسمح لي العم حنا من رؤيتك، فأنا هنا قبلك.

أمالت رأسها بهدوء قائلة، وهي تستميل رضا الفتاة: فقط كنت مريضة للغاية لهذا حتى لا ترضى لم يكن يسمح لكِ برؤيتي، ولكن أنا الآن بخير، وسنلعب حتى نمل من اللعب.

ابتسمت ببهجة لكن توقفت على الضحك عندما أعادت حكمت الإيشارب إلى الوراء قليلاً، فانكشفت عيناها البيضاء وكدمات وجنتيها !لتنظر إليها بقلق وتتساءل: ماذا حدث لعينك؟

بللت حكمت شفتيها، وطأطأت رأسها حتى تداري دموعها التي تجمعت فورا حتى تذكرها بتلك الإعاقة المكتسبة التي ستلازمها طوال العمر، ولم تستطع الرد، ولكن أصابع الصغيرة قد تسللت لوجنتها، وقد نظرت إليها حكمت بعينيها اللامعة لتتحدث الفتاة بعقلانية امرأة في الستين: أنتِ لستِ سيئة، بل جميلة كما تقول أمي، أمي كانت تقول جوليانا جميلة وطيبة، لكنك الآن مختلفة، أنا لست خائفة منكِ، مازلتى جميلة، لكن أمي ليست هنا، بل أصبحت ملاكاً كبيراً بجناحين وفستان أبيض في السماء.

ابتسمت حكمت وابتلعت دموعها وكأنها لم تتجمع وقبل كفها الصغير قائلة: الصالحون فقط من يصبحون ملائكة ولأن أمك امرأة طيبة أنقذت حياتي، وفعلت خيراً كثيراً كرمها الرب وأصبحت ملاكاً، وعندما نصنع خير مثلها سنصبح ملائكة في الجنة، لا تحزني أمك صالحة وبطلة.

أمالت الصغيرة رأسها مع جدلتها الطويلة النحاسية، وقد نظرت إليها بعينين واسعة: أنا لست حزينة، عمي حنا قال أنا حزنت هي ستحزن وأنا لا أريد لها الحزن، ثم مدت خنصرها قائلة: لكن عديني أنكِ لن تصبحي ملاكاً حتى أكبر.

ابتسمت بدفء، وشبكة خنصرها معها، وصاحت كلتاهما في وقت واحد: وعد!

قد كان يحيى في المركب مع أحمد وكلاهما في غرفته في أثناء الغروب، وقد نام أحمد تاركًا يحيى في حيرة من أمره وما أقبل عليه، الآن حكمت باتت زوجته رسميًا أمام الله والجميع.

يا الله زوجة! كم كان وقوع تلك الكلمة على مسامع يحيى رائعًا، وقد زرع فيه شعور بالمسؤولية والأمانة.

الآن هو المسؤول عن شرف امرأة وحمايتها ورعايتها والإنفاق عليها، روح تقاسمه الحب والحياة في بيته وبين أحضانه تأسر أنفاسه، كلما نظر إليها تعلق قلبه بها، وتشابكت أرواحهم برابط مُقدس، ولكن رابطاً قوياً حارب كلاهما من أجله للوصول إليه والتمسك به والفوز بعد عناء طويل.

تقلب يحيى، وقد فراق النعاس عينيه، وهجرها النوم، وقد وضع ساعده أسفل رقبته، ونظر إلى السقف مُسترجعًا ذكريات اليوم الحافل.

تذكر بكاء خديجة عند معرفتها بما عانت وقاست ابنتها وويلات العذاب والقسوة التي تعرضت لها على مدارس شهر كبيس لم يرتح فيه أحد حتى الهاربين المنعمين كانت قلوبهم مُضربه غير مُطمئنة.

وبعد عقد القران الذي شهد عليه خطابي وابنه، وقد ذُهل تمامًا عندما اكتشف أن مساعدة جرجس المسيحي البروتستنتي، وكيف يعتمد خطابي عليه في أعماله والآخر يعمل بجد وإخلاص، وكان فارق الدين غير موجود بينهم، ولا يمنعه خطابي من ارتداء الصليب أو الذهاب للكنيسة وبالمثل جرجس كان يجلس أسفل لوحة خُطت بالعربية بها آيات قرآنية، ويأكل من الطعام نفسه لا مشكلة في ذلك تمامًا، وأبناء خطابي يتخذونه صديقاً لهم بمنتهى الود والأريحية.

اعتدال في جلسته من على السرير الضيق، ثم وقف واتجه إلى ذلك الصندوق الخاص بالمتاع، وفتحه ينظر إلى ذلك الفستان البنفسجيّ الذي نسجته وصممته خديجة من أجل حكمة، ودفعت به مبلغاً وقدره لأن حكمت تحب اللون البنفسجيّ، وقد كان هدية ترتديه عند وصولها المغرب، ولكن لا شيء أغلى من يوم عُرسها ترتدي فيه هذا الفستان.

مرر أصابعه عليه متذكرًا دهشته من اسم طارق وخديجة، وثقل خديجة في النطق، ولكن خديجة أثقلت عاتقيه عندما انتهى عقد القران، وأخذته إلى غرفتها تتحدث معه وكلماتها لا تزال معلقة بالحرف الواحد في أذنه "قد سلمت لك قطعة من روحي وأنا أمنك على ابنتي وشرفي، أمنتك على دينها وحياتها وابتسامتها، فلا تؤذيني في ابنتي، حكمت تحبك وكلاكما عانى المُر للوصال والود فلا تؤذي قلبها، قد أسلمت وأسلمت قلبك لله، ووصى نبينا محمد بالنساء خيراً، فمن أكرمهم كريم ومن أهانهم لئيم، وقد كان يفخر بحبه لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويُكرم صديقات أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- بعد وفاتها، وسهر على تجميع عقد أم المؤمنين عائشة بعد أن انفرط لأنها تحبه، ويبتسم على غيره أم المؤمنين عائشة، وأخذ رأي أم سلمة -رضي الله عنها- في حل مشكلة بين المسلمين، فقط اقتدى به"، وحافظ على ابنتي يا يحيى

الفصل الخامس والعشرين

.قد مر أربعة أشهر في هذا العالم مثل الماء لم يشعر بها أحد، وأصبحنا في العام 1824 وبالتحدث في شهر فبراير شهر الحُب والأحبة

سريعة تلك الأيام أليس كذلك؟

.وكيف لا؟ ونحن نرى أنه قد مر أربعة أشهر تقريبًا على انقلاب حياة أبطالنا وتغيُرها تغيُر جذري تام

.فلم تعد الأسود تزأر والأسماك تسبح

.ولكن لله الحق، فإن التغير كان للأفضل طبعًا وللغاية

فأمامنا حكمت التي استعادت شطراً كبيراً من صحتها وروحها ورونقها، وقد باتت علاقتها بانطونيت أقوى وأفضل من ذي قبل، وباتت .لها ابنه لم تُنجبها

وبالمثل أنطونيو التي اعتبرتها أمها لا تنم إلا عند سماع

قصصها، وعودة يحيى للقصر في المساء، ولا تحكى شيء إلا لها، ولا تترك يدها، وترعاها في مرضها كأنها شابة كبيرة لا طفلة لم .تتجاوز السادسة

ويحيي، فيكفي إسلامه، وقد أثبتت الأيام أنه كان بحاجة إلى الإسلام، لكن لم يكن يعرف، أو لعل تلك الغشاوة التي كانت على عينيه والأقفال والتروس الصدئة على قلبه التي تراكم عليها الصدق والغبار لمدة خمسة وثلاثين عامًا من التعصب والغضب والحقد كانت تمنعه .من إيجاد نفسه وحياته وطريقة الذي يريد أن يمشي فيه ويسلكه للنهاية

فمثلًا إذا كنت أخاف القطط والاقتراب منها بسبب سمعي الدائم والمستمر عن ما يحمله فراء القطط من أمراض وطُفيليات وعضتها القوية وخربشتها المؤلمة، ولكن عندما تعاملت مع قطة لطيفة باللون الأخضر الداكن بخطوط سوداء تغيرت وجهة نظري، ولم تخدش يدي، أو تعضني بأسنانها الحادة؛ لأنني تعاملت معها بلطف ورحمة، ولكن ذلك الفتى القصير، في حين الذي يركب عجلته، ويسُب المارة بلا تربية أو أدب ووالدته تجلس أمام التلفاز تُتابع المُسلسل التركي، وترى أفعال سمر الشائنة مع مهند تاركة ابنها بلا تربية عندما فكر في .أذية القطة شرحت يديه

والأمر سيان وبالمثل مع يحيى الذي كان يسمع منذ صغره أن هؤلاء المسلمين والأندلسين همج ومتوحشون يقتلون الناس والأطفال، ويسلبون الأموال والبلاد تكونت له مناعة وردة فعل عنيفة ضدَّهم، ولكن عندما تعامل مع والد حكمت وأمانته في صنع الأسلحة والأموال والخامات وحب خديجة له ورعايتها بيتهم وصيانة عرضه، وتحملها إعاقته في ساقه، ومن ثم حكمت، وكل ما تحمل من حسن خلق وخجل وشجاعة وصبر وإيمان وخالها الصالح الذي لم يتردد لحظة في حماية ابن أخته وأهل المغرب الذين كونوا وشكلوا صورة بأخلاق .الإسلام السمحة غيرت جُل تفكيره، وفتحت أمامه آفاقاً وأبواب من المعرفة والحقيقة التي كان يجهلها وأحيانًا يرفض فهمها

.ولكن اليوم يوم مميز في هذا الشهر

.لا ليس عيد الحب، بل عيد ميلاد حكمت الثالث والعشرين، لنتمنى لها سويًا العمر المديد

.وقد أعد يحيى حفلاً صغيراً للاحتفال بتلك المناسبة السعيدة لأول مرة منذ أن عرفها

ولكن غباء منه عكر صفو ذلك اليوم المميز، وجعل قدميه لا تقترب من مكان هي فيه بسبب إحساسه وشعوره بالذنب الرهيب الذي يقيمه .ويزيد الخناق على عنقه مانعًا عنه الهواء

وقد حل الليل، وأسفل ضوء القمر الفضي جلس يحيى على كرسي خشبي مُنجد بالإسفنج، ومنقوش قماشه ببعض الأزهار وأفرع .الأشجار

عقد ذراعيه أمام صدره، وأغمض عينيه وأراح رأسه على ظهر الكرسي سامحًا لنسمات الشتاء الأخيرة بمداعبة وجهه غير قادرة على .تجاوز ذكرياته ورميها في مقرها إلى حيث يشاء الله

تذكّر في الصباح عندما كانت تُمشط خصلات شعرها العائدة من الموت القصيرة التي بالكاد تجاوزت شحمة أذنها، وقد عانقها من الخلف بمرح وهي أمام المرآة، وقد قبل وجنتها بمرح قائلاً، وهو ينظر إليها في المرأة: حكمت الصغيرة كبرت سنه، وباتت في الثالثة .والعشرين، عاماً سعيد يا سكرتي

.ضحكت بخجل، والتفت واضعة يدها على صدره وذراعيه تطوق خصرها

.ردت وابتسمت بود وحب حقيقي: وأنت بخير وفي قلبي دائمًا يا يحيى

.ثم جلست على وجنته قائله وهو تتلاعب بلحيته: كيف حال الأذكار والقرآن واللغة العربية

أمال رأسه مُجيبًا: بأفضل حال، أنا في الجزء السابع الآن، وقلت أذكار الصباح عندما استيقظت، والعربية وصلت لحرف الطاء، لكن لا .أفهم شيئاً في تشكيل الحروف، فشلت فشل ذريعاً

.فلتت منها ضحكة لطيفة لتُردف وهي تبتعد عنه، واضعه الفرشاة على التسريحة: لا تقلق سنحل هذا الأمر قد كنت سيئة في هذا أيضًا

ثم عقدت ذراعيها النحيلتين أمام صدرها قائلة بتشوش وشعور بالذنب والحزن: أنا أشعر بأني سيئة، أعني أن أمي لن تكون معي عند حفل الزفاف واليوم أول مرة احتفل بعيد مولدي من دونها، أعني هل أنا أنانية؟

مط شفتيه، وأمال رأسه قائلاً بجدية مزيفة: نعم أنانية للغاية، من أي طينة خلقتي كيف تفعلين هذا بأمك؟

.ابتسمت من دون إرادة على تمثيله الجدية السيئ ووكزته في كتفه قائلة: توقف تمثيلك سيئ

...تجرى وتغابى وتحامق وقرص ذراعها مُردفًا بمرح: بربك يا فتاة

"!ابتعد عني"

توقف عن الحديث عندما دفعته حكمت بقوة في صدره وبخوف وصراخ عندما قرص ذراعها، وتذكرت بفعلته الحمقاء تلك أسوأ كوابيسها وأيام حياتها التي لن تنمحي من ذاكرتها مهما حية، وقد تذكّرت التعذيب والغرف المظلمة والحشرات والفئران، ومن دون إرادة وبلا وعي منها دفعته وصرخت كرد فعل دفاعي، فتلك أول مرة يتلمسها يحيى بأريحية ومزاح ومنذ زواجهم لم يقترب منها مُراعاةً .لحالتها النفسية السيئة، وقد أقسم أن لا يلمسها إلا بطلبها وإرادتها

!ولكن لم يتخيل أن الوضع سيئ هكذا

وقد توسعت زرقاوتاه، وفهم فورا خوفها، وقد اقترب منها، وقد كانت تضع يدها على فمها تكتم بفشل واضح شهقاتها، وتهز رأسها بالنفي .موضحة بصوت متقطع: أنا. آسفة حقًا... آسفة لم... لم أقصد هذا... سامحني أنا... أنا فقط تذكّرت ما حدث

ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه المفتوحين لأجلها مُستقبلًا بُكائها واعتذراتها بصدر رحب، وأخذ يمسد على ظهرها بحنان وحنو وأسند ذقنه على شعرها قائلاً بحنان بالغ: أنا لست غاضبًا مني بل عليكى، لا تزال صغيرة لا تجعلين تلك الأفكار والذكريات السيئة تُنكد عليك عيشتك، هم وحوش بربريون لا تجعليهم يهزمونك ويحبسونك في زنزانة أبدية لا مخرج منها.

ثم امتدت يده، ورفعت ذقنها ناظرًا إلى وجهها المكتنز بالاحمرار والاختناق وشهقات مكتومة، ثم قبل جبينها وابتعد قائلاً، وهو يمسح دموعها للمرة الألف: اهدئي واغسلي وجهك، اليوم يوم مميز عندي للغاية وهناك مفاجآت كثيرة الليلة، متفقان يا سُكرة؟

هزت رأسها، ودفنت وجهها في صدره مجددا باحثة عن الأمان، وقد دس أنامله في شعرها الرقيق والقصير، ونظر إلى الهدهد الذي توقف عند الشرفة ليهمس بصوت غير مسموع: أقسمت بالله العلي العظيم أن أدمر محكمة مدريد على رؤوس الوحوش، وأعيد حقك يا حكمت، سأدمر مدريد لأجلك يا حكمت.

عاد إلى عالمه، وإلى أرض الواقع، وفتح عينيه ناظرًا إلى السماء هامسًا بجدية وإصرار: أمنتُك يا الله أن تجعلني دواءً لألمها وحزنها، وأن ترزقني الثبات والصبر في مشواري الطويل.

ثم التفت إلى المدعوة ازادورا التي وقفت أمامه، وقد بدلت ملابس العمل إلى أخرى عادية قائلة بعمليها، وقد سبقها الخدم القليل لخارج القصر: حضرة الدوق حنا لقد انتهيت من ما اتفقنا عليه، وسنذهب كما طلبت.

اعتدل في جلسته، وهز رأسه بالقبول ليتساءل بهدوء: أين سنيورة جوليانا؟

أجابت: أنها بغرفة السنيورة الصغيرة حضرة الدوق، ثم انحنت بهدوء بعد أن سمح لها بالذهاب.

صعد إلى غرفة أنطونيو، ودخل بعد أن أذنت حكمت للطارق.

ابتسم بهدوء عندما ركدت إليها انطونيت بفستان بلون الفستق واسع وجدله أنيقة تلتف حول نفسها ببهجة والفستان يلتف معها وتصيح ببهجة: أنظر إلى الفستان والجدله خالة جوليانا ألبستني إياه ما رأيك؟

حملها من على الأرض، وارتفعت قدماها وباتت في الهواء، ووضع جبينه عند جبينها، وحركوا رؤوسهما سويًا ليهمس لها بمرح: أنت أجمل الفتيات يا أنطونيو الجميلة.

ثم أبعد رأسه، وثنى ذراعه الآخر، وقد ابتسمت حكمت واقتربت منه بفستانها الوردي المنسدل لأسفل بلا بطانة تزيد حجمه، وبالرغم من قصر شعرها وانتشاره بعشوائية حول وجهها، إلا أنه أعطاها جمالاً خاصاً وفريداً قد لا نراه، لكن يكفي أن يحيى يراه!

نزل جميعهم السلم إلى حجرة الطعام، وقد أمر يحيى بتزين المكان بالشموع، وقالب كعك كبير وبعض الحلويات وعصير البرتقال والتفاح والكثير الكثير من الهداية.

ضحكت حكمت ببهجة ومالت على صدره قائلة بامتنان: شكرًا لك على كل هذا.

مرر يده صعودًا وهبوطًا على ذراعها ليُصحح لها: اشكري انطونيت هي من أشرفت على الأعداد.

ربتت حكمت على ظهرها قائلة: أجمل الفتيات وأطيبهم قلبًا.

ابتسمت انطونيت بخجل، ووضعت إصبعها في فمها قائلة بهمس خجول: شكرًا.

ثم بدأ الحفل الصغير وتقسيم الكعك، وأطعمة صاحبة عيد الميلاد الجميع الكعك بيديها، ثم انتهت الكعك، وصفق أنطوانيت بحماس، وقفزت مع على كرسيها مثل القردة لقصر قامتها، وهرولت إلى الهداية تُمسك بعلبتها، وتصيح ببهجة وهي تقدمها لحكمت تحت ابتساماتهم: وقت الهداية، افتحي هديتي أولا!

وضعت حكمت طبقها على الطاولة وإزالة غلاف العلبة من الورق الأبيض، وفتحت العلبة وابتسمت ببهجة وهي تخرج مدق ويد الهون، واحتضنتهم ببهجة حقيقية قائلة، وهي تضم الصغيرة بيدها الثانية وتقبل وجنتيها: أشكرك كثيرًا يا صغيرتي، لقد فقدته منذ مدة، وأردت شراء آخر، شكرًا يا صغيرتي.

وقد قاطع تلك اللحظة اللطيفة يحيى الذي أمسك بالكثير من العلب، ووضعها أمامها قائلاً بمرح: دوري الآن!

ثم أمسك علبة متوسطة قائلاً، وهو يزيل غلافها: تلك هدية أمي إليزابيث لجوليانا.

ثم فرد الفستان البنفسجي، وقد شهقت ببهجة وتلألأت عيناها بالدموع البلورية، وهي تحتضن الفستان، وكم تمنت لو كانت أمها جوارها الآن، ولكن كل شيء بقدر، ولكن أيضا ليحل غضب الله على كاترينا وبلايو الذين فرقوا شملها وشمل أسرتها.

ثم مد العلبة الثانية التي كانت تحتوي على أسواره أنيقة من الخرز من عدة طبقات قائلاً: وتلك هدية أخيلا.

وقد ارتدت الإسوارة ببهجة وأثنت انطونيت على أناقتها.

ليخرج يحيى هديته، ومدها إليها، وقد أزالت الغلاف إذ بها دفتر وريشة قلم للأعمال وزجاجات حبر للكتابة.

وقد أعجبت بها، ولكن نظرت إليه بعجبه قليلاً ليُوضح: أريد منكِ أن تخطى بيديك كل ما مررنا به، وسنمر به سويًا وحتى بعد وفاتي، وتُهديه لأبنائنا وتتوارثه أحفادنا، حتى لا تموت ذكرانا، فما عشناه أكبر من أن يُنسى.

هزت رأسها، ومسحت عينيها الغبية تلك التي تبكي كثيرًا مؤخرًا قائلة: سيحدث يا حنا، سيذكر التاريخ أن فتى حارب العالم والدولة ليفوز بحبيبته، حُبنا لم يكن سهلًا، ولن يكون سهل النسيان يا مالك قلبي.

أنت طفولتي وشبابي وهرمي وحياتي، وعندما ندخل الجنة سندخلها ممسكين بأيدي بعض، أنا أحبك كثيرًا يا حنا.

رفع كفها، ولثمه بهدوء وأراح وجنته عليه يسرق الهدوء والسكينة في حياته المزدحمة العجيبة.

وقد داعبت وجنته بهدوء ونعومة متناسيين انطونيت التي نامت على الكرسي جانبهم!

جنون!!

ما يحدث الآن ليس سوى جنون وحماقة لا شيء يليق على ما يحدث الآن سوى الجنون والتهور والغباء.

فأنساتى وسيداتي وسادتي نحن الآن في كتدرائية المدينة، وعلى موعد مع أهم حدث في تاريخ عائلة باخوميوس، وفي سائر حياة النُبلاء، فنحن الآن ننتظر كما ينتظر يحيى وانطونيت وبلايو ومارلين وإيفا وزوجها تيتوس وريموندا والقس على المنصة والمدعين قدوم العروس الغامضة التي لا يعرف أحد هويتها إلا القس.

فبطلنا الشاب المغوار والمجنون قرر منذ أسبوع مضى بعد حجز موعد الإكليل في الكنيسة أخبر أهله مثل الغرباء عن موعد زفافه، وقد صدقت شكوك بلايو ومارلين فيه مؤخرا سواء من عودته متأخرا للبيت أو حالة الصمت والشرود التي تلبسته الفترة الأخيرة وعدم حديثه عن تلك الفتاة التي قال منذ أربعة أشهر أنه قرر خطبتها، والآن كالأطفال سحبهم خلفه ولا أحد يفهم ما يحدث.

وبالأخص تلك الطفلة التي تُمسك بيد يحيى عند منصة القس، ويتبادلون الابتسامات كل فترة حتى وأخيرًا فُتحت أبواب الكاتدرائية من قبل الحارسين، ودخلت العروس التي لم تكن سوى حكمة وخالها أحمد، وقد تأبطت بذراعيه بفستانها السكري المنفوش وبه بعض الكسرات والطبقات والورود البيضاء والوردية والصفراء بيدها اليُسرى، وأزالت فوق شعرها قبعة بلون الفستان وبها حجاب شفاف يغطي وجهها، وبالرغم من نقص عينها، إلا أن من نظر بعينها اليُمنى الباقية لوجد سعادة وإصراراً وعزيمة ونصر.

بل النْصر هو الطاغي مشيتها وخيلاؤها وعيناها وابتسامتها.

نصر للفوز بالحبيب نصر لهزيمة الأعداء وأولهم بلايو الممتقع وجهه بدهشة من وقوفها هنا أمامه وغضب ساحق من تحقق ما كان يخشاه، قد حطمت غرور الجبل بصبرها ومثابرتها، ودعائها وصلاتها ونجحت وفازت بمن عانى وحارب مثلها.

استلمها يحيى، وسلم أحمد أنطونيو، ثم رفع حجابها الشفاف وعينيه تبتسم قبل شفتيه وهي لم تكن أقل منه حالاً.

قبل جبينها بهدوء، ثم تأبطت بذراعه، وسعدت الدرجات المعدودة أمام القس ليقوم بتلك المراسم الشكلية لمدارات إسلامهم.

وهناك في الجوار كانت مارلين لا تقل دهشة عن إيفا وريموندا وتيتوس الذين قد حضروا غذاءها، وكيف تعود من الموت بالتأكيد ما يحدث الآن حلم سخيف وسيستيقظون.

!لكن لا لم يستيقظوا فالقس الآن يقول جملته الشهيرة "سيد حنا باخوميوس وسيدة جوليانا باخوميوس أعلنكما الآن زوج وزوجة

الفصل السادس والعشرين

".الآن يا حنا ستشرح كل شيء وإياك والكذب؛ أنا سأموت يومًا ما وأفعالك وأفعال أخيك السبب"

هدرت بتلك الكلمات مارلين بمنتهى العنف والحدة في وجه يحيى الذي كان في مكتبة معها تزامنًا مع ضربها بعكازها الخشبي بقوة على الأرض الرخامية اللامعة.

بعد أن انتهت المراسم، وعاد الجميع للقصر لتتضح خيوط اللعبة الجديدة للجميع.

عقد يحيى ذراعيه أمام صدره، واتكأ بظهره على جدار المكتبة الخشبية في مواجهة مارلين الجالسة على الكرسي المُنجد الواسع، وقد ألقى سُترته ورابطة عنقه على المكتب بإهمال، وحل أول زرين من قميصه الأبيض استعدادًا لتلك المواجهة العنيفة.

خلل أصابعه الغليظة بين خصلات شعره الكثيف، ثم زفر بهدوء، وأخذ في الشرح والاستفاضة ويديه تتحرك بتناغم مع حديثه: أما، الوضع معقد، وما حدث لا يمكن شرحه، لكن أريد منكِ أن تفهمي أن جوليانا وعائلتها قد دُبر لهم مكيدة وجوليانا من تحمل الضرر كله وهي هنا؛ لأنها يجب أن تكون هنا، لأني أحبها ولحمايتها، ولاسعادها، جوليانا تحبني وسعادتي ستكون معها، أرجوكم دعوني أعيش ما بقي من عمري كما أريد، لا تكوني نسخة من أبي وبلايو، وتحطمين حياتي أيضًا، أبى أجبرني على أن أكون مثله وبلايو يتحكم بي كالدمية، لا تقفي في وجه سعادتي.

زفرت بقوة، ونظرت إلى الأرض لعدة ثواني، ثم عاودت النظر قائلة بحدة أقل: والجثث المتفحمة والعزاء والقبر، كيف تفسر كل هذا؟ ثم ضيقت عينيها بشك وتابعت: ثم من تلك الطفلة التي تُمسك بيدك، وجئت بها إلى هنا؟

بمنتهى الهدوء والبرود أجاب، وقد اتكأ مجددا على جدار المكتبة الخشبية: لعبة قذرة من بلايو لتفريقنا، الأيام كفيلة بفضح الأسرار، وستعرفين أنا الشيطان تجسد في بلايو لتحطيمنا؛ أما تلك الطفلة فهي يتيمة قريبة جوليانا من ناحية أبيها، ولا يمكننا تركها وحدها ولا أحد لها سوى جوليانا.

ثم تقدم منها، وجلس أمامها على ركبتيه قائلاً بهدوء وجدية: أمي لا أُجبرك على شيء، ولكن جوليانا الآن زوجتي، وفي مقام ابنتك هي تحبك وتقدرك، أرجوكِ لقد عانت الكثير من أجلي يكفي فقدانها عينها لا تكوني قاسية عليها، أرجوكِ عوضيها عن الحنان الذي فقدته، لا أتحدث من منطلق الحب، لكن جوليانا حقًا مسكينة.

هزت رأسها يمينًا ويسارًا بقلة حيلة ويأس، ثم نظرت إليه مجددا بعينيها المترهلة قائلة بحزم: أنت تعلم أني لا أظلم أحدًا، وأن جوليانا تعرضت للأذى بسببك وهي عندي في مقام ابنتي، لكن يجب أن أعرف كل شيء، وكما قلت الأيام كفيلة بفضح الأسرار، ثم رفعت سبابتها بتحذير في وجهه بنبرة جادة مُتابعة: لكن أُقسم بيسوع أن خبأت أمراً مهماً كهذا ستخسرني إلى الأبد، أنا أحبك لكن لا تدمر نفسك بيدك.

ثم وقفت واتكأت على عكازة، وهي تخطُ إلى خارج المكتب تاركة إياه يزفر بسام وإرهاق من هذا التحقيق الذي إلى حد ما انتهى على خير.

ألقى جسده بإهمال وقوة على الأريكة الأنيقة البنية، وفرد ذراعيه كل واحد في جهة عكس الآخر وبعشوائية مغمضًا عينيه لدقائق يتخلص من توتره قبل صعوده إلى دُرته المكنونة بالأعلى، حتى لا ينقل لها كمده وضيقه الآن.

ولكن فتح زرقاوتيه بملل وسام عندما استمع إلى صوت طرقْ على الباب، وقد توقع أن تكون إيفا أو بلايو والذي إن كان هو حقًا لا يدرى هل سيتمكن من تمالك أعصابه أمامه أم لا؟

فتح الباب، وقد كان أخرى من توقع مجيئه إلى هنا، وقد كانت أنطونيا الصغيرة التي أرادت الحديث في أمر مهم انتبهت إليه في هذا البيت.

ابتسم بهدوء، وهو يغلق الباب قائلاً: توني الجميلة، ما الأمر؟

تلاعبت في إحدى خرزات فُستانها السكري الشبيه بفستان حكمت ونظرت إليه بجدية لا تليق بها موضحة: هل من الممكن أن أتحدث معك؟

رحب بابتهاج وأمسك يدها مُتجهًا إلى الأريكة، وجلس إلى جوارها مثل الذي يجلس أمام النهر.

تسلل كفها الصغير الرقيق إلى كفه الضخم الغليظ قائله وعينيها الخضراء تلك تشع بشعاع البراءة والصدق: عندما كبرت أمي أخبرتني أن أبي أصبح ملاكاً في السماء، وكنت أحب أمي كثيرًا، ولكن لم يحبها إلا القليل، ومنهم خاله جوليانا وخالة إليزابيث وخالة ماريز والدة ماريا، وأخبرتني قبل أن تصبح ملاك أنك رجل طيب وستحبني، ولكن هل يمكن أن أناديك أبي وخالة جوليانا أمي، أم سيحزن أبي وأمي؟

تجمعت غشاوة رقيقة في عينيه شوشوة رؤية زرقاوتيه من فرط المشاعر التي داهمته الآن.

وتلك الصغيرة تتلاعب بأحاسيس الأبوة التي يفتقدها بشدة، ويخشى الرحيل عن الدنيا من دون أن يسمع كلمة أبي، ولو مرة واحدة فقط!

يخشى أن ينقطع نسله، وتتقطع ذكراه، ولا يزور قبره أحد، ويصبح طي النسيان.

وتلك الصغيرة الآن تقدم له كل ما يفتقده على طبق من ذهب صاف مثل قلبها البريء الذي لا يحمل من دنس الحياة شيء، وشفافيتها أعطته قدره في عينيها بصدق.

مسح بإبهامه دموعه بسرعة، ثم حملها وأجلسها على فخذه وداعب، وجنتها بحنان بالغ قائلاً: أقبل يا ابنتي، لقد قدمت لي هدية تمنيتها كثيرًا يا انطونيت، وأمك وأبيكى لن يحزنوا على العكس هم فرحان؛ لأن لا شيء ينقصك من دونهم، أقبل يا ابنتي.

جلست على فخذه بركبتيها، وطوقت عنقه قائلة بامتنان: شكرًا يا أبي.

أخذ يمسد على ظهرها بحنان، وظل على وضعه عدة دقائق، حتى أفاق على طرق الباب، وقد قفزت أنطونيو إلى الباب حتى تفتحه، وقد كانت إيفا التي تحمل صغيرها.

.وقف يحيى لها لتبتسم بدورها قائلة: جئت لأودعك يا عمى، تيتوس ينتظرني بالخارج

.ابتسم بود، وهز رأسه بالقبول وهو قبل صغيرها بين يديها، ثم ابتعد مُردفًا: رعاكِ الرب، لا تنسى غدًا سيأتي الرسام لأخذ صورة لنا

.عدلت وضع طفلها قائلة: أعرف أمي أخبرتني، ثم أمسكت كف صغيرها تلوح به قبل الذهاب: هيا قُل وداعًا لجدك الصغير

.ضحك يحيى بصدق، وأمسك بيد انطونيت وأوصلها للخارج

ثم قرر الصعود إلى غرفته وغرفة حكمت مع أنطونيو لتعرف الأخبار السعيدة، لكن توقف عند الباب يسترق السمع إلى حديث أمه مع .حكمت

.قبل قليل كانت حكمت تجلس مع إيفا وريموندا وانطونيت في غرفة إيفا القديمة

كانت ما تزال بفستان الزفاف وبجانبها الفرد الجديد أنطونيو ومدبرة المنزل ازادورا وأمامها إيفا التي تحمل صغيرها ذا الشهر الواحد من .عمره وريموندا اللتين ما تزالان في نفس حالة الدهشة والصمت من كل شيء يحدث الآن

سواء وجود حكمت أمامهم، والتي حضروا عزاءها قبل ستة أشهر تقريبًا، وفقدًا إحدى عينيها وتلك الصغيرة التي معهم، كل شيء يحتاج .التفسير

!نظفت ريموندا حلقها قائلة بهدوء وجدية: جوليانا، اعذريني لكن نحن الآن عائلة واحدة؛ هل يمكنك تفسير ما يحدث الآن؟

بللت حكمت شفتيها المُزينة بأحمر الشفاه الوردي قائلة بهدوء: لقد حدث لي ولعائلتي حادث، ودبر أحدهم لنا مكيدة، وأنا من تضرر، .وعيني كانت النتيجة. أما أمي، وأخي بخير، لكن تركوا مدريد. أما أنطونيا هي من أقربائي، وقد رحل والداها، وليس لها أحد غيري

.ضمت إيفا شفتيها بأسف قائلة بود حقيقي لا تكلف فيه: يا عزيزتي لقد عانيت كثيرًا

.ثم تابعت ريموندا بهدوء: أنا سعيدة لأجلك يا جوليانا وأتمنى من الرب لكي حياة زوجية سعيدة

.هزت رأسها بامتنان لهم وشكرتهم، وقد همت بالحديث لولا طرق الباب ودخول بلايو المسبب للحرائق

تجهم وجه حكمت، ورفعت ذقنها بأنفة وغرور ناظرة إليه بتحد وثقة، وقد فرغت الغرفة من كل من فيها بأمر متعجرف وقاسى من بلايو .وظل هو وحكمت سويًا

!النار بجانب القار ولا أمان في الدار

.جلس بلايو بخيلائه نافشًا ريشة كالطاووس واضعًا ساقه فوق الأخرى ياسر بين شفتيه ابتسامة تهديد وسخرية واهية بالنسبة لحكمه

ضيقت عينيها بشك وتساؤل: كيف لم تكتشف من زوجة أخيك؟ أعني لماذا لم تُرسل جواسيسك خلفه؟

حك أذنه ببرود يداري خجله من الهزيمة النكراء تلك موضحًا: قد كان كالأشباح يقفز ويختفي ولا تعثر عليه عيني، لأول مرة أفشل .أمامه، ويكون هو بكل هذا الذكاء

ثم اهتز جسده لثواني عندما ضحك بسخرية قائلاً: لقد غرك ما أصبحت مقدمة فيه الآن، لكن عندي سؤالاً هل تقومين بالسحر؟ لأنه من .غير المعقول أن تنجي من كل ما سبق، ومن أقبية الكنيسة، الأمر مشوق حقًا

أمالت رأسها مردفة ببرود: ليس من شأنك المهم أنني انتصرت في نهاية الأمر، وبات الحلم حقيقة، فلا تُتعب نفسك بأفعالك الشائنة تلك؛ لأن الأمر انتهى، ثم نظرت إليه بتقزز، ووقفت قائلة وهي تهم بالخروج من الغرفة: يكفي ما فعلته بروتينا وتدمير حياة تلك الطفلة المسكينة.

ثم خرجت براحة بعد أن أفرغت ما في صدرها صافعه الباب خلفها بقوة قاصدة عُش الزوجية بالأعلى حاملة فستانها الثقيل بخطى سريعة.

أما بلايو فقد ابتسم بسخرية مريرة من هزيمته الساحقة تلك، وأخرج سيجارة الربيع بالبوق الموسيقى، وأشعل فوهتها بالكبريت نافخًا دخان سيجارة لا على بسخرية قائلاً: ليحترق العالم وتحيى السُلطة، نخب بلايو الخاسر!

وعلى الناحية الأخرى دخلت حكمت غرفتها، وقد أرغمت عقلها على النسيان والتناسى ما قد حدث منذ دقائق معدودة بالأسفل مع بلايو، فهي الآن في عالمها الخاص مع فارسها المغوار، وغرفتهما لن تكون وكراً للشجار والمشاكل إطلاقا، بل عُش الحب والألفة والسعادة بينهم.

فتحت الخزانة، وأخرجت الفستان البنفسجي الذي أعدته أمها من قبل وتنفيذًا لأمرها ارتدت ذلك الفستان، وصففت شعرها القصير حول وجهها بعشوائية لطيفة، وجلست على الأريكة تنتظر قدوم يحيى بتوتر وسعادة.

نعم سعادة؛ لأن علاقتهم باتت شرعية أمام الجميع، وقد اعترفت بها الكنيسة والدولة وبلايو وبالأخص بلايو ولم يعد هناك أي عوائق أو حواجز تحول بين قلبيهم وحبهم، فباتت حياتهم أخيرًا مرتبطة برباط مقدس قوى من عند الله، وتوتر لأنها قررت إعطاءه ذلك الحق الذي منعته عنه منذ أن تزوجها في المغرب، وقد أقسم أن لا يلمسها إلا بطلبها وإرادتها، حتى تتعافى روحها قبل جسدها.

هي تعترف روحها لم تشف تمامًا، لكن تريد الكمال الغير موجود بالدنيا لها وله، تريد أن يمتلكها وتمتلكه ويكتمل ركن الزواج الأساسي العفة من الخطيئة والعصمة من الشهوة.

وفوق هذا كتابها الذي بدأت بخطه منذ بضعة أيام لا بد من وجود ورثه تستلمه وتسلمه لأجيل وأجيال حتى تحي ذكراهم، ولا تموت أبدًا، وغير هذا نظرات الأبوة والشوق التي كانت تملأ عينيه كلما نظر لابن إيفا لأنطوانيت تلك أشعلت الحزن والشفقة تجاهه، أفلا يكفي ما يغمرها به من حنان وسعادة لترده إليه بهدية صغيرة وطفل يحمل اسمه ومن صلبه؟!

أفاقت من شرودها هذا، واعتدلت في جلستها سامحة لمارلين التي استأذنت بالدخول بأن تدخل.

ابتسمت حكمت لها وبالمثل مارلين، وجلست على الأريكة جانبها، ثم وضعت عكازها الخشبي على المسند، وأمسكت يدي حكمت قائله بود: جوليانا، ابنتي الجميلة، لقد عانيت كثيرًا ومثلك حنا للوصول إلى تلك اللحظة، من الآن وصاعدًا أنا أمك يا ابنتي لا تخجلي من الحديث معي أو طلب شيء، وأنصحك بأن تكوني سر زوجك، وغرفتكما للحب والسعادة، ولا تجعلين الهجر يعرف طريقًا لكما، وجددا الحب بالود والرحمة بينكم، واياكى والشك والمقارنة وكثرة الملامة، فإنها مُدمرة للحب والسعادة بين الأزواج، اتفقنا يا ابنتي؟

قبلت حكمت رأسها ويدها قائلة بامتنان: أشكرك يا أمي على معروفك هذا.

ربتت مارلين على كتفها، وأمسكت عكازها واتكأت عليه قائلة، وهي تهم بالخروج: باركك الرب يا ابنتي، سأذهب وأنادي حنا.

ولكن قبل أن تقترب من الباب قد طرق يحيى وبيده أنطونيو، ثم دخل قائلاً بمرح: حنا هنا يا مارلين الجميلة.

ربتت مارلين على كتفه قائلة بمرح، وهي تهم بالخروج: أترك القليل من الغزل لزوجتك يا رجل، تصبحان على خير.

لكن توقفت للحظة تنظر إلى من بعمر أحفادها قائله بلُطف: وأنتِ انطونيت ألن تنامى لقد؟ تأخر الوقت.

هزت أنطوانيت رأسها الصغير قائلة: بلا سيدتي سأقول لماما جوليانا تُصبحين على خير وسأنام.

ثم اتجهت إلى جوليانا قائلة ببراعة جعلت قلباً حكمت يرفرف في قفصه الصدري، وقد أعطتها شعور الأمومة بسخاء وبلا سابق إنذار، وقد كان عناقها مُختلفًا مع نُطق كلمة أمي: من اليوم تُصبحين على خير أمي، لقد أخبرت أبي، وقال إن أمي رؤيتنا ليست غاضبة من ذلك.

ابتسمت حكمت بقوة وكورة وجهها الصغير قائلة: بالطبع ليست غاضبة منكي، بل سعيدة لأنكِ تعيشين ببهجة.

ثم قبلت رأسها، وفرت الصغيرة إلى يد مارلين التي كانت تنتظرها وحالها لا يقل سعادة وشفقة على تلك الصغيرة مثلهم، وذهبت إلى غرفة النوم التي أحضرها يحيى في ذلك الأسبوع الحافل.

أصبح الجو خالياً إلا من عاشقين وعشقهما.

وقد كان العاشق ينظر إلى معشوقته بهيام وحب وسعادة، وقد زادها اللون البنفسجي جمالاً وبهاء، وأثبتت طلتها أنه يجب عليها الولع باللون البنفسجي لأحبه فقط لما يعطيها من طلة جميلة ورقيقة.

طوق خصرها وبالمثل فعلت بعنقه ليهمس بحرارة وسعادة: أخيرًا يا حكمت، أخيرًا اجتمعنا بعد عناء، الحمدلله على لم شملنا، أنا لا أدري كيف بدأ كل هذا؟ ومتى حدث كل هذا الضجيج؟ لكني أعلم أنكِ الشيء الوحيد الذي أتمناه، وقد حاربت لأجلك، أنتِ لي فقد أقسمت بالله الواحد الأحد أن أركب فرسي وأشحذ سيفي، وأهيم على وجهي في الحروب والمعارك، ولن أتنازل عنكِ أبدًا، وقد ظفرت لأن الحبيب الحر يسعى للحبيب، العالم من دونك شيء قبيح وبشع لم يكتمل بعد.

نظرت بعينها اليُمنى إلى زرقاوتيه هامسة بصدق: أنا أحبك يا يحيى منذ أن كنت طفلة تتسلق ظهرك، وتركب أمامك الفرس، وتحضر لها الحلوى، وعلمتها الفروسية وهي صغيرة أنا أحبك يا رجلي الأول والأخير، أنت روحي وزوجي وحبيبي وابنى وأبى، أقسمت بالله العلي العظيم أن أرد حبك أضعافه، وأغمرك في ثنايا قلبي بالعشق والهوى يا مالك قلبي، أنا أريد أن أكون زوجتك الليلة، سيكون لنا أولاد كُثر إن شاء الله يحملون اسم يحيى ومن صلب يحيى ودماء حكمت، مسلمين اندلسين، وسيرثون الكتاب الذي خطته لهم، وستعيش ذكرانا إن شاء الله إلى الأبد فهل تقبلين زوجة لك؟

فتح عينيه بنشوة وسعادة من موجة المشاعر العاصفة تلك التي داهمته منذ قليل، وقد كانت كل كلمة تزيد الحب والمودة بينهم أكثر من قبلها، وها هي تُكمل الرباط المقدس بينهم، وتطلب ما يموت شوقًا إليه، ويمنعه خوفه عليها من طوفان عشقه الذي سيغرقهما الآن.

قبل جبينها، وأحاط وجنتها بكفه الضخم الدافئ هامسًا بصوت مُتحشرج: أقبل بكى زوجة يا حكمت.

الفصل السابع والعشرين والاخير

قد مرت الساعات والليالي والأيام والأسابيع، واجتزنا الشهور والحب يزداد ويشتد ويقوى بين قلبين أبىٰ الله إلا أن يجمعهما في حلاله - وبسعادة وتفاهم وود ورحمة.

كانت حديقة القصر مزدهرة، وازدادت ازدهارا بتلك الورود والأزهار والأعشاب التي غرستها حكمت في تلك الحديقة، والروائح العطرة والوصفات الطبية التي ملأت القصر وجدرانه، وتلك الصغيرة التي أضافت إلى حياة الزوجين وحياة مارلين وريموندا الفارغة طعم من المرح والسعادة افتقده الجميع بلا استثناء.

وبالأخص ريموندا التي باتت تشعر بالفراغ والفتور يحيط بقلبها وعقلها من كل جانب بعد زواج إيفا وانشغالها بطفلها وسفر ديف منذ خمس سنوات، ولا تقولوا بلايو سيتكفل بالحب والود لا، فزواج بلايو منها لم يكن إلا شكل اجتماعياً فهي ابنة دوق، وهو يحب السطلة وهي أسهل وسيلة للسلطة حتى ولو بطريقة غير شرعية، فلم يدق الحب باب زواجهم أبدًا على عكس يحيى وحكمت تمامًا.

فيكفي أنه منذ مدة أرادت حكمت وضع رقعة عين حتى لا يخجل من شكلها مع أقاربه وأصدقائه من السادة، وقد رفض تمامًا، وأحرق تلك الرقعة متعللًا بأن الله وهبه في عينيها لؤلؤة، وقدح قهوة وكلاهما أروع من الآخر.

وها هو جدار البيت يشهد بذلك التحول الجذري في حياتهم وحياة العائلة بعد أن رحل الرسام، وتعلقت تلك الصورة التي تضم بلايو ومارلين وريموندا وإيفا وتيتوس ويحيى، وحكمت وانطونيت، وقد أدرك بلايو المعمية عينيه أن حكمت وانطونيت حقًا باتوا من العائلة، وها هي زوجته تقربت منها وبالمثل مارلين وإيفا عندما تأتي للزيارة، وبات هو نسيًا منسيًا، ولكن هو من فعل بنفسه هذا لم يحب أبناءه أو زوجته أو أخاه أو أمة كما يدعى وينبغي، بل أحب السلطة أكثر وأكثر، وفعل كل ذنب وقبيح غير مكترث لعاقبته في الآخرة.

وإن كنتم تتساءلون عن خديجة وطارق، فأقول هم في خير صحة وعافية، وقد بدأ طارق بالعمل في مراكب السيد خطابي إلى جانب دراسته، وذاع سيط خديجة بين أهل الحي بمهارتها في الحياكة والتطريز، وباتت حياتهم مستقرة لا ينقصها إلا حكمت.

وهناك في غرفة نوم العصفورين قد صففت حكمت شعرها الذي تطاول قليلاً ولامس كتفيها، ومن خلفها يحيى الذي أضجع على السرير مُعطيها ظهره في حالة من التيه غريبة يمر بها مؤخرا منذ مدة.

تركت الفرشاة على التسريحة، واندست جانبه أسفل الغطاء، ومررت يدها على كتفه حتى تقلب واخبأ رأسه بين أحضانها، وطوق خصرها بذراعيه ساحبًا أكبر قدر من الهواء الممزوج بعطرها، ثم زفر بهدوء، وراحة وأصابعها الرقية تلاعب خصلات شعره الكثيف ليتحدث بهدوء مغمض عينيه يفرغ حملاً صدرت: منذ مدة قدمت طلب استقالة من محكمة مدريد، واستقلت الأمس وعدت إلى الشرطة، وغدًا سأستلم العمل، فكرت مليًا ووجدت أني غير مرتاح نظرات الأسرى تعطيني إحساساً بالذنب وغير هذا أنا أحب التحقيق والبحث والتحري الجلوس على المكتب لا يليق بي.

ضحكت بهدوء غير مصدره صوت وشدة على عناقه بقوة وسعادة، وقبلت رأسه بحنان قائلة: خيرًا ما فعلت يا يحيى دعنا نبدأ حياة هادئة، عندي خبر سار لك.

خرج من أحضانها، واعتدل في جلسته، ونظر إليها باهتمام لتبتسم بصدق وسعادة، وتُمسك كفه الضخم، وتضعه على رحمها قائله بابتهاج: منذ مدة شعرت بالتعب وشكت ريموندا، وأما مارلين بالأمر، وجأئت بالطبيبة وصدق حدثها وأنا حامل منذ شهرين يا يحيى، سيأتي وريثك إلى الدنيا قريبًا إن شاء الله.

لا أدري ولا حكمت تدري كيف فعل يحيى ذلك، لكنه بلمح البصر كان يحملها بين ذراعيه القوية، ويدور بها في الغرفة صارخًا ببهجة: !الله! سأصبح أباً، سيأتي طفلي للدنيا، وأنتِ أمه

ضحكت ببهجة ومرح، وقد أنزلها بعد أن أدرك خطر ما يفعله، وقد ارتمت في أحضانه وصدورهما ترتفع وتهبط بقوة من فرط الضحك والسعادة، وقد رفع ذقنها قائلاً بحب: الشكر لله ثم لكِ على كل هذه السعادة أنا مدين لكِ بحياتي كلها ولن تكفي.

هزت رأسها بالنفي موضحة بصوت دافئ وناعم: بل الشكر لله ثم لك؛ لأنك لم تتركني وأنا في عز ألمي ومحنتي، وضعفي وضحيت بالعالم كله من أجلي، أحبك يا يحيى كثيرًا.

وقد مرت السبعة أشهر بسلام وسعادة، وأنجبت حكمت صبياً يشبهها كثيرًا في لون العينين والشعر، وسماه يحيى إدواردو ليحي ذكرى صديقه وبالوقت نفسه حمزة لعشقه لشخصية حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول الذي لحُبه له وللحمية والرحم أسلم وكان أسد الله، وكم شبهة قصة إسلام سيد الشهداء بقصة إسلامه.

ومر عامين، وأنجبت توم صبياً وفتاة سرقوا الشبة من أبيهم بقوة، وسمى الصبي بعبدالله سرًا ومارك للعامة والفتاة مريم، وفي العلن ماري.

وازداد عدد اللوحات الخاصة بالعائلة لتنتهي بلوحة تجمع أبناء يحيى الثلاثة وانطونيت، وحكمت مستقلة تظهر شيب، وتقدم عمر يحيى صاحب التاسعة والأربعين من عمره وجمال حكمت ذات الستة والثلاثين ربيعًا وقوة أبنائه، ورحلت مارلين عن الدنيا، وسُجى جسدها لمثواها الأخير، وقد مر على تاريخ 1820 أربعة عشر عامًا من الحزن والفرح والسعادة والفراق والحب والألم والمكائد والغضب والهجر.

وبالرغم من تلك الحياة الحلوة الهادئة مع أبنائها ومالك قلبها إلا أن ينقصها أمها، وطارق لا تريد شيئاً من الحياة غير عائلتها، وأحبتها كلهم حولها، وقد توعد يحيى بلم الشمل والتجمع مجددا، لكن متى هذا؟

ولكن اليوم فريد من نوعه ومميز جدًا في تاريخ الإنسانية والأندلس فاليوم هذا ذلك الذي ستُعتق فيه رقاب، وينفُذ القسم ويتحقق العدل ويثبت الانتقام.

فاليوم هو 1834/7/15، وإن كنتم لا تعرفون فاصمتوا وتابعوا القادم فالأمر مُثير للغاية.

حول طاولة الطعام قد ترأس الطاولة بلايو بعد وفاة مارلين، وإلى جانبه ريموندا ويحيى، وحكمت وأبناؤه الأربعة المتفاوتة أعمارهم من عشرين سنة إلى عشر سنوات.

كان في فخر وعز بين عشيرته الصغيرة التي يتمنى أن تكبر أكثر، وتزداد أكثر وأكثر، ولكن يكفي ما حدث في آخر ولادة والتعب الذي تعرضت له حكمت فيها.

كانت وردية عمله مسائية، وقد كان يتناول العشاء الأخير، وستفهمون لماذا هو الأخير بعد قليل.

انتهى العشاء، ودخل الجميع إلى غرفهم، وتأكد من نومهم، ثم دخل إلى غرفته وبها حكمت التي قد أخرجت له ثيابه وسلاحه وعطره.

ابتسم بود، وعانق خصرها من الخلف، واستند بذقنه على كتفها وبالمثل شدت على عناق يديه، ومالت برأسها على وجنته قائلة: حماك الله ورعاك يا حارسي ووطني، فلا وطن لي سواك.

قبل وجنتها هامسًا: وطني الوحيد هو قلب العصفور الذي تملكية يا سكرتي.

ثم التفت تنظر إليه قائلة بقلق: هل تظن أنه كان من الصائب أخبار الأولاد عن الإسلام وبالأخص الصغيرين؟ أعني انطونيت تقبلت الأمر وحمزة، لكن أشعر بأن عبدالله ومريم مشتتان، في حالة تيه دائمًا، ولا أستطيع إخراجهما من تلك الحالة، أعني كان علينا الانتظار قليلاً، لقد تسرعنا بالأخص مع الصغيرين.

ابتسم بهدوء، وأعاد تلك الخصلة الشاردة من شعرها خلف أذنها قائلاً بعقلانية: أمر طبيعي، مثلًا أنا قبل أن أُسلم وعرفت أنكِ مسلمة كنت مشتتاً تمامًا وبالمثل انطونيت وقبلت الأمر عندما خيرناها بين دينها ودينا وكذلك طارق أخبرني بأنه مشتت، الأمر طبيعي وعن قريب سيعودون إلى طبيعتهم، وغير هذا كان عليهم المعرفة يا حكمت، حتى يعتادوا ولا يسألوا أسئلة نعجز عن إجابتها هذا أفضل للجميع يا سكرة.

ضمت شفتيها بقلة حيلة وسام قائلة: أتمنى من الله هذا.

ثم قلب يحيى عينيه بملل وسام عندما استمع لصوت بوق العربة والخيل ليصبح في تزمر أضحكها: آه يا الله! لماذا كان على الترقي، وأصبح لواء أنا رجل عجوز لا طاقة لي بهذا؟!

كان الوضع عادياً، وعلى ما يرام مثل أي يوم، فمنذ أن نُقل ديغو إلى قرطبة، وبات لا يأتي إلا في الأعياد والإجازات بات لا يؤنس ليلة في عمله أحد، بالرغم من كثرة معارفه وزملائه هنا، إلا أن لا أحد يحتل مكان ديغو وإدواردو الراحل أبدًا.

نظر في ساعته الذهبية، وقد كانت تُشير إلى الثانية صباحًا، وقد اقترب موعد الفجر.

حك عنقه بإرهاق ومسد عضلاته، ثم زفر بملل، واتجه إلى الحزينة المعدنية في زاوية المكتب، وأخرج المفتاح من جيب سترته ليفتح الخزينة التي تحتوي على ما هو أهم وأعظم، وتُفضل من أي ذهب وفضة ولؤلؤ، بل كانت تحتوي على مجموعة أوراق خلاصة تحرياته، وتعبه وشكاوى المظاليم وأدلة جنائية على بلايو من أصدقائه ومساعديه، وكل من أُذى بسببه يومًا ما سواء بائع السم الذي قدمت زوجته شكوى في ذلك الأحدب، وبعد البحث والتقصي اكتشف أنه ذلك الأحدب، وحادثة تسمم حكمت وحادثة التشهير بها وقتل رؤيتنا، وقتل وأذية كل من فكر في الوقوف أمام وجهه.

منذ أن حصل على تلك الأوراق تمنى أن يقدمها، وفي الحال للملك ليأخذ بلايو جزاءه، فيكفى ظُلمه الفج للجميع، لكنه ينتظر الفرصة التي يمكن فيها ذلك، ولكن ليس قبل تدمير محكمة مدريد، فعلى مدار ثلاث عشرة سنة من زواجه بحكم وهو كل يوم وليلة يُفكر في الانتقام والأخذ بثأرها وحقها مِمَنْ سلبوه وامتهنوه عنوة وحق كل مظلوم مثلها، وقد بذل جهود لمحاولة إسقاطها، إلا أنها باتت بالفشل الشنيع.

زفر بهدوء، وعاد الأوراق لمكانها، وأغلق الشموع ومكتبه ليغادر مخبرًا مساعده بأنه إن حدث شيء يرسل في طلبه من المنزل.

ركب فرسه، وقد أراد الشعور بنسمات الهواء العليل تداعب شيبته وتجاعيد وجهه التي دائمًا ما تمتدحها حكمت وتثنى على وقاره وهو بالمثل على جمالها وشبابها، ويحاول دائمًا أنا يُنسيها هو وأبناؤه أمر إعاقتها المكتسبة تلك، وكلما سأل الأطفال الصغار عن سبب ضياع عينها كانت الإجابة سقطت وهي صغيرة على السلم.

ابتسم لا إراديا عندما تذكّر حكمة وأبناءه عمار حياته وأُنس قلبه.

ولكن الضحكة اختفت ما أن استمع إلى صوت شجار وقتال بالسيوف حاد ليقبض على سيفه، ويقترب من مصدر الصوت بحذر يشاهد ما يحدث من بعيد، ويدرس الوضع قبل التدخل وإذ به يرى جندي فرنسي يتناوش مع جنديين من محكمة مدريد، ولكن تفرقوة عندما مر الجنود الفرنسيون الذين يناورون ليلاً على إثر الصوت، وبدأوا بإطلاق النار، وقد فر جنود المحكمة.

أخذ يسترق السمع لهم، وإذ به يقول الضابط المدعو مارشال سولت: لقد بلغ هؤلاء الهمج حدهم، وعلى أحد إيقافهم، هيا بنا علينا اليوم دك المحكمة فوق رؤوسهم.

ثم ركبوا خيولهم مُتجهين إلى ثغرتهم العسكرية، وظل يحيى يتبعهم على فرسه حتى وصل إلى نقطة خالية ليصيح بأعلى صوته: توقفوا !عندي حديث مهم لكم، اسمعوني سوف أساعدكم، أنا ضابط سابق بمحكمة مدريد

توقف المارشال والجنديان، ونظروا إليه بشك وريبة، ولكن خالف ريبتهم بعض الشيء عندما هبط يحيى من علي خيله، وألقى سيفه وسلاحه الناري أرضًا، ورفع يديه باستسلام تام لهم.

أشار المارشال إلى أحد الجنود برأسه، وقد اقترب من يحيى، وفتشه بالكامل قائلاً بعملية: نظيف يا حضرة المارشال.

اعتدل يحيى في وقفته، وضم كفيه على بعضهم قائلاً بهدوء: لقد رأيت ما حدث وكنت سأتدخل لولا جنودك، ولكن إن كنت ستهدم المحكمة فأنا هنا لأساعدك، لقد عملت هناك لمدة، ويمكنني إخبارك بأضعف نقطة للاقتحام.

رفع المارشال أحد حاجبيه دون الآخر قائلاً: أفصح.

أخذ يحيى يشرح موضحًا: تحتاجون سلاح ومدافع السور منخفضاً، لكن مليئاً بالحرس والجنود المسلحين والأبواب قوية لن يهدمها سوى المدافع، واحذروا هؤلاء القوم غدارين، وهمج سيدعي البراءة واللين، وإن سلمت واستسلمتم لن يترددوا في قتلكم.

اقترب منه المارشال عاقدًا ذراعيه خلف ظهره قائلاً بتساؤل: لماذا تساعدنا ما دمت إسباني، وعملت هناك رتبتك كما أرى كبيرة في الدولة أليس هذا جنوناً؟

ابتسم يحيى ابتسامة جانبية، والتقت سيفه ووضعه في غمده، وسلاحه الناري في حزامه، ثم ركب فرسه قائلاً بجدية وإصرار، وقد أدرك أن الآن هو الوقت المناسب لكي يدفع بلايو الثمن: عندما ترون الأسرى وحالتهم البشعة ستعرفون لماذا فعلت ذلك، أنا إسباني ولواء شرطة، لكن حراً لا أقبل الظلم.

فر يحيى بخيله من أمام المارشال الذي بقي على حالة الشك تلك وقد ذهب هو أيضًا مع جنوده لإحضار العتاد والرجال.

وقد أقبل الشروق، وتجمعت مجموعة كبيرة من الجنود الفرنسيين أمام محكمة مدريد، وقد كان السور منخفضاً وعليه مجموعة كبيرة من الملثمين يحملون البنادق، وقد تساءل أحدهم قائلاً بصوت جهوري: من أنتم؟

أقبل من الباب جندي فرنسي يحمل ورقة ملفوفة قائلاً: بسم الملك وفرنسا نأمركم بتسليم الأسرى ومفاتيح المحكمة وتطبيق قانون اللورد نابليون بونابارت وإلغاء هيمنة محاكم التفتيش.

رد الملثم: لحظة واحدة أخبر البابا بقدومكم.

ثم اختفى للحظة، وعلى حين غرة هبط وابل قوى وبشع من الأعيرة النارية على رؤوس الفرنسيين، وقد أخذوا بالتدرع ومبادلتهم إطلاق النار، وضرب الباب بالمدافع بقوة حتى تهدم وسقط قتلى من الطرفين.

دخل المارشال والضابط دي ليل والجنود من خلفهم مقتحمين القاعة الرئيسية التي كانت أفخر من قاعة قصر الملك سواء من النجف من الذهب والكرستال وصورة مرسومة بطول الحائط للبابا المؤسس لمحاكم التفتيش عند سقوط الأندلس وشموع عطرة وسجاد كبير بقماش فاخر، وكراسي مساندها من الذهب وأواني الشرب والطعام من الفضة.

أقبل عليهم الضابط المسؤول والبابا بمنتهى البراعة والرقة وكأنه لم تحدث معركة بالخارج ليتساءل بقلق مزيف: خيرًا يا بني لا يمكن أن تتعدوا على حرمات الرب بتلك الطريقة.

ابتسم المارشال بسخرية قائلاً: سنرى من يتعدى على حرمات الرب الآن.

ثم أمر الجنود بالانتشار والبحث عن الزنازين والأسرى، ولكن لم يجدوا أي شيء أو أي أحد، وباتوا يفقدون الأمل والبابا والضابط والجنود يبتسمون بنصر، وقد مر وقت وبلا فائدة ليصيح المارشال بيأس: هيا بنا يا جنود.

لكن أوقفه الضابط دي ليل، وقبض على كتفه قائلاً بيقين وشك: انتظر لم ننته بعد.

تحدث المارشال بضيق ويأس: لم نجد شيئاً، ما الذي تنتظره؟

نظر دي ليل أسفل قدميه قائلاً بشك: السر أسفل الأرض.

ثم أشار إلى الجنود قائلاً بأمر، وقد لاحظ خوف وارتباك الضباط والبابا: ارفعوا السجاد واسكبوا الماء على الأرض.

وبالفعل حدث ما قال وظل يتبع انتشار الماء حتى بدأ بالانحدار عند نقطة ما، ثم تسرب منها ليصفق الضابط دي ليل بحماس ويصيح بنصر: ألم أخبركم، هيا افتحوا الباب.

ازداد توتر الضابط والبابا، وبدأ الخوف جليًا عليهم والجنود الفرنسيون يكسرون الباب بمقابض السيوف والبنادق بقوة، حتى انكسر الباب، وقد كان يُفتح بحركة خبيثة من عند المكتب البابا بزر وترس يرفع الباب.

أمسك المارشال بشمعة عطرية طولها متر، وقبض على كتفه البابا قائلاً بمسكنة: لا تلوث الشمعة الطاهرة بيدك المخضبة بدماء الأبرياء.

نفض المارشال يده قائلاً: سنعرف الآن من صاحب اليد المخضبة بالدماء.

.هبط المارشال ودي ليل والجنود الفرنسيون، وقد وصف دي ليل في مذكراته ما رأى بأبشع ما رآه في حياته

إذ رأى زنازين طولية بحجم السجين يظل واقفاً حتى الموت وبالمثل بالعرض وآلات التعذيب والمساجين الذي يسترون عوراتهم فقط، وقد خلع الجنود ملابسهم لستر النساء والرجال، وخرجوا بهم للضوء بشكل متأن لمدة ساعة حتى لا يصابوا بالعمى من شدة الظلام الحالك .بالأسفل

وبسرعة الضوء انتشر الخبر في أرجاء مدريد، وتجمعت الأهالي وأهالي المساجين، وطبقوا حكم الإعدام في العساكر والضباط والبابا .وما هي إلا نصف ساعة، حتى انتهى رعب محاكم التفتيش، وجاء الحق وبر يحيى بقسمه بتدمير تلك المحاكم، وكل من ظلم حكمت

وعلى الناحية الأخرى قد عاد يحيى، وأحضر الأوراق التي تُدين بلايو وذهب إلى قصر الملك، واضطر للانتظار حتى يتجهز ويهبط إليه بعد إصراره بأنه أمر مهم وعاجل لا يقبل التأخير، وقد أشرقت الشمس، وأقبل الصباح وسمحوا له بمقابلة الملك، وقد أطلعه على الأوراق ومعه مساعد بلايو فرانسيس الذي أصيب بشلل في ذراعه الأيمن، وقد أيقن أن هذا جزاء ما اقترفت يداه، وأراد تطهير نفسه قبل مقابلة .الرب، واعترف للملك بكل شيء ليتخذ القرار بعزل بلايو ومحاكمته تجاه أعماله غير المشروعة

قد كان يحيى مُطأطأً رأسه في حضرة الملك، حتى رحل فرانسيس، وتحدث الملك بفخر: الشكر للرب لأن دولتنا فيها رجال أوفياء مثلك .يا حضرة اللواء حنا، بالرغم من كون بلايو أخيك، إلا أنك وضعت مصلحة البلاد صوب عينيك شكرا لك

.هز يحيى رأسه بازعان قائلاً: هذا واجبي أن أحمي البلاد من الخونة والأعداء

هز الملك رأسه بالموافقة، وقد كاد أن يتحدث لولا اقتحام أحد الحرس الباب مُسرعًا بتوتر يحمل الأخبار الجديدة، وقد انحنى بسرعة، واعتدل تحت أنظار يحيى والملك وزجته وأولاده ووصيفة زوجته ووزيره المقرب ليتحدث بتوتر قائلاً: حضرة الملك لقد اقتحم .الفرنسيون محكمة مدريد، وأسقطوها وقتل العامة كل من فيها

التفت يحيى بسرعة إلى ذلك الرجل، وقد اتسعت عيناه ببهجة وفرح، لكن كبح ابتسامته وفرحه، وأدعى التأثر، وهو يرى الملك بدأ بالاختناق، واقترب منه الجميع بساعدونه حتى يتنفس وناوله يحيى كوباً ما، وقد شربه وهمس بصعوبة: ضاعت هيبة الدولة، أعلن من .اليوم نهاية محاكم التفتيش في البلاد

.ثم أشار إلى وزيره قائلاً بصعوبة: نفذ الحكم واعزل بلايو باخوميوس، وخذ قوة إلى قصره حالًا

.وما إن سمع يحيى هذا حتى تراقص قلبه فرحًا، وقد حقق قسمه بفضل الله، وارجع بعد ثلاثة عشر عامًا حقاً حكمت في الدنيا

قد مر أسبوع على كل تلك الأحداث والتفاصيل المُبهرة والمهمة، وقد دخل بلايو السجن أخيرًا، وتحقق العدل، وما كان من ريموندا سوى التسليم بالأمر الواقع، وقد شعرت حكمت بالذنب تجاهها، وقررت مؤسستها بعد أن قُبض عليه من قلب القصر تحت أنظار الخدم والجميع _وقد تهاوى على حكمة بالسب والقذف البشع لولا أنها أمسكت بحمزة ابنها لكان ضرب بلايو بلا تردد، وقد كان بلايو لا يحب أبناء حكمت من الأساس متعللًا بأنهم أبناء المشكوك في كثلكتها، وبالطبع نال يحيى جزاءه من الوعيد والسب والقذف مثلها، ولكنه فضل استراتيجية البرود، وهي يرى ثورة أخيه الذي كان في يوم من الأيام أباه ومثله الأعلى، لكن حب السلطة أعمى بصره، وجعله يكره كل _ !من يقف في وجهه، ولم يتخيل يحيى أن تؤول الأوضاع لتلك المأساوية، لكن إنك لا تجني من الشوك العنب .

تذكّرت حكمة كلمات ريموندا التي جمعت أغراضها، وتركت القصر قاصدة بيت ابنتها، حتى تعيش فيه "أنا لا أكرهك يا جوليانا ولا أبغضك صدقيني بلايو أخذ جزاءه، لقد كان قلبه أسود لم يحبني يومًا، أو حتى أحب أبناءه على العكس كنا مجرد تُحف مثل اللوحات الأنيقة يتباها بنا فقط من أجل صورته الاجتماعية، علمت بأذيته لكي وحاولت في أثناءه، لكنه ضربني ورفض، وهذا جزاؤه العادل يستحق هذا حقًا لو كان به خير لبكت بناته، لكن على العكس الجميع بات حراً، ويمكنه العيش بحُرية الآن، فقط نصيحتي قبل أن أترك القصر حنا يحبك يا جوليانا بشدة لا تخذلية وبادلية الحب، نادرًا ما نجد رجلاً في هذا العالم يحب زوجته بحق مثله، اهتمي بأبنائك ".وكبريهم وحبيهم فهم سندك وعزك في الدنيا، وداعًا يا أختي الصغرى، قد نلتقي، لكن الرب وحده أعلم متى اللقاء الثاني

ولكن الجانب الرائع أن يحيى يُقسم أن حكمت بعد سجن بلايو وانتهاء محاكم التفتيش قد عادت حكمت الصغيرة الخجولة المرحة المُقبلة على الحياة لا تلك التي لا ينطفئ الحزن من عينيها، تذكّر كيف بكت بعد عودة حقها، وشكرته وظلت الليل كله قائمة لله تشكره على فضله !وكرمه معها، وتدعى ليحيى وأبنائها، الآن بعد أن وسقطت حكمت يمكنني القول ونهضت حكمت

تحلق يحيى، وحكمت وانطونيت _التي اختارت اسمًا لها بعد إسلامها، وكان ولادة لغرامها بأشعار ولادة بنت المستكفي، وقد سمعت عنها الكثير من حكمة _وحمزة وعبدالله وماريا في حلقة صغيرة، وقد كانت ابنتاه ولادة ومريم بين أحضانه، وإلى جانبهم حكمت وعبدالله وحمزة، وقد كان الجميع يبكي ويمسح دموعه بتأثر، وقد حكى يحيى لأبنائه ما عانته حكمت في محكمة مدريد وما فعله بلايو لتفريقهم .وفراق حكمت وصبرها طوال سنوات على بُعد أمها وأخيها عنها

مسح يحيى دموع ابنتيه قائلاً بثبات: يكفى، لقد بكت أمكم لأربعة عشر عامًا؛ بسببي ولسنا هنا للبكاء، بل للأمر آخر، لكن كان يجب أن تعلموا الحقيقة، ويجب ألا تموت سيرتنا بعد الموت أبدًا والكتاب الذي ستأخذه ولادة سيكون أمانه عندها، وستتوارثونه بالتناوب، وقد خطت أمكم فيه كل شيء وعليكم قصة على أحفادكم وأبنائكم حتى قيام الساعة، لكن الشيء المهم أننا سوف نعود إلى المغرب الأسبوع .القادم، ونستقر هناك إلى الأبد

قد حان موعد الطعام، وقد كان جسد بلايو على سريره الضيق غير مُضجع بصورة صحيحة، وقد كانت تلك عادته منذ أن دخل السجن، !وقد افتقد إلى فراشه الدافئ الواسع، وحصل على ذلك الضيق السيئ، ولا ينام مرتاح، وهو يستحق هذا

وضع الحارس الخاص بالزنزانة الطعام الرديء، وأخذ يصيح باسمه حتى يأكل، ولكن لا فائدة، اقترب منه ودفعه في كتفه، وقد سقط من على فراشه مُفارقًا الحياة لا يملك شيئاً مثلما دخل وهو لا يملك شيئاً، وانتهت أسطورة بلايو المستشار القوى صاحب الحصانة وللأبد وأسوء ما في الأمر أن تيتوس من استلمه ودُفن دون أن يحضر عزاءه أحد نكالًا لما اكتسبت يديه من ظلم وافتراء غير مكترث لعاقبة .الأمور

ولعل سبب موته الأول بعد انقضاء أجله الحتمي هو الكمد والغيظ والغضب فاخر وجه رآه قبل موته هو وجه يحيى الذي زاره في منتصف الليل متلثمًا، وقد جحظتْ عيناه عندما همس له يحيى ببرود وتشفى: أنا يحيى باخوميوس زوج حكمة خالد محمد يا حضرة .المستشار

وقد ثار غضب بلايو وجن جنونه لينتهي به الأمر يضحك بهستيرية عالية في وجه يحيى وآخر ما قاله: لقد كنت على حق يا عديمي !الكثلكة

أكره القيئ حقًا، لكن هذا ما يحدث الآن على سطح المركب منذ أن ركبت حكمت وهم في عرض البحر لثلاثة أيام، وقد أقبلوا على .الوصول إلى طنجة

.وطوال تلك المدة كانت لا تتوقف عن القيء، وقد كانت تتعلل وتتحجج بأن ذلك بسبب دوار البحر

ولكن يحيى ليس طفلاً إصبعه في فمه، بل رجل بالغ عاقل يدرك أن دوار البحر لا يستمر كل تلك المدة أبدًا، وقد بدأت الشكوك تساوره .في أمر ما

أحاط يحيى كتفي حكمت وأخذ يسوقها بشكل متأن إلى سريرهم في تلك السفينة الضخمة _نعم سفينة ضخمة، وقد وضع بها كل متاع القصر وخيله وأسلحته والأثاث والخدم، وكل ما يخصه في قصره إلى قصره الجديد في المغرب، وقد أخذ في بنائه سبع سنوات، حتى .يصبح شبيهاً للقصور الأندلسية التي تمنت حكمة العيش بها وبدوره لن يراها تشتهي شيئاً، ويمنعه عنها مدام في مقدرته _

أبعدت كأس الماء عن شفتيها ليمرر يده على كتفها صعودًا وهبوطًا قائلاً بهدوء: لم أكن أعرف أن دوار البحر سيئ هكذا؟

بللت شفتيها، وتلاعبت بأصابعها بخجل وتوتر قائلة: انظر... الأمر ليس كما تظن... أنا... نظفت حلقها، ونظرت في عينيه مُوضحة: أنا حامل... ثم استدركت بسرعة، وهي ترى ضيقه من ما سمع: أقسم بالله العظيم أني كنت سأخبرك، لكن أردت أن أجعلها مفاجأة.

قلب عينيه بملل، وحنق قائلاً بنبرة عتاب: حكمت لماذا؟ ألم نتفق أنكي لن تكرري الأمر مجددا؟ ويكفي مرضك في ولادة عبدالله ومريم، لقد كدت أن أموت وأنا أراكي تصارعين الموت، ولماذا بعد كل هذا الوقت تكررين الأمر مجددًا؟ يكفي أبناؤنا حولنا.

حاوت عنقه، وجلست مُقابله قائلة باستعطاف ودلال: يحيى، الوضع كان مختلفاً لقد جئت بحمزة، وكنت بخير عند ولادة عبدالله ومريم كنت متعبة قبلها لا علاقة لتكرير الأمر بشيء كان مجرد حادث، ثم انظر إلينا كلانا تفرق عن أخيه؛ بسبب وبغير سبب وأنا لا أرضى لأبنائي الفراق والتشتت، بل يكونون قلباً واحداً، ويقفوا وقفة رجل واحد باتحادهم وقوتهم.

زفر بهدوء، وألصق جبهته على جبهتها مغمضًا عينيه قائلاً ويديه تشتد في عناق خصرها: آه منك يا حكمت! ماذا تفعلين بقلبي وحياتي وعقلي؟ غيرتي كل شيء بقوة إيمانك وطهارة قلبك، إلى الآن غير مصدق ما يحدث، غير مصدق أني مسلم، وأنكِ زوجتي ولدى أبناء وعن قريب إن شاء الله سيأتي الخامس إلى الدنيا أحيانًا أحسبني بحلم، بالأمس كنت اليد الباطشة بالإسلام والمطهرة منه في إسبانيا واليوم أنا مسلم، وساهمت في هروب عشر عائلات من إسبانيا بربك ماذا فعلت بي؟

مالت على وجنته ولثمتها لعدة ثواني، ثم ابتعدت قائلة: لم أفعل أي شيء، بل الله أراد بنا خيرًا، كان عمر بن الخطاب من أشدّ الناس عداوة للإسلام في مهده، وقرر في يوم أن يقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكن الله أراد به خيرًا، وأسلم وكان إسلامه عز ونصر للمسلمين والإسلام، والأمر كذلك قد احتسبت عيني عند الله، ويكفي رؤيتك الآن وإلى جانبي، وعلى ما صرت عليه الآن يا حارسي.

قبل وجنتها عدة قبلات صغيرة هامسًا بسخرية: بل قولي يا جدي ابنتك الكبرى على وشك الزواج، وتأتين لها باخ، وقد اشتعل رأسي شيبًا.

ضحكت بمرح رافعة يديها باستسلام قائلة: أنت من كبر أنا ما زلت صغيرة.

شد على عناقها بقوة قائلاً: عندما تقابلين اخاكى وأمك سيقولن كم كبرتي، ولم تعودي صغيرة يا سكرة.

داعبت خصلات شعره المجدولة بحنان قائلة بشوق وأمل: أتمنى ذلك يا يحيى، لقد اشتقت إلى أمي وطارق كثيرًا، لا أصدق أنه قد مر ثلاثة عشر عامًا على آخر مرة رأيتهم بها.

ملس على ظهرها بهدوء وود قائلاً بتأكيد: إن شاء الله سيكونون بخير، وستجتمعون سويًا مجددا إلى نهاية العمر، وفي الجنة بإذن الله.

في بيت خطابي_ الذي لم يترك خديجة، وطارق يغادرون بلاطه أبدا، وقد كان السبب الأول أم الخير التي تعلقت بطارق بشدة لشبهه بينه وبين ابنها الراحل، وتعلق طارق بخطابي نفسه، وقد وجد فيه مشاعر الأبوة التي افتقدها منذ أن سافر أباه إلى الرفيق الأعلى، ولم يُقصر خطابي في شيء تجاههم، وقد استقرت خديجة في هذا الحي، واستقرت تجارتها وعملها وكذلك طارق الذ بات يركب البحر في سُفن خطابي، وقد كسب شعبية وشهرة في مهارته في الصيد، وكسب حباً خطابياً وسره وأمانته وقوية العلاقة بينه وبين جرجس، وزال حاجز الرعب الذي عاش به في إسبانيا، وتزوج وأنجب طفلاً صغيراً _كانت حكمت ويحيى وأبناؤهم ينتظرون قدوم خديجة، وطارق إليهم للقاء بعد اشتياق وفراق.

قد كانت حكمت متوترة للغاية في انتظار والدتها في صالون البيت بعد أن حيت خطابي وزوجتيه، وسمعوا قصتها الخزينة، وأخبروها أنها قادمة من مشغلها الخاص بها في وسط المدينة، وأخذوا يقصون عليها كم أن أخاها أصبح شاباً قوياً ومسؤولاً، وكم أن زوجته فتاة طيبة وابنه الصغير كم هو لطيف، وكم عانى طارق مثلها حتى تزوج بزوجته، وقد كانت بينهم قصة حب قوية كالتي بين يحيى وحكمة.

قرضت أظافرها بتوتر في انتظار الوقت الذي لا يمر، لا تدري لكن صبرت ثلاثة عشر عاماً، وصبرت أسبوعاً منذ وصولهم واستقرارهم، ولا تصبر بضع دقائق الآن.

زفرت بحدة، وقبض على طرف ثوبها مغمضة عينيها لثواني، وقد فتحتها على وسعها عندما فُتح باب الحجرة، والتفت واقفة من على الأريكة تنظر إلى الداخل، وقد كانت وأخيرًا خديجة، ومن خلفها طارق وزوجته وابنه الصغير.

هرولت خديجة إلى حكمة وبالمثل فعلت حكمت، وقد أسقطت خديجة عكازها الخشبي أرضًا متشبثة بعناق حكمت التي أمسكت بها قبل أن تسقط أرضًا، وجلستا على الأرض سويًا وكلتهما تبكي بحرقة وشوق للأخرى.

ثلاثة عشر عامًا من الفراق والحرمان والآن ابنتها أمامها، لكن ليست كالسابق فأقل الخسائر عينها البيضاء.

أخذت حكمت تقبل رأس خديجة ويديه بشوق، وشدة قائلة من بين دموعها: آه يا أمي اشتقت إلى كي كثيرًا... اشتقت إلى عناقك... اشتقتك لحديثك وطعامك... آه!

تعلقت خديجة برقبتها، وشدت على عناقها قائلة بحرقة: قتلهم الله على ما فعلوه فيكي يا ضياء عين أمك وقلبها النابض... أنا لست غاضبة منكِ... ولا أكرهك بل فخورة بكِ... آه يا حكمت ثلاثة عشر عامًا من دونك يا قلب أمك مروا بلا حياة... لا حياة من دونك يا قرة عيني.

ومن حولهم كان الجميع يشاهد ويبكي بصمت وتأثر سواء خطابي وزوجتاه وطارق وزوجته ويحيى وأبناؤهم الكل كان يبكي، وقد مر وقت وكلتهما تعانق الأخرى بصمت وبكاء حتى هبط طارق إلى مستواهم، وربت على كتف حكمت قائلاً بهدوء وعاطفة: أختي حكمت تشوقت إليك كثيرًا.

وضعت حكمت يدها الحرة من عناق والدتها قائلة بفخر وعينيها تلمع بالدموع تتحسس لحيته الكثيفة: أصبحت رجُلاً يا طارق، اشتقت إليك يا عزيزي، اشتقت إلى شجارنا ومرحنا يا منقذي.

هبطت دموعه وهو يقبل يدها بحرارة، وعانق رقبتها بقوة قائلاً، وهو يجهش بالبكاء: أنا فخور بك يا حكمت... لو لم تكوني أختي لدعوت الله أن تكوني... الحياة باردة من دونك يا حكمت... مر العمر ولم نكبر سويًا... قتلهم الله.

كان جسدها يهتز بقوة جراء بكائها وبكاء طارق ليهبط يحيى إلى مستواهم، وربت على كتف طارق قائلاً: يا طارق ظننتك رابط الجائش أكثر من ذلك، لقد عدنا ولن نذهب إن شاء لله.

ثم ربت على كتف خديجة، وأمسك كفها يقبله قائلاً بحنان: أمي خديجة اشتقت إلى كي كثيرًا، لقد عدنا يا أمي، وعادت أمانتك، وقد أقسمت لكي أن أحافظ عليها، وقد فعلت بفضل الله.

تركت عناقاً حكمت وأمسكت بيد يحيى قائله بفخر وامتنان: حماك الله يا بني، أشكرك على ما فعلته لأجل ابنتي يا يحيى أشكرك يا طيب القلب.

تسللت أنامله تمسح دموعها قائلاً بابتسامة جاهد في إظهارها: لا تشكريني على حماية روحي وقطعة من قلبي.

ثم أشار إلى أبنائه، وقد اقتربوا ليعرف خديجة عليهم قائلاً، وهو يشير إلى ولادة: تلك ابنتنا الكبرى ولادة يا أمي لولا فضل الله ثم رؤيتنا ما كنتي لترى حكمت، وهذا أقل جزاء لما قدمته لنا.

فهمت خديجة ما يرمي إليه يحيى، واستقبلت ولادة بالأحضان والأشواق والسعادة وكأنها حفيدتها بحق، ثم أشار إلى حمزة لتعانقة خديجة قائلة: نفس عيني أمك يا صغيري حرسك الله ورعاك.

ثم إلى التوأمين مريم وعبدالله، وقد عانقتهما وبالمثل الصغار وآخر شيء أشار إلى رحم حكمت قائلاً بابتسامة هادئة: وهبه الله بعد عدة أشهر ستأتي إلى الدنيا أدعى لها.

قبلت رأساً حكمت، وأخذتها بين أحضانها، وربتت على ظهرها بحنان وهدوء ليقاطعهم طارق الذي وضع بين يدي حكمت ابنه الرضيع قائلاً: ابني مُعاذ الصغير.

ثم أشار إلى زوجته الواقفة قائلاً: وتلك مريمة زوجتي، عشنا نحن أيضا قصة حب قوية مثلكم.

حيتها حكمت ثم نظرت إلى طارق وخديجة قائله بشوق: أنا هنا إلى الأبد إن شاء الله، وكل ما أريده أن أسمع ما الذي جرى في الثلاثة عشر عامًا الماضية.

مرت الأيام والأسابيع والشهور والسنان العادية والكبيسة السعيدة والحزينة، وقد أنجبت حكمت طفلة سمتها ليلى وكذلك طارق أنجب طفلاً سماه أسامة، ومن بعده فتاة سماها حفصة، ومرت السنين وعمل يحيى في التجارة وهي الشيء الوحيد الذي يفهم به بعد الشرطة، وسلم سُفنه التجارية لطارق، ومر العمر ورحلت خديجة إلى بارئها، وتزوج أبناء حكمت ويحيى وامتلاء بيتهم بالأحفاد، وأخذت ولادة كتابهم الذي خطته حكمت بيديها، وقصته على أبنائها وإخوتها، ولم يشعر أحد بأنها غريبة عنهم على العكس كانت أخت كبرى بحق.

ومر سبعة وعشرون عامًا على وصولهم واستقرارهم في المغرب، وباتت حصيلة سنوات الحب والعذاب أربعين عامًا.

أربعونَ عامًا مرت بحلوها ومرها، وقد قضتها حكمت كما تمنت في قلب رجل أحبها وقدر حبها، ورحلا إلى بارئهم سويًا في نفس اليوم واللحظة عندما وقفت حكمت تنظر بعينيها المترهلة إلى تلك اللوحة الأخيرة التي تضمها وتضم يحيى، وطارق وعائلتهم كلهم لتنظر إلى يحيى الذي لم يعد في رأسه شعرة سوداء، واستحال للأبيض قائله براحة وسعادة: الحمدلله يا يحيى الحمد لله، كل ما دعينا به الله تحقق أنا سعيدة لما مر من العمر معًا، وأتمنى أن يجمعنا الله سويًا في الآخرة في الفردوس الأعلى.

ربت على وجنتها بكفه المرتعش والمجعد قائلاً: إن شاء الله، هيا نصلي لله شكراً على ما وصلنا إليه.

وبالفعل توضؤا، وتطهروا لله العزيز القهار وأمها يحيى في الصلاة، وفي من خلفه، وقد سجد وبالمثل هي حتى خرجت الروح لله -عز وجل- ولم يفرقهما الموت، ورحلوا ساجدين لله سويًا، وسيبعثون يوم القيامة إن شاء الله سويًا ساجدين لله.

أغلق ذلك النجار مذكرات حكمت ويحيى، ومسح جفنيه الممتلئين بالدموع، ونظر إلى أبنائه الذين كانوا يبكون هم أيضا، ولم يلاحظوا حلول الظلام وانقضاء الوقت كله في القرآن ليمسك بالكتاب قائلاً بثبات وفخر: حارب أجدادي من أجل الحب والإسلام والأندلس، وخطت جدتي حكمت هذا الكتاب بأمر من جدي يحيى لتعيش ذكراهم ولتعيش ذكرى الأندلس فلا تنسوا الأندلس!

تمت بحمد الله رواية وسقطت حكمت!

♥ إلى اللقاء في عمل جديد إن شاء الله.